

صلاح نصر



الجزء الثاني

الحرب النفسية

معركة الكلمة والمعتقد

الحرب النفسية

معركة الكلمة والمعنف

صلاح نصر

الطبعة الأولى : ١٣ سبتمبر سنة ١٩٦٦

الطبعة الثانية : ١٣ أبريل سنة ١٩٦٧

حقوق الطبع محفوظة

دار القاهرة للطباعة والنشر - القاهرة

الاهـداء
إلى أصحاب العتائد الراسخة النابعة من
الضمير الإنساني وإرادته المحركة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذا هو الجزء الثاني من كتاب (الحرب النفسية - معركة الكلمة والمعتقد) اذفع به الى القارىء ليرى بعد ما قديمناه فى الجزء الاول عن « معركة الكلمة » صراعات الانسان فى مجال الافكار والايديولوجيات المختلفة ، ولهذا سميناه « معركة المعتقد » هادفين الى ان يفهم هذا الجيل ما يدور حوله من احداث عالمنا الذى يعيش على فوهة البركان ، والى ان يتعرف الضغوط السيكلوجية التى تمارسها قوى الشر للسيطرة على المجتمعات الحرة النامية .

وعندما نتحدث فى هذا الكتاب مثلا عن : عملية « غسيل المخ » والتحولات المذهبية والعلاج النفسى ، ونكشف عن حقيقة برامج الاصلاح الايديولوجى لدى بعض الدول الكبيرة ، ونقف عند السحر وغيره من ألوان المعتقدات الزائفة .. انما نحاول ان ندفع بشبابنا الى ان يقوض كثيرا من دعائم الرواسب البالية التى فرضها الدخلاء قديما على حضارتنا وقيمنا وثقافتنا لتؤدى الى اخطر مما نراه اليوم من تفكك فى جسم الامة العربية .

وقد لا يكون الخطر بالغاً اليوم ، ولكن من المؤكد ان الدول ذوات المصالح الاستغلالية ترمى الى تحقيق نزواتها الا انسانية عن طريق « المعتقد » فتدمره ، وتقيم على انقاضه ما تراه متمشياً مع سياستها الاستعمارية الفاشمة .

لقد أصبحنا اليوم نعانى ما سميناه في الجزء الاول بالقلق النفسى ، ونريد أن ندرأ عن أنفسنا خطر هذا القلق . وطبعى لن يكون ذلك الا بمعرفة متصلة بالصراعات المذهبية وخاصة تلك التى برزت بعد الحرب العالمية الثانية بين معسكرى الشرق والغرب ، وبمعرفة عميقة بالوسائل التى تستغل في هذا الصراع .

ان الكتاب يناقش هذا الموضوع ، واذا كنا قد تطرقنا فيه الى اشياء قد يراها البعض مقحمة فذلك لأن طبيعة البحث تقتضيه ، فتجارب بافلوف مثلا التى اشرنا اليها في الباب الاول ، لا تخدم في مجال علوم الحيوان بقدر ما تخدم في الحرب النفسية ، كما استغلت نتائجها في معركة المعتقد على نطاق واسع . وبالمثل : التنويم المغناطيسى ، واستخدام العقاقير ، والتحليل النفسى ، وتعاطى المخدرات والجنس ، فكلها كانت من اسلحة معركة المعتقد ، وكان علينا أن نتعرفها بالتفصيل من اجل الوصول الى طبيعة المعركة التى تشتد علينا كافراد وجماعات .

على أننا يجب أن نفرق بوضوح بين التغيرات التى تحدث تدريجياً في وجهات النظر والسلوك نتيجة التقدم في العمر والخبرة ، ونتيجة اعمال العقل والفكر - وبين التحول الشامل المفاجئ في وجهات النظر الذى كثيراً ما يحدث بسبب تأثير

الآخرين ، والذي يؤدي الى التسليم بالمعتقدات الراسخة
القوية ، وتبنى معتقدات جديدة غالبا ما تكون مخالفة تماما
للمعتقدات الاولى .

واذا كنت قد ابديت في هذا الكتاب آلوانا من الآراء الحرة
التي قد يجد فيها أى قارئ مساس بمنطقه الدينى او الأخلاقى
ـ بالرغم مما بذلته من جهود لتجنب ذلك ـ فانى ايين فى
وضوح اننى لم أهدف بهذه الدراسة الى الاساءة الواضحة
او الخفية لأى معتقدات أو افكار معينة .

ونؤكد ما قلناه فى مقدمة الجزء الاول من هذا الكتاب باننا
نؤمن بحرية العقيدة ونحترم أى مذهب أو عقيدة ـ ولو كنا
نخالفها ـ ما دامت نابعة من الضمير الانسانى واراادته الحرة .

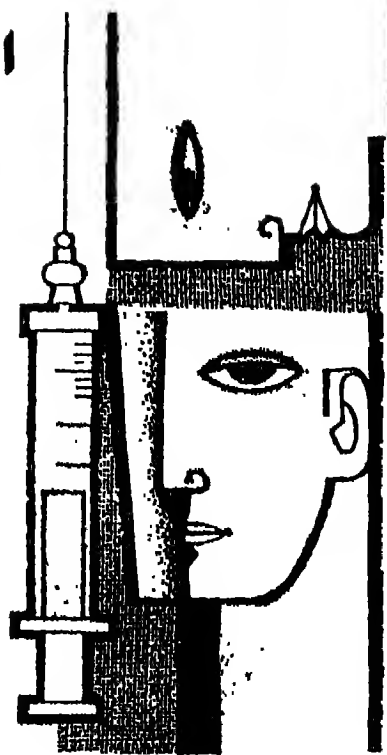
واخيرا نقول ما قلناه فى الجزء الاول : اننا لا نزعـم اننا
قدمنا كل شىء عن الحرب النفسية ، ولكننا قدمنا ، ما يمكن
ان يكون بداية لأبحاث أخرى تجدى فى معركة البقاء من أجل
حياة الفضل .

والله ولى التوفيق .

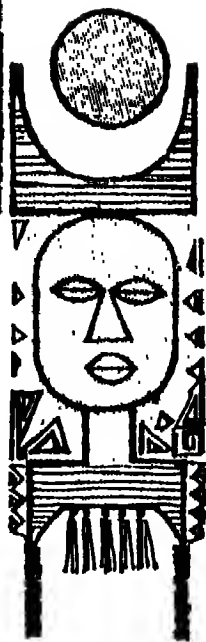
مصطفى زهير

القاهرة فى ٢٧ من أكتوبر سنة ١٩٦٦

الجزء الثاني



معركة المعنف



الباب الأول

معركة العقل بين الماضي والحاضر

- ◆ الفصل الأول
معركة العقل في الأزمنة الغابرة
- ◆ الفصل الثاني
اصطلاح هيدو .. غسيل المخ
- ◆ الفصل الثالث
تجارب على سلوك الإنسان والحيوان

الفصل الأول

حركة العقل في الأزمنة الغابرة

حاول العلماء والفلاسفة والمفكرون منذ أمد بعيد أن يصلوا إلى أعماق النفس البشرية في دراساتهم وأبحاثهم عن الإنسان ، ولكن الصعوبة الأساسية التي واجهتهم - وظلت قائمة حتى عهد قريب - هي أنه لم يكلف أحد نفسه مثونة تقرير كنه الطبيعة البشرية على أساس علمي .

لقد قيل فيما مضى - صراحة أو ضمنا - : أن الطبيعة البشرية ثابتة غير متغيرة ، وأنها تدفع الإنسان إلى أن يسلك طريقا خاصا ، وكان من نتيجة هذا الفرض الذي ثبت عدم صحته في الوقت الحاضر أن نشأت قديما عدم القدرة على تفهم كثير من مشكلات العلوم الاجتماعية .

والواقع أن النظريات عن السلوك الإنساني - كما سبق شرحه في الباب الأول من الجزء الأول - كثيرة جدا يتناول كل منها جانبا معينا من حياة الإنسان . لكن واحدة منها لا تفي بملفدها بالفرض المنشود . فالإنسان مخلوق مركب معقد ، يتأثر سلوكه بكثير من العوامل الظاهرة والخفية ، وهو حيوان يستجيب لدوافع معينة بعضها ينبثق من نفسه وذاته ، وبعضها ينبعث من البيئة التي يعيش فيها .

ومن الأمور المقررة أن السلوك الاجتماعي يحدث في إطار من التأثيرات المتداخلة المترابطة الصادرة من داخل الفرد ، أو من العوامل الخارجية عنه ، وهذا يتطلب عملا ضخما في الممارسة الفعلية لفرز التأثيرات الاجتماعية وغيرها من التأثيرات الأخرى الصادرة من الأجواء المحيطة لأنها ترتبط ببعضها البعض ، وكذلك التأثيرات الصادرة من الفرد نفسه لأنها تتأثر ببعضها البعض .

إن كل كائن بشري يفكر وينفعل ويسلك سلوكا معينا ، ولا يفترق أحدا عن الآخر في ذلك ، ولكن الطريقة التي تؤدي بها هذه الأفعال هي التي تصنع شخصيتنا وتحدد طبيعتها .

والناس يختلفون في طبيعتهم وتكوينهم : فمنهم اللين الوديع ، ومنهم الصامت الذي قد يجلس في أي مجتمع دون أن يشعر بوجوده أحد ، ومنهم الصلب العنيد الذي قد يسلك أحيانا سلوكا جافيا أو شريرا ، كما أن منهم الهوائي القلق الذي تستبد به الشكوك في أي تصرف ينحوه ، وهناك الإنسان الحاد الطبع الذي يستثار لأي سبب عادي ، أو البارد الطبع الذي لا يشور لأي سبب من الأسباب .

ولهذه الأنواع المتباينة من البشر جميعها مطالب لعقولها اللاواعية ، وقد لا يحسونها غالبا ، ولكن سواء شعروا بها أم لم يشعروا تكون كامنة في الأعماق دائما ، ويتم التعبير عنها عن طريق الأفكار والمشاعر التي تظهر في سلوكهم خلال حياتهم اليومية ، أو في أحلامهم في أثناء النوم .

وغالبا ما يثور الصراع والاصطدام في كل فرد بين هذه الاستجابات ، وهنا يعرف الإنسان رغباته التي يحققها ، وتلك المكبوتة التي يخفيها حتى عن أقرب الناس إليه .

ولكل إنسان مطالب أساسية كثيرة حتى يستطيع البقاء ، فمثلا يجب عليه أن يكيف نفسه طبقا لأحوال بيولوجية معينة ، ولكن ليست البيولوجية هي كل

شيء لدفع عجلة الحياة ، فالإنسان يحتاج الى : الحب ، والدفع ، والملاوى ،
والجنس ، كما أن الإنسان اجتماعي بطبيعته لا يطبق العزلة ، اذ يحس أمانا
بوجوده مرتبطا بالمجتمع الذي يعيش فيه .

اننا لم نستهل هذا الفصل على هذا النحو الا لنوضح نقطة حيوية هامة
لها اثر كبير على دراستنا ، وهى أن الإنسان تحدث له في حياته ردود فعل
نتيجة محاولاته لتحقيق مطالبه الضرورية ، وتتوقف طبيعة هذه الردود على مدى
نجاحه في موازنته بين هذه المطالب الضرورية وبين ردود الفعل من الخوف والياس
والكراهية وغيرها ، وهى الركيزة الاساسية التى يستغلها أولئك الذين يحاولون
السيطرة على معتقدات الناس بمحاولتهم استمرار خلقها واثارتها ، وذلك بفرض
مؤثرات معينة على مخ الإنسان بدرجات تتفاوت مع طبيعته حتى يصل الى درجة
الانهيار ، بحيث يتوقف المخ ويصبح مستعدا لتقبل أى ايهاءات تفرض عليه
كما سيأتى فيما بعد بالتفصيل .

والآن يحسن لنا أن نسأل : هل تعرض الإنسان في حياته الطويلة على
الأرض لصراعات عقلية فرضت عليه أفكارا ومعتقدات معينة ؟ وهل كانت ارادته
كاملة حينما تقبل هذه المعتقدات ؟ وما الأساليب التى استخدمت لفرض هذه
المعتقدات ؟

الحقيقة أن الإنسان منذ فجر التاريخ - على ما تكشف عنه الدراسات
المحققة - واجه دائما صراعا عقليا كبيرا سواء في معتقداته الدينية ، او في حياته
الاجتماعية والسياسية . ولعل في تحويل الإنسان من دين لآخر ، او في تغيرات
السياسة والقيم الاجتماعية عنده أبرز الأمثلة لما كان يستخدمه الزعماء ، ورجال
الدين والاصلاح في توجيه العقل البشرى .

* * *

ففى مصر القديمة كان المصريون يعتقدون فى فكرة الخلود أى العودة الى الحياة بعد الموت ، وقد ساعد على تثبيت هذه العقيدة - التى ظلت مسيطرة على الديانة المصرية آلاف السنين - بقاء أجسام الموتى سليمة بصورة تسترعى النظر فى أرض مصر الجافة •

لقد كان المصريون يعتقدون أن الجسم تسكنه صورة أخرى مصغرة منه تسمى القرينة - الكا - كما تسكنه أيضا روح تقيم فيه • وهذه الثلاثة مجتمعة - الجسم والقرينة والروح - تبقى بعد الموت كما أن فى استطاعتها أن تنجو منه وقتا يطول أو يقصر بقدر ما يحتفظون بالجسم سليما من البلى ، كما اعتقدوا أن الاله أوزير يستطيع أن يبرئهم من جميع الذنوب ، وأن يسمح لهم أن يعيشوا مخلصين فى الحدائق السماوية حيث النعيم الأبدى والأمن الدائم •

وكان أوزير - على حسب اعتقادهم - يحاسب الموتى ويزن قلب كل من يريد الانتقال الى الحقول الفردوسية فى كفة ميزان تقابله فى الكفة الأخرى ريشة ليتأكد بذلك من صدق قوله ، وكان الذين لا ينجحون فى هذا الاختبار يحكم عليهم بأن يبقوا أبد الدهر فى قبورهم يحسون الجوع والظما وليس لهم طعام الا من التماسيح البشعة ، ولا يخرجون من هذه القبور ليروا الشمس •

واستغل الكهنة هذا المعتقد وادعوا أن ثمة طرقا ماهرة لاجتياز هذه الاختبارات ، وأن فى قدرتهم تعريف الناس بها نظير أجر يحصلون عليه • فمن هذه الطرق أن يهيا القبر بما يحتاج اليه الميت لغدائه من الطعام والشراب ، أو يلا قبره بالطلاسم التى تحبها الآلهة من : أسماك ، ونسور ، وأفاعى ، وجعارين والى كانت فى رأيهم رمزا لبعث الروح • فاذا ما بارك الكاهن هذه الأشياء حسب الطقوس الصحيحة ، فانها تخيف كل معتد ، وتقضى على كل شر •

وكان شراء كتاب الموتى^(١) يعتبر خير الطرق لاجتياز الاختبارات .

والكتاب عبارة عن قراطيس ملفوفة أودع فيها الكهنة أدعية وصلوات معينة ، وصيغا وتعاويد من شأنها أن تهدىء من غضب أوزير ، بل قد تخدعه .

ومن الطرق الأخرى أن تعلن الروح براءتها من الذنوب الكبرى في صورة « اعتراف سلبى » ، وهذا الاعتراف من أقدم ما عبر به الإنسان عن مبادئه الأخلاقية .

هذا الكتاب
ويذكر ول ديوانت هذا الاعتراف في قصة الحضارة
رأسى زكى بطرس

« سلام عليك أيها الاله الاعظم ، رب الصدق والعدالة ، لقد وقلت أمامك ، يا رب ، وجىء بى لكى اشاهد ما لديك من جمال ... أحمل اليك الصديق ... انى لم أظلم الناس ... لم أظلم الفقراء ... لم أفرض على رجل حر عملا أكثر مما فرضه هو على نفسه ... لم أهمل ، ولم أرتكب ما تبغضه الآلهة ... ولم أكن سببا فى أن يسيء السيد معاملة عبده ، ولم أمت انسانا من الجوع ، ولم أبك أحدا ولم أقتل انسانا ... ولم أخن أحدا ... ولم أنقص شيئا من منونة الهيكل ، ولم أتلف خبز الآلهة ... ولم أرتكب عملا شهوانيا داخل أسوار المعبد المقدس ... ولم أكفر بالآلهة ... ولم أغش فى الميزان ... ولم أنتزع اللبن من أفواه الرضع ... ولم أصطد بالشباك طيور الآلهة ... أنا طاهر ... أنا طاهر ... أنا طاهر » .

الا انه من جهة أخرى ، انصرف الكهنة الى بيع الرقى ، وغمغمة العزائم ، واداء المراسم والطقوس السحرية ، ولم يعيروا اهتماما تعليم الناس المبادئ .

(١) كتاب الموتى اسم حديث أطلقه ليسيوس على نحو الذى ملف من ورق البردى وجدت في عدة قبور ، وتمتاز عن غيرها من الأوراق باحتوائها صيغا لارشاد الموتى ، واسمها المعرى هو : الخروج من الموت بالنهار ، ويرجع تاريخها الى عهد الأهرام ، ولكن بعضها أقدم من ذلك .

الخلقية ، وكان كل همهم جمع المال والاثراء ، وخاصة من كتاب الموتى . . . الذى يشبه الى حد كبير « صكوك الغفران » التى احتكرتها الكنيسة فى أوروبا فى القرون الوسطى .

وكانت الآلهة تستخدم السحر والرقى ليؤذى بعضها بعضا ، وتبين الاوراق التى تركها المصريون أهمية السحر فى حياة المصريين ، فقد جاء بها الكثير عن السحرة الذين يجفون البحيرات بكلمة ينطقون بها ، او يجعلون الاطراف المقطوعة تنفث الى اماكنها ، ويعيون الموتى .

وكان للملك سحرة يعينونه ويرشدونه ، وكان الاعتقاد السائد ان له هو نفسه قوة سحرية ينزل بها المطر ، او يرفع بها الماء فى النهر ، وكانت الحياة المصرية مملوءة بالطلاسم والعزائم . والرجم بالغيب ، وكان لابد لكل باب من اله يخيف الارواح الخبيثة ، او يطرد ما عساه يقترب منه من أسباب الشؤم .

ونسى الناس فى خضم هذه المعتقدات على مر الزمان ما بين الدين والأخلاق من صلات ، فلم تكن الحياة الصالحة هى السبيل الى السعادة الابدية ، بل كان السبيل اليها هو : السحر ، واططقوس ، واکرام الكهنة .

وهكذا انقطعت أسباب التدرج فى نمو المبادئ الاخلاقية التى كان يتميز بها الشرق القديم ، وذلك نتيجة الاساليب البغيضة التى لجأت اليها طائفة قاسية من الكهنة حريصة كل الحرص على اكتسب من أهون سبيل .

فاذا انتقلنا الى حضارة بابل نجد ان عقيدة الخلود - عكس الحضارة المصرية - لم يكن فيها ما تبتهج له نفس البابلي ، ذلك لان ديناء كان ديننا ارضيا عمليا ، فاذا صلى لم يكن يطلب فى صلاته ثوابا فى الجنة ، بل كان يطلب متسعا فى الارض .

كانت فكرة البابليين عن الحياة الآخرة هى : فكرة وجود موتى - منهم القديسون والانذال ، وفيهم العباقره والبلهاء ، وكل هؤلاء يذهبون الى مكان مظلم فى جوف الارض ، ولا يرون الضوء من بعد ذلك .

وكانوا يعتقدون في وجود الجنة ، ولكنها اختصت بالآلهة ، اما « ارالو »
التي تهبط اليها جميع الناس ، فكانت دارا للعقاب في معظم الاحوال ، تقيد فيها
أيدي الموتى وأرجلهم أبد الدهر ، وترتجف فيها أجسامهم من البرد يجوعون فيها
ويظماون ، الا اذا وضع أبناؤهم لهم الطعام في قبورهم في أوقات معينة .

وكانت أكثر أجسام الموتى تدفن في قباب ، ومنها ما كانت تحرق ثم تحفظ
بقاياها في قوارير ، ولم تكن الجثث تحنط على غرار ما كان يحدث عند قدماء
المصريين ، ولكن كانت تفسل الجثة بواسطة أناس محترفين ، ثم يلبسونها ثيابا
حسنة ، ويصبغون خديها ، ويسودون جفونها ، ويلبسونها خواتم في أصبعها ،
ويضعون معها بديلا من الملابس الداخلية التي تلبسها .

واذا كانت الجثة لامرأة وضعت معها قوارير العطور ، والامشاط ، وكحل
للعينين ، وذلك لكي تحتفظ بطيب رائحتها وجمال وجهها في الدار الآخرة .

وكان الدين عند البابليين يعنى بالمراسم الصحيحة أكثر مما يعنى بالحياة
الصالحة ، فاذا أراد الانسان أن يؤدي ما يجب عليه نحو الآلهة ، كان عليه أن
يقرب القرбан اللائق للهياكل ، ويتلو الصلوات والادعية المناسبة ، اما فيما عدا
هذا فقد كان في وسعه أن يفقا عين عبوه المهزوم ، ويقطع أيدي الاسرى وأرجلهم ،
ويشوى ما بقى من أجسامهم وهم احياء ، دون أن يؤدي بذلك آلهة السماء .

هذا كله خليط من الافكار ليست كلها منطقية او متماسكة ، ولكن فيها
ما يكفي لحفز البابلي الساذج على ان يقدم لآلهته وقساوسته كفايتهم من الطعام
والشراب .

على ان الاناشيد والمزامير كانت من مراسم الديانة البابلية ، فكان الكهنة
ينشدونها تارة ، والمصلون تارة ، او ينشدونها معا ، وهم يتمايلون ذات الشمال
وذاات اليمين .

ولم تكن الخطيئة عند البابليين مجرد حالة معنوية من حالات النفس ، بل كانت كالمرض تنشأ من سيطرة شيطان على الجسم فى مقدوره أن يهلكه ، كما كانوا يعتقدون أن الشياطين المعادية للناس تعيش فى شقوق عجيبة وتتسلل الى البيوت من خلال أبوابها ، أو من فتحات مزاجها ، وتنقص على فريستها فى صورة مرضى أو جان .

وكان من المعتقد أنه يمكن اتقاء شر هؤلاء الشياطين الى حد ما باستعمال التمايم والطلاسم وما اليها من الرقى والاحاجى .

وقد وجدت فى الآثار البابلية كتابات كثيرة محتوية على صيغ سحرية لطرد الشياطين واتقاء أذاها ، والتنبؤ بالغيب ، كما وجدت الواح نقش عليها كتب فى التنجيم وارشادات تهدى الى طريقة قراءتها ، كما عثر على بحوث فى تفسير الاحلام لا تقل براعة وعمقا عن أرقى ما أخرجته بحوث علم النفس الحديث .

على أن أغرب المعتقدات التى تستلفت النظر ما كتبه هيرودوت فى إحدى صفحاته الذائعة الصيت عن العهر المقدس اذ جاء بها ما يلى :

« ينبغى لكل امرأة بابلية أن تجلس فى هيكل الزهرة مرة فى حياتها ، وأن تهب نفسها لرجل غريب ، ومنهن كثيرات يترفعن عن الاختلاط بسمائر النساء ، لكبريائهن الناشئ من ثرائهن ، وهؤلاء يأتين فى عربات مقللة ويجلسن فى الهيكل ، ومن حولهن عدد كبير من الحاشية والخدم .

« أما الكثرة الغالبة منهن فيتبعن الطريقة الآتية : تجلس الكثيرات منهن فى هيكل الزهرة وعلى وعوسهن تيجان من الجبال ، بين الغاديات والرائحات اللاتى لا ينقطع دخولهن وخروجهن . وتخترق جميع النساء ممرات مستقيمة متجهة فى كل الجهات ، ثم يمر فيها الغرباء ليختاروا من النساء من يرتضون ، فاذا جلست امرأة هذه الجلسة كان عليها ألا تعود الى منزلها حتى يلقي أحد الغرباء قطعة من الفضة فى حجرها ويتصل بها جنسيا خارج المبد ، وعلى من يلقي

القطعة الفضية ان يقول : اضرع الى الالهة « ميلتا » ان ترعاك ، ذلك لان الاشوريين^(١) يطلقون على الزهرة اسم ميلتا ، ومهما يكن من صغر القطعة الفضية فان المرأة لا يجوز لها ان ترفضها ، فهذا الرفض يحرمه القانون لا لها في نظرهم من قداسة .

وتسير المرأة وراء اول رجل يلقيها اليها ، وليس من حقها ان ترفضه ايا كان . فاذا ما تم الاتصال الجنسي بينهما وتحللت مما عليها من واجب للالهة ، عادت الى منزلها ، ومهما بدل لها من المال بعدئذ لم يكن في وسعه ان ينالها . فمن كانت منهن ذات جمال وتناسب في الاعضاء ، فانها تعود سراعا الى دارها ، اما المشوهات فيبقيهن في الهيكل زمنا طويلا ، وذلك لعجزهن عن الوفاء بما يفرضه عليهن القانون ، ومنهن من ينتظرن ثلاث سنين او اربعا .

ويعلق ول ديورانت على ذلك بقوله :

« ماذا كان منشأ هذه السنة العجيبة ؟ هل كانت بقية من بقايا الشيوعية الجنسية ، اى رخصة يمنح بها عريس المستقبل « حق الليلة الاولى » للمجتمع الممثل في المواطن العارض غير المعروف ؟ او هل كان منشؤها خوف العريس من ارتكاب جريمة سفك الدماء التى تجرمها الشرائع ؟ او هل كان استعدادا ضمنيا للزواج شبيها بالسنة التى لا يزال يسير عليها بعض القبائل فى استراليا الى هذه الايام ؟ او انها لم تكن أكثر من قربان يقرب للالهة — فتقدم لها باكورة الفاكهة ؟ من يدري ؟ »

والواقع أنه كان يسمح للبابليين فى العادة بقسط كبير من العلاقات الجنسية قبل الزواج ، ولم يكن يفسن على الرجال والنساء أن يتصلوا اتصالا غير مرخص به « بزيجات تجريبية » تنتهى متى شاء احد الطرفين ان ينهيها .

(١) كان اليونان يطلقون اسم الاشوريين على البابليين على السواء ، وكانت « ميلتا » صورة اخرى من الالهة اشتار التى كانت دائما تلمى الى الحب ، ثم تزوجت تموز ابن الاله العظيم اى .

كما كان الشبان يصبغون شعرهم ويعقصونه ، ويعطرون أجسامهم ،
ويحمرّون خدودهم ، ويزينون أنفسهم بالعقود والاساور ، والاقراط والقلائد .

ولما فتح الفرس بلادهم وقضوا بذلك على عزتهم النفسية ، تحرّروا أيضا
من جميع القيود الخلقية ، وسرت عادات العاهرات الى جميع الاوساط ، وأضحت
نساء الاسر الكبيرة يرين: أن اظهار محاسنهن ايا كانت ليستمتع بها أعظم
استمتاع أكبر عدد مستطاع ليس شيئا أكثر من مجاملة عادية .

وهكذا انهمك أهل بابل في ملاذهم ، واشباع رغباتهم الجنسية ، ونسوا
واجبهم الوطني حتى فرض عليهم نتيجة ذلك أن يخضعوا : للكاشيين والاشوريين،
والفرس ، واليونان .

* * *

وكان اليونانيون القدامى يستشيرون قراء البخت لاسباب معينة ملحة كلما
احتاجوا الى مشورة أو علاج نفسي كما يزور أحد في ايامنا هذه طبيباً من أطباء
الامراض النفسية ، وكما يفسر المعالجون من أنصار فرويد أو يونج الاعراض
البدنية على أنها صراعات في العقول اللاواعية مفسرين أحلام مرضاهم الرمزية في
أثناء علاجهم وهم على المسند ، فان القساوسة اليونان يفسرون أحلام الزوار
المرضى لمعابدهم ويردون الاعراض الهستيرية الى أسباب دينية ، ولم يكن كتاب
مدرسة ابوقراط الطبية التي كان مقرها جزيرة سوس اقل نقدا لهؤلاء الاطباء
النفسيين من القساوسة ، عن نقد أطباء الاعصاب المحدثين لاصحاب النظريات
النفسية في الوقت الحديث .

فاذا قلد المريض : عنزة ، أو زار ، أو تشنّج بطريقة هستيرية فانهم يقولون
أن السبب هو الآلهة .. واذا أرغى وازبد من فمه وركل فان السبب يعزى الى
الأبراج السماوية ، واذا كانت الاعراض عبارة عن مخاوف ومفزعات في الليل
وهلوسة وقفز من الفراش وارتفاع نحو الابواب فانها توصف بأنها هجمات من
جانب « آلهة الفجر » أو اغارات ارواح الموتى .

ويبدو أن الاحلام والغيوبة كانت تحدث عمدا بواسطة الالهة . ويصف
ماركوس ابليمز Marous Apulims في كتابه The Golden Ass الاحلام التي
خبرها في معبد « اس » بعد تحوله الديني الرائع بقوله :

« هل تصدق انه بعد ان ظهرت لي الرؤيا بوقت غير طويل كانت التعليمات
الصادرة الى هي ان امر بعملية تعليم ثلاثة لآكون عضوا في الطائفة ، فدهشت
واحسست عجزى عن فهم الامر ، لاننى كنت قد مررت بطقوس الرسامة مرتين ،
فظننت انه من المؤكد أن القساوسة اما انهم قد تغلوا عني ، واما انهم قد اعطوني
تنزيلا مزيلا أو انهم حبسوا عني شيئا آخر ، واعترف اننى بدأت اشك فيهم
واعتقد انهم خدعوني . ولكن بينما كنت لا ازال في حيرتى حول المسألة شعرت
بانه قد مسنى الجنون تقريبا من جراء القلق حتى عطف على اله لا أعرف اسمه
وفسر لي الحالة في حلم من الاحلام . . »

ومن ثم فان المعالج النفسى الحديث غالبا ما يعانى نفس هذه الصعوبة المبكرة
فى سبيل الاحتفاظ بايمان مريضه ، وانه لابد من أن يعود باستمرار الى افكاره
الاولى عن المرض حتى يحلم المريض فى النهاية بالحلم المطلوب منه أن يحلمه ،
ويساق ذلك على أنه دليل ايجابى على أن التشخيص سليم .

ولقد استعمل اليونانيون القدماء كذلك الرقص الدينى كعلاج شاف
للأمراض العصبية ، وكانت طقوسهم المحمومة تتكون من الرقص بشكل مبالغ
فيه على نغمات الزار ودقات الطبول حتى ينهار الراقصون والراقصات
من الاعياء .

ويلاحظ جورج تومسون أن كثيرين من الكتاب اليونانيين يصفون بالتفصيل
الآثار الانفعالية للرسامة الصوفية ، التى كان من المعروف انها امر طبيعى ، وهى
تتكون من : الرعشة ، والرعدة ، والعرق ، والاضطراب الدهنى ، والوجل ،
والفرح الممتزج بالخوف ، والبلبله .

ومع ذلك ففي لوياديروا تولى قساوسة تروفينوس قراءة البخت ، ونظرا لان الزوار لم يتعهدوا بالسرية التامة فلا زالت بعض المعلومات عن الاجراءات المنبئة معروفة كما شرحها بوذايياس حوالى سنة ١٧٤ بعد الميلاد ، وكان قد زار بنفسه قارىء بخت من التروفينوس .

يقول بوذايياس : « ان قارىء البخت ليس برجل بل هو فتحة واسعة عميقة فى الارض وهى ليست فجوة طبيعية ولكنها مبنية بناية دقيقة وشكلها يشبه اناء تحبز الخبز .

« ولا يوجد ممر يؤدى الى القاع بل يذهب الشخص الى تروفينوس فيجثونه بسلم خفيف ضيق ، وعندما ينزل يرى ثقبا بين الارض والبناء . وعلى ذلك يلقي بنفسه على ظهره على الارض ويمسك فى يده كعكة من الشعير معجونة بعسل الشهد ، ويدفع بساقيه أولا فى الثقب ويندفع بنفسه بعد ذلك محاولا ادخال ركبتيه فى الثقب ، وعندما تمران فان بقية جسمه يسحب بعدها مباشرة ويندفع داخل الثقب مثلما تبتلع دوامة رجلا فى نهر قوى سريع الجريان » .

ويضيف بوذايياس بان أسلوب التنوير يختلف باختلاف الزوار فقد تستعمل المثرات السمية مع البعض والبصرية مع البعض الآخر ، ولكنهم يعودون جميعا من نفس الفتحة واقدامهم فى المقدمة .

ويقال : انه لم يمت أحد ممن نزلوا الا واحد من حرس ديتريوس .

وقد جاء وصف ما بعد العلاج كذلك :

« وعندما يخرج الشخص من الفتحة ياخذه القساوسة من يده ثانية ويجلسونه فوق ما يسمى « بكرسى الذاكرة » الذى لا يبعد كثيرا عن المذبح وباجلاسهم هناك يتلقى الأسئلة منهم عن كل ما شاهد وسمع ، وعندما يخبرهم بذلك يسلمونه الى اصلائقائه الذين يحملونه وهو لا زال فاقد القدرة على الحركة من تسلط الخوف عليه ، ولا يدري شيئا عن نفسه .

وفي قصة تيماراكوس الشاب الملهوف على المعرفة ، نجد أنه ذهب الى كهف تروفينوس وأدى جميع الطقوس المطلوبة لكسب الحكمة ، وظل هناك ليلتين لدرجة ان أصدقاءه يئسوا من عودته وحزنوا على فقده ، ولكنه خرج في الصباح التالي بوجه مرح وذكر لهم أشياء عجيبة كثيرة رآها وسمعها .

فبمجرد أن دخل أحاطت به ظلمة كثيفة ، وبعد أن انتهى من صلواته استلقى لمدة طويلة على الأرض ولكنه لم يكن متأكدا ما إذا كان في صحوة أم في حلم ، فتصور فقط أن ضربة بارعة هوت فوق رأسه وأن روحه خرجت من بين فتحات في جمجمة رأسه .

ومن العسير أن نعرف ما إذا كانت الآثار التي وصفها حينئذ كانت حقيقة أم مجرد هلوسة وخيال .

وعندما نظر الى أعلى لم ير الأرض بل رأى جزرا تضيء بأنوار نيران هادئة كانت تتبادل الالوان طبقا للتباين المختلف في الاضواء ، وهي لا تعد ولا تحصى وهي كبيرة جدا وان كانت ليست متساوية السعة ولكنها كانت مستديرة كلها .. وعندما نظر الى أسفل ظهرت هناك فجوة ضخمة رنت في أذنه منها آلاف الصيحات، وعواء الحيوانات ، وصراخ الاطفال وزمجرة الرجال والنساء وكل أصناف الاصوات المفزعة ، ولكنها كانت خافتة كما لو كانت بعيدة جدا ، وسرت في الفضاء الشاسع وقد اشاع فيه ذلك مزيدا من الخوف .

وبعد ذلك ببرهة قصيرة تكلم شيء خفى وقال لتيماراكوس : ماذا تريد أن تفهم ؟ فاجاب : « كل شيء » .

ثم ألقى عليه الشيء الخفى عددا من الفقرات عن التبشير الفلسفي عندما وافته حالة عقلية مناسبة من الاستعداد :

« لكل نفس نسبة من العقل ولا يستطيع الانسان أن يكون انسانا بدونها ، ولكنه كلما اندمجت كل روح بالبحر والشهوة تغيرت وأصبحت غير منطقية

بسبب الآلام والملاذ . هناك أربعة أقسام لجميع الأشياء : أولها قسم الحياة
والثاني قسم الحركة ، والثالث الولادة ، والرابع الفساد ، ويرتبط الأول بالثاني
بوحدة وهي المادة المرئية ، ويرتبط الثاني بالثالث بالفهم والشمس ، ويرتبط
الثالث بالرابع بالطبيعة في القمر » .

وتوحى الأقسام الأربعة هذه بأن القساوسة يوحون إلى تلاميذ تروفينوس
بأن الجزء الأكثر نقاء من الروح لا يهبط إلى البدن ولكنه يسبح في أعلاه ويعس
أبعد جزء من رأس الإنسان ، فهو مثل وتر يشد ويوجه الجزء السفلي من الروح
طالما أثبت طاعته ، وطالما ظل غير خاضع لشهوات البدن .

ويستمر الصوت أكثر من ذلك ويتحول ليماركوس كما قال ، ليعرف من
الذي يتكلم ، ولكنه يحس ألما عنيقا في رأسه كما لو كان أحد قد ضغط على
جبهته وأمسك برأسه حتى يفقد كل حس وكل قدرة على الفهم ، ولكنه يفقد
بعد برهة قصيرة ويجد نفسه عند مدخل الكهف حيث كان مستلقيا في البداية .

وقد طبق مثل يوناني آخر انتقل إلى الرومان وكان يطبق على أي فرد يتحدث
أو يتصرف تصرفا غريبا بشكل يثير الشك في قواه العقلية : يجب أن يزور
انتسيرا ! وقد اتفق الجميع بصفة عامة على اعتبارها أكثر مكان في العالم يبعث
على الأمل والرجاء في الشفاء ، وانتسيرا مدينة بنيت على شكل قوس برزخ
صخري نصف قطرها ثلاثة أميال وتبرز في خليج كورنثيا بالقرب من جبل
بارناسوس ، ويقول ستيفانوس المؤرخ البيزنطي تحت عنوان « Antioyra »
بأن هرقل كان يعالج هناك من جنون القتل الأمر الذي يوحى أن مؤسسة الشفاء
كانت مؤسسة قديمة .

ويرجع سترابو المؤرخ سبب شهرة انتسيرا إلى تنوع ألوان الهواء الناجع
لعلاج العته وكان يطلق على هذا الهواء اسم الحشائش الطبية وهي تنمو هناك
بصفة خاصة نموًا حسنا ، وكانت هذه الحشائش تخلف بواسطة الصيادلة المحليين
بحشيش آخر محل غير شائع هو بلور السمسم ومن شأنه أن يجعل تأثيرها أكثر
أمنًا وأقوى أثرًا .

وكانت هذه الحشائش نوعين فمنها الابيض والاسود ، وطبقا لاقوال البعض فان انواع الحشائش الطبية السوداء منها والبيضاء كانت تنمو احسن نمو في انتسيرا ، وعلى الرغم من أن الحشائش الطبية البيضاء تشبه السوداء تماما باستثناء لون الجذور فان ديوسكوريدس وبوسيناس وبليني اتفقوا جميعا على أن البيضاء منها تسبب القيء ، والاسوداء كانت مطهرا قويا .

ويقول بليني : ان الحشائش الطبية السوداء كانت توحى برهبة دنيوية قوبة أكثر من البيضاء ، وكانت تجمع باحتفال كبير ، كما ان البذور التي خلطها صيادلة انتسيرا بالحشائش الطبية البيضاء كانت هي الاخرى مطهرا قويا ، ولكن هذه الحشائش الطبية السوداء والبيضاء والبذور التي تتعاطى بعد صيام في شربة الفول لم تكن لها القدرة على الشفاء ، اذ يقول بليني أن الحشائش الطبية البيضاء والسوداء هي حشائش مخدرة ، ومن الواضح أن العلاج كان يتضمن صورة من عقار التفرغ الانفعالي الذي يصاحبه ايحاء قوى ، والخوف الذي ينبعث من المكان المظلم الكئيب وأعراض العقار السام المخيفة مما يزيد الانسان ضعفا وانهاكا ، وفي أثناء الاغفاءة غير الطبيعية التي كانت تحدث بعد تعاطى الحشائش الطبية تستعمل القسيسات بدون شك طقوسا غير دنيوية لتساعد على تبديد اعراض المرض .

* * *

وفي الديانة الهندية القديمة كثر بها الكتب التي تشرح أصول التصوف والسحر والعرافة ، والتي تذكر الصيغ السحرية التي تهيم السبيل لتحقيق أى غاية كانت . ومن ثم كان يعتقد الهنود الساذج في التنجيم وكان يسلم بأن كل نجمة لها تأثير خاص على الذين يولدون وهي في أوجها .

وقد جاء في كتاب « كاوشتيياكى - يوباتشاذ » أن سر النجاح المادى هو تقديس الهلال كلما ظهر . وكان العرافون والسحرة والمنبثون بالغيب يستغلون هذه العقائد فيزعمون أنهم يخدمون الشياطين ويسحرون الثعابين وينبثون بالغيب ، كما ادعى السحرة أن فى مقدورهم أن يسلطوا الشياطين على العدو وأن ينزلوا الموت المفاجيء عليه . أو يلحقوا به علة ليس لها شفاء ، كما زعموا أن فى

قدرتهم تجديد الحيوية الجنسية او خلق الحب فى اى انسان لآخر ، او تهيئة سبيل الانجاب للعاقات من النساء • ولم تكن رغبة الهنود فى الاطفال يعادلها اى شىء ، ومن ثم كانت رغبة الهنود شديدة فى القوة الجنسية ، وتقديسه الدينى للرموز التى تشير الى النسل والخصوبة ، فعبادة العلاقة الجنسية التى سادت معظم الاقطار فى مختلف العصور لبثت قائمة فى الهند من العصور القديمة الى القرن العشرين •

وكان « الهها » هو « شيفا » ورمزها هو عضو الذكر ، وكان الهنود نارة يتصورون « شاكى » ومعناها القوة التى تبعث النشاط بانها « كالى » زوجة « شيفا » وقارة اخرى يتصورون أن القوة الباعثة « لشيفا » على نشاطه الجنسى هى عنصر نسوى فى طبيعة « شيفا » نفسه •

وبهذا تكون طبيعة شيفا مشتملة على قوتى الذكورة والانوثة معا ، وهاتان القوتان يمثلهما الهنود باوثان يطلقون عليها اسم « لنجا » او « يونى » ، وهى تصور عضوى التناسل عند الرجل والمرأة •

وتتضح هذه العبادة للعلاقة الجنسية على الآثار القديمة التى تركها الهنود الاقدمون ، ففى معبد « نياير » مثلا نجد التماثيل الرمزية لاعضاء التناسل • كما نجدها فى اوثان « اللنجا » الهائلة التى تزين او تحيط بمعابد شيفا فى الجنوب •

ومن ثم نجد أن الوسائل التى استخدمت فى الازمنة الفائرة للتأثير على عقول الناس والسيطرة على سلوكهم تكاد تتشابه وأن اختلفت فى الشكل وهى تعتمد على الوسائل الميتافيزيقية والسيكولوجية وعلى الاستجابات الانفعالية التى تحدث للانسان نتيجة استخدام هذه الوسائل •

ولقد رأينا أن نستهل هذا الجزء من الكتاب بشرح تلك الوسائل حتى يستطيع القارئ ان يقارن بينها وبين تلك الوسائل التى استخدمت فيما بعد والتى سنجى بالتفصيل فى الفصول القادمة ، ونحن نرى انه ليس هناك تماثل اختلاف بينها سوى أن الاساليب الحديثة طبقت بشكل أكثر شمولاً واعتماداً على التجريب •

الفصل الثاني

اصطلاح جديد غسيل المخ

تحدثنا في الفصل السابق عن الاساليب التي استخدمت في الازمنة الغابرة للسيطرة على عقول الناس وتوجيهها نحو معتقدات معينة ، وان اختلفت هذه الاساليب في الشكل الا ان هدفها وتأثيرها كان واحدا .

وحديثا ومنذ فترة قريبة ظهر تعبير جديد في قاموس المصطلحات السياسية هو « غسيل المخ » ولا يختلف هذا عن تلك الاساليب التي استخدمت قديما للسيطرة على معتقدات الناس الا من ناحية انوسيلة والشمول .

وعلى الرغم من ان عملية « غسيل المخ » عرفت البشرية في مختلف العصور المتلاحقة ؛ فان الكتابات التي ظهرت في هذا العصر تحاول ان تلصق هذه العملية - او بمعنى آخر هذا الاصطلاح - بالجهود التي يقوم بها الشيوعيون لاستمالة غير المؤمنين بالشيوعية ، مع ان القليل منهم اشار الى علاقة هذه العملية بعمليات التحويل الديني ، والسياسي .

ولذا فاننا عندما نحاول ان نتصدى للنقاش الذي لا نهاية له عن موضوع « غسيل المخ » يجب علينا تناوله دون تحيز محاولين ان نصل الى تحليل واقعي لما قد يجابهه الانسان الحر من معارك ضد عقله وارادته لتغيير معتقداته وفكره .

ولقد استُخدمت كلمة « غسيل المخ » لأول مرة بواسطة الصحفي الأمريكي ادوارد هنتر Edward Hunter (١) في ترجمته للكلمة الصينية « هسي ناو » Hsi Nao المستخدمة للتعبير عن النظرية الصينية « اصلاح الفكر » أو إعادة التشكيل الايديولوجي في مجال سزو هسينج كاي Tsao Hsiang Kai - Szu Hsiang Kai أى برنامج التثقيف السياسى الذى يقوم أساسا على أن كل الناس الذين لم يثقوا في المجتمع الشيوعى لابد أن يكون لديهم اتجاهات ومعتقدات بورجوازية ، ومن ثم يجب إعادة تثقيفهم قبل أن يحتلوا مكانهم في المجتمع الشيوعى .

وقد اقترن اسم البروفيسور ايفان بتروفيتش بافلوف استاذ علم وظائف الأعضاء الروسى بعملية « غسيل المخ » ، نتيجة تجاربه المتقدمة على غرائز الحيوانات وسلوكها ، وقد ركز بافلوف فى أبحاثه على « نظام الإشارات » Signal System وهو ما يقصد به الحس الغريزى الموجه الذى يصل مباشرة بين الحواس، وبين العقل . وانتهت المرحلة الحاسمة من أبحاثه بتجارب على الحيوان والانسان لاثبات نظريته « الفعل الشرطى المنعكس » Conditioned Reflex وتعنى القيام بسلوك معين نتيجة لمؤثرات خارجية ، مثل سيل اللعاب عند رؤية الطعام ، أو عند حدوث أى أثر مقترن بالطعام . كما توصل بافلوف الى أنه بتغيير بيئة الانسان يمكن تغيير طبيعته الذاتية . والواقع أن أبحاث بافلوف كانت هى المشاعل التى انارت الطريق أمام الشيوعيين للتوسع فى عملية « غسيل المخ » على ما سنرى .

على أن التعريف فى رأينا أبعد من ذلك بكثير ؛ فانا يمكن أن نطلق كلمة غسيل المخ على أية محاولة تستخدم لتوجيه الفكر الانسانى أو العمل الانسانى ضد رغبة الفرد الحر أو ضد ارادته أو عقله .

Edward Hunter, Brain Washing, Farrar, Straus and Gudahy, New York, 1956. (١) .

ويستخدم الدكتور ميرلو العالم النفسى الهولندى كلمة « Mentiole » للتعبير عن عملية غسيل المخ ، وهذه الكلمة معناها « قتل العقل » ذلك لان العملية توجد خضوعا لا اراديا ، وتجعل الناس تحت سلطان نظام لا تفكيرى وتكون فى غمرة رق آلى لا حيلة لهم فيه ولا قدرة .

وربما اختلط بنا الامر فنمزج بين عملية غسيل المخ ، وبين عمليات التوجيه الدينى والتعليمى والاجتماعى . فمثلا قد يتساءل الكثير من اصحاب الحرف التربوية والاجتماعية عما اذا كانوا يمارسون فى صميم عملهم نوعا من «غسيل المخ» المدرس قد يتساءل عن جوهر عمله التربوى ، واطباء العقول يسألون عن حقيقة تدريبهم للمرضى بواسطة العلاج النفسى ، ورجال الدين يسألون ايضا عن طبيعة وسائلهم الاصلاحية . وهنا يتصدى خصوم هذه الواجهة من النشاط لاصحابها فيزعمون بان اعمالهم كلها ليست شيئا آخر غير غسيل المخ .

وطبيعى ان « غسيل المخ » ليس هذا ، ومعنى ذلك انه اذا استخدم استخداما مطلقا يجعل المصطلح نقطة تجمع للخوف والامتعاض ، ولتوجيه النهم جزافا دون تقدير لاي مسئولية .

* * *

ومما لا شك فيه ان برنامج غسيل المخ ليس بجديد تماما ، فلقد عرفت كل امة وفى كل مرحلة من مراحل تاريخها نوعا من فرض المذاهب والعقائد على مواطنيها ، فهى عرفت عمليات « الاستنطاق » وعرفت « الاستقصاء » كما مرت بها عمليات التحويل الجماعى .

ان أسلوب استخلاص الاعترافات كان معروفا فى التحقيقات البابوية التى جرت فى القرن الثالث عشر الميلادى ، ثم فيما بعد وبخاصة داخل مجالات تحقيق البوليس السرى الروسى ايام الفيصرية ، وفى وسائل تنظيم سجون الاصلاح ، ومستشفيات الامراض العقلية وغيرها من المؤسسات التى اقيمت لاحداث التغييرات العقائدية عند الافراد ، كما استخدمت اساليبها فى الطوائف الدينية

المختلفة ، وفي جماعات الصفوة السياسية ، وفي المجتمعات البدائية عند تكريس
الاعضاء الجدد . ولكن الشيوعيين جاءوا بمنهجهم في ضوء أكثر شمولاً وتنظيماً ،
كما أنهم استخدموا فيه مجموعة من الأساليب الفنية السيكلوجية المترابطة .

ومهما كان الوضع الذي طبق فيه توجيه الفكر الشيوعي فإنه يتكون من
عنصرين أساسيين :

١ - الاعتراف : وذلك بالكشف والتصريح عن كل شر ارتكب في الماضي
والحاضر .

٢ - إعادة التعليم والتثقيف : أو بمعنى أدق إعادة تشكيل الفرد في الطابع
الشيوعي الصحيح .

هذان العنصران يتربطان بل يتداخلان معاً ، إذ أن كلا منهما يبرز على
المسرح سلسلة من الضغوط والعوامل الثقافية والعاطفية والبدنية التي تهدف
كلها إلى السيطرة الاجتماعية ، وإلى تغيير الفرد .

* * *

وتختلف الأساليب المتبعة في تقويم الفكر تبعاً للظروف ، وتبعاً للجماعة
التي تكون هدفاً للبحث ، ولكن الأصول الأساسية واحدة متماثلة في كل
الحالات ، فهي تهدف إلى السيطرة على جميع الظروف المحيطة بالحياة الاجتماعية
والجسمانية للفرد ، أو للجماعات لاثبات أن الأفكار الفردية غير صحيحة ويجب
أن تتغير ، كما تهدف إلى تنمية انطاعة والاخلاص لعقيدة معينة .

ف للسيطرة على بيئة الشخص الاجتماعية تبذل كل محاولة لتعطيم ولائه
لأي فرد أو جماعة خارجية ، ويصحب هذا أن يوضح للشخص أن اتجاهاته
وطوايح تفكيره غير صحيحة ويجب تغييرها ، كما يجب أن يعطى ولاءه الكامل
لعقيدة معينة ويخضع لها دون تردد .

وعلى سبيل المثال استخدمت الأساليب التالية في السجناء السياسية
المختلفة :

١ - عزل الشخص عن الحياة العامة :

وذلك بأن يزج بالفرد فى زنزانة ذات ابواب حديدية وفى داخل اسوار حديدية بعيدا عن كل معارفه القدامى وعن كل مصادر المعلومات وصور الحياة العادية ، وهو فى هذه الحالة يصبح نهبا للتعليقات والتحذيرات المفزعة ويفسئ عقله غيوم تحجب عنه ما يدور خارج سور زنزانه . ولم يختلف التكنيك الذى يستخدم اليوم عن ذلك الذى استخدم ايام محاكم التفتيش او الذى استخدمه النازيون مع اسراهم فى معسكرات الاعتقال .

لقد كان يترك الاسير لمدة طويلة دون ان توجه اليه اية اتهامات ، ودون السماح بتسرب اية اخبار اليه عن اسرته او عن العالم الخارجى ، فيشعر الفرد بأنه أصبح وحيدا فى هذا العالم ، ولا يوجد بجواره من يستطيع ان يعاونه فى محنته . يشجع على ذلك ان اخلص اصدقائه واحبائه عادة لا تواتيهم الجراة ليسالوا عن مكانه ، او يسيروا الى انهم على معرفة به خشية التعرض للاعتقال والاستجواب ، ومن ثم يتم عزله !

وبعد فترة من القلق المستمر ، وبتطبيق بعض الاساليب الاخرى التى سندكرها بعد ذلك يبدأ الاستجواب . ومن المحتمل ان يتحطم الانسان تلقائيا وبدرجة ملموسة نتيجة القلق والتفكير الطويل فيما يعترف به ، ويصبح فى حالة يأس وتعاسة .

وغالبا ما يناله الضعف والوهن نتيجة هذه الآلام الطويلة وما يصاحبها من ضغط فسيولوجى بحيث يصبح عقله ملبدا بالغيوم ، فلا يستطيع ان يميز اى شئ ويهبط الى قرارة نفسه اى ايعاء يقدم اليه بواسطة الاجبار او الحيلة .

وهناك وسيلة معروفة استخدمت فى السجون السياسية وهى ان يوحى الى السجين بأن بلاده لم تعد ترفع صوتا واحدا من أجله ، وأن حبيه واصدقاءه تخلوا

عنه ، مما يجعله يشعر بأنه أصبح وحيدا تماما فينقاد الى المحاكمة المحزنة مسلوب
الارادة تحت أشد الظروف وطاة وعنفا .

ويعصف ادوارد هنتر ذلك بقوله : « لا يهم أن يكون الرجال الذين قابلتهم
قد جاءوا من دولة تابعة في أوروبا أو من الصين الحمراء ، فقد أخبرهم غاسلو
المخ بأن بلادهم وكنيستهم وأصدقاءهم تخلوا عنهم وخانوهم ، وبذلك يداخلهم
الشعور بأنهم أصبحوا وحيدين » . لقد تشبع ذهن روبرت فوجيلير Robert
Vogeler من بودابست بهذا الانطباع لدرجة أنه حاول تسليق السور واللقاء
نفسه منتحرا للتخلص من تلك الوحشة الرهيبة . وقد قيل ذلك أيضا الى
روبرت . ت . بريان Robert. T. Bryan من ولاية جيسى وهو محامي
أمريكي ولد بالصين في شنغهاي كما قيل نفس الشيء لاسرى الحرب في كوريا .

٢ - الضغط الجسماني :

وهذا يتفاوت من الحرمان من الطعام ، ومن النوم ، الى التصفيد بالاغلال
كعقوبة لعدم التعاون مع المستجوب ، والهدف من هذا كله هو الوصول بالفرد
الى درجة من الاعياء والانهيار بحيث يكون عقله قابلا لتقبل أى توجيهه من
المستجوب .

والواقع أن الجوع يلعب دورا أساسيا في عملية غسيل المخ ، لأن الانسان
لا يستطيع أن يستمر في حياته العادية دون أحوال بيولوجية معينة ، منها الغذاء
اللازم لبناء خلايا الجسم وتجديدها .

والتغذية السليمة هنا ليست بكمية الغذاء التى تملئ به المعدة ، فأننا
نعرف أن الجسم يحتاج الى نسبة معينة من المواد العضوية والفيتامينات التى
تمكنه من تادية وظيفته ، والوجبات الغذائية غير المتوازنة تخلق فى الانسان نوعا
من الجوع ، فالعبرة هنا ليست بالبطون المنتفخة ذات البنية الضعيفة والدهن
المشتت ، ولكن التغذية الجيدة هى التى تعمل على توازن الوجبات التى تعطى
الجسم طاقته اللازمة .

ولقد استخدم التجويع بهذا المعنى كعنصر من عناصر عملية غسيل المخ ، اذ كان يعطى للسجين ما يكفيه من اطعمة تمكنه من البقاء على قيد الحياة وليس بالكمية التى يتطلبها الجسم لجعل ذهنه يؤدي وظائفه بدرجة كافية • وكانت الاطعمة التى تقدم له تعدل بين فترة واخرى لتحقيق الهدف المطلوب ، اذ كانت نسب الطعام توضع تبعا لصفات المقاومة التى يتصف بها الفرد ، فكلما ازدادت مقاومته تعتمد المستجوبون تجويعه •

ان الجوع يجعل الانسان يسير نحو حتفه بمحض ارادته ، بل قد يدفعه اذا وصل الى درجة ملغزة الى أن يتخلى عن معتقداته وقيمه ، وخاصة اذا عاون ذلك ظروف مصلية اخرى •

والاجهاد لا يقل تأثيرا على الانسان عن الجوع بل قد ييزه ، اذ أن الجسم يحتاج يوميا لعدد معين من الساعات للراحة والنوم ، وقد يظل بعض الناس فى فترة من الفترات دون نوم لمدة يوم كامل ، وظل الكثيرون على قيد الحياة بقسط لا يذكر من النوم ، الا أن الاستمرار فى ذلك من شأنه أن يقضى على صفاء الدهن ، ويؤدي باقوى الاشخاص الى الجنون والانتحار ، لان الانسان يصل فى النهاية الى درجة من الانهيار ، وتشويش ملكاته العقلية ، وفقدانه كل احساس •

ويشير الدكتور هنرى • ب • لوجين Henry. P. Laughlin الأستاذ بكلية الطب بجامعة جورج واشنطن فى مناقشة لدراسة أكلينيكية لاثر اطالة فترات اليقظة على الانسان بقوله : « ان مثل هذه الحالات تؤدي الى فقدان الاحساس بالواقع ، وتشويش الملكات العقلية فيصبح الفرد كالحالم فى حالة انفصال عن العالم • والفرد الذى عانى الحرمان من النوم يصبح أكثر قابلية لتقبل الايحاء وأكثر استعدادا لتنفيذ تعليمات الذين يطلبون منه أن يسلك سلوكا معيناً ، كما يقل احتمال مقاومته لمطلب أى انسان من ذوى السلطة » •

ويستغل المستجوبون فى السجون السياسية هذا كله مهيئين بيئة يصبح فيها النوم شبه مستحيل ، اذ يوقظون الفرد فى ساعة غير عادية ، أو يجبرونه على

الاستيقاظ كلما نام ، أو يوقظ في غلظة وخشونة ثم يستجوب لفترة قصيرة ويعاد ثانية لزنزائته . والهدف من هذا كله هو اجهاد المتهم أو الاسير حتى يصل في النهاية الى درجة من الانهيار تمكن المستجوب من الايحاء اليه بما يريد .

٣ - التهديدات وأعمال العنف :

يتخذ هذا الاسلوب شكلين متناقضين ، فاما ان يكون مباشرا كاستخدام العنف والضرب والركل حتى الموت وربط السجين بشدة الى اسفل بحيث لا يستطيع حراكا ، ثم يوضع حجر ثقيل فوقه ويترك هكذا لمدة طويلة ، الى غير ذلك من الوسائل غير الانسانية .

واما ان يكون التهديد والعنف بشكل غير مباشر ، فمثلا قد يتحدث المستجوب مع السجين بمنطق هادئ بينما يجعله يكتشف عن طريق شخص آخر ان صديقه الذي لم يتعاون قد ضرب أو أعدم .

وكانت لهذه الطريقة وسائل كثيرة فمثلا قد يعامل الفرد معاملة ودية طيبة ، ويتكرم المستجوب فيعطيه لفافة تبغ ، وفي اثناء الحديث يسمع هذا الفرد زميله في الغرفة المجاورة يصرخ من الالم لرفضه الاجابة عن نفس الاسئلة الموجهة اليه ، أو أن يوضع عدد من الاسرى في زنزانة واحدة وعندما يعود احد الزملاء مخضبا بدمائه كقطعة من اللحم أو تعاد ملابسه في لفافة صغيرة يكون هذا كافيا للآخرين كصورة من التهديد غير المباشر .

ومن الاساليب الوحشية التي تستخدم في مثل تلك الحالات وضع الفرد في غرفة على شكل اناء كبير ، ثم يوفق داخل الاناء بحيث لا يستطيع التحرك ، ويصب الماء بعد ذلك ببطء داخل الاناء حتى يصل مستوى الماء الى طرف أنفه . على أن الشخص الذي تقام عليه هذه التجربة وتكرر لفترات طويلة قد تصل الى الشهر لا يستطيع في كل مرة أن يعرف عند أي مستوى سيصل الماء ، فتارة يقف المستوى عند عقبيه ، وأحيانا يصل الى فمه مما يجعله يصارع بشدة لابقاء رأسه خارج مستوى الماء .

ومن هذه الاساليب نفسها مثل ماخوذ من الحرب العالمية الثانية ، اذ يجرد أسير الحرب من ملابسه ويوضع فى العراء فى طقس درجة حرارته تحت الصفر ، ثم يدلى بقدميه فى حوض كبير ممتلئ بماء سرعان ما يتجمد • أو يوضع الأسير فى أحد الأركان ويستجوب فى اثناء تساقط قطرات من الماء فوق رأسه كل دقيقة ويستمر ذلك لساعات كاملة •

٤ — الأذلال والضغط :

تعتمد هذه الوسيلة على اتباع كل نظم السجن التى تتطلب الخضوع التام مع الأذلال فى أسلوب : تناول الطعام ، والنوم ، والاغتسال ، وما الى هذا طبقاً لنظم محددة ، مع عدم القيام بأى عمل دون الحصول على إذن من الحارس ، واحتواء الرأس ، وإبقاء العين موجهة الى الأرض اثناء التجدد الى الحراس •

كما تستخدم الضغوط الاجتماعية مثل الاستجواب لمدة طويلة ، ومثل عقد اجتماعات يحاول فيها الأفراد الذين تقدموا فى عمليات التقويم حث الأفراد الأقل تقدماً باستخدام عدة وسائل مختلفة : كالتملق ، والمداهنة ، والازعاج ، والمفسايقية ، أو محسولة أذلالهم وسبهم ، وسنوضح ذلك بالتفصيل فى فصول تالية •

٥ — الدروس الجماعية :

واستخدمت الدروس الجماعية اليومية فى الصين حيث كانت تدرس العقيدة الجديدة بواسطة قراءات ومحاضرات تتبعها أسئلة ليثبت كل فرد فهمه للدراسات التى يتلقاها ، على أن يتبع هذا بمناقشات يطلب فيها من كل فرد أن يوضح كيف يستنبط الاهداف من مقدمات الدراسات الشيوعية ، وكيف يمكنه تطبيقها هو بالنسبة لنفسه • ويعتبر النقد المتبادل ونقد النفس جزءاً هاماً من المناقشات التى تجرى بين أفراد الجماعة •

وفي هذه الجلسات يمارس موظفو السجن والزلاء في زنازات السجن ضغطا مستمرا على السجنين لجعله يعيد تقييم ماضيه من وجهة النظر الشيوعية ليتحقق من اثمه ويعترف بجريمته .

وتعرف الجرائم في هذه العملية بانها « افعال » او « افكار » تفر بصورة او باخرى بقضية الشيوعية ، كما يتضمن الاعتراف حوادث واقعية فعلا ، ويجب أن يوضح الفرد الاخلاص والوفاء وذلك بالتشهير : بالوالدين ، والاصدقاء ، والاقارب ، والمعارف .

وعندما يدرك السجنين جرمه واثمه اى عندما يتقبل التفسير الشيوعى لاعماله ويقوم باعتراف مرضى مقبول ويثبت ما يوضح تغيير اتجاهه وتبديل وجهة نظره ، يقدم للمحاكمة فيحكم عليه بعد ادانته بما اعترف به من جرم ، ثم يحكم عليه بجزاء لين نتيجة أنه قد تم تقويمه ، ويستغرق هذا من نصف سنة الى أربع سنوات أو أكثر .

* * *

وبرغم ما كتب من الكثير عن عملية « غسيل المخ » ، ولا سيما في الدول الغربية ، وبرغم اهتمام الدول والصحافة الغربية بهذا الموضوع مستنديين الى ما جاء به أسرى الحرب في كوريا وأولئك الذين تعرضوا لتجارب التوجيه سوء من المدنيين الغربيين أو المثقفين الصينيين أثناء وجودهم بالصين ، وكلنا المعلومات التي توافرت لديهم عن حملة التطهير الستاليني التي قامت في الاتحاد السوفييتي قبل الحرب العالمية الثانية بفترة وجيزة ، فإن المعلومات التي تجمعت لدينا حتى الآن هي في الغالب مشيرة للعواطف في طابعها ، كما أنها ينقصها التأكيد والوضوح لعدم كفايتها ، أو قد تبدو قاتمة مبهمة نتيجة ما يبدو من الانفعالات القوية التي تثيرها عملية غسيل المخ عند كل فرد .

والواقع أن حالة الخوف والغموض كانت باعثة على الجدل عند الباحثين أكثر من أن تؤدي الى تفهم العملية نفسها .

ولذا فاننا لكي نحاول أن ننظر الى تلك العملية نظرة خالصة وعادلة يجب علينا أن نجيب عن عدة اسئلة هامة قد تنير الطريق امامنا للوصول الى الجذور الاساسية لعملية معركة العقل وغسيل المخ .

هذه الاسئلة هي :

- هل يمكن اجبار الفرد على أن يغير مذهبه او عقيدته ، واذا حدث ذلك فالى اى مدى يمكن أن يستمر ؟

- ما علاقة غسيل المخ بالتحول الدينى ، والسياسى ، والاجتماعى ؟

- ما طبيعة التحول ، او بمعنى آخر ما النواحي السيكلوجية وراء تحول الفرد ؟

- ما علاقة هذه العملية بغيرها من الحركات الجماعية ببناء كانت او هدامة ؟

- هل هناك علاقة بين الاعترافات والاستنطاقات التى تتبع فى هذه العملية ، وبين غيرها مما يتبع فى المجتمع الانسانى منذ خلقه ؟

- هل يصدق الفرد الذى يستجوب اعترافاته التى ادلى بها حتى ولو كانت زائفة غير صحيحة ؟

- هل لهذه العملية صلة بالتنويم المغناطيسى ، والعلاج النفسى ، واستخدام العقاقير ، وعلاج طب الامراض العقلية ؟

- ما مدى العلاقة بين الاساليب الميتافيزيقية والسيكلوجية ، وعملية غسيل المخ ؟

- الى اى مدى كان للايديولوجيات المختلفة اثر على الصراعات التى قامت بين الناس ؟

- الى اى مدى تنجح عملية تقويم الفكر واعادة التشكيل
الايدىولوجى ؟

- هل يمكن أن تحدث تحولات داخل عقيدة أو مذهب واحد ، وما آثار هذه
التحولات عليها ؟

- الى اى مدى كانت تجارب بافلوف على الانسان والحيوان لها اثر على
توجيه هذه العملية ؟

- كيف نستطيع أن نترك ما يماثل هذه العملية فى مجتمعنا وفى ثقافتنا
الخاصة ؟

- هل نستطيع أن نقاوم هذه العملية أو ما يماثلها ، وما واجب كل فرد منا
ازاء ذلك ؟

هذه الأسئلة سنحاول أن نجيب عنها فى فصول هذا الجزء ، ولن كان من
العسير أن ندخل فى بعض التفاصيل ، على أننا يجب أن نذكر هنا أن جميع الممارك
التي واجهها الانسان ضد عقله ونفسه تحت ظروف خارجة عن ارادته ما هي
الا نوع من عمليات « غسيل للمخ » على نحو من الايعاء .

الفصل الثالث

تجارب على سلوك الإنسان والحيوان

في أحد الأيام بعد جهد مضني ولسنين طويلة في حياة شاقة ، استدعى بافلوف الى الكرملين لمقابلة لينين كرئيس دولة ، واستقبل استقبالا حافلا ، وطلب منه لينين فوراً ان يشرح له بالتفصيل نتيجة اعماله . وقد ذكر له في اثناء الحديث انه لم يكن شغوقاً بأبحاثه الاولى على الجهاز الهضمي ، ولا بدراساته عن البؤرة الدموية ، ولكن ما يهتم به هو تجاربه على الكلاب !

واستضاف لينين بافلوف في الكرملين ووفر له كل اسباب الراحة الممكنة ، وطلب منه ان يكتب ملخصاً وافياً عن كل اعماله المتصلة بالكلاب وسائر الحيوانات الأخرى ، ولكن من ناحية امكان تطبيقها على الآدميين ، وطلب منه أن يكون دقيقاً في التفاصيل فيما يختص بالأبحاث المتصلة بالجنس البشري .

وكان بافلوف في حديثه مع لينين يؤكد أن ما توصل اليه عن الافعال الشرطية والامتناع الوقائي Protective Inhibition نتيجة تجاربه على الحيوانات سوف تكون نعمة للبشرية في يوم ما في كفاحها ضد الآلام الانسانية .

وبعد ثلاثة شهور في عمل متواصل أتم فيها بافلوف كتابة حوالي اربعمائة صفحة بخطه ، قابل لينين وكان قد قرا هذه الابحاث بعناية ، وقال له بحماس كبير : « لقد انقلدت الثورة ، وان ما قمت باكتشافه ليضمن مستقبل الشيوعية الدولية » .

لقد كانت تجارب بافلوف على الانسان والحيوان الركيزة التي اقام عليها الشيوعيون عملية تطويع الارادة الحرة وتسخيرها لارادة الحزب والثورة . ومع أن الاقلمين استخدموا وسائل ميتافيزيقية وسيكولوجية للسيطرة على عقول الناس لتحويل معتقداتهم ، فان الجديد في نظرية بافلوف أنها تعتمد على الوسائل الفسيولوجية أكثر من غيرها .

كان بافلوف عالما روسيا من علماء النظام القيصرى ، ولما جاءت الثورة آمن لينين بقيمة أعماله ايمانا كبيرا جعله يتبناها ويشجعها بالرغم من ان بافلوف كان شديد النقد لنظام الحكم السوفييتى ، ولم يتقبل الحياة في ظل النظام الجديد الا في أخريات أيامه ، وبرغم ذلك فقد اعتبره السوفييت بطلا من أبطال الثورة .

وعلى الرغم من أن تجارب بافلوف على الكلاب كانت تعتمد على تعريض الحيوان لتوترات مؤلمة من أجل البحث العلمى ، فانه لم يكن ساديا يستمد اللذة من ايلام الغير . لقد كان اهتمامه بالقضاء على الانهيارات العصبية فى الكلاب مماثلا لحلقها .

وعموما فان أعمال بافلوف تمت بمنتهى الدقة والعناية ، وكان لها فضل كبير على طب الامراض العقلية ، وان تكن هوجمت من كثير من علماء الغرب ونظر اليها من زاوية دورها السياسى على أساس أنها استخدمت فى عمليات التبشير الملهبى .

على أننا فى دراستنا لتجارب بافلوف وتطبيقاتها على السلوك الانسانى لن نتعرض لها بالتفصيل من ناحية ميدان طب الامراض العقلية فهناك من هم أكثر دراية منا بذلك - فضلا عن أنها ليست موضوع بحثنا - ولكننا سنحاول ان نوضح للقارىء فى يسر العامل الفسيولوجى فى هذه التجارب، وكيف كانت نتائج التجارب على الكلاب أساس ما طبق على الانسان فى عمليات التبشير الملهبى .

ولقد سبق أن أشرنا الى أن المرحلة الحاسمة من أبحاث بافلوف على الانسان والحيوان انتهت باثبات نظرية « الفعل الشرطى المنعكس » كذلك نذكر أنه توصل الى أنه بتغيير بيئة الانسان يمكن تغيير طبيعته الذاتية .

* * *

والآن لناخذ فى دراسة نتيجة أبحاثه على الحيوان بتفصيل أكثر ، ونقارن بين هذه التجارب ومدى صلاحيتها للتطبيق على السلوك الإنسانى .

تعنى كلمة « شرطى » فى تجارب بافلوف القيام بسلوك معين نتيجة لمؤثرات خارجية مثل : سيل اللعاب عند رؤية الطعام ، أو ظهور أى إشارة مقترنة به كرنين جرس ، أو ظهور إشارة ضوئية أو صدمة كهربائية . أما الفعل غير الشرطى فهو عبارة عن الأثر الغريزى على نحو ما يحدث عندما ترف العين لا إراديا بسبب اصطدامها بجسم غريب ، أو حينما يتبول الإنسان إذا ما شعر أن مثانته قد امتلأت وتحتاج الى التفريغ .

ومن ناحية أخرى قد يتسبب الإنسان فى أحداث فعل شرطى منعكس عمدا وذلك بمحاولة خلق تغيير أساسى فى الطبيعة البشرية لتسلك سلوكا جديدا بعيدا كل البعد عما اعتادته من قبل .

وعلى هذا الأساس جرت تجارب بافلوف على الكلاب ، وبعد أبحاث امتدت ثلاثين عاما اقتنع بأن هناك أربعة أمزجة أساسية فى كلابه تقترب كثيرا من مثيلاتها فى الإنسان . وبرغم أنه ميز هذه الأنماط المزاجية الأساسية فى كلابه بصفات وأسماء معينة ، فهو فى الواقع لم يأت بجديد ، إذ سبق أن ورد ذكر هذه الأنماط فى مؤلفات الطبيب اليونانى القديم أبو قراط .

فالنوع الأول أطلق عليه بافلوف اسسم « النمط الشبيه بالثارة » Strong excitatory وهو يقابل ما سبق أن سماه أبو قراط « المزاج النارى » Choleric ، وقد وجد بافلوف أن هذا النوع من الكلاب إذا تعرض لمنبهات معينة فإنه يتحول الى درجة كبيرة من الوحشية ، ويحدث له ردود فعل تجعله غير قابل للانقياد بالمرة .

أما النوع الثانى فقد سماه بافلوف « المزاج النشط » Lively وهو يقابل « المزاج الدموى » Sanguine فى مؤلفات أبو قراط ، وهذا النوع من الكلاب يتصف بمزاج أكثر اتزاناً من غيره ، ولذا فإنه عندما كان يتعرض لمؤثرات خارجية

وتفرض عليه منبهات مشابهة للنوع الاول ، فانه غالبا ما يخضع للسيطرة ، برغم انه فى بعض الاحيان كان يعتمد الى أن يسلك سلوكا عدوانيا .

اما النوعان الآخران من كلابه فقد أطلق بافلوف عليهما « المزاج الوديع » Imperturable « والمزاج الضعيف المكبوت » Weak Inhibitory وهما يقابلان عند أبو قراط « المزاج الهادى او المائى » Phlegmatic « والمزاج الحزين » Malancholic . وقد وجد بافلوف أن هذين النوعين من كلابه كانا يقابلان المنبهات ومواقف الصدام اما بسلبية زائدة ، واما بكبت بدلا من مقابلتها بردود فعل عدوانية كالنوعين السابقين . كما اكتشف أن كلبا من النوع الضعيف المكبوت كان يميل دائما لمواجهة الأمور المثيرة بالسلبية وتفادى المنبه ، لأن أى ضغط كان يعرض على جهازه العصبى كان يسبب له فقد توازنه وتوقف وظائفه . ولذا كان هذا النوع من كلابه يعتبر استثناء من قاعدة تجاربه ، لأن الأنماط الثلاثة الأخرى حينما كانت تتعرض لضغط أكثر مما تسببه الوسائل العادية فانها كانت تنتهى الى حالة من حالات « توقف وظائف المخ » Brain Inhibition وقد اعتبر ذلك نتيجة وقائية يلجأ اليها المخ عادة كملاذ أخير اذا ما فاق الضغط قدرته على الاحتمال .

وكان بافلوف - بعد تمييزه للامزجة المختلفة - يولى اهتماما متزايدا فى تصنيف كلابه طبقا لأمزجتها الموروثة قبل أن يعرضها لأى تجربة من تجارب التكيف ، ذلك لأن الكلاب حينما كانت تتعرض لتوترات تجريبية او مواقف صدام متشابهة فان ردود الفعل والاستجابات التى كانت تحدث لها تختلف من كلب لآخر حسب اختلاف أمزجتها ، كما كان علاج كل كلب من الانهيار يتوقف أولا على نوعه الوراثى . فمثلا أثبت بافلوف أن « البروميد » يساعد كثيرا فى استرجاع الاستقرار العصبى للكلاب التى أصيبت بالانهيار ، ولكن الجرعة من البروميد التى يحتاج اليها كلب من النوع الشديد الاستثارة تبلغ من خمسة أضعاف الى ثمانية ما يحتاج اليه كلب من النوع الضعيف المكبوت ، والذى يبلغ وزنه نفس وزن الآخر تماما .

* * *

وفي الحرب العالمية الثانية ثبتت هذه القاعدة بالنسبة للادميين الذين أصيبوا
بالنهياد العصبي مؤقت نتيجة المعارك ، أو بسبب التوتر الناتج عن الغارات الجوية ،
وقد اختلفت الجرعات التي أعطيت لهم اختلافا كبيرا طبقا لأنماطهم المزاجية .

ويقول وليم سارجنت في ذلك (١) : « لقد وجد دليل اضافي على صلاحية
اكتشافات بافلوف عن الكلاب في تطبيقها على المشكلات السيكلولوجية للإنسان ،
اذ استجاب مرضانا للعلاج استجابة كاملة . لقد وجد بافلوف أن المهديء الشديد
الأثر قيم للغاية في مساعدة الكلاب التي أصيبت بالانهيار العصبي نتيجة التوترات
التي تعرضت لها ، وتفاوتت جرعات المهدئات التي أعطيت للكلاب تبعاً لأمزجتها
الأربعة الرئيسية ، وقد احتاج الأمر الى جرعات متفاوتة للكلب الشديد الاستثارة
والكلب الضعيف الذي يساويه في الوزن . ووجدنا نفس الشيء في المرضى الذين
أعطوا مهدئا من مهدئات الطوارئ في خط الجبهة الأمامية حينما كانوا يصابون
بالانهيار من التوتر الناشئ عن قصف القنابل ، وقد أمكن تصنيفهم في نفس
الفئات ، وظهر أن كمية المهديء التي يحتاجون اليها تتفاوت تفاوتاً كبيراً .

« ولقد لوحظ قيمة مهديء الطوارئ الذي يعطى في خط القتال الأمامي في
منع النورسمانيا الحادة من التحول الى حالة مزمنة وذلك في مرحلة مبكرة من
الحرب ، الا أن الحاجة الى جرعات مختلفة لم تنل التقدير بصفة عامة حتى ذلك
الوقت ، فقد وضعت جرعات متساوية في أغلب المراكز لكل أنواع الأشخاص
الذين يصابون بالانهيار العصبي نتيجة المعارك الجوية ، ولكن بمجرد أن أصبحت
اكتشافات بافلوف معروفة ، وبعد أن أعدنا تقدير هذه النقطة قررنا أن الجهاز
العصبي للإنسان يستجيب للتوترات الشديدة بنفس الطريقة التي تستجيب بها
الكلاب » .

« والحقيقة أنه ظهرت كل الحالات التي ألبتها بافلوف على كلابه في الإنسان
خلال الحرب العالمية الثانية ، كما ظهر بشكل واضح نوقف وظائف المخ عندما
كانت تنهار الحالة انهياراً عصبياً في النهاية ، ففي عام ١٩٤٢ كشفت الحالات التي

Battle for the mind William Sargant, Richard clay and Company Ltd, 1963. (١) .

عرضت في احد مراكز الامراض العصبية المخصصة للمرضى المدنيين والعسكريين بالقرب من لندن ان ١٤٤ حالة من كل ١٠٠٠ حالة كانت تعاني من فقدان مؤقت للذاكرة ، وغالبا ما كان ذلك رد فعل لتوقف وظائف المخ نتيجة التوترات الشديدة التي لا يستطيع مواجهتها » .

* * *

ولقد أدرك بافلوف تماما في تحديده للانماط السلوكية الأساسية لكلايه الأهمية الكبيرة للبيئة ، وكلنا التكوين الفسيولوجي والعوامل البيولوجية ، كما وجد ان بعض الفرائز الأساسية المعينة مثل غريزة الجنس ، او الحاجة الى الطعام كانت تتعدل باستمرار لتساير التغيرات التي تحدث في البيئة .

وحينما كان بافلوف يحاول في اواخر ايامه ان يطبق نتيجة تجاربه في كلايه تطبيقا تجريبيا على فسيولوجيا الانسان ، اهتم اهتماما متزايدا بما كان يحدث حينما يصاب الجهاز العصبي العالي لكلايه بتوتر يفوق حدود ردود الفعل العادية ، وقارن تلك النتائج بالتقارير الاكلينيكية الخاصة بالحالات المختلفة من حالات الانهيارات العصبية المزمنة في الانسان ، واكتشف ان التوترات الأشد التي تطول مدتها يمكن تطبيقها على الكلاب العادية من ذوات الطراز النشط او الوديع دون ان تسبب لها انهيارا عصبيا بعكس الانواع الشديدة الاستثارة او للكبوتة الضعيفة .

* * *

ولقد اكتشف في احدى تجاربه طريقة لاختبار درجة توقف وظائف المخ وردود الفعل في أى كلب وفي أى وقت من الاوقات باستخدام طريقة الافعال الشرطية المنعكسة للغة اللعابية .

ويصف لنا ادوارد هنتر احدى هذه التجارب التي كان قد شاهدها في فيلم تعليمي بقوله : « والفكرة الرئيسية ظهرت في منظر يستعرض كلبا مربوطا

فوق منضدة تشبه منضدة العمليات ، وفي حجرة مليئة بالأجهزة الآلية والعدادات القريبية ، وكان الأمر الذى جذب انتباهى مباشرة عبارة عن اناء زجاجى أدخل فى جانب الفك الأسفل للكلب ، وكان المفروض ألا يسبب هذا أى ألم ، وقد بدا أنه لا يضايق الكلب فعلا . وانشغل الأطباء الذين لا يعرفون الابتسامة بالتجربة ، فامسك أحدهم بصمام فى نهاية أنبوبة من المطاط وعن طريق العصر حرك ضغط الهواء صينية مستديرة عليها اناء به طعام يستطيع الكلب المربوط أن يصل إليها ، وبمجرد أن حدث ذلك ومض نور فنظر الكلب نظرة جوع الى الطعام الذى يقترب منه ، وبدأ لعبه يتساقط فى أنبوبة الاختبار المتصلة بفكه فقاموا بعد قطرات اللعب وسجلوها فى جدول يبانى .

ولم يعرف الكلب فى البداية أى انتباه للضوء ، وأحيانا كانت تحضر المنضدة المتحركة بآلية فارغة الى فم الكلب ، ولكن كلما حدث ذلك كانت لا تضاء الأنوار فلا ينسب اللعب . واستمرت التجربة بطريقة روتينية أى عندما كانت تضاء الأنوار يظهر الطعام ويفرز اللعب ، وحينما لا تضاء الأنوار يمتنع إفراز اللعب .

وبعد مدة لم يعرف الكلب إلا القليل من الانتباه للأناء ، فقد ربط بين الضوء والطعام ، وكان الضوء علامة كافية تعودها الكلب . على أن النقطة الهامة فى التجربة كانت قد وصلت حينئذ ، إذ ضغط طبيب فى لباس أبيض على زر فظهر النور ولكن لم تأت المنضدة المستديرة بطعام ومع ذلك انسب لعب الكلب كالعتاد ، لأن الضوء حل محل الطعام فى ذهن الكلب .

وبهذه الطريقة أمكن بإفلوف خلق فعل شرطى منعكس فى المخ بين لحظة الإشارة ولحظة تقديم الطعام ، كما أمكن قياس كمية اللعب بدقة بواسطة عدد قطراتها وتسجيل أى تغييرات فى ردود الفعل للأفعال الشرطية المنعكسة ، وكذا الأنماط السلوكية المفروضة .

على أن تأكيد التوافق بين تجارب بإفلوف على الأفعال الشرطية المنعكسة وسلوك الإنسان اليومى شرحها وليم سارجنث فى كتابه «Battle for the mind»

بقوله : « ان الكثير من السلوك الانساني ما هو الا نتيجة للانماط السلوكية المشروطة في المخ ولا سيما في أثناء الطفولة . وقد تستمر هذه الانماط دون أي تعديل يذكر ، ولكن غالبا ما ينالها بعض التعديل تدريجيا بسبب التغيرات التي تحدث في البيئة . ولكن كلما تقدم عمر الانسان استعصى عليه أحداث ردود فعل جديدة تتفق مع هذه التغيرات ، فالإنسان حينئذ عادة ما ينمو لجعل البيئة تناسبه او يناسبها من ناحية ردود الافعال التي تزداد قدرته على التنبؤ بها . ان جزءا كبيرا من حياتنا الانسانية كذلك ليس الا عبارة عن السير دون وعي وراء أنماط من الافعال انشراطية المنعكسة التي سبق اكتسابها عن طريق الدراسة المستفيضة ، ومثل واضح لذلك ما يحدث لسائق السيارة من ردود فعل مختلفة قبل ان يستطيع قيادة سيارته في شارع مزدحم من شوارع المدينة دون ان يلقي انتباها شعوريا للعملية . والاسم الذي يطلق على ذلك هو « القيادة الآلية » فاذا ما خرج السائق الى الريف المنبسط الفسيح فانه يتحول الى نمط جديد من انماط السلوك الآلي . فالعقل البشري في الواقع يكيف نفسه دائما وآليا طبقا للتغير في البيئة على الرغم من ان الدروس الأولى - كما هو الحال في قيادة السيارة - قد تتطلب جهودا صعبة ومملة في التركيز على القيادة .

وتتضمن العقول البشرية وعقول الكلاب الى بناء سلسلة من ردود فعل سلبية وايجابية وانماط سلوكية . ان أغلب رجال الأعمال والقوات المسلحة يتعلمون كيف يسلكون سلوكا سلبيا او ايجابيا امام رؤسائهم ، وقد يصل الحد الى السلوك الهجومي في حضور مرؤسيهم . ولقد بين بافلوف ان الجهاز العصبي في الكلاب ينمي قدرات خارقة للعسادة في بناء هذه الاستجابات السلبية والايجابية ، كما بين انه من الممكن جعل الكلب يفرز اللعاب حينما يرتفع صوت نغمة لها خصماتة دذبذة في الدقيقة ، اذا كانت هذه عبارة عن اشارة من اشارات الطعام ، فاذا نقص المعدل الى اربعمائة وتسعين فقط ؛ فان الكلب لا يمكنه ان يتوقع طعاما ومن ثم فانه لا يفرز لعابا » .

وبرغم انه قد يكون غير صحيح تماما ان نقارن بين سلوك الانسان والحيوان لان للانسان عقلا وذكاء اكبر واكثر نموا من الحيوان ، فان تجارب بافلوف على

الكلاب أثبتت أنه يمكن تطبيقها تماماً في بعض المشكلات المعينة من مشكلات السلوك الانساني بحيث تصبح تلك الملاحظة في كثير من الأحيان غير ذات موضوع .

فلقد هيا سلوك الانسان عندما تعرض في أثناء الحرب العالمية الثانية لتوترات وضغوط معينة فرصاً هائلة لوضع نتائج بافلوف التي تثبت هذا التشابه موضع الاختبار .

فمثلاً ادخل في شهر يونيو سنة ١٩٤٤ الكثير من المرضى المصابين بصدمات عصبية نتيجة انفجار القنابل مستشفيات الطوارئ في إنجلترا ، وكان هؤلاء المرضى إما من العسكريين الذين اخلوا من مناطق القتال في نورماندى ، وإما من مدينة لندن المحترقة .

ولقد ظهرت على البعض الأعراض العادية للقلق والاكتئاب التي تظهر في حالات الأمراض العقلية أيام السلم ، كما ظهر على آخرين أعراض أعياء عادية مصحوبة بنقص ملحوظ في الوزن ، وفي كثير من الحالات الأخرى لوحظ أن المرضى يظهر عليهم اهتزازات وتقلصات مفاجئة غير متوافقة ولكنها منتظمة ، وقد تزداد حدة بضعف القدرة على الكلام ، أو بالتهتهة ، أو بانفجار مفاجيء في الحديث . ولقد برزت بوضوح في مقارنة سلوك هذه الحالات بسلوك الكلاب في تجارب بافلوف - عندما تتعرض لتوترات تجريبية - القيمة الكبرى للأفعال الشرطية المنعكسة في علاج كثير من حالات طب الأمراض العقلية .

ونشر روى سوانك وزملاءه منذ عام ١٩٤٥ سلسلة من البحوث مستندة إلى دراستهم على حوالى خمسة آلاف من جرحى المعارك في حملة نورماندى ، وكان أغلبهم من الأمريكيين ، وتشير اكتشافاتهم المفصلة إلى الأثر الهائل للخوف من الموت والتعرض للتوتر الدائم على زيادة الأعياء في أثناء القتال . كما يؤكد سوانك أن رد الفعل الأول للقتال هو الخوف ، ولكن الجزء الأكبر من الرجال استطاعوا السيطرة على مخاوفهم إلى حد بعيد ، واكتسبوا معرفة بالقتال وأصبحوا واثقين من أنفسهم ومن قدرتهم على خوض المعارك .

ولم يحدث الا بعد فترة من القتال الفعال ، والصراع الشديد الذى اختلعت درجته من رجل لآخر ، أن ظهر أول دليل من أدلة الاعياء من القتال . ويقول سوانك فى مقارنته عن توقف وظائف المخ عند الكلاب فى تجارب بافلوف بما لاحظته فى حالات الحرب : « ظهر على الرجال حالة من حالات الاجهاد الشديد لم يستطيعوا التخلص منها الا بعد أيام عديدة من الراحة . لقد فقدوا قدرتهم على تمييز الأصوات المختلفة من أصوات القتال ، وأصبحوا عاجزين عن تمييز أصوات مدفعية الأصدقاء من مدفعية الأعداء ، وأصبح من الصعب السيطرة على أى إثارة أو توترات يتعرضون لها . ولذا صار من السهل تخويفهم وإشاعة الاضطرابات فيهم ، فقد فقدوا ثقتهم فى أنفسهم ، وازداد توترهم بحيث أصبح من السهل تقبلهم لى إثارة . وغالبا ما كانت ترتعد فرائصهم ، ويستجيبون أكثر مما يجب لجميع عوامل الاثارة » .

* * *

على أن اكتشافا من أهم اكتشافات بافلوف يهمننا فى هذا البحث وهو ما أطلق عليه « الصراع فى النشاط العصبى العالى » Rapture in higher nervous activity ، وقد وصل هذا الاكتشاف عن طريق مراقبة ما يحدث للأنماط السلوكية الشرطية فى الكلاب حينما يستثار مخ كلب بواسطة توترات أو صراعات تزيد على قدرته على الاستجابة العادية . ولقد استخدم فى تجاربه هذه أربعة أنواع رئيسية من التوترات التى كان يفرضها على كلابه .

كان أولها ببساطة زيادة شدة الإشارة التى اعتادها الكلب وكيف بها نفسه ، فإذا كان التيار الكهربى المسلط على رجله إشارة من إشارات تنادى الطعام فإنه يزيد ضغط التيار تدريجيا ، حتى تصبح الصدمة الكهربائية أقوى مما يتحملة جهازه العصبى ويبدأ الكلب فى التهاوى والانهايار .

أما الوسيلة الثانية فكانت عبارة عن محاولة لزيادة الوقت بين لحظة إعطاء الإشارة ولحظة وصول الطعام . فإذا كان الكلب قد تعود مثلا أن يتلقى الطعام بعد إعطاء إشارة الانذار بخمس ثوان ، فإن بافلوف كان يقوم حينئذ بإطالة هذه الفترة بشكل ملحوظ ، وفى الحال يكون القلق والسلوك الشاذ من جانب الكلاب

الأقل استقرارا ، وهذا يحدث أيضا في الإنسان بعد فترات الانتظار الطويلة المصحوبة بالقلق انتظارا لحدوث شيء ما ، وهذه الفترة قد تكون أشد قسوة لديه من حدوث الأمر نفسه في النهاية .

أما الوسيلة الثالثة التي استخدمها بافلوف لاجداث الانهيار العصبي ، فكانت مزيجا من عدة وسائل مختلفة ، وذلك باستخدام وسائل شاذة في اشارات التكيف التي تعطى للكلب ، فمثلا كانت تعطى اشارات سلبية وإيجابية مستمرة ومتتالية بحيث يصبح الكلب الجائع غير متأكد مما سوف يحدث له بعد ذلك ، ولا يدري شيئا عن الكيفية التي سيواجه بها تلك الظروف أو المواقف المضطربة ، ومن شأن ذلك أن يبلبل استقراره العصبي العادي كما يحدث للإنسان تماما .

أما في الوسيلة الرابعة فقد عمد بافلوف لاجداث الانهيار عن طريق تعريض جسم الكلب للاجهاد العنيف المتواصل ، أو لبعض الاضطرابات المعوية ، أو الاخلال بوظائف غده .

وعلى الرغم من عدم نجاح الوسائل الثلاث الأخرى التي سبق ذكرها في اجداث انهيار عصبي في كلب معين فانه من الممكن التحكم فيه فيما بعد باستخدام نفس النوع من التوترات بعد ازالة غده الجنسية ، أو اجداث اضطرابات معوية له .

ولقد أثبت بافلوف أن قدرة كلب على مقاومة التوتر الشديد تتذبذب تبعا لحالة جهازه العصبي وصحته بصفة عامة، ولكن بمجرد أن يحدث لمخ «توقف كامل» Transmarginal Inhibition فإن تغيرات غريسة للغاية تحدث في وظائف مخ الكلب .

* * *

ولقد ميز بافلوف في أثناء تجاربه ثلاث مراحل اضطرابية للتغيرات التي تحدث في هذه العملية ، فأطلق على الأولى « المرحلة المتعادلة » Equivalent لنشاط اللحاء الخارجى للمخ Cortical ، وهذه المرحلة يعطى فيها المخ نفس الاستجابة لكل من المثيرات القوية والضعيفة .

وإذا ما تعرض المخ لتوترات عصبية أشد ، تلي المرحلة المتعادلة مرحلة أخرى تسمى « مرحلة التناقض » Paradoxical حيث تحدث فيها المثيرات الضعيفة استجابات أكثر حيوية من تلك التي تحدثها المثيرات الأكثر شدة ، وفي هذه المرحلة يرفض الكلب الطعام المصحوب بمثير قوى ، ولكنه يتقبله إذا كان المثير على درجة كافية من الضعف . هذه المرحلة المتناقضة يمكن أن تحدث كذلك في السلوك الانساني عندما يكون التوتر الانفعالي شديدا ، وفي مثل هذه الظروف نجد أن سلوك الفرد العادي يبدو غير معقول لا بالنسبة لمراقب يراقبه عن بعد بل كذلك بالنسبة للفرد نفسه .

وفي المرحلة الثالثة والأخيرة من مراحل التوقف التي سماها بافلوف « المرحلة الشديدة التناقض » Ultra Paradoxical تتحول الاستجابات الإيجابية الشرطية فجأة إلى استجابات سلبية ، والسلبية منها إلى إيجابية . فمثلا قد يلتصق الكلب في هذه المرحلة بخادم من خدم العمل كان يكن له الكراهية قبل ذلك ، أو يحاول أن يهجم على سيده الذي كان يكن له الحب ، ويصبح سلوك الكلب في الواقع متناقضا مع جميع حالات سلوكه السابقة .

* * *

والواقع أن الجهاز العصبي للانسان مثل الجهاز العصبي للكلب يكون في حالة من الاتزان الديناميكي بين الاثارة والتوقف الوقائي ، ولكنه إذا تعرض لاستثارة شديدة فإنه يصل إلى نفس الحالات من الاثارة الشديدة أو التوقف الكامل التي وصفها بافلوف ، فيصبح المخ حينئذ عاجزا مؤقتا عن تأدية وظائفه العادية .

ولقد ذكرت أمثلة عدة لهذه الظاهرة في كثير من المجالات الطبية ، فقد اندفع مثلا جنود الخطوط الأمامية العاديون بعد تعرضهم لحالة من حالات الاستثارة الشديدة ، وأخلوا يجرون عبر الأرض الحرام دون مبرر ، وأخلوا يندفعون اندفاعا انتحاريا لا جلوى منه في مدى نيران المدافع الرشاشة ، وقد قيل عن أحد الرجال عام ١٩٤٥ : أنه تقدم مرتين تحت النيران ليساعد زميلا نسف ساقه ، ولكنه كان في كل مرة يبدو مكبوتا للغاية عند وصوله بدرجة تجعله عاجزا عن

تقديم الاسعافات ، ثم تتغلب عليه حالة من حالات الاثارة الشديدة المفاجئة فينطح الشجرة برأسه مرارا ، ويندفع في وحشية طالبا عربة اسعاف ، وعندما وصلت عربة الاسعاف في النهاية أسرع هو في الدخول اليها بكل قوة ، وحاول جندي آخر بعد مصرع زميل له مهاجمة دبابة بيده ، وقد تطلب الأمر أن يمنعه زملاءه وأن يرسلوه الى مركز من مراكز علاج الامراض العقلية .

ويبدو كذلك أن حالة « الامتناع الوقائي » Protective inhibition التي لاحظها بافلوف على كلابه وهي تحت وطأة التوتر الحاد ظهرت في جرحى الحرب ، وكانت تتملكهم حالة من الاستسلام الهادئ ، أو يصابون بفقد الذاكرة ، أو بعجز يقعدهم عن استعمال أطرافهم ، أو بنوبات من الغيبوبة . . الخ . كما شوهد آخرون في حالة شلل فعل نتيجة الخوف وتعرض غيرهم للاعياء العصبي Nervous exhaustion ، وعادة يكون هؤلاء من الرجال الذين يتمتعون بشخصية مستقرة ولكنهم حرموا الطعام والنوم لفترات طويلة بالاضافة الى التوترات العقلية الأخرى .

وقد وصف ادوارد سبيرز ذلك في أثناء الحرب العالمية الثانية بقوله : « لقد كان ذلك من الاوقات السيئة للغاية عندما انهار خندق وهو ممتلئ بالقتلى والجرحى نتيجة قصفه بالقنابل ، وحينما أخذ الرجال يحفرون في غضب بالغ لخراج صديق وسحبوه الى الخارج توقفوا بعد ذلك عن الحفر ففى مثل هذه الحالات يستولى على الجنود حالة من حالات الاستسلام ، ويجب على الضابط أن يقضى عليها فوراً اذا ما لاحظها بين جنوده » .

ولقد تضمنت التقارير الاكلينيكية لحالات الحرب تفسيرات مفاجئة كتلك التي كانت تحدث في كلاب بافلوف من اثاره الى توقف أو العكس ، فلقد استلقى رجل مثلاً في خندق وهو يرتعد ، وقد سبب له الخوف شبه شلل عندما صدرت الأوامر لفرقة بالهجوم ، ولكن بمجرد أن عبره ضابطه بقوله : « من المؤكد أن تظهر أى فتاة بظهر أفضل من مظهرك هذا » انتابته فجأة ثورة محمومة وصاح « هيا يا رجال » وقفز من الخندق ليقوم بالهجوم ثم انتابته غيبوبة . وفي حالة

أخرى سقط رجل آخر مشلولاً فاقد النطق في أحد شوارع قرية تعرضت لوابل من قذائف المدافع ، ولكن كينما التقطه زملاءه أخذ فجأة في الصياح والصراخ .

ولقد لوحظ كذلك أمثلة مذهلة للسلوك الانساني فيما يتعلق بالمرحلة التي أطلق عليها بافلوف « المرحلة المتناقضة » . ويصف سارجنت صورة من تلك الحالات التي شاهدها بقوله :

(لقد كنا في حيرة قبل قراءتنا قصص تجارب بافلوف على الكلاب ، فلم نستطيع فهم حالة كالتى سأسردها . لقد تعرض مريض كان يحظى بشخصية عادية لتوتر شديد للغاية نتيجة انفجارات متواصلة للقنابل ، وحينما طلب منه الطبيب رفع يديه ليرى ما اذا كانتا مصابين بالعرشة اطاع . ولكنه وجد نفسه فجأة عاجزاً عن انزالهما ثانية أثناء ملاحظة الطبيب ، وقد أقلق المريض ذلك وقال : أنه يحس أنه يستطيع انزالهما آلياً اذا توقف عن محاولة فعل ذلك . أو اذا فكر فى شيء آخر .

وقد زالت هذه الحالة بعد العلاج ، ولكن كان لدينا عدد كبير من المرضى الذين يعانون من الخوف الشديد ومن شلل الأطراف . فكان كلما أجهد أحدهم نفسه فى محاولة تحريكها ازداد شللها ، ولكنه كما توقف عن قلقه وتفكيره فى صعوبة اجراء ذلك فانه يكتشف تحسن حالته » .

على أننا نستطيع ان نلاحظ تلك التغيرات المفاجئة التى تحدث فى المراحل المتناقضة والشديدة التناقض - والتى بينها بافلوف فى تجاربه على الكلاب - فى سلوك الانسان فى زمنى السلم والحرب على السواء . فقد تظهر فجأة مشاعر الجبن فى بعض الناس الذين يتصفون بالسليقة بالسلوك العدوانى ، وقد يحس فجأة بعض أولئك الذين يستمتعون بأعظم قدر من متعة الحياة برغبة جامحة فى التخلص منها ، أو قد نشاهد انساناً يتحول فجأة من سلوك سلبي الى عدوانى مفاجئ .

وفى تجارب بافلوف وجدنا أن الكلاب كان يحدث لها حالات من الانهيار العصبي نتيجة إطالة وطاة التوترات المفروضة ، وقد لوحظت نفس الظاهرة مراراً

فى المرضى الذين تعرضوا لتوترات تفوق تحمل المخ . ففى أثناء احتراق لندن فى الحرب العالمية الثانية بدأ المدنيون يشكون من أعراض النورستانيا ومن عجزهم عن فهم أسباب ظهور هذه الاضطرابات الشديدة نتيجة انفجار القنابل فى الوقت الذى ظلوا فيه غير عابئين بها لمدة أسابيع أو شهور ، وقد لوحظ فى كثير من هذه الحالات أن المرضى فقدوا ما يتراوح بين خمسة عشر وثلاثين رطلا من أوزانهم قبل أن تصبح حساسيتهم المتزايدة من انفجار القنابل ظاهرة وملحوظة .

وقد ينهار أكثر الأفراد استقرارا بعد فقد ثلاثين رطلا من وزنهم نتيجة النقص فى الاغذية ، أو عدم النوم ، أو نتيجة عوامل أخرى مشابهة كتلك التى يقابلها الجنود وقت الحرب ، وهذه نقطة هامة استغلت فى عمليات الاستجابات والتبشير المذهبي كما سيجىء شرحها فيما بعد .

وتلقى اكتشافات بافلوف كذلك الضوء على ألوان مختلفة من السلوك الشاذ الذى يلاحظ فى صور عادية من صور مرضى الأعصاب أو الأمراض العقلية ، وقد نشر وليم جوردون مقالا هاما للغاية عام ١٩٤٨ أشار فيه الى أن المخ الناضج يبنى أنظمة للاستجابات السلبية والايجابية المشروطة تمكن الفرد من أن يكيف نفسه لبيئته وفى أغلب الظروف يؤسس سلوكه على خبرته السابقة وتتقرر سلامته العقلية على كفاءته فى هذا التكيف ، وفى حالات الاضطراب العقلي الحاد مثل الفصام العقلي (١) Schizophrenia يلاحظ انقلاب جزئى أو كلى فى التكيف السابق .

ويؤمن جوردون مثل بافلوف بأن الفصام العقلي ينتج من المرحلة الشديدة التناقض فى نشاط المخ ، ويشير الى أن المصابين بالفصام يوصفون غالبا بأنهم قد فقدوا كل اهتمام فى ملاذهم واهتماماتهم السابقة ، وسرعان ما يميلون فجأة الى سلوك مسلك انتحارى مناهض للمجتمع ، ويمكن تفسير هذا التغير أحيانا بأن المريض يستجيب ايجابيا حينئذ لتكيفه السلبي السابق ، ويتكيف سلبيًا لتكيفه الايجابى السابق : أى أن حالته تنقلب رأسًا على عقب .

(١) الفصام مرض عقلي خطير يتميز بالانسحاب من الواقع ، والعزلة ، مع اضطراب فى التفكير ، والوجدان ، والسلوك ، وظهور اعتقادات خاطئة ، ويلتهى فى كثير من الحالات بتدهور فى الشخصية .

ويصف سارجنت مدى التمار الذى ينتج عن هذا الانقلاب المفاجئ للتكيف
فى الاتجاه السلبي أو الايجابي فيقول :

« ان الكائن البشرى ينمى عادات الأكل ويكتسب فيها عددا من عوامل
الاثارة منها : الشم ، والابصار ، والسمع ، والتلوق تكيفا ايجابيا قويا ، بينما
تكتسب الأخرى تكيفا سلبيا مساويا ، فبعض الروائح مثلا قد تجعل فم الانسان
يفرّز اللعاب كما هى الحال فى كلاب بافلوف عندما تتوقع تقديم الطعام ، وتسبب
الأخرى القفز وفقدانا مؤقتا للشهية ، ولكن للمرضى بعقولهم يبدؤون فجأة فى
تناول الطعام بعد أن كانوا يتقززون منه سابقا ، ويرفضون أطعمة أخرى سبق
لهم الأقبال عليها » .

* * *

ويمكننا الآن ان نلخص اكتشافات بافلوف فى النقاط الرئيسية الآتية
حتى لا تقيب عن ذهن القارئ لمحاولة الربط بينها وبين عمليات التبشير
السياسي والمذهبي التى ستجىء فى الفصول التالية :

١ - عند حدوث توترات معينة أو صدمات فان الكلاب تستجيب تماما
مثل الانسان تبعا لاختلاف أمزجتها المختلفة الموروثة التى سبق أن
أشرنا إليها .

٢ - لا تتوقف ردود فعل الانسان والكلب للتوترات العادية على كسائه
الموروث فقط ، بل كذلك على المؤثرات البيئية التى يتعرض لها ،
وهذه المؤثرات تغير تفاصيل سلوكه فقط ، ولكن لا تغير النمط
السلوكى الأساسى .

٣ - تنهار الكلاب كالآدميين وذلك حينما تصبح التوترات أو الصدمات
أكثر مما ينبغي أو بدرجة لا تستطيع أجهزتها العصبية السيطرة عليها .

٤ - يختلف مقدار التوتر الذى يستطيع الانسان أو الحيوان السيطرة
عليه دون أن يصاب بالانهيار باختلاف حالته البدنية ، كما يمكن

تقليل المقاومة بوسائل أخرى مثل : الاجتهاد ، والحمى ، والمخدرات ،
والتغيير في وظائف الغدد .

٥ - عندما يستثار الجهاز العصبي استثارة شاملة ، ويحدث له توقف
كامل كعامل وقائي فإننا نستطيع أن نميز ثلاث مراحل مختلفة من
التغيرات في السلوك وهذه المراحل هي :

أ - المرحلة « المتعادلة » حيث يعطى فيها المنح نفس الاستجابات
لكل من المثيرات القوية والضعيفة .

ب - مرحلة التناقض وهي التي يستجيب فيها المنح للمثير الضعيف
بشكل أكثر ايجابية من المثير القوي .

ج - مرحلة التناقض الشديد وهي التي تتحول فيها ردود الفعل
الشرطية والأنماط السلوكية من الموجب الى السالب
أو بالعكس .

* * *

ولقد نجح بافلوف في تجارب متكررة في اثبات أنه يمكن تكييف الكلب
مثل الانسان على كراهية من كان يحبهم سابقا ، أو حب من كان يمتقهم قبل
ذلك ، وهذا الاكتشاف ذو أهمية كبيرة في عمليات التبشير المذهبي ، أو في
عمليات التحول الديني .

واخيرا فان هدف هذا الجزء ليس سرد تفاصيل لتجارب بافلوف ، كما أنه
ليس الغرض منه دراسة للسلوك الانساني ، اذ أن كلا الموضوعين واسع
ومتشابه ، ولا يهمنا تفاصيله ، ولكننا آثرنا هذه الدراسة لأنها تتعلق بدرجة
كبيرة بموضوع تغيير أفكار الناس ومعتقداتهم تغييرا شاملا ، كما أنها استخدمت
في حالات كثيرة من حالات استنطاق الاعترافات والتحويل الايديولوجي .

حقا أن بافلوف بدأ آخريات حياته يقارن نتائج الاضطرابات في وظيفة
المنح التي لاحظها في حيواناته بتلك الاضطرابات التي تلاحظ في الكائنات البشرية ،

ولكن هذه المرحلة لم تلق العناية الجديرة بها من ناحية دراستها خارج روسيا ، ولا يزال يهملها عدد كبير من علماء الأمراض العصبية في كل من إنجلترا والولايات المتحدة .

وبرغم أن بافلوف منح جائزة نوبل على أعماله ، فإن أغلب علماء الأمراض العصبية يفضلون أساسا أوسع مدى لعملهم من مجرد تطبيقه الفسيولوجية والآلية الميسرة . كما أن العالم الغربي لا يزال ينظر الى أبحاث بافلوف نظرة مقت ، ويرون أن المعتقدات الثقافية تمنح الإنسان بالإضافة الى مخه وجهازه العصبى روحا عقلية مستقلة تساعد على التحكم فى سلوكه الاخلاقى ، وتصبغ عليه قيمته الروحية .

ومع ذلك فقد أصبح البحث فى الأمراض العصبية فى بريطانيا أكثر واقعية بكثير منذ الحرب العالمية الثانية لأن العقاقير ووسائل العلاج الفسيولوجى قد انتهت الى نتائج لا يمكن نكرانها فى علاج المصابين بأمراض عصبية حادة من المدنيين والعسكريين ، لدرجة أن الوسائل الفسيولوجية المعاونة لطب الأمراض العصبية أخذت مكان المصادرة فى البحوث ، ولا تزال هذه السياسة مستمرة .

وفى الواقع كان استخدام العقاقير فى العلاج النفسى هو الذى حتم الدراسة الحالية لأساليب بافلوف التجريبية التى تستهدف تغيير الانماط السلوكية فى الحيوان ، وكذا الأساليب المختلفة وراء الفنون التاريخية للتبشير السياسى . والتحول الدينى ، وغسيل المخ ، وما شابه ذلك .

* * *

على أننا قبل أن ننتهى من هذا الفصل نود أن نشير الى حادث عرضى لكلاّب بافلوف فى أثناء اجراء تجاربه عليها ، وفى عام ١٩٢٤ حدث فيضان بمدينة ليننجراد وتصادف أن تعرضت الكلاّب للوقوع فى فخ هذا الفيضان الذى تسرب تحت أبواب العمل وارتفع تدريجيا . وفى هذا الوقت كانت الكلاّب داخل أقفاصها فأخذت تسبح فى فزع محاولة أن ترفع رؤوسها الى قمة أقفاصها ، وشعر خادم من خدم المعمل بخطورة الموقف فاندفع فى اللحظة الأخيرة ودفع الكلاّب الى أسفل خلال المياه ، وأخرجها من أبواب الاقفاص الى الأمان .

والحق ان هذا الحادث هو الذى كشف لبافلوف النقاب عن الكيفية التى يمكن بها محو ما علق بالبحر محو تاما ولو مؤقتا من كل الأنماط السلوكية المشروطة التى غرست فيه حديثا . فقد جعلت هذه التجربة المفزعة بعض الكلاب يتحول من حالة الانفعال الحاد الى حالة من حالات التوقف الوقائى الكامل التى سبق ان اشرنا اليها .

وعندما أعاد بافلوف اختباراتهِ على كلابهِ وجد ان الافعال الشرطية المنعكسة التى غرسها حديثا فى بعض كلابهِ تلاشت تماما فى هذه الكلاب ، الا أن الكلاب الاخرى التى واجهت نفس المحنة لم تتأثر تأثيرا مشابها ، بل استمرت بها الانماط السلوكية المغروسة .

وقد تتبع بافلوف هذه الظاهرة فى لهفة ، ووجد انه بالإضافة الى ما وصل اليه من امكانه احداث شذوذ فى انماط سلوك كلابهِ فى المراحل « المتعادلة » و « المتناقضة » و « الشديدة التناقض » التى سبق أن اشرنا اليها فان هناك درجة أخرى من « النشاط الامتناعى » Inhibitory activity تستطيع ان تقضى على جميع الافعال الشرطية المنعكسة التى غرست حديثا ومؤقتا فى الكلاب . واستطاعت أغلب الكلاب التى وصلت الى هذه المرحلة من العودة الى أنماطها السلوكية القديمة بعد ذلك . وفى احدى التجارب سمح بافلوف ببعض المياه للتسرب تحت باب المعمل فكانت جميع الكلاب ولا سيما التى تلاشت منها أنماطها الحديثة شديدة الحساسية لهذا المنظر لدرجة أنه أصبح من السهل التأثير عليها بهذه الوسيلة مرة أخرى .

* * *

ومن ثم فان اكتشافات بافلوف التجريبية على الكلاب أبرزت الاثر الفسيولوجى والميكانيكى الذى يحدث فى الانسان فى عمليات التحول الدينى والسياسى .

ويقول سارجنت فى هذا المجال : « ان تطبيق اكتشافات بافلوف فى الكلاب على ميكانيكية أنواع عديدة من التحول الدينى والسياسى فى الكائنات البشرية

توحى بأنه لكي يكون التحويل مؤثرا يجب أن تستثار انفعالات الشخص حتى يصل الى درجة شاذة من درجات : الغضب ، أو الخوف ، أو النشوة ، فإذا أمكن الاحتفاظ بهذه الحالة ، أو أمكن زيادة حدتها بوسيلة أو بأخرى ، فقد ينتهي الأمر بالشخص الى حالة من حالات الهستيريا ، حينئذ يصبح الانسان أكثر استعدادا لتلقى الإيحاءات التي قد يتقبلها في الظروف العادية على الإطلاق ، وقد يحدث بدلا لذلك مرحلة من المراحل : « المتعادلة » أو « المتناقضة » أو « شديدة التناقض » ، أو قد يحدث « انهيار امتناعي كامل » Complete inhibitory collapse يقضى على كل المعتقدات السابقة .

هذه الأحداث يمكن أن تكون عاملا مساعدا في غرس معتقدات وأنماط سلوك جديدة وسوف نلاحظ نفس هذه الظاهرة في كثير من العلاجات الحديثة الناجحة في مرضى الطب النفسي Psychiatric ، على أنه يمكن أحداث جميع مراحل النشاط الذهني من زيادة الاثارة الى حد الانهاك الانفعالي والانهيار الى الاستسلام الهادئ الصامت : اما بوسائل سيكولوجية ، واما باستخدام العقاقير واما بالعلاج بالصدمات الكهربائية ، واما بتخفيض كمية السكر في دم المريض بحقنة بالانسولين ، كما تأتي بعض النتائج الأفضل في علاج حالات من أمراض الطب النفسي مثل العصاب^(١) Neurosis أو الذهان^(٢) Psychoses بأحداث حالات من حالات « الامتناع الوقائي » وهذا يحدث دائما بالاستمرار في فرض التوترات الصناعية على المخ حتى يصل الى مرحلة نهائية من مراحل الانهيار الانفعالي المؤقت والاستسلام المؤقت Emotional collapse and stupor ويبدو أنه من المحتمل أن تتبدل بعدها بعض الأنماط الشاذة الجديدة كما يحتمل عودة الأصح والأسلم منها أو غرسها في المخ من جديد .

(١) العصاب مجموعة الأمراض النفسية وتسمى : القلق النفسي ، والهستيريا ، والوسواس القهري ، والاجهاد ، والاكتئاب النفسي .

(٢) من الأمراض العقلية وتسمى عادة أمراض اللصام العقل والهوس الاكتئابي وعادة ما يكون المريض بعيدا عن الواقع ، مضطرب الشخضية تحت تأثير اعتقادات خاطئة مع تغير في المزاج والوجدان .

الباب الثاني

الوسائل والأاليب

- ◆ الفصل الأول
الأاليب الانقلابات الدينية
والتحولات المذهبية
- ◆ الفصل الثاني
طبيعة التحولات ..

الفصل الأول

أساليب الانتصار البيئية والتحولات المذهبية

كان الهدف من الفصل السابق أن نبين كيف أن تجارب بافلوف وآثارها على الإنسان في تجارب الحرب العالمية السابقة أثبتت أنه يمكن تثبيت أو إزالة أنماط سلوكية في الإنسان والحيوان نتيجة عوامل فسيولوجية متشابهة ، إذ أنه عندما ينهار المخ تحت وطأة توترات شديدة فإن السلوك الناجم عن ذلك يتغير سواء كان ذلك في الإنسان أم في الحيوان ، ويعتمد ذلك على المزاج الموروث في الفرد وعلى الأنماط السلوكية التي كونها عن طريق التكيف التدريجي للبيئة .

وفي هذا الفصل سنحاول أن نبين كيف يمكن غرس أنواع مختلفة من العقائد في كثير من الناس ، بعد أن تكون وظائف المخ قد اضطربت اضطرابا كافيا نتيجة تعرضه لتوترات خارجية شديدة مثل : الخوف ، والغضب ، أو القلق ، أو الاستثارة سواء آكانت عرضية أم مقصودة .

ولقد سبق أن أشرنا إلى أن أساليب الانقلاب السياسي والديني التي استخدمت قديما نظر إليها حتى الآن من زوايا السيكلوجية والميتافيزيقية أكثر مما نظر إليها من زوايا الفسيولوجية والميكانيكية ، ولكن الواقع أن هذه الأساليب غالبا ما تقترب جدا من الأساليب السياسية الحديثة التي تستخدم في عمليات غسيل المخ والسيطرة على عقول البشر ، بدرجة أن كلا منها يلقي ضوءا على ميكانيكية الأخرى .

ومن ثم فمن الأجدر أن نبدأ بدراسة بعض الأساليب التي استخدمت في عمليات التحويل الديني المفاجيء في الأديان المختلفة التي استطاعت أن تجعل فردا أو جماعة من الأفراد تعتنق عقائد جديدة ، أو أنماطا من السلوك نتيجة لأضواء وأنوار تنبليج في الدهن فجأة وبشدة هائلة ، وذلك عقب فترة من التوتر الانفعالي الشديد .

وفي الأديان المختلفة التي عرفها الإنسان منذ فجر التاريخ ، يبدو أن دعاة العقائد الناجحة لم يستغنوا إطلاقا عن الأسلحة الفسيولوجية في إضفاء بركاتهم الروحية على أتباعهم . فالصيام وتجويع الجسد والرياضة الروحية القاسية لتطهير النفس وتنقيتها ، واستخدام السحر في حل الألفاظ الرهيبة ، ودق الطبول والرقص والتسبيح بالأناشيد والطقوس الدينية الصارمة ، واستخدام البخور والعقاقير المنومة . ما هي إلا بعض الأساليب المعروفة من تلك الأساليب العديدة التي استخدمها الإنسان لتعديل وظائف المخ لأغراض دينية .

أما الزعماء السياسيون فقد عرفوا أيضا الكلمات والأعمال التي يستطيعون بها أن يثيروا الناس ويسيطروا على عقولهم لتحويل معتقداتهم وأنماط سلوكهم غير المرغوب فيها إلى معتقدات ووجهات نظر جديدة . وفي كثير من الأحيان ارتبط الانقلاب السياسي بعامل الدين مستغلا سطوته وقوته لتحقيق أطماع سياسية بحتة ، وتغيير معتقدات الناس : السياسية ، والدينية والاجتماعية .

ولذا فقد آثرنا ألا نفصل في هذا الفصل بين أساليب الانقلابات الدينية وتلك في التحول السياسي ، لأن أساليبيهما تكاد تتشابه مع بعضها البعض ، وذلك فضلا عن ارتباطهما الوثيق في كثير من الحالات .

* * *

ففي أقدم المذنبات حدثت في مصر القديمة تغيرات في دين قدماء المصريين خلال العصور المختلفة في تاريخهم الطويل ، حيث ظهرت ، آلهة جديدة ، ومذاهب جديدة ، وعلاقات جديدة بين العابد والمعبود ، كما ظهرت أساليب جديدة في بناء المعابد وتقريب القرابين وغير ذلك من الطقوس الدينية . إلا أن

هناك نوعا من التغيرات طرات فجأة على ديانة القوم وتختلف كل الاختلاف عن سائرهما ، وذلك حينما قام أمنتب الرابع أو « اخناتون » حوالى عام ١٣٧٥ ق م يدعو الى دينه الجديد ، ويصدر الامر الى الناس لتتصرف عن عبادة جميع الآلهة التى يقدسونها ، وأن يعبدوا فى مناسك فخمة واحتفالات متهلة الها واحدا أعلى هو الشمس فى السموات العليا ، وقد ربط الصلة بين هذا الاله وبين الملك والملكة فكانا ولديه ومثليه على الارض .

لقد كان « رع » اله الشمس أحد الآلهة التى يعبدها المصريون ، وكان مركز عبادته فى عين شمس بالوجه البحرى ، وظلت هذه العبادة قرونا لا تحصى من أظهر السمات فى الديانة المصرية القديمة خاصة فيما يتصل بالملكية .

فكان « رع » بوصفه منظم الفصول ، ومقلب الليل والنهار ملكا فى السماء ، ومثالا للملك على الارض ، وكان الملك حينئذ يدعى « ابن رع » .

وكان يقال تعليلا لوجود معبود غير اله الشمس فى بعض الاحوال كلاله التمساح « سبك » مثلا أنه مظهر خاص من مظاهر رع ، فيضاف اسم رع الى اسمه . وأشهر مثال لذلك هو « آمن » وهو اله محلى كان مغمور الشأن خامل الذكر فى طيبة فى عهد الدولة القديمة ، ثم علا شأنه وكبرت قيمته أيام الاسرة الثانية عشرة ، فاذا هو يسمى « آمن - رع » ويصبح له معبد عظيم ، فلما كان عهد الامبراطورية دان القوم « لآمن - رع » رب الحاضرة الملكية ، واعتبروه نصير الجيوش الفرعونية وواهبها الظفر والغلبة .

ومع أن الاله المشترك « آمن - رع » كان رب طيبة والدولة ، فان الرب الذى كان الطبقة المتعلمة تعظمه وتؤثره هو « رع » لا « آمن » ، فالى قرصها كان أولئك يتوجهون بدعواتهم وصلواتهم ليل نهار ، فحين تبزغ الشمس تنير الارض ، وحين تجنح فى روعة وجلال الى الغروب تنير من وراء المغرب عالم اوزوريس - عالم الاشباح تحت الارض .

ولذا فإن الطريق كان ممهدا بعض التمهيد عند طبقة معينة من الناس لهذا الإصلاح الدينى العاصف الذى جاء به اخناتون ، برغم أن صلواتهم وتراثلهم كانت حتى وقتئذ حافلة بالمعاني والالفاظ المأخوذة عن أساطير الاولين .

وحينما تولى اخناتون الملك بعد وفاة أبيه الملك أمنحتب الثالث ، كان لا يزال فى الحادية عشرة من عمره متأثرا الى حد كبير بما كانت توحى اليه مربيته وأمه ، وكذا ما كان يشاهده فى مقاصير الحريم ، لكن يبدو أنه كان فتى باكر النمو فقد أعرض وهو لا يزال يافعا عن جمود التقاليد ، وانبرى يفسر الكون كما يراه متأثرا بظروفه البيئية .

كان اخناتون يعرف أن الشمس معبودة منذ أمد طويل فى بيت رع بمدينة عين شمس ، وأن العجل الاسود من مظاهرها البديعة المثال ، ولكنه تجاهل من الاسماء الدينية التقليدية التى كان يطلق عليها عين شمس اسمى «توم وخبر رع» كما تجاهل المدلول الدينى والاسطورى «حورس» وآشو بن رع وشقيق الربة تفنوت .

ومع أنه لم يسبق لفرعون من الفراعنة أن تلقب بلقب كهنوتى فإن هذا الملك الشاب انبرى فى خيلاء يجهر بهذا التحدى على رعوس الملأ ورجال الدولة وكهنة آمون . وقد صرف همهته كلها الى اتمام بناء معبد أو أكثر فى طيبة على الصورة التى ابتدعها خاصة لاله الشمس متخذا جانبا على الاقل من بناء شيدته والده أمنحتب الثالث لبعض الآلهة الاخرى ، فأبدل اخناتون فى الاشكال والاسماء المحفورة على جدرانها . وأصبح آتون اسم الاله الجديد ممثلا على الدوام فى صورة قرص الشمس تحت قبة السماء ، وتدل من حافته أفعى من نوع الكوبرا ، وهى شارة للملكية كانت دائما رمزا للشمس وما للملك من قوة مهلكة ، ولكن اقترنت فى ذلك العهد برمز الحياة البهيجة ، ومن هذا القرص تنبثق أشعة ممتدة كالأذرع ، تنتهى بأ كف آدمية هابطة من السماء الى الارض تحتضن الملك ، وتضع رمز الحياة على خياشيمه ، وتتقبل القرابين المقدمة على المذبح . ولم يبق من الاسماء الآلهية التى كانت مقترنة قديما باسم الآلهة رع الا اسم واحد .

واستمرت هذه الديانة نحو ثمانية عشر عاما ثم زالت ، اذ عاد الشعور
الدينى المصرى القديم الى مجراه المعتاد بعد حركة تمرد على ديانة آتون شاعت
فى جميع أنحاء مصر ، وانتهت بذلك حركة التوحيد أو التغليب كما يسميها
البعض أيام توت عنخ آمون حيث عادت الى مصر ديانتها القديمة وجموع آلهتها
الغفيرة .

وقام المصريون القدماء بالانتقام فأزالوا أسماء اخناتون وصوره وصور
أسرته من الآثار وعروا مبانيهم الفاخرة وأحالوا تلك الى محاجر . وكان
توت عنخ آمون وخليفته « اى » يكتان بعض الاحترام لذكرى الراحل المبتدع ،
فلما تولى الملك حور محب أعرض عن كل ذكر لخناتون وسلالته ، فاذا اقتضى
الحال ذكر أحد منهم لم يكن يلفظ باسمه وإنما كان يشار اليه اشارة الخفيضة
والاحتقار فيقولون « مجرم اخناتون » .

كانت ديانة اخناتون ترى الشمس أنها من أجدر الكواكب فى السماء ،
بالعبادة ، اذ لا يعتبرها التغير فى فلكها الرحيب ، كما أنها معروفة فى جميع
الاقطار التى كان للمصريين علم بها ، وهى تصرف الليل والنهار ، وتقلب الصيف
والشتاء ، بنورها تستيقظ الخليقة ، وبدفئها تقوم الحياة والنمو ، فالشمس هى
الاله المنظور .

ولقد تأمل الملك الشاب مطالع الحياة البهيجة ، فانطلق يسبح من أعماق
نفسه بالحمد للشمس ويمجدها ، لان بدونها تنعدم الحياة والوجود .

ولا نبغى من هذه القصة سرد أحداث تاريخية ، ولا نقد معتقدات معينة ،
وانما هدفنا أن نبرز الظروف والعوامل السيكولوجية والفسولوجية التى جعلت
اخناتون ينقلب فجأة على دين قومه ويخرج بدين ومعتقدات جديدة ، وكذا
لنوضح سبب انقلاب الناس ثانياً ضد هذه المعتقدات وعودتهم الى آلهتهم القديمة
ومعتقداتهم التى ورثوها عن أجدادهم فى تاريخهم الطويل .

لقد كان آباؤه وأجداده الفراعنة يعتمد ملكهم على الوهية فرعون والسطوة والجاه ، واستباحة الاستمتاع بكل ملاذها ومتع الحياة ، فجاء اخناتون يحو ضلالة العقيدة في الوهية فرعون ، وليشهد الناس أن فرعون ما هو الا بشر مثلهم رفعه الله مكانة عليا ، وأنه يشعر بما يشعرون ويصبو كما يصبون ، وكثيرا ما كان يشاهده الناس يقبل زوجته وهو يقود عربته ، أو وهو جالس بجوارها يستمتعان بجمال الطبيعة .

وفي هذه السن المبكرة ولا يزال عقله مشبعا بأحلام الطفولة كان مخه مهية لتقبل ايهاءات أمه ومربيته ، وكانت الشمس أقرب الكائنات الى مخه لتبرير عبادتها فمنها تنبعث الحياة .

على أنه يقال : أن الملك الشاب كانت كثيرا ما تفتابه فجأة حالة من الغيبوبة أقرب الى الصرع فينصرف الجميع من حوله الا أمين القصر ، وبعد فترة يصحو فيسلك سلوكا يناقض كل العادات والتقاليد التي تسود القصر .

لقد كان القصر يعج بحريم فرعون ، وفي احدى المرات أفاق من غيبوبته وأمر أمين قصره أن يصرف هؤلاء النساء ، ويقدم لهن الرعاية لانه ليس فى حاجة الى هذا الجيش اتغير منهن .

والانسان فى مثل هذه السن يكون مخه مستعدا لتقبل أى ايهاءات خارجية، فاذا ما تقبل هذه ايهاءات واقتنع بها يصبح متحمسا لها بدرجة كبيرة ، ويبلى أن الانفعالات التي كانت تسببها تأملات اخناتون أحدثت له نوبات الاغماء هذه وكانت معروفة فى هذه الايام باسم « الجنون الملكى » .

ولكن اخناتون لم ينجح فى ازالة معتقدات قومه ، ولا أن يغرس فيهم آراء الجديدة اللهم الا فى فئة من الانتهازين والوصوليين كانت مصالحهم مرتبطة به ، وذلك لانه لم يستطع أن يسبر غور نفوسهم ، فلم تكن تسييحاته الدينية ولا الطقوس التي ابتدعها أو تمرده على التقاليد كافية لابعاد الناس عن معتقداتهم التي غرست فى عقولهم منذ امد بعيد .

ولذا لم تنجح دعوته وثار الناس عليها بعد فترة وعادوا الى دينهم ومعتقداتهم القديمة ، وربما يرجع عدم النجاح الى أنه لم يستخدم أى عامل من العوامل السيكولوجية أو الميتافيزيقية التى كانت معروفة حينئذ لازالة أنماط السلوك القديمة وغرس المعتقدات الجديدة .

على أنه من ناحية أخرى استغل كهنة آمن - الذين رأوا فى هذا الدين خطورة عليهم - هذه العوامل لاثارة الفتن والتمرد حتى نجحوا فى النهاية بالقضاء على اخناتون ودعوته .

فبالإضافة الى امامهم بالاساطير وأعمال السحر لعبت « العرافة » دورا كبيرا فى اعطائهم قوة للتأثير على الناس ، وكان هناك أنواع كثيرة منها : فمثلا كانت هناك واحدة تسمى « هتفات الآلهة » أى أن تماثيل الآلهة كانت تنطق وتتكلم . وعلى هذا النحو كان تماثيل الآله آمن يفصل فى مهام شئون الدولة ويقوم بذلك التمثال الذى كان يقيم فى قدس الاقداس بالمعبد . وعند استشارته كان الكهان يحملونه فى زورقه على أكتافهم ، ثم يقفون ليسأله رئيس الكهان أو فرعون أسئلة هامة خاصة بمصيره ، فيجيب عليها بحركات خاصة ، أو بأصوات وكلمات معينة . وفى واقع الامر كان الكهان هم الذين يجيبون عن الاسئلة من طرف خفى . وهذا ما حدث فى معبد الآله « آمن » فى واحة سيوه عندما زار الاسكندر الاكبر هذا الآله فى معبده . فقد وصف بعض الذين حضروا مع الاسكندر فى هذا المعبد ما حدث أمامهم . كان تماثيل الآله « آمن » يحمله الكهان على أكتافهم فى زورق من الذهب الخالص . وكانوا يسرون به فى أى مكان شاء وكان جمع خفير من النسوة والفتيات يرتلن ، وينشدون الاناشيد للآله . وكانت اجابة الآله على الاسئلة يعرفها القوم من مشية الكهان وخطواتهم فهم يسرون بأمر الآله وحده .

* * *

وفى سيرة بوذا أو الامير سيدهاتا بن الملك سود هوادانا صورة من صور التحول الدينى المفاجيء الذى نجح وامتد أثره الى آفاق بعيدة .

لقد كان هذا الامير يعيش منذ طفولته حياة ترف ونعيم لم يستمتع بهما الا قلة من الناس ، وبرغم هذا النعيم تحول الامير فجأة الى راهب متسول

يحاول أن يبحث عن الحقيقة بعد أن شاهد في أثناء تجواله في المدينة ثلاث صور من شقاء الحياة ، فالصورة الاولى وهي الشيخوخة تمثلت له حينما رأى كهلا رسم الحزن والجهد على وجهه أثر الشقاء ومحنة الايام ، ممددا على الارض دون غطاء في يوم عاصف الريح . أما الصورة الثانية وهي صورة للمرض ، فقد رسخت في ذهنه حينما رأى مريضا ملقى على الطريق يتوجع ويئن فأدرك أن هذا الامر يتعرض له كل انسان غنيا أم فقيرا ، حكيما أم صعلوكا . وأما الصورة الثالثة والاخيرة فقد اكدت له حتمية الموت ، اذ شاهد جنازة أحد المتوفين وهو محمول الى مكان حرق جسده ، ومن خلفه تسير امرأته وأولاده ليكون لفراقه .

وأثرت هذه الصورة في نفسية بوذا لدرجة أنها تعتبر نقطة تحول في تفكيره الدينى ، فقد قرر منذ هذه اللحظة أنه لابد أن يكون هناك عيب في الحياة لأنها تحمل في طياتها : المرض ، والشيخوخة ، والموت .

ومن ثم فقد بدأ يتعمق في بحثه عن حقيقة الحياة ، واخذ يتساءل عن سر الفناء . لقد عجزت الكتب المقدسة التي قرأها عن تفسير هذا السر له ، ثم أخذ يتساءل من جديد :

« لماذا لا يكون كل الناس في مملكة أبيه سعداء مثله هو وأسرته ؟ » وثار سيدهاتا على تعاليم دينه ، وتعجب لماذا قسم براهما (١) الناس الى مثل هذا العدد

(١) براهما هو الخالق عند طائفة البراهمية ، وتصفه « اسفار اليوباناشاد » وهي احد الكتب المقدسة عند الهندوس بقولها :

ان جوهر النفس ليس هو الجسم ، ولا العقل ، ولا الذات الفردية ، ولكنه الوجود العميق الصامت الذى لا صورة له ، والكامن في دخيلة انفسنا ، واسمه آتمان .

اما جوهر العالم الواحد الشامل الذى لا هو بالذكر ولا بالأنثى أى روح العالم غير المشخص في صفاته والمحتوى على كل شىء والكامن في كل شىء والذى لا تتركه الحواس فاسمه « براهما » ، وآتمان وبراهما هما الى حقيقة الحقيقة .. روح الأرواح ، وما هما الا اله واحد بعينه ، لأن الروح اللافردية وهي القوة الكائنة في الانسان هي بعينها روح العالم -

الكبير من الطوائف الطبقيّة^(١) ، وبدأ له أن ذلك ظلم ، وجعله يحس أن كل ما تعلمه في الكتب المقدسة والتراويل اتدينية غريب باطل .

وفي أحد تأملاته الأولى وهو لا يزال في قصر أبيه سمع صوت موسيقى وغناء ينبعث من داخل القصر ، فزاد ذلك شقاءه وتوتره وانفعاله للرجة أنه اشماز من أن يكون لرجل واحد كل هذا النعيم بينما هناك الآلاف من التمساء يعانون الفقر والمرض والشقاء » .

وفجأة ترك سيدها تا قصر أبيه وأخذ يضرب في الأرض متوغلا في الغابات مرتديا ملابس راهب متسول ، وكان لا يزال في سن التاسعة والعشرين .

واستمر بعد هذا الحادث سبع سنوات يبحث عن الحكمة والمعرفة . وكانت تعاليم براهما تقول : لكي تبحث عن المعرفة يجب أن تطهر النفس ، ولتطهير النفس يجب تعذيب الجسد ، فتعذيب الجسد وتجويعه تطهر النفس .

ومارس سيدها تا هذا الأسلوب داخل الغابة ، فظل أياما دون طعام حتى اضمحل جسمه ، وضعفت قواه ، وأصبح جسما بشريا نحिला لا يستطيع القيام بأي حركة حتى ظنه زملاؤه من الرهبان أنه قد فارق الحياة .

وفجأة انتعش واستعاد قدرته على الكلام فبادر زملاءه بقوله :

« أيها الاخوان منذ هذه اللحظة سأكف عن تجويع نفسي » .

لقد تبين له أن الحكمة والفلسفة اللتين يبحث عنهما لم يكونا خارج نفسه واتضح له أنه لن يستطيع الحصول عليهما : بدراسة الفيدا^(٢) ، ولا بتجويع

(١) في عقيدة الهندوس أن براهما خلق الناس من « ماتو » أول البشر على درجات غير متساوية فمن رأسه جاء أفضل الناس وأعظمهم قدسية وهم الكهنة البراهمة ، ومن ذراعه جاء من يولونهم في الأفضلية وهم الملوك والحاربون ويسمون بالاكشترية . ومن فخذه جاء أرباب المهن في العالم بين زراعتهم وتجارهم وعليهم أن يوفرُوا مسائل العيش للكهنة والملوك والحاربين ويسمون الفيشية . أما من قدميه فقد جاء بقية الناس الذين يلتزمون إلى الطبقات السفلى ، وليس لهم من عمل سوى خدمة الطوائف الثلاث الأخرى في أخس حاجاتها ويطلق على هذه الطائفة الشوادر أو النبوذيين .

(٢) أسفار مقدسة عند الهندوس تحدد قوانين ديانتهم وشرائعها وتعاليمها .

نفسه ، ولا بالجلوس على المسامير والحجارة الخشبية أو الزجاج المكسور كما يفعل الآخرون من الرهبان ، بل أصبح يعتقد أنه يمكن أن يجدهما في أعماق نفسه ، وأن كل انسان يستطيع أن يحصل عليهما من داخله وفيها يجب أن يبحث عنهما .

وأخيرا ثار على كتب الفيدا ، وهاجم عبادة الاصنام التي لا تستطيع أن تغير شيئا في هذا الوجود ، وأعلن لزملائه من الرهبان أن عبادتهم كلها ضلال ، فالصلوات التي يقيمونها لآلهتهم العاجزة لا تستطيع أن تغير شيئا من قوانين الطبيعة ، فالألماء يجرى دائما من أعلى التل ، والنار ساخنة دائما . وجادل بالمنطق أنه لا يمكن لهذه الآلهة أن تغير مجرى الماء ليصعد في التل ، أو تجعل النار بردا وسلاما ، ذلك لأن في الحياة قوانين تجعل هذه الأشياء كائنة على ما هي عليه ، فما يتم حدوثه لا يمكن إلغاء حدوثه ولو قدمت القرابين لكل أنواع الآلهة .

وأذاع بوذا تعاليم دينه الجديد بعد أن أعلن أن براهما لم يخلق شيئا ، وأن العالم سيبقى الى الأبد ولن ينتهى لأن كل ما ليست له بداية ليست له نهاية .

ونادى بأن هناك طريقين يجب أن يتبع عنهما الانسان ، أحدهما حياة الانغماس في المتعة وهي حياة أنانية دنيئة ، والاخرى حياة التعذيب وهي ليست جديدة بأن يحياها الانسان ، وعلى المرء أن يسلك طريقا وسطا وذلك باتباع قواعد الحياة الثمانية^(١) التي كانت أول تعاليم البوذية ، ولم يمض وقت

-
- (١) ♦ الإيمان بالحق : وهو الإيمان بأن الحقيقة هي الهادي للانسان .
- ♦ القرار الحق : بأن يكون المرء هادئا دائما لا يفعل اذى بأى مخلوق .
- ♦ الكلام الحق : بالبعد عن الكذب والنميمة ، وعدم استخدام اللفظ الخشن .
- ♦ السلوك الحق : بعدم السرقة والقتل وفعل شيء يأسف له المرء فيما بعد او يخجل .
- ♦ العمل الحق : بالبعد عن العمل السيئ مثل : التزيف ، وتناول السلع المسروقة : وعدم اغتصاب ما ليس له .
- ♦ الجهد الحق : بالسعى دائما الى كل ما هو خير والابتعاد عما هو شر .
- ♦ التأمل الحق : بالهدوء دائما وعدم الاستسلام للفرح او الحزن .
- ♦ التركيز الحق: وهذا لا يكون الا باتباع القواعد السابقة، وبلوغ المرء مرحلة السلام الكامل

طويل عليها حتى كان لبوذا آلاف من الاتباع ، ومضت شهرته متنقلة من مملكة الى مملكة حتى بلغت بلاد الساسكى •

وبرغم أن فكرة بوذا عن الدين كانت خلقية خالصة ، تعنى بسلوك الناس ولا يهمه الطقوس وشعائر العبادة وما وراء الطبيعة ، الا أن أتباعه بعد وفاته نسوا هذا كله وراحوا يؤلهونه •

وبعد أن كان بوذا يعظ ضد الاصنام ، اقام له أتباعه التماثيل فى كل معبد وجعلوا منه هو نفسه الها معبودا •

فى هذه القصة نجد أن هناك ردود فعل حدثت لبوذا نتيجة الصراعات العقلية التى أثرت فى نفسه نتيجة مشاهداته فى شرح شبابه لصور بغضة فى الحياة من مرض وشيخوخة وموت ، ولقد أثرت هذه الصورة فى نفسيته بدرجة كبيرة ففرضت على مخه توترات ازدادت شدتها حينما لمس التناقض الحاد فى المجتمع الذى يعيش فيه •

فمن حياة الترف والبذخ التى لا توصف والتى كان يعيشها فى قصر أبيه ، صدم بما تقاسيه البشرية من أهوال • ولقد أدى به هذا الصراع النفسى الى نغمته على الحياة غير العادلة ، وعلى الآلهة التى لا تستطيع أن تجد حلا لهذه المشكلات •

وكان نتيجة ذلك كما رأينا أن تحول بوذا من أمير بين يديه كل مسببات الترف والجاه الى راهب متسول يبحث عن حقيقة الحياة • وفى بحثه عن هذه الحقيقة اشتد الصراع على عقله نتيجة محاولته ممارسة طقوس الفيدا من : تجويع النفس ، والرياضة النفسية العنيفة ، حتى وصل الى مرحلة الانهيار التى سبق ان اشرنا اليها ، وفى هذه الحالة لابد أن يكون مخه قد توقف تماما ووصل الى درجة تقبل أى ايعاءات •

هذه الايعاءات كانت فى الواقع قد غرست فى عقله من قبل ، سواء أيام اقامته فى قصر أبيه ، أو فى أثناء تجواله كراهب متسول ، ولذا فأننا

نجد بوذا ينتفض فجأة من صومه الطويل ، وينفض يديه من كل تعاليم الكتب المقدسة التي كان يؤمن بها من قبل محاولا أن يبحث عن الحقيقة من داخل نفسه ، منقلبا على آلهته وتعاليمها •

* * *

على أن هناك نوعا آخر من المعارك التي وجهت ضد العقل البشرى عرفها الانسان منذ اقدم المذنيات • وعلى الرغم من اختلاف مظاهرها وأساليبها فان هذه المعارك كانت مهذا لكثير من الجمعيات السرية التي أثرت الظلام فى عملها على النور ، لغاية ظاهرها محاولة الوقوف على أسرار الكون الخفية ، وباطنها دوافع سياسية تنشأ ابدال مجتمع بمجتمع أو سلطان بسلطان • ونحن نذكرها هنا لتبين الاساليب المختلفة التي استخدمتها هذه الجماعات للسيطرة على عقول الناس وتحويل معتقداتهم الدينية والسياسية •

ففى الحركات الهدامة التي قامت منذ صدر الاسلام تهدف الى هدمه ، أمثلة للاساليب والوسائل المتنوعة التي لجأت اليها تلك الحركات للتأثير على عقول الناس بغرض تحويل معتقداتهم الدينية الى معتقدات جديدة تحقق غاياتها المحددة •

ففى مبادئ الازادمرديّة(١) - وهم شيعة - نجد مخططا ثوريا يرمون فى الهدم ويرمى الى سحق تعاليم الاسلام كلها بهدف تحطيم السلطة السياسية التي تقوم على هذه التعاليم • وكان اتباعها يميلون كثيرا الى الاسماعيلية ، وتحولوا الى الباطنية أيام المأمون ، وانتشروا أيام المعتصم متحدين مع البابكية والخرمية وبنوا مبادئ التقويض والهدم واليهيم ينتمى اعظم الدعاة الثوريين والمتأمرين • وبرغم أن حركة الباطنية « الشيعة » كانت حتى منتصف القرن

(١) الازادمرديّة هم الأحرار وكانوا من السلالات الحاكمة فى فارس ، واختاروا فى الاسلام مذاهب الشيعة وجذبوا اليها سواد الشعب ممن لا يجرى فى عروقه الدم العربى وراثة بالاسلام مؤثرا مبادئ الشيعة من اسماعيلية وغيرها •

الثالث تضيء على نفسها الصبغة الدينية ولا تعنى بالهدم من المبادئ الا ما ترى أنه يخالف مبادئها ويتعارض مع غاياتها السياسية ، فانها تحولت بعد ذلك الى أداة رهيبة لهدم جميع المعتقدات الدينية ، والنظم السياسية، وسحق جميع المبادئ الاجتماعية والاخلاقية اسلامية او غيرها ، وبلغ من تأثيرها انها جذبت اليها « الافشين » قائد عام قوات الخليفة المعتصم فصلبه هذا سنة ٢٢٤ هجرية .

ومن أبرز الذين حملوا معول الهدم على هذا النحو الشامل هو عبد الله بن ميمون القداح^(١) الذي وصفه المؤرخون بأنه أعظم هدام وأذكى متآمر عرفه التاريخ . وقد اعتمد دعائه في نشر دعوته على : تزييف الاحاديث ، ونشر مبادئ الانكار والهدم ، والاباحية بين العامة ، وهم في الوقت نفسه يظهرون تشيعا لاهل البيت اخفاء حقيقة مقاصدهم . واستغل دعائه الشعوذة والسيمياء ، وتفرقوا في الانحاء يدعون كل طائفة بما يناسب عقولها وميولها ، ويظهرون للعامة في ثوب الورع والزهد .

ولم يبحث ابن ميمون عن أنصاره الحقيقيين بين الشيعة المخلصين ولكن بين الثنوية^(٢) والوثنيين وطلاب الفلسفة اليونانية . وكان دعائه الذين تلقنوا أن أول ما يجب عليهم هو اخفاء حقيقة عواطفهم ، والتظاهر باعتناق آراء سامعيهم - يظهرون في أثواب مختلفة ، ويحدثون كل طبقة باللغة التي تروقها ، وسيطرون على الجميع بأعمال الشعوذة ، ويشيرون شغفهم بالالغاز والاحاجي الخفية ، ويتحجبون أمام المؤمنين بقناع الزهد والفضيلة ، ويتظاهرون أمام الصوفية بأنهم صوفية ، ويكشفون عما خفى من معاني الغيب أو يشرحون الاساطير ومجازاتها . وقد أسفرت هذه الوسائل التي كانت تهدف الى السيطرة على أذهان المجتمع عن نتيجة رائعة هي اعتناق كثير من الناس المختلفي المذاهب هذا المذهب حيث استغلوا أسوأ استغلال في تحقيق غاية لا يعلمها سوى القليل من الدعاة .

(١) عبد الله بن ميمون القداح ، ابن فقيه ملحد من جنوبي فارس هو ميمون بن ديصان . وقد زعم انه وقف على الاسرار الروحية والعلوم الخفية وانتشرت دعوته في جنوبي فارس . حوال ٢٦٠ هـ

(٢) الثنوية مذهب فلسفي ديني يقول : ان كل كائن مركب من عنصرين هما الخير والشر ، او النور والظلام .

وقد وصف المؤرخ دؤزى فلسفة ابن ميمون فقال :

« أن يدمج المغلوبين والغالبين في هيئة واحدة ، وأن يجمع في حظيرة جمعية سرية هائلة ذات مراتب عدة بين أحرار المفكرين - الذين لا يرون في الدين سوى وسيلة لاذلال الشعب - وبين الغلاة من جميع الطوائف ، وأن يجعل من المؤمنين آلة صماء تمد للتشككين بالقوة ، وأن يحمل الظافرين على قلب البوالة التي شادوها ، وأن ينشئ حزبا كبيرا مؤتلفا منظما يرفع في الوقت المناسب - ان لم يكن هو - فعل الأقل أبنائوه الى العرش » .

هكذا كانت غاية ابن ميمون ، وهي فكرة خبيثة نفذها بحلق ماهر ، وبراعة نادرة ، وخبرة عميقة بعقول البشر ، مستخدما تلك الوسائل التي اختطها بخبت ودهاء .

وفي عام ٢٧٨ هجرية قام أحد دعاة ويسمى الفرّج بن عثمان القاشاني ويعرف بذكرويه^(١) وأطلق على نفسه اسم قرمط وكون مجتمع القرامطة الذي يقوم على شيوع الملكية والاباحة . وقد بدأ قرمط يجمع من أنصاره الضريبة العامة بنسب كبيرة ، وانتهى بأن أقنع سوادهم بمزايا إلغاء الملكية الفردية ، ونظم لهم في كل مكان وجدت فيه طائفة منهم مجتمعا شيوعيا ، بل قد تطرف في هذا الشيوع فقرر شيوع للرأى وغيره من صنوف الاباحة القائمة على استغلال الشهوات والاهواء البشرية .

وقد وصف دى ساسى دعوته معتمدا على بعض المراجع العربية فيما يلي :

« لا نجح قرمط بتنفيذ كل ذلك ووافقه عليه كل صحبه أمر دعاة ان يجمعوا النساء في ليلة معينة بحيث يتمكن الرجال من أن يستمتعوا بهن في اختلاط وشيوع . . وكان يقول : أن ذلك هو الكمال وأقصى درجات الصداقة والاخاء .

(١) ان رواية ابن خلدون عن شخص قرمط مضطربة جدا ، ففي مبدأ كلامه عن القرامطة يقرر بوضوح ان قرمطا والفرّج بن عثمان او ذكرويه شخصان مختلفان بيد انه بعد ذلك يقبل في روايته عن محاربة عامر الكبشى للقرامطة يوحى بان ذكرويه هو قرمط غير ان ابن الاثير واضح في التفريق بين الرجلين .

وأحيانا كان الزوج يقدم زوجته بنفسه إلى رفاقه متى سرهم ذلك (١) . ولما رأى قريظ أنه صار السيد المتسلط على عقولهم ووثق من طاعتهم ، بدأ يسير بهم نحو طريق آخر ، فنشر فيهم مذهب الثنوية واعتنقوا كل تعاليمه بسهولة ، ولم يلبث أن نزع منهم كل دين وأحلهم من كل فروض العبادة والتقوى ، وأباح لهم النهب وكل أنواع الرذيلة ، وأمرهم أن يتركوا الفرائض ملقنا إياهم أنه لا فريضة عليهم ، وأن لهم أن ينهبوا أموال أعدائهم وخصومهم ، وأن يصفكوا دماءهم بلا وازع ولا عقاب ، وأن معرفة رب الحقيقة الذي دعاهم إليه يملا لديهم فراغ كل شئ آخر ، وأن هذه المعرفة تبعد عنهم كل خطيئة وعقاب .

ولقد أذاع بعض القرامطة كتابا نسبوه إلى الفرّج بن عثمان تضمن المبادئ التي تقوم عليها جماعتهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، يقول الفرّج بن عثمان داعية المسيح ، وهو عيسى ، وهو الكلمة ، وهو المهدي ، وهو أحمد بن محمد بن الخليفة ، وهو جبريل ، وذكر أن المسيح تصور له جسم انسان وقال له : انك الداعية وأنك الحجة ، وأنك الناقة وأنك الدابة وأنك زكريا وأنك روح القدس .. والفيلة إلى بيت المقدس ، والجمعة يوم الاثنين لا يعمل فيه شئ ، والسورة الحمد لله بكلمته وتعالى باسمه ، المتخذ لأوليائه بأوليائه ، قل ان الالهة موافقت للناس ظاهرها ليعلم عند السنين والحساب والشهور والايام ، وباطنها أوليائي الذين عرفوا عبادي سبيل ، اتقوني يا أولى الألباب ، وأنا الذي لا أسأل عما أعمل وأنا العليم الحكيم ، وأنا الذي أبلو عبادي وامتنحن خلقي ، فمن صبر على بلائي ومحتني واختباري القيته في جنتي وأخلدته في نعمتي ، ومن ذل عن أمري ، وكذب رسل أخلدته مهانا في عذابي ، وأتممت أجلى وأظهرت أمري على السنة رسل فانا الذي لا يتكبر على جبار الا وضعته ، ولا عزيز الا أذلته .. والصوم مشروع يوم المهرجان والنيروز ، والنبذ حرام ، والخمر حلال .. ولا يؤكل ذو ناب ولا ذو مخلب ومن خالف وحارب وجب قتله ومن لم يحارب أخذت منه الجزية » .

(١) اشار ابن الأثير إلى واقعة من هذا النوع حيث نسب إلى أبي سعيد الجنابي زعيم القرامطة في البحرين أنه قدم زوجته إلى يحيى ابن ذكويه ليستمتع بها .

وسرعان ما تحول القرامطة بعد هذا التحول الى عصابة هائلة من السفاكين والاشقياء ، لا عمل لها الا قتل خصومهم وسلب أموالهم وأعراضهم ونشر الرعب والسمار بين ربوع البلاد . وعلى الرغم من أن فكرة ابن ميمون كانت لا تركز على العنف الظاهر فان تعاليمه السرية كانت تهدف الى هدم كل المعتقدات الدينية من أساسها تدريجيا والى خلق حالة من الفوضى الفكرية الا المادية ، لانه كان يعتقد أن العنف دائما يستثير العنف . ولكن القرامطة عجلوا بانفجار قبل أوانه مما جعلهم يفقدون كثيرا من أنصارهم . وليس من المبالغة أن نقول : أن انفجار القرامطة كان من أهم الاسباب التي مهلت الى سقوط الدولة العباسية .

* * *

وهناك حركة أخرى مشابهة من حركات الباطنية أو الاسماعيلية^(١) لعبت دورا كبيرا في التأثير على عقول البشر بطريقة مثيرة ، هي حركة الحشاشين وقد حشدت هذه الطائفة جموع البسطاء والدهماء باسم الدين لتحقيق أغراض سياسية ، واعتمدت في محاربة خصومها على الاغتيال الخفي المنظم ، بأكثر مما اعتمدت على الحروب العلنية .

وكان الذي نظم هذه الحركة ووضع برنامجهما الفد هو الحسن ابن علي المعروف بالصباح . وقد أشار فون هامار الذي يعتبر الحسن الصباح عبقرية كبيرة الى برنامجه التنفيذي في هذه العبارة « ان الآراء ضعيفة قاصرة اذا ما وقفت عند اجهاد المخ دون تسليح اليد فلم يظهر التشكك والتفكير الحر بسحق عرش من العروش حينما اكتفيا بالاضطرام في عقول الكسالى والفلاسفة ، بيد أن التعصب الديني والسياسي هما أنفذ أسلحة في يد الامم لسحق العروش . ان ذا الاطماع لا يعنى بما يعتقد الناس ، ولكنه يعنى كل العناية بمعرفة الوسيلة التي يستطيع بها أن يستعملهم في تنفيذ ما ربه » .

(١) يطلق الاسماعيلية على انفسهم ايضا الباطنية لقولهم بالامام المستور والباطن ، وقيل: انهم سموا كذلك لقولهم بباطن القرآن دون ظاهره اذ يزعمون أن للقرآن ظاهرا هو الالفاظ وباطنا هو المعاني الخفية ، وقيل لانهم كانوا يلتقون تعاليمهم سرا ويكتفون بها عن العامة .

ولما كان الاغتيال المنظم هو الوسيلة الفعالة التي اعتنقها الصباحية أو الخشاشية ، فقد اعتمدت على الفدائيين واعتبرتهم عماد حركتها الثورية .

ولكى تؤثر في عقلية هؤلاء الافراد بدرجة تمكنها من تحويلهم الى آلة صماء تحقق أهدافها ، كانت تأتي بهم أطفالا الى منازل الدعاة وتربيتهم منذ الحداثة على مبادئ المخاطرة والتضحية واحتقار الحياة الدنيا ، وتلقنهم أن قوام الاسلام الصحيح هو بذل النفس ، وأن الحياة الدنيا انما هي تجربة خلو من النعيم الحق لا تعدل في متاعها وآلامها ذرة من رغد الحياة الاخرى ونيمة البالغ ، وأن السبيل الحق الى اكتساب الجنة والتقلب في نعمائها ، وسعادتها الخالدة هو افتداء النفس بعمل من أعمال الدنيا .

وكان الزعماء يتلمسون لغزو هذه العقيدة في نفوس أولئك الفتيان أغرب الوسائل ، وقد وصف عبد الله عنان في كتابه الحركات السرية صورة من هذه الاساليب التي كانت تتبعها هذه الطائفة في السيطرة على عقول أولئك الفتيان بأسلوب شيق فيقول :

« من ذلك أنهم كانوا ينشئون حول قلاعهم الحداثق الفيحاء ، قد غرست فيها أطيب الفواكه وأذكى الازهار والورود ، وشيدت الفوارات والشلالات البديعة وجهاز المكان بأنفس أنواع الرياش والبسط ، وغصت بالغيد الكواكب يرقصن بأقداح ذهبية من الخمر . وكان من يرى فيه النجاسة والاخلاص من الفتية الفدائيين يدعى الى مجلس شيخ الجبل وهو أعلى درجات هذه الطائفة ويسقى جرعة من المخدر^(١) ثم ينقل خفية الى إحدى هذه الحداثق الغناء ، ويزوج به الى إحدى الابهاء الضخمة فتوقظه أخان الموسيقى الشجيرة وخير الفوارات، ويحيط به الغيد والغلمان، ويسقى أطيب الخمر، ويتمتع ما شاء بهذا النعيم . ثم يسقى المخدر ثانية وينقل خفية الى مجلس شيخ الجبل وقد رتب على نظامه الاول فاذا انتبه أكد له

(١) غالبا هو الخشيش الذي كان مستخدما في هذا الوقت ، وقد سمي الصليبيون الاسماعيليين بالقتلة ASSASSINS ولعل ذلك لامعائهم في الاغتيال والقتل ، او لعله - كما يرى البعض - تحريف لكلمة خشاشين التي ربما اطلقت على الاسماعيليين في هذه العصور بسبب طريقتهم في استعمال المخدر في اغواء الفدائيين على النحو المذكور .

الشيخ أنه لم ينتقل من مكانه ، وأن الذي رآه وآنسه في ذموله إنما هو الفردوس بذاته وأنه يفوز بهذا الفردوس الى الابد بحسن طاعته وبذل نفسه ، فيلتمس الفدائي من أمامه فرصة للتضحية وبذل النفس ، فيدفع به الى الامام الى قتل من تقرر قتله من خصوم الطائفة من الامراء والوزراء والفقهاء وغيرهم . وبهذه الوسيلة استطاع الاسماعيلية أن يحشدوا فرقة هائلة من فتيان مقاتلين ، لا يهربون الموت بل يطلبونه ويطاردون فرائسهم بعزم لا مثيل له في تاريخ الجريمة » .

وقد لا تكون مغالين اذا شبهنا هذه الاساليب بتلك التي استخدمتها فلول جماعة الاخوان المسلمين المنحلة في أيامنا هذه ، من استغلال الدين لتحقيق أطماع سياسية . فهذه الجماعة استطاعت أن تحشد جموعا غفيرة حولها مستغلة الدعوة للدين للتأثير على عقول كثير من البسطاء في تحقيق ما ربها للسيطرة على السلطة . ان أسوأ ما في البشرية أن تقوم الجماعات الدينية المختلفة بالجمع بين السلطة الروحية والزمنية ، فحينما تحولت هذه الجماعة من جماعة روحية تحاول أن تطبق تعاليم الاسلام الى جماعة سياسية تحاول السيطرة على السلطة والحكم مستغلة الدين كان في ذلك دمارها وخرابها . ولقد استغلت نفس الوسائل التي استخدمت قديما في التأثير على العقول ، وجمعت أعدادا غفيرة من : المتطرفين ، والمتعصبين ، والبسطاء ، والمضللين ، واستغلتهم أسوأ استغلال في عمليات الاغتيال والارهاب . ولئن اختلفت الوسائل في الشكل فان الاساليب التي استخدمتها هذه الجماعة هي نفس الاساليب التي استخدمتها الجماعات الهدامة القديمة .

ان الجهاز السري الذي أنشأته هذه الجماعة للقيام بعمليات الاغتيال والارهاب بين ربوع البلاد العربية جمعاء لدليل واضح على الوسيلة الفاضحة التي استخدمتها هذه الجماعة في السيطرة على السلطة . ويمكننا أن نتساءل هل يستطيع الارهاب وحده أن يؤثر في عقلية الجماعات والافراد ؟ الاجابة عن هذا السؤال سهلة للغاية وهي أن الارهاب قد يفيد في بعض الاحيان ولفترة وجيزة في تغيير عقلية بعض الناس ، ولكن حينما يزول هذا الخطر فانه ليس هناك مانع من أن يرتد هؤلاء الذين اعتنقوا هذا المذهب تحت ظروف معينة الى عقيدتهم القديمة .

لقد بث في عقول أفراد الجهاز السرى للاخوان المسلمين عقيدة تعصب وزيف ، وأصبحتوا اداة صماء في يد تلك الجماعة تحركها تبعها لاهوا المسيطرين على هذه الحركة ، من أعمال الاغتيال والارهاب . ان الأمثلة على ذلك واضحة وبارزة في تلك الصور العديدة من أعمال الاغتيال والارهاب التي قامت بها هذه الجماعة ضد كثير من الحكام منذ نشأتها ، بل ضد أبناء الشعب الذين لا يسايرونها ولا يؤمنون بأعمال العنف والتخريب .

* * *

وفي المسيحية قامت جمعيات سرية كثيرة على نمط نفس تلك الجمعيات التي قامت لهدم الاسلام كان هدفها هو الثورة على النصرانية وتقويض تعاليمها . ان جمعية « فرسان المعبد » Les Templiers التي أنشئت عام ١١١٨ ميلادية لتعتبر مثالا حيا لتلك الجمعيات التي تحاول أن تسخر عقول البشر لتحقيق مآربها . وحينما قام البابا بمطاردتهم ومحاكمتهم قبض على جميع فرسان المعبد الفرنسيين في أكتوبر سنة ١٣٠٧ ميلادية ووجه اليهم المحقق العام التهم الآتية :

- ♦ ان رسوم اللحاق بجمعيتهم تقترن بأهانة الصليب وانكار المسيح مع أعمال فجور شنيعة .
- ♦ انهم يعبدون صنما يقال انه صورة للآله الحقيقي .
- ♦ انهم يغفلون الفاظ التقديس حين القاء اقداس .
- ♦ ان زعماءهم يزاولون حق منح الغفران مع أنهم ليسوا من رجال الدين .
- ♦ انهم يبيحون ارتكاب الشلوذ الجنسى .

وفي التحقيق الذي أجرى مع أعضاء هذه الجمعية اعترف كثير من الفرسان ومنهم الاستاذ الأعظم بالتهم المنسوبة اليهم ، وقرر بعضهم أنهم عند إلحاقهم بالجمعية كان يقدم اليهم صليب نصب عليه تمثال المسيح ، ثم يسألون عما اذا كانوا يعتقدون في الوهيته ؟ فاذا أجابوا بنعم ، قيل لهم : انهم على ضلال ، لأن المسيح ما هو الا نبي زائف . وقرر آخرون أنهم قدم اليهم صنم أو رأس ملتج

ليعبده ، كما اعترف آخرون أنهم كانوا يؤمنون بالبصق على المسيح ، وقال كثيرون منهم أنهم أجبروا على ارتكاب أفعال شائنة من الفجور مثل ممارسة السلود الجنسي وقد هددوا بالعذاب والقتل اذا لم يمثلوا .

وعلى كل حال فان العقيدة التي استغلها الفرسان كانت عبارة عن خروج على النصرانية ، ويعرف لوازير نظريتهم في الألوهية بقوله :

« يعترف فرسان المعبود في نفس الوقت بأنه خير لا يصل البشر اليه وليست له اشكال مادية ظاهرة ، واله شرير يمثلونه بصنم رائع الشكل ، وهو الاله الأدنى منظم العالم المادي وسيله ، خالق الخير والشر ، الذي نفت الشر في الخليقة » .

* * *

وبرغم ذلك فان دعوة الهدم تخدم بمطاردة الفرسان وحل جماعتهم . ولكنها نفذت في الواقع الى أعماق البيئات المظلمة في مختلف الدول الاوروبية ، واتخذت مبادئ الاخاد والثورة على الدين أطوارا جديدة . ففي أوائل القرن الرابع عشر اتخذت الحركات الهدامة وسائل جديدة هي : ايثار الشر ، وعبادة الشيطان أو التوسل بالقوى الشريرة الخفية على محاربة القوى الخيرة ، أو بعبارة أخرى ما يسمى بالسحر الأسود . وقد كان التوسل بالخفاء والظلمات معروفا منذ العصور الغابرة ، كما أن للسحر دولة ترجع الى أقدم المجتمعات الانسانية سواء في الشرق أو الغرب . ولكن حركة السحر الاسود التي ظهرت في خاتمة القرون الوسطى واجتاحت كل المجتمعات الأوروبية كانت دعوة منظمة ، وثورة واسعة النطاق على سلطان الكنيسة وتعاليم النصرانية ، وان بدت في ظاهرها طائفة من الحركات المحلية .

وفكرة هذا المذهب هي التدنيس ، فلا تتم شعائر التوسل بالشيطان الا بتدنيس شعائر الدين وسحق أقدم رسومه ورموزه . وهو ما يعنيه ابن خلدون في مقدمته بقوله : « رياضة السحر كلها انما تكون بالتوجيه الى : الأفلاك ، والكواكب ، والعوالم العلوية ، والشياطين بأنواع التعظيم ، والعبادة ، والخضوع ، والتذلل ، فهي لذلك وجهة الى غير الله وسجود له ، والوجهة الى غير الله كفر » .

والواقع أن ربحاً عاتية شاملة من شغف الخفاء لبث نحو ثلاثة قرون
تعبت بعقلية المجتمعات الأوروبية ، وتمعن في تحطيم التعاليم والتقاليد الدينية
والكنيسة ، ولبثت الكنيسة من جانبها تطارد هذه الحركة بكل قوة وعزم تارة
بإنشاء الجماعات الدينية الرجعية ، وأخرى بواسطة مجالس التحقيق . وفي عام
١٤٦٠ م ظهرت بادرة بوجود طائفة سرية منظمة لعبادة الشيطان ومزاولة السحر
حيث اندس السحرة والمشعوذون في جميع المجتمعات الأوروبية ، وعهد في معظم
الدول إلى القضاء المدني بمحاكمة أعضاء هذه الطائفة لاستفحال أمرها واشتداد
عنفها . وقد كانت ميول العصر وتقاليدته ترمي إلى أن تلحق المخترعين
والكيميائيين وغيرهم من النابهن بطائفة السحرة وأخوة الشياطين ، وكان العلم
يعتبر من العناصر الشيطانية حتى أن معظم العلماء والفلاسفة الذين كان تفكيرهم
يسمو على هذا العصر كانوا معرضين دائماً للريب والشبهات .

ويقول فولتير : « كان يلجأ عادة إلى اليهود في تادية الشئون السحرية
ويرجع هذا الوهم القديم إلى اسرار الكابالا^(١) التي يزعم اليهود أنهم وحدهم
يملكون أسرارها . وكانت كاترين دي مديتشي ، والمارشال دانكر وكثيرون
غيرهما يستخدمون أنيهود من أجل هذا الامتياز » .

والحقيقة أن نسبة السحر الأسود إلى اليهود منذ أقدم العصور برغم
ما يشوب هذه الروايات من مبالغة له أساس ، فقد جعلوا من أنفسهم موضعاً
للشبهة والشك بالانهماك في مزاولة فنون السحر ، وأكثر من ذلك أن التوسل
إلى الشياطين فكرة يهودية في الأصل ، بل هي من تقاليد اليهود ومعتقداتهم
القومية فقد ورد في التلمود مثلاً :

(١) الكابالا مزيج من الفلسفة والتعاليم الروحية ، والشعوذة والسحر متعارف عليها عند
اليهود منذ أقدم العصور ، وقد ظهر أثر تعاليمها في المجتمعات الأوروبية وبالأخص منذ
القرن الثاني عشر ، 'وخلاصة هذه التعاليم هي أن الله هو كائن مطلق ولا كائن هذا الكائن
يشعر بوجوده فهو ينفث نفسه إلى عالم الأرواح النقية والملائكة من طرق مختلفة ، وإن
روح الإنسان تنتقل من جسم إلى جسم حتى تعود في النهاية إلى الله وتلفى فيه .

« إذا استطاعت العين أن تبصر الشياطين التى تعمر الكون كله كانت الحياة ضربا من المستحيل ، ذلك لأن الشياطين أكثر منا عددا ، وهم يحيطون بنا من كل صوب ، ولكل منا على يساره ألف شيطان ، وعلى يمينه عشرة آلاف »
ويعتد التلمود فوق ذلك الطريق التى يستطيع الانسان أن يبعد بها الشياطين
وغيرها من ضروب التخويف والوهم .

ولا ريب أن السحر كان قوة عظيمة فى مثل تلك العصور التى كان يعصف فيها الجهل المطبق بعقلية المجتمع ، وكان للخرافات والالوهام السخيفة التى تلصق بالدين سلطان قاهر على النفوس ، كما كان التماس السحرة لعالم الخفاء والغيب فتنة خلافة للذهن البشرى ، ومن ثم كان نفوذهم وكان انتشار تعاليمهم وطرقهم فى جميع أنحاء العالم .

وفى منتصف القرن السابع عشر عصف بالمجتمع الأوروبى وباء رهيب من الشعوذة ، واجتاحها شغف الاحاطة بما وراء الطبيعة والغيب ، وذاع السحر فى معظم البلاد الأوروبية . وقد ظهر هذا التطور واضحا فى فرنسا فى عهد لويس الرابع عشر حيث اجتاحت المجتمعات الراقية حمى الأبحاث الطبيعية ، كمحاولة استخراج الذهب من المعادن الرخيصة ، وصنع السموم والمخدرات والمركبات الفرامية . وظلت تلك الأعمال الرهيبة التى كانت تروع الناس بأسرارها وضحاياها مستمرة مختلفة حتى اكتشفت مأساة السموم سنة ١٦٦٦ م عقب موت الشيفاليه دى سانت كروا ، والقبض على خليلته المركيزة دى برافلييه . ولم يكن السحرة الذين يعملون فى هذا الوقت أفرادا متفرقين يعملون باستقلال ذاتى ، إنما كانوا ينتمون الى جمعية سرية كبرى ذات شعب وفروع فى جميع أنحاء أوروبا ، وقد كشفت التحقيقات عن هذه المأساة مفاجأة غريبة ، فقد ظهر أن المتآمرين حاولوا مرارا أن يقتلوا : الملك ، وولى العهد ، وكولير ، ومدام دى لافليير ، بواسطة السم ، وأن الكثيرين من الخاصة وعظماء البلاط كانوا يلجأون الى السحرة والمسممين للانتقام وقضاء حاجاتهم ، حتى قيل أن مدام دى مونتسيان خليفة الملك كانت تسعى الى استبقاء غرامه ووده بإقامة القداس الأسود ، والاستعانة بلافوازان أشهر ساحرة فى هذا العصر .

وفي القرن الثامن عشر حيث كانت النهضة العلمية لا تزال في المهد وصلت أساليب الجمعيات السرية الى ذروتها من الانتشار والتسلط على الأذهان . هذا الدور الجديد كان يكمن في القوة الخارقة التي يدعى السحرة والمشعوذون أنهم بلغوا فيها درجة لا تضارع من الازدهار ، فذاع أمر أكسير الحياة ، وظهر جاعة من أقطاب الدعاة السريين بذوا سلفهم في الابتكار والتأثير ، والتسلط على الأنفس .

كان هذا العهد عصرا ذهبيا للأدعياء والعرافين السحرة ، وكان أولئك الدعاة يناهضون العلم من جانبه الغامض ، ويزعمون أنهم وصلوا الى ما لا يستطيع العلم ادراكه . ففي الوقت الذي بدأ فيه العلم دراسة الموضوعات الطبيعية دراسة جديدة نهض فردريك مسمر^(١) الالماني زاعما أنه يستطيع شفاء جميع الأمراض ، ولا سيما الأمراض العصبية وذلك بتعريض أجسام المرضى الى تأثير ما كان يسميه بالمغناطيسية الحيوانية . واستطاع أن يؤسس من الذين وفدوا اليه طلبا للشفاء جمعية سرية عرفت « بأصدقاء التناسق » . وان كنا لا نستطيع أن نقدر من الناحية العلمية قيمة ما قام به هذا الالماني من أعمال اذ كان الشفاء يأتي للمرضى على أثر نوبة عصبية تعترض المريض ، الا اننا نستطيع أن نقول : أن إيمان المريض وعقيدته كانا يساعدان غالبا في نجاح التجربة في كثير من الأحوال .

وبالإضافة الى تلك الجهود التي قام بها مسمر آمن بتجاربه وعلمه نفر من الأطباء والعلماء ، ورأوا أنه افتتح الطريق الى ميدان مثير جدا ، واعتبروا أن مغناطيسية مسمر الحيوانية هي التي تطورت بعد تجريبها من نواحيها الخرافية الى علم حقيقي نعرفه اليوم باسم التنويم المغناطيسي والذي سنتحدث عنه فيما بعد .

(١) ولد فرانتز انطوان مسمر في عام ١٧٣٣ م في قرية صغيرة في النمسا هي قرية ايسناج بالقرب من بحيرة كونستانس . وكان مسمر قد عقد النية على الرهبنة فالتحق بمدرسة الرهبان حتى سن الخامسة عشرة ثم تحول الى القانون ، وفي نهاية الأمر درس الطب وحصل على درجته العلمية وهو في سن الثانية والثلاثين بعد أن قدم رسالته عن تأثير الكواكب على الجسم البشري ، وتضمنت رسالته هذه أول إشارة الى آرائه عن «المغناطيسية الحيوانية» وهي نظرية توسع في شرحها بعد ذلك في مجموعة المقترحات السبعة والعشرين ، المشهورة وتضمنت في جوهرها النقاط الرئيسية لتعليمه .

وفي هذا العصر أيضا ظهر كثير من السحرة الأصاغر مثل : شريدر الذي أسس عام ١٧٧٦ م جمعية سرية لمزاولة السحر ، وجاسنر الالمانى الذى عكف حينا على مزاولة الأعمال الخارقة والمعجزات ، وليون اليهودى وهو عضو من طائفة لبثت حينا تقرر بعقول البسطاء وتسلب أموالهم بعرض الماريا السحرية التى يرون فيها أصدقاءهم الغائبين . ومن هنا نجد أن هذا العصر انتابته هذه الموجة العاصفة من الاعتقاد فى تلك الاعمال ، مما مكن هؤلاء المشعوذين من أن يسيطروا على عقول العامة وعقول الطبقة المختارة من النبلاء وغيرهم ، وذلك لأن شغف الخفاء كان ينتاب هذا المجتمع .

ومن ثم فاننا نجد أن هذه الحركات التى سبق ذكرها استخدمت كثيرا من الوسائل السيكلوجية والميتافيزيقية المعروفة من : ارهاب ، وخوف ، وقلق . واستغلال التعصب الدينى والسياسى ، وكذا الشهوات والاهواء البشرية ، وأعمال الشعوذة والسحر الاسود ، والمخدرات - فى السيطرة على عقول الناس وتحويل معتقداتهم وأنماط سلوكهم الى معتقدات جديدة وأنماط من السلوك تختلف تماما عما اعتادوها من قبل .

* * *

على أن المقارنة بين الأساليب التى سبق ذكرها ، وتلك التى تستخدم بواسطة القبائل البدائية فى جميع أرجاء العالم لاعداد المراهقين من الصبية وتكييفهم نحو المجتمعات الدينية يجدر بنا ذكرها لأن العوامل الفسيولوجية التى تحكمها تكاد تتشابه . ومع ذلك ففى مثل هذه الحالات نجد أن للميول الجديدة المطلوب تثبيتها اتصالا وثيقا مع تجاربها السابقة وتقاليدها الثقافية الموروثة .

ويصف جوستاف بولندر فى كتابه « أكمة الشيطان » كيف يؤخذ أبناء غرب أفريقيا من والديهم الى معسكر فى الغابات حيث يخلعون ملابسهم ويتعرضون الى عناء فسيولوجى شديد باثارة الخوف فيهم ، فكان أول ما يتعرضون له هو أن يقدم المشرف عليهم لهم شرابا ويوحى اليهم بأنه سوف يقتلهم عاجلا او آجلا اذا ما كشفوا أسرار هذا المجتمع أو تفاصيل الطقوس التى سيمارسونها ، ثم يتلو ذلك الحمام الدينى ، وعند الاصيل يقفون فى صف واحد ليشرح لهم :

« ان الحياة خارج « بورو PORO » لا تساوى شيئا ، والانسان الذى لا يحصل على شرف عضويته يسبح فى الظلام ، اذ أنه لا يمكن له الا عن طريق « بورو » أن يدرك الهدف الذى يعيش من أجله ، والشخص الذى يرغب فى أن يصبح عضوا فى « البورو » لا بد له أن يودع الحياة التى عاشها من قبل ، ومن ثم يولد من جديد ! » .

وحينئذ يعرض عليهم وهم فى هذه الحالة من التوتر والخوف قناع الجمعية السرية ، فيقترب منهم بعيون جاحظة وحواجب كثة مع فكين متضخمتين كفكى التمساح الذى تتلأأ أسنانه وهى مخضبة بالدماء ، وتنساب لحيته كالشبح المسن ، وله قرون وريش فوق رأسه بحيث يظهر على شكل لا علاقة له بالشكل الادى ، بل يكون أقرب الى صورة الشيطان .

ويبدو هذا الشيطان حقيقيا بالنسبة للأولاد فيزداد رعبهم ، الا انه ليس مسموحا لهم أن يحدثوا أى صوت يعبر عن الجزع ، ثم يوضعون جنبا الى جنب على الارض ، ويقوم مساعد الشيطان بحمل كل واحد منهم بالبور ويضعه بين فكى الشيطان وهو فاقد الوعى نتيجة الخوف . وحينئذ ينقلون ثم يتعرضون فجأة لطقوس أليمة من الوشم الدينى ، ويصاحب الحفل أصوات عالية من أصوات الآلات الخشبية .

وبالتدريج يسترد الأطفال أنصاف الواعين حواسهم ويحسنون اقتناعهم بأن الشيطان قد انتهى معهم ، وقد رفعهم بورو الى مستوى حياة جديد .

وبعد أن يتم اندمال الوشم فى أيام قليلة ، يبدأ الاولاد عملية تدريب طويلة فى المعسكر المخصص كأعضاء نافعين للقبيلة والمجتمع الذى أصبحوا من أفراد ، وتبدر عادات الطفولة فيتعلمون الى جانب ما يلقنونه من التعاليم الاتجاهات الصحيحة التى يجب عليهم السير فيها لزيادة صلابتهم وقوتهم ، كما يدرّبون تدريبا جيدا على : الأشغال اليدوية البدائية ، والتجارة ، وصيد الأسماك ، وما شابه ذلك .

ولازالة بقايا الشخصية الفردية أو الآراء غير المستقيمة تستخدم تدريبات معينة تبدأ بحركات مملة يقوم بها الولد وتنتهى بطقوس صوفية ، والعامل الاول هنا هو الرقص . فيقوم الأولاد بالرقص حول الشجرة في بطن ورءوسهم منحنية تصاحبهم الطبول الخشبية بأصواتها وبدون توقف ، ويستمر الرقص البطيء المتوافق ساعات بعد ساعات ، وفى النهاية يصبح الأولاد نصف واعين يتحركون آليا على النغم المستمر المتكرر ، فيحسون أنهم ارتفعوا عن الارض وأصبحوا مندمجين فى وحدة مع شيطان الغابة القوى ، ويشعرون أن روحهم قد ارتفع شأنها .

ويقص فريزر أمثلة أخرى عن الاعداد الدينى فى كتابه « الفصن الذهبى »
The Golden Bough فيقول :

« ان بعض القبائل فى شمال غينيا الجديدة . وكثيرا من القبائل الاسترالية كذلك تجعل الحتان مظهرا جوهريا من مظاهر الاعداد القبل ، وهم يعتقدون أن هذا الاعداد عبارة عن عملية ابتلاع يقوم بها حيوان أسطورى ضخم يسمع صوته عند مهمة آلة خشبية أسمها Bull Roarer تدور حول الرأس فوق وتر فتطلق صوتا يشبه صوت الثور الذى يخور ، أو العاصفة العاتية » .

ويستمر فى شرح هذه العملية ووصف بعض وسائل الابتلاع التى لابد للشخص من أن ينجو منها بقوله :

« والآن عليه أن يمر بعملية الحتان الخطيرة ، ويفسر البتر الذى يتم بمبضع الجراح على أنه عضه أو هرشة يقوم بها الوحش الرهيب فى الشخص عندما يلغظه من بين فكيه القويين ، وفى أثناء العملية تطلق الدفوف الخشبية المتأرجحة صوتا رهيبا لتمثل زئير الوحش فى أثناء عملية ابتلاعه للشيطان » .

وبعد أن تتم طهارة الصبية يقون لبضعة أشهر فى خلوة ، ويحرم عليهم أى اتصال بالنساء أو حتى مجرد رؤيتهن ، فيعيشون فى الكوخ الطويل الذى

يمثل بطن الوحش الهائل • وفي النهاية عندما يرقى الصبية الى رتبة المتبتلين يردون بحفل صاحب الى القرية فيستقبلون بدموع الفرح من جانب النساء كما لو كانت القبور قد لفظت من فيها من الموتى » •

لقد ترك كل واحد منهم قريته طفلا ، وها هو ذا يعود اليها رجلا له شأنه ، ومن ثم فهو يشب في الفضاء بنشاط وخفة مزهوا بنفسه ليثبت اكتمال قوته ورجولته •

وفي احتفالات أصحاب الأديان البدائية ، نرى دقات الطبول المنتظمة وحركات الرقص العنيفة تصل بالانسان الى حالة من حالات الانهيار الانفعالي والفسولوجي ، اذ يحدث أن تشيع الفوضى في وظائف المخ الطبيعية نتيجة الهجوم عليه بأنغام صوتية متوافقة قوية تليها أخرى بتوقيت مختلف مع حركات الرقص العنيفة ، وغالبا ما تستعمل المشروبات الكحولية ، والعقاقير لزيادة استشارة الراقصين الدينيين •

هذه العوامل مجتمعة تساعد على أحداث الانهيار العصبي ، وتسيطر على النفس مشاعر التحرر من : الائم ، والخطيئة ، والاحساس ببداية حياة جديدة ، ويكون الانسان مستعدا لتقبل أى ايعاءات أو معتقدات •

وتوضح الطقوس الدينية التى تمارسها بعض القبائل فى غرب أفريقيا مدى سهولة تقبل الايعاءات عن طريق تعرض المخ لتوترات فسيولوجية عنيفة ، وللساحر فى هذه القبائل أساليب متعددة من العبادة ، ويمارس الأهالى طقوسهم فى جو صاحب من دقات الطبول ، والرقص العنيف •

فاذا ما أصيب شخص بمس مثلا فانه يحضر الى الساحر الذى يأمره بان يقوم بحركات تنسجم مع ما يتطلبه نوع معين من الطقوس الدينية حتى يصل الى مرحلة من الغيبوبة ويفقد القدرة على التذكر ، ولكنه عندما يسترد وعيه مرة أخرى بعد ساعة ، أو أكثر يشعر كأنه ولد من جديد •

وتبين حالة الرجال والنساء الذين أعدوا لحالة من الحالات القابلة للإيعاء بواسطة دقات الطبول قوة مثل هذه الأساليب ، فزيادة الاستشارة والقابلية نتيجة تغير ارتفاع دقات الطبول ، وقوة الغناء والتصفيق بالأيدي لزيادة حدة الحماسة الدينية تؤدي في النهاية الى احداث الانهيار التام حيث يتحول الافراد الى استسلام تام ، وحينما يستيقظون بعد ذلك يشعرون بمشاعر البعث الجديد .

ويؤيد ذلك ما تقوله بيرل بريمس Pearl Primus الكاتبة الزنجية الامريكية في كتابها « الرقص الافريقي » :

« لا أستطيع أن أفكر في أفريقيا دون أن أسمع ثنائية دقات الطبول العالية ، ودون أن تمر أمام عيني حشود الراقصين ، وسرعان ما أحس الاستجابة حتى كاني أفكر في نفسي وكأنني أركع على ركبتى أمام « أواني » زعيم شعب « الايفي » IFE لأسمع من بين شفثيه « أومي . . والى » أى « الطفلة التى تعود الى وطنها » ، وكلما خطر لى هذا أحس وكان قوة خفية تمسك بلواعى معطلة سير عجلة الزمن فأتوقف عن الكتابة لأهدى هذا الجانب من روحى الذى يصرخ بى قائلا : « أرقصى . . أرقصى » .

وليس من الصعب أن ندرك السبب الذى يجعل للرقص مع ما يصحبه من دقات الطبول والموسيقى والغناء هذه المكانة الكبيرة فى حياة القبيلة ، فالرقص والغناء هما فى أبسط صورهما تعبير أولى عن عوامل اثارة المشاعر ، وعن الاستجابة طوعية للبائع عن هذه المشاعر ، فاذا كان البائع يسبب توترات فى بعض المناسبات فان الحركات والتعبيرات الصوتية لا تلبث أن تأخذ طابع اظهار السرور فى الزواج أو عند مولد طفل .

وتتوافر مظاهر ردود الفعل لهذه المناسبات فى أنها لا تجيء وسيلة لاطلاق العاطنة فحسب ، بل فى زيادتها وتعظيمها ، فمثلا تعمل الروح الاعتدائية التى يعبر عنها برقصة الحرب على ايجاد اندفاع تعصبى بين أفراد القبيلة نحو العدو .

* * *

على أنه إذا كان الرقص يلعب هذا الدور الكبير في حياة القبائل البدائية الدينية ، فإنه كان له الأثر في المجتمعات الأوروبية .

ففي القرن الرابع عشر انتشر الطاعون في أوروبا وقضى على الملايين من البشر ، وسرعان ما ساد وهم غريب في ألمانيا استولى على أذهان الرجال بأن رقصة القديس جون ، أو بمعنى آخر القديس فينس تقى الناس هذا الوباء . وصلح الكثيرون هذا الوهم متأثرين بالقفزات الكهنوتية التي كان يتميز بها هذا النوع من الرقص ، وكانت حركات الرقص العنيفة ، وصراخ الراقصين ، وثورة غضبهم تعطي مظهرا بأنهم قد مسهم الجن أو الشيطان .

ويصف ج . ف . هيكز جنون الرقص الهستيرى الذى انتشر في أوروبا بقوله :

« يكون الراقصون دائرة في الشوارع أو الكنائس ، ثم تتشابك أيديهم ويستمترون في الرقص دون أن يابها بالواقفين الى جوارهم لساعات كاملة ، وفي النهاية وبعد هذه الثورة الهوجاء يسقطون على الأرض في حالة انهيار تام » .

وحتى بداية القرن السادس عشر عندما أصبح جنون الرقص موضوع اهتمام طبي من جانب باراسيليس الألماني وغيره كانت الكنيسة وحدها هي التي تعتبر قادرة على علاجه ، وقد تنبأ هيكز بأن الدواء الناجح لشفاء هذه الحالات هو أن تجعل المريض يستمر في رقصة حتى يصل الى نقطة الانهاك الكامل والانهيار العصبي .

وكان الواقفون أمام حلقات الرقص لا يستطيعون أن يكبحوا جاح الراقصين الا بوضع عوائق ومقاعد في طريقهم ، حتى يستطيعوا أن ينهكوا قواهم بأغرائهم بالقفز عاليا .

وكان الراقصون بعد أن تنهك قواهم يتساقطون على الأرض كالأموات ، ثم يستردون قواهم تدريجيا وببطء . على أن العلاج بواسطة أحداث مثل هذه

النوبات نجح تماما للدرجة أن عاد كثير من المرضى الى مصانعهم أو مزارعهم وكان شيئا لم يحدث لهم •

وظهر جنون مشابه تماما في القرن السابع عشر في ايطاليا حيث عزيت الأعراض العصبية الى عضبة عنكبوت الذئب الضخم Tarantula Spider واستخدمت رقصات الذئب لضمان شفاء المرضى ، ويذكر هيكز أن هذا الاعتقاد كان لا يزال قويا للغاية للدرجة أنه شاهد مرضى يقاسون من أمراض الحمى الخبيثة وهم يجبرون على الرقص على نغم الموسيقى تخشيتهم من أن تكون الأعراض راجعة الى عضبة الذئب • وقد مات واحد من هؤلاء في الحال ولحقه اثنان بعد فترة وجيزة •

* * *

ولقد اعتبرت الكنيسة الكاثوليكية الطاعون « الموت الاسود » كنوع من العقاب نتيجة مساوئ أمة المسيحيين ، واستغلت التهديد بعودته كوسيلة من وسائل إعادة النفس الى الخضوع ، وإلى التفكير الحقيقي •

وقد تم بموافقتها انشاء جمعية « اخوان الجلادين » والتي كانت تسمى « اخوان الصليب » حيث كانت تتم فيها اجتماعات للاعتراف علانية بالخطايا ، والتوسل الى الله لرفع غمة الطاعون ، وأصبحت جماعات « اخوان الصليب » منظمة تنظيما جيدا •

وعلى الرغم من أنها بدأت كطبقة عاملة ، وحركة من حركات عمال الزراعة فان الطبقات الأكثر ثراء هي التي سيطرت عليها • وكانت وسائلها للاستشارة الجماعية فعالة للغاية ، اذ كانوا يدقون النواقيس وينفخون المزامر ، ويجلدون أنفسهم حتى تنسيل السماء • وقد وجد قادتهم أن من المفيد أن ينظموا الحملة ضد اليهود لا لتهمة صلب المسيح القديمة ، ولكن لتهمة جديدة وهي نشر الطاعون عن طريق تسميم الآبار •

وكما لقي هتلر في تحويله الجماهير الالمانية للعقيدة النازية العون من : نغمات الموسيقى ، والأغاني الحماسية ، ومواكب الشعلة ، وما شابه ذلك لا تارة

الناس وجعلهم في حالة من الهستيريا لتقبل أى إيعاءات قبل أن يتحدث اليهم ،
فان نفس الأساليب ساعدت اخوان الصليب الذين تنبأوا بغضب المجتمع على
السامية ، ففي مدينة مينز وحدها انتحر في يوم واحد اثنا عشر يهوديا ، وغالبا
ما كان وصول موكب من مواكب اخوان الصليب الى أى مكان علامة من علامات
المجزرة التي ستحدث .

على أن التبشير عن طريق العقل دون أحداث استشارة انفعالية في المستمع
يعتبر عديم الجدوى ، ففي حركة الاحياء الديني لمذهب جون ويزلى لم تنجح جهوده
كمبشر وواعظ الا بعد أن نجح في خلق نوع من الانفعالات في مستمعيه ، وتمكن
من مخاطبة العاطفة أكثر من مخاطبة الذكاء ، وقد حصل بذلك على أسلوب فعال
في تحويل الناس نحو مذهبه الديني .

كان أول شيء يقوم به ويزلى هو أن يخلق توترا انفعاليا عاديا في من يود
تحويلهم ، ولقد وجد أن من السهل اقناع عدد كبير من المستمعين بأن عدم
التوفيق في الحصول على الخلاص يستتبعه دائما عذاب الجحيم الأبدي ، وكان تقبل
الناس لهذا الإيعاء تجعلهم في حالة توتر انفعالي شديد لدرجة أن أى شخص كان
يغادر الاجتماع دون أن يتحول ، ثم يصيبه حادث مفاجئ خطير قبل أن يكون قد
حصل على الخلاص فإنه يشعر بأنه يسير مباشرة الى أتون النار ، وكان هذا
الشعور الملح يزيد القلق السائد الذي يمكن نقل عنواه الى جماعات الناس كلما
ازدادت القابلية للإيعاء .

ويصف جون نلسون وهو واحد من أقدر اتباع ويزلى التائبين كيف تحول
فجأة نحو هذا المذهب بقوله :

« وبمجرد أن اعلى ويزلى المنصة دفع بشعره الى الخلف ، واتجه بوجهه
نحوي حيث كنت أقف ، واعتقد أنه ثبت عينيه على وأشاع منظرة الرعدة في
أوصالي قبل أن أسمعته يتكلم ، لدرجة أنه جعل قلبي يدق كبندول الساعة ،
وعندما تكلم شعرت أن حديثه كله كان موجها الى » .

وقد عرف ويزلى فى الوقت المناسب أنه لكى يسيطر على السامع يجب عليه أن يقيس أولا قدراته العقلية والانفعالية ، ويقول فى تقرير له عن تجواله فى أيرلنده عام ١٧٦٥ ميلادية :

« ركبنا الى ووتر فورد وألقيت موعظة فى فناء صغير عن قسنا العظيم الاعلى الذى انتقل الى ربه فى سمائه من أجلنا ، ولكننى سرعان ما وجدت أننى ارتقيت بأسلوبى الى مستوى أعلى من مستوى أغلب المستمعين اذ كان واجبى يقضى على بالتحدث عن الموت ويوم الحساب . وفى مساء الثلاثاء نظمت حديثى بحيث يناسب المستمعين فلاحظت الانتباه العميق وقد ارتسم على كل وجه » .

ويصف ويزلى إحدى نتائج عظاته بقوله :

« بينما كنت أتحدث سقط واحد أمامى كاليت ، وفى الحال تبعه ثان وثالث ، وغاص خمسة آخرون فى أماكنهم لمدة نصف الساعة ، وكان أغلبهم يعانون آلاما عنيفة ، اذ سيطرت عليهم فكرة عذاب السعير ، وتحكمت فيهم فخاخ السموت ، وحينما توسلنا الى الله استمر أحدهم يحس أوجاعه الشديدة لمدة ساعة ، وظلت الآلام تؤرق واحدا او اثنين آخرين لمدة ثلاثة ايام ، على حين ظهرت راحة النفس على الآخرين فى تلك الساعة ، وانصرفوا فرحين مهللين ومكبرين لله » .

ويلاحظ أن فى مثل هذه الاساليب من الوعظ لا تكفى الهجمات الانفعالية على المخ للقصاء على الأنماط السابقة للسلوك ، لأن الانسان غالبا ما يحاول أن يهرب من هذا التوتر الاجبارى ، فيران الجحيم تتراعى للعين فتعط كنتيجة لرفض هبة الخلاص الأبدى الذى يكتسب بالايمان ، ولذا فان الانهيار العصبى الناجم عن محاولة الخلاص من العذاب الأبدى عن طريق التحول الكامل يمكن تعزيزه حينئذ بالاستعانة بدستور حب الله . ومع أن العقاب على الارتداد عن العقيدة يجب أن يكون عاقبا بالاذهان ، فان استغلال الحب حينئذ بدلا من إثارة المخاوف يساعد الى حد كبير فى تثبيت هذا الكسب .

على أن هناك تباينا شاسعا من ناحية درجة الخوف أو المتاعب التي يتعرض لها الانسان قبل أن يحصل على دليل للخلاص ، أو العفو ، أو القبول عند الله ، فبعض الناس يشعرون منذ البداية بأمل وشجاعة زائدة عن غيرهم ، ويلاقى البعض متاعب نفسية أقل بكثير من غيرهم ، اذ يبدو الموضوع بالنسبة لهم سواء ، كما كان يخشى آخرون غضب الله والخطر المحقق بهم من اللعنة لدرجة انهم لم يستطيعوا النوم ليلا .

وفي اغلب الاحيان كانت المخاوف الرهيبة والمتسلطة على الأشخاص تزداد بصورة أكثر كلما شعروا بقربهم من لحظة الخلاص على الرغم من أنهم غالبا ما كانوا يمرون بتغيرات وتحولات في نطاق عقولهم وظروفها ، فاحيانا كانوا يعتقدون أنهم فقدوا الوعي تماما ويخشون أن روح الله قد تخلت عنهم وتركوا لقادارهم الصعبة ، وفي أحيان أخرى يبدو لهم أنهم قد امتحنوا امتحانا قاسيا من هذا الخوف وأصبحوا في لهفة تامة نحو الايمان مرة ثانية .

* * *

على أن الطقوس الدينية التي كان يمارسها راسبوتين الراهب الروسى الارثوذكسى، والتي كان لها سحرها العميق على آخر قيصر في روسيا ، اعتمدت على احداث الاثارة الانفعالية فى أتباعه كما أنها لا تختلف عن الأساليب المعروفة التي استخدمت فى عمليات التحويل الدينى أو السياسى .

ويصف الامير يوسو فوف الذى أحس عام ١٩١٦ م أن واجبه الوطنى يحتم عليه اغتيال راسبوتين هذه الأساليب بقوله :

« لقد خضع راسبوتين لنفوذ قسيس أيقظ فيه الروح الصوفية الا أن تحوله كان يعوزه الاخلاص . وتبعا لطبيعته الشهوانية الوحشية انجذب بسرعة الى طائفة الجلادين الذين يدعون أنهم تلقوا وحى الكلمة ، وأنهم تجسدوا روح المسيح .

« وقد اعتاد اتباعه الاجتماع ليلا في كوخ او منطقة فضاء في احدى الغابات
تضاء بمئات القناديل . وكان هدف هذه الاجتماعات هو خلق انفعال ديني وثورة
عصبية ، وبعد ترتيب التواشيع يكون الاتباع حلقة ثم يتمايلون في حركات
متوافقة ، ثم يدورون بعد ذلك وتزداد حركة دورانهم . »

« ونظرا لأن حالة من حالات الغشيان تعتبر جوهرية من أجل الفيض الالهي ،
فقد كان سيد الحفل يجلد أى راقص يغبو نشاطه ، وينتهي الحفل بخلاعة بشعة
فيتمرغ كل شخص على الارض وهو في حالة غيبوبة ، أو في حالة تشنج فيقولون :
ان الشخص الخاضع لسيطرة الجن لا يملك نفسه بل يصبح مملوكا للجن الذى
يسيطر عليه ، ويعتبر مسئولا عن جميع اعماله وعن كل خطيئة يرتكبها . »

* * *

ويصف لنا د . فورستيه في كتابه عن الماسونية صورة لما كان يحدث في
احتفالات الماسونيين الفرنسيين ، وهي صورة أخرى للأساليب التى تستخدم
لخلق استثارة انفعالية في الأعضاء حتى يصبحوا في حالة استعداد لتقبل
تعاليم الجمعية :

« يبدو ان المائة كانت النقطة الثابتة التى تجمع البنائين الأحرار . انهم
يريدون ان ياكلوا ويشربوا ويستمتعوا ، وهذا ما يثير تأملاتهم » .

كان الشراب يتغير على المائة ثلاث مرات أو خمسا أو سبعا أو تسعا ،
وكانوا يطلقون على الزجاجة برميلا صغيرا وعلى الخمر والماء بارودا . ان الماء بارودا
ابيض والخمر بارودا احمر . وكانوا يتدربون على طريقة خاصة للشراب فحينما
يشربون فى الاحتفالات يقولون : « أعطنى من البارود » فيقف كل منهم ، ويقول
المحترم « عبثوا » فيضع كل منهم خمره فى طاسسته لأنه كان لا يسمح لهم
باستخدام الكئوس .

ثم يقال لهم بعد ذلك : « ارفعوا الأيدي الى السلاح ، النار ، فيقومون
بحركات ثلاث وهم يشربون - ففى الحركة الأولى يضعون الأيدي على الطاسة ،

وفي الثانية يضعونها امامهم كأنهم يعرضون سلاحهم ، وفي النهاية يشربون
وعيونهم مصوبة الى المحترم ليقوموا بالتمرين دفعة واحدة • وحين يسحبون
الطاسات يضعونها امامهم ثم يحملونها الى التلى الايسر فالى التلى الايمن ،
ويقومون بهذا العمل ثلاث مرات ، ثم يهتف كل منهم بصوت عال ثلاث مرات
كلمة يعيش •

ولما كانت الوليمة لا تتم دون اغان فان البنائين الاحرار قد نظموا اغنيات
تؤكد ايمانهم بباخوس « اله الخمر » وبالمحبة الانسانية •

وكانت هناك محافل كثيرة يجرى فيها الغناء مصحوبا بأصوات ابواق الصيد
وغيرها من الآلات ، حيث ينشر اتساق النغم شعائر الاتحاد الوثيق ، وفي نهاية
الوليمة كان المدعوون يشكلون سلسلة بتشابك ايديهم ويلبسون نشيد انتهاء
المحفل بحماسة شديدة وهم متأثرون من الخمر :

ايها الاخوان والرفاق فى الماسونية ••

لنستمتع دون غم ••

بمسرات الحياة ••

وليكن شرابنا نخب اخواننا ••

برهاننا على اتفاقنا ••

* * *

ولقد اثبتت تجارب بافلوف وتجارب علاج مرضى الاعصاب فى الحرب
العالمية الثانية أهمية العوامل السيكلوجية والفسيلوجية فى مسائل التحول
الدينى والسياسى • وقد رأينا أن نجاح غرس العقائد الجديدة ، وإزالة أنماط

السلوك القديمة تطلبت خلق حالة من التوترات الشديدة لدرجة قد تؤدي الى حالة من الانهيار وتوقف وظائف المخ .

ويصف آرثر كوستلر Arthur Koestler (١) في كتابه « السهم الأزرق » Arrow in the blue كيف تحول فجأة الى الشيوعية :

« على الرغم من أنني كنت أميل الى الشيوعية لمدة أكثر من عام ، الا أن القرار النهائي الذي أصبحت بموجبه عضوا فعليا في الحزب الشيوعي جاء نتيجة سلسلة كاملة من أحداث بشعة تجمعت كلها في أسية من أمسيات شهر ديسمبر عام ١٩٣١ م لتجعلني استثار الى درجة من الغضب والمهانة والاشمئزاز » .

والحق ان الانسان اذا ما استثير الى مثل هذه الدرجة ، فانه غالبا ما ينهار ويصبح من السهل تقبله لاي ايعاءات ، لان الانسان كما وضعنا في الفصل السابق حينما يتعرض لتوترات شديدة متزايدة فان اضطرابات مختلفة تحدث في وظائف مخه تبعا لنمط مزاجه ، ويكون حينئذ مستعدا لتقبل أي ايعاءات ، كما انه تنقلب أغطا سلوكه المشروطة كما سبق ذكره ، ويتجه نحو أغطا جديدة .

ويستمر كوستلر في وصف حالته فيقول : انه ذهب في مساء يوم سبت لاحضار سيارته من ورشة مكثت بها لمدة ثلاثة أسابيع لاجراء بعض الاصلاحات ، ولما استلمها كان سعيدا بعودتها اليه فقادها الى مسكن صديق حيث اجتمع مع بعض الأصدقاء وأخلوا يلعبون الورق . وكان كوستلر يحب البوكر ولم يكن ماهرا في اللعب ولكنه كان من النادر أن يخسر كثيرا ، الا أنه خسر في هذا المساء ما يساوي أجر عدة أشهر وبشكل لا يمكن أن يتحمله .

وغادر المكان في حالة ألم ويأس الى حفل ساهر استمر حتى الثالثة صباحا حيث شرب حتى الثمالة ، وعند انصرافه لم يتنبه الى أن البرد قد اشتد بدرجة كبيرة ، وأنه ليس في السيارة جهاز مضاد للتجمد . فعندما تحركت السيارة

A. Koestler, Arrow in The Blue, Hamish Hamilton, London, 1952.

(١)

انفجرت الماكينة التى دفع ثمن اصلاحها فى صباح اليوم ، وبرزت كتلة من الجليد خارج رأس احدى الاسطوانات ، فكان المنظر يجعل أى قائد سيارة يبكى حتى ولو لم تكن السيارة ملكا له .

وازدادت متاعبه بعد ذلك ، فقد رآته فتاة ريفية فى تلك الحالة المحزنة وعرضت عليه استضافته فى مسكنها القريب ، وحينما استيقظ فى الصباح شعر بوطاة تانيب الضمير ، واللوم والقلق ، والاحساس بالذنب ، اذ وجد أنه اتصل جنسيا بفتاة لا يحبها ولا يشعر بها ، فضلا عن تحطيمه ماليا وتخريب سيارته .

ويعلق كوستلر بقوله :

« فمسلسلة الحوادث المؤسفة فى مساء هذا السبت بليت كأن القدر قد رتبها ، فعند عودتى الى مسكنى كان قرارى قد اتخذ على الرغم من شعورى بأنه ليس قرارى ، ولكن القرار هو الذى صنع نفسه . وفى أثناء سيرى جيئة وذهابا فى حجرتى انطبع فى ذهنى انطباع مفاجئ مؤداه أننى كنت أنظر الى أسفل ومن ارتفاع شاهر الى الطريق الذى كنت أجرى فيه ، فشاهدت نفسى بوضوح كخيال او ظل يخدم الثورة بالكلام ، تلك الثورة التى كانت تهز الارض هزا » .

وتحول كوستلر الى الشيوعية وظل شيوعيا مخلصا لمدة ست سنوات تالية ، الا انه حدث له بعد ذلك انقلاب مفاجئ يستوى فى شدته مع الاول ، وقد جاء هذا الانقلاب نتيجة سلسلة من الصدمات الانفعالية بعد أن اسر وسجن فى أثناء الحرب الاهلية الاسبانية .

لقد كان الخوف من التعذيب والاهانة ، وتصوره للموت الذى ينتظره بعد الحكم عليه بالاعدام ، ثم تصوره أمام حائط فى الشارع لنشر صورته فى متحف الاوغاد ويداه مصفدتان بالاغلال فى وسط جماهير معادية - كل هذه لعبت دورها فى احداث حالة له من التوتر الانفعالى .

وزاد هذا التوتر ما شاهده وهو فى السجن من عمليات الاعدام بالجملة .
ثم آتت فى ذهنه المثيرات التى أحدثت له التوترات السابقة وأوصلته الى اعتناق
الشيوعية فقللت من مقاومته .

لقد تراكمت متاعبه الجديدة على القديمة حتى أثبتت وطأتها المستمرة أنها
أكثر من أن يحتملها جهازه العصبى ، ومن ثم فقد جاء القرار ثانية بالعودة الى
سلوكه القديم والارتداد عن اخلاصه للشيوعية .

الفصل الثاني

طبيعة التحول

تعدّثنا في الفصل السابق عن الاساليب التي واجهها الانسان عبر التاريخ لتحويل معتقداته الدينية والمذهبية ، والتي لاحظنا فيها الارتباط الكبير بين الدين والسياسة ، كما يمكننا أن نرى بانه في كثير من حالات التحول استغل الدين للسيطرة السياسية على جماهير الشعب ، كما أن الوسائل التي اتبعت والتي وقع على أثرها التحول كانت وسائل ذات طبيعة أخاذة مثيرة بلغت في بعض الاحيان حد الهستيريا الجماعية .

والآن يجدر بنا أن ندرس العوامل السيكولوجية التي تتضمنها عملية التحول الفردية - تلك العوامل التي سجلت في كتابات السيرة لاشخاص جربوها بأنفسهم . ويصف ذولس R. H. Thouless (١) في « كتاب سيكولوجية الدين » الصراعات الكامنة وراء مثل تلك التحولات في ثلاثة مجالات : صراعات في غاليبيتها خلقية ، وصراعات طابعها السائد عقلية ، وصراعات في معظمها اجتماعية ، ويقول : ان من المحتمل جدا أن تدخل العوامل الثلاثة في معظم التحولات .

ومن الواضح أن عملية التحول تقوم على صراع عقل وعلى احساس بعدم الكفاية ، والا فلن يكون هناك مغزى من وراء تغير معتقدات الفرد . وفي هذا

(١) Thanless, Robert H. The Psychology of Religion, Cambridge University Press.

الصدد تشبه هذه العملية حالة الوقوع في الحب التي يشرحها المحلل النفسي « ثيودور ريك » بقوله : « ان الحبيب المرتقب يعاني أولا من شعور عدم الرضا ، فقبل ان يقابل فاوست جرتشين وقبل ان يقابل روميو جوليت كان كلاهما لا يحسان الرضا . ان الحب ليس أزمة ظهرت نتيجة لحالة عدم رضا نفسى ، فبعد ان يفشل الفرد فى تحقيق المثل الاعلى للانا Ego-ideal ، يستخدم الفرد الحب كوسيلة لايجاده فى شخص آخر وبهذه الطريقة يحقق صورة متكاملة . والشخص المحبوب يعتبر بديلا للمثل الاعلى للانا ، والمحبان اللذان يقعان فى الحب يتبادلان تغيير المثل العليا للانا بينهما . والتحول بالنسبة للكثيرين هو وسيلة لاسترجاع المثل الاعلى للانا المفقود وهى عملية الوقوع فى الحب ، ولكن حتى الكراهية أو امكان ايجاد حل خلاق تستطيع أن تلعب دورا » .

يقول هوفر فى هذا الصدد : « ان هؤلاء الذين يسيطر عليهم الاحساس بالافتقار الى هدف فى حياتهم - قد يجدون مضمونا جديدا لا بتكريس انفسهم فحسب لقضية دينية ، ولكن أيضا بالتدريب على الاحساس بالتدمير المتعصب ، والحركة الدينية تتيح فرصا غير محدودة لكليهما » .

وقال وليام جيمس^(١) متحدثا عن سيكولوجية الاستسلام النفسى .

« هناك طريقتان فقط يمكن بهما التخلص من : الغضب ، والقلق ، والخوف ، واليأس ، أو العواطف الاخرى غير المرغوب فيها . الطريق الاول هو أنه من الواجب أن تجتاحنا عاطفة مضادة ، والطريق الثانى هو أن نرهب أنفسنا بالكفاح لدرجة تضطرنا الى التوقف . وهكذا فاننا ننهار ونستسلم ولا نهتم أكثر من ذلك . وتبدأ مراكز المخ الانفعالية فى العمل ، وننغمس فى حالة تبلد مؤقتة فى الشعور » .

James William, The Varieties of Religious Experience, Fontana.

(١)

وقد اشرنا من قبل الى ان حالة الارهاق المؤقت تكون أحيانا جزءا من
أزمة التحول ، كما ذكرنا كيف ان بافلوف أظهر بالتجربة أن الاجهاد العصبي
هو أحد الظروف أو الاحوال التي أدت الى تدمير انماط المخ القديمة . . واستبدالها
بانماط جديدة .

ويؤكد جيمس هذا الاستنتاج بعد دراسته لأدب التحول فيقول :
« ان الحب سعي وراء موضوع ما ، والكراهية ، والغضب والقلق ، والياس
والاجهاد الناجم عن الصراع العقلي أو الاجهاد البدني - كل هذه حالات تعد
العقل - في ظروف بيئية مناسبة - للتحول الديني .

وفي التاريخ امثلة كثيرة تؤكد ذلك ، فقد تعرض « القديس اوغسطين »
قبل تحوله لضغط شديد من والدته التي حاولت اقناعه على التخلي عن عشيقته ،
كما انه في قصة « رابعة العدوية » نجد ان الطبيعة الانفعالية التي اتصفت بها
عملية تحولها بعد ذلك كانت تحكمها الى حد كبير اعادة توجيه حبها الدنيوى
الى الله ، وكانت القديسة كاترين في جنوا ، ومدام جيون في منتهى التعاسة في
حياتهما الزوجية قبل تحولهما الذى اتسم بطابع التصوف .

وينتقد براون J. A. G. Brown (١) عمل بافلوف فيقول : « ان العيب في
عمل بافلوف هو أنه اذا لم يكن لدينا بعض المعلومات عن الامراض النفسية
من الناحية الشخصية كما يقدمها فرويد ، فاننا سوف نضل الطريق لو استمررنا
في الاصرار على الاعتقاد بأنه من الممكن محو كل شيء من العقل - اذا تعرض
لضغط - حتى يصير لوحة نظيفة تماما ، وبأنه من الممكن فرض انماط جديدة
عليه - انماط لا صلة بينها وبين ما وقع من قبل ، ومعنى هذا انه من الممكن
تغيير الشخصية تغيرا كاملا الى شخص يختلف تماما عن الشخص الاصل .

Brown J. A. G. Techniques of Persuasion, From Propaganda to Brain Washing, (١)
Penguin Book, Cox and Wpman Ltd, London, 1963.

وليس هناك أدلة تثبت أن هذا صحيح فالتحول يوصف عادة على أنه عملية فجائية وأن ذروة العملية غير قابلة للتغير في غالبيتها ولكن من السهل أن نستكشف من حالة مدروسة بعناية الطريقة التي سارت بها الحالة طوال الطريق . فالاتجاهات الجديدة تتخذ ، ولكن الاعتقاد بها يسير بنفس الطريقة التي اتبعت في الاتجاهات القديمة . فكلاب « بافلوف » التي أظهرت أكبر مقاومة ممكنة أمام انهيار الانماط القديمة ، كانت قد أظهرت أكبر مقاومة ممكنة للتحول إلى الانماط الجديدة - فقد ظلت الكلاب كلابا عنيدة ! » .

وأحيانا تكون المعتقدات الجديدة مشابهة بصورة عجيبة في المضمون الانفعالي للمعتقدات القديمة ، وأحيانا وحتى بعد التحول تدفع المعتقدات القديمة نفسها للظهور في مجال الشعور من حين لآخر مبينة أنها لم تمنح نهائيا من صفحات العقل ولكنها كبتت في اللاشعور الذي برزت منه المعتقدات الجديدة في الاصل .

وعلى سبيل المثال هناك حالة سردها « دولس » عن رجل مهذب كان يفرط في شرب الخمر ولكنه كان يعيش على وفاق مع زوجته وأولاده ، ولم يهمل أى واجب عائلي ، وعندما تحول بفضل منظمة دينية تخلى عن عائلته وترك لها مالا قليلا حتى عانت الوانا من الفقر ، وبعد عامين عاد إلى حالته الأولى ، ولكنه عاد ليعيش مع عائلته في جو ودي رسمي - ثم عاد إلى شرب الخمر مرة أخرى . ومرة أخرى تحول وفي هذه المرة عاش على المرتب الضئيل الذي منحته له المنظمة الدينية ، ورفض أن يعول زوجته وعائلته اطلاقا ، وأعلن أن عائلته « تعيش في الخطيئة » ، وباع المنزل بينما كانت العائلة تعيش فيه . وهنا نرى كبتا متريدا للجوانب « الطيبة » و « السيئة » في طبيعة هذا الرجل .

ويجب أن ننظر إلى كل إنسان على أنه يملك عددا من الطاقات أو مجموعات من الأفكار ، التي لا يستفيد منها دائما استفادة كاملة في الأحوال العادية ، ففي الحقيقة يكون بعضها مكبوتا في اللاشعور حتى يستطيع الإنسان أن يتوافق مع النظم الاجتماعية القائمة .

وقد أوضح فرويد ذلك بقوله : « بأن الافكار المكبوتة ليست الافكار غير المقبولة اجتماعيا فقط ولكن الافكار التي لا تتفق مع الكيان القائم للشخصية » .

وعلى سبيل المثال يذكر « شارلز داروين » فى الكتاب الخاص بتاريخ حياته كيف أن اهتماماته تركزت على دراسة العلوم ، وكيف فقد الاهتمام بالشعر ومسرحيات شكسبير - وهى النواحي التى كانت عنصرا هاما فى حياته قبل التحول .

* * *

والجنس وما يرتبط به من الشعور بالاثم يلعب دورا كبيرا فى التحول وفى الظواهر الدينية بصفة عامة .

وجدير بنا ان نلاحظ - كما اوضح ستاربك Starbuck فى كتابه « سيكولوجية الدين » - ان معظم حالات التحول تحدث بين سن العشرين والخامسة والعشرين ، وهى الفترة التى يمر بها الشباب بالعواصف والضغوط التى ترتبط بفترة المراهقة . ومثل هذه التحولات تميل الى ان تكون غير دائمة ، وتميل الى الاختفاء كلما زالت الضغوط تدريجيا وبنفس الطريقة ، فان الاطباء والنفسيين يؤكدون أن حالات الكآبة التى تظهر عند تغير النمو فى الرجال والنساء قد تتضمن أحيانا عنصرا كبيرا من عقدة الذنب والاعتقاد بالخطيئة الذى يرتبط بالانغماس فى الأمور الدينية . ولذلك فالعاطفة الدينية تنمو وتخبو ، وهذا يتفق مع تغيرات مماثلة فى الحياة الجنسية ، ففى فترة المراهقة وفترة منتصف العمر تميل الرغبة الجنسية الى أن تزداد ثم تضعف بعد ذلك . ولقد لاحظ الكثيرون أن الكتب الدينية تستخدم الرمزية الجنسية فى كتاباتها ، وأنها تميل الى التعبير عن الشعور الدينى بصورة عن الحب الشهوانى حتى تصل الدرجة الى وصف الحب الشهوانى بصورة من الممكن أن يظن المرء أنها وصف لعملية الشبق الجنىسى لو أنها وردت فى كتاب آخر .

* * *

على انه من جهة اخرى نجد في الاحزاب السياسية في البلاد المختلفة أن أولئك الذين انضموا الى جماعات الاقلية ، هم أولئك الاشخاص الساخطون الفاترون غير المستقرين المنبوذون غير المتلائمين اجتماعيا والطموحون الذين لم يوفقوا في ايجاد مكان لائق لهم في المجتمع .

والواقع أن التحول الى آراء خاصة عمل يبدأ احيانا بعلم القدرة الاجتماعية على ملازمة الفرد لنفسه مع جماعته ، كما أن البحث المستمر عن فلسفة حقيقية يخفى احيانا البحث عن جماعة اجتماعية يستطيع المرء أن يتألم معها حتى يتوقف عن كونه منبوذا في نظر نفسه . وعندما يجد تلك الجماعة ، سوف يقبل معتقداتها ودرجاتها مهما بدت حمقاء ، ولذلك فإن محاولة ازلتها سوف تلقى مقاومة كبيرة من هذا الفرد الذي يخشى العودة الى وضعه القديم – كمنبوذ .

ولتحول اهتمامنا الى ظواهر أكثر اثاره في عملية التحول – ظواهر لها صلة أكبر « بفسيل المخ » – وذلك باستخدامها لمؤثرات مثل : الصيام ، الارهاق البدني ، بث الخوف المشوب بالدعر ، تنظيم التنفس كما يوجد في « اليوجا » ، دق الطبول ، الرقص ، الفناء واستخدام العطور أو العقاقير المخدرة .. الخ . كما سبق أن اشرنا لذلك .

وقد يكون من المناسب أن نعود فنقول : « ان اثاره انفعالات قوية من القلق والاحساس بالذنب ، أو الغضب ، أو اثاره صراعات عقلية ، أو ارهاق الفرد عقليا وجسمانيا ، وتطويل مدة الضغط وذلك بترك الفرد في حالة شك لاولقات مختلفة من غير أن يدري ما يكون مصيره – كل هذا سوف يؤدي الى حالات من القابلية للاستهواء في الكائنات البشرية ، كما حدث في حالة كلاب بافلوف .

ويستخدم « المسيحي الانجيلي الاصولي » طرقا ثلاثا :

أولا : لا يجادل أبدا ، ولكنه يفرس المعتقدات عن طريق التاكيد والجزم لسامعيه بأن المسيح ينتظرهم ، وعن طريق تكرار التهليل ومدح الله .

ثانيا : تصدر منه تحذيرات رهيبة عن نيران الجحيم ، ولذلك فان احتمال عدم وجود النار « الجحيم » لا يخطر في بال المستمعين اطلاقا .

ثالثا : بعد أن ينجح في بث الخوف والذنب في نفوس جمهور المستمعين ، يخبرهم المسيحي الانجيل عن الطريق الذى يمكن به خلاصهم – وباعتباره رسول العناية الالهية فان جمهوره لن يشكو اطلاقا في قدرته على الوفاء بوعده لهم : « اندموا وسوف تنقلون » .

ولقد كانت حركة الاحياء الدينى فى نيو انجلند – وهى الحركة التى لعب فيها ادواردز دورا كبيرا – احدى المظاهر المبكرة للحملات الانجيلية فى الازمنة الحديثة . لقد بدأ انصار هذه الحركة نشاطهم الدينى فى مدينة نورثمبتن – فى نيو انجلند – عام ١٧٣٤ م بعد حالتين من الموت المثير فى ابراشية ادواردز . وبعد موعظة لادواردز فى يوم من أيام الأحد عن الايمان وجد أن كل شخص كبير أو صغير بعد القاء موعظته – قد أدرك الاشياء العظيمة فى الحياة الخالدة ، ومن السكان الذى بلغ عددهم ١١٠٠ قام ٣٠٠ شخص على الاقل بالاعتراف الارثوذكسى وأعلنوا أنهم تحولوا الى الدين الجديد .

وكان الاعتراف العام اجراء غريبا اتسم بطابع من الشبه الكبير لما نعرفه اليوم باسم أساليب « غسيل المخ » الفنية . فقد كان اعتراف التائب أمام الاجتماع الدينى – بلغة منمقة مبالغ فيها تذكرنا باللغة التى استخدمها ضحايا حركات التطهير الستالينية فى الثلاثينات : « اننى أبدو لنفسى شريرا كريها حقيرا بل احقر المخلوقات على الارض » . هذا هو نوع من الكلمات التى نطق بها احد التائبين ، وفى تلك الحالة يسأل التائب قائلا : « ماذا أستطيع أن أفعله حتى يتم خلاصى ؟ » ، ويكون الرد على هذا السؤال : « لا شيء » . هناك فرصة ضعيفة واحدة ، وهى فضل الله – وهذه لا يمكن كسبها بمجهود من جانبك ، ولكنك تستطيع أن تأمل فيها ، والطريق الآخر هو اللعنة الابدية » .

وفى المرحلة الثانية – يوصل التائب الى المرحلة التى يقول فيها أمام الاجتماع الدينى : ان « الله قد يمجّد نفسه فى لعنتى » ، وانه اذا رفض قبول العقيدة فان كل شيء آخر لا فائدة منه .

وهكذا عندما قال شخص نائب : أن المسيح كان قد ظهر له ، وأنه انقذ ، قيل له : أن هذا ليس كافيا - بل عليه أن يكون مستعلا لأن يقول : أنه سوف يستمر في حب المسيح حتى ولو قرر المسيح أن يلغى له الأبد . ويبدو على النائب التردد في قول هذا - وعندئذ يقال له أن عليه أن يوافق على ذلك إذا أراد الخلاص لنفسه .

وعندما اشتدت حركة « الاحياء العظمى » الى ذروتها كان الخوف يبت في نفوس الناس بدرجة كبيرة ويقال عن أحد التائبين : أنه « عندما كان ينغز في قلبه ، وعندما رأى نفسه معلقا فوق حفرة تشب منها نيران خالدة بلغ به الألم والضيق درجة كبيرة لمدة نصف الساعة حتى اضطر أن يخفى فمه بيديه لكي يمنع نفسه عن الصراخ » . وعندما بلغت حركة الاحياء العظمى ذروتها وصل من انجلترا « هوايتفيلد » زميل جون ويزلى الذى جعل الامور أسوأ مما كانت ، فقد كان هناك : تحيب جماعى ، وثنى جماعى للأيدي وحالات غيبوبة ، وانهايار بدنى ، ورعشة وبث مظاهر الهستيريا الجماعية . وأخيرا ظهرت فضيحة كان من شأنها أن وضعت حدا نهائيا لحركة الاحياء . فقد ادعى أن شهبان المدينة وصبيانها يقرأون كتباً إباحية . ونادى ادواردز بعقد اجتماع وطالب الاثمين بالحضور للمثول أمام الشيوخ - ولكن عندما اكتشف أن بعض الاولاد الذين اشتركوا في هذا الاثم هم أبناء أبرز الشخصيات في المدينة ، فقد الآباء حماسهم سريعا في القضية ، وبدأ الشباب يتحدى ادواردز تحديا سافرا - وسرعان ما تدهورت سمعته ومكانته .

وتحول جون وشاولز ويزلى خلال أيام قلائل من الاعتقاد بأن انجاز الاعمال الطيبة قد يؤدي الى الخلاص والى ادراك أن الايمان هو الطريق الوحيد للخلاص . وجدير بالملاحظة أن التحولات وقعت عقب نوبة كآبة عقلية عنيفة في حالة الشقيقتين . وكان جون قبل ذلك واعظا ليس له اثر كبير نسبيا ، ولكنه - كما سبق أن ذكرنا - اكتشف بنفسه الوسائل الفنية التى حققت نجاحا كبيرا في نيو انجلند . وبهذا فهو سوف يخلق حالة توتر انفعالية قوية في نفوس جمهوره وذلك ببث الخوف من الجحيم أو النار الابدية .

ويقول « سرجنت » فى هذا الصدد : « ان جهنم كانت فى ذهن ويزلى حقيقة واقعة واضحة مثل البيوت والحقول التى كان يلقي فيها موائمه . وكما هو الحال فى حالة كلاب بافلوف ، فان أى فرد يصير متورطا انفعاليا سواء أكان ذلك ايجابيا او سلبيا ، فانه عرضة للتحويل لان الغضب ضد الافكار الموحى بها وكذلك الخوف يستطعمان بث الاضطرابات النفسية التى تجعل الفرد قابلا للاستهواء او تعكس أنماط سلوكه الشرطى - كما يقول بافلوف » .

واحيانا كان ويزلى - الذى يتميز بقوة الالهام والشعور الداخلى - يركز عينيه على رجل واحد او امرأة واحدة من بين جمهوره ويجعل منه أو منها هدفه الرئيسى ، وكان هذا الشخص هو موضوعه المباشر ، فاذا استطاع اقامة علاقة تتسم بالتعاطف معه فان العنوى سوف تسرى منه الى الجمهور .

ثم ظهرت حركة الاحياء فى ولاية كنتوكى سنة ١٨٠٠ م فأوردت أمثلة مثيرة لحالة الهستيريا الجماعية ، وكان المسيحي الانجيلي فى هذه الحركة هو القس جيمس ماك جريدى المتعصب من أنصار كالفين . وكان أتباعه معظمهم من لصوص الخيل ، ولصوص البنوك ، والقتلة والمجرمين العديدين الذين هربوا من الولايات الامريكية الاخرى التى تحترم القانون . وكانت المرحلة الاولى لحركة الاحياء تشبه الى حد كبير حركة ويزلى فى وسائلها ونتائجها حتى جاء الصيف من نفس العام ، فتقرر تنظيم خدمة ديلية كبرى فى الهواء الطلق . ولما شهور كانت الجماهير تقدم الى الولاية على ظهور الخيل وفى عربات مغطاة ، وظل الاجتماع الدينى يعقد فى الخلاء لعدم وجود مكان يتسع للعدد الكبير من الناس المشتركين فى الاجتماع . وكانت تقطع جلوع الاشجار لكى تستخدم كمقاعد للناس ، وصفت منصة من جلوع الاشجار ، وكان ماك جريدى ومساعدوه يسرون جيئة وذهابا فى الخلاء بين الجمهور حائنين اياهم على التوبة ، وعلى الهرب من اللعنة الخالدة . وكان الاجتماع يستمر انعقاده مدة طويلة من يوم الجمعة حتى الثلاثاء التالى - وكان الاجتماع يضاء بالنيران المشتعلة من أكوام من الحشب .

وفي ظل هذا السيل من الوعظ والصلاة والترتيل أصيبت امرأتان بحالة هستيرية - وعندئذ ألقى مئات من الرجال والنساء الآخرين بأنفسهم على الأرض وهم في حالة انهيار ، وفي بعض الحالات كانوا يظلون غائبين عن الوعي لمدة ساعات ، وعندما كانوا يفيقون بعد ذلك كانوا يعلنون أنهم أنقذوا .

وفي الاجتماع الذي أعقب ذلك في سنة ١٨٠١ م اجتمع ٢٠٠٠ رجل وامرأة وطفل في الحلاء واستمعوا الى مذهب نيران جهنم واللجنة الابدية التي تلحق بالشخص الذي لا يتوب أو يندم - وحالما استمعوا الى ذلك ظهرت حالة اضطراب عامة فجري البعض في أرجاء المكان صائحين في ألم ، وتدحرجوا على الأرض لمدة ساعات في فترة واحدة ، بينما اندفع آخرون الى الغابة المحيطة بالمكان صائحين بأعلى أصواتهم : « لقد ضعنا - لقد ضعنا » . وبدأ يسيطر على عدد كبير من الموجودين حركات عصبية واهتزازات عنيفة سرعان ما انتقلت عدواها الى عدد كبير في الجمهور ، بينما قام عدد من الرجال والنساء بممارسة عملية أخرى « لطرد الشيطان » - وكانوا يزحفون حول المكان على أيديهم وأرجلهم وهم يعوون ويزمجرون الواحد ضد الآخر لفترات طويلة من الزمن ، وكانت هناك ظاهرة أخرى يطلق عليها « قفز الضفادع » - فكان الرجال والنساء سواء ، يشغلون أنفسهم بالقفز الواحد فوق الآخر بشكل يشبه قفز الضفدعة . وكما يتوقع المرء - فانه في نهاية الاجتماع كان عدد كبير يروح في غيبوبة ، أو كان يسيطر عليهم هلوسة بصرية وكان الامر ينتهي بهم الى ممارسة عمليات جنسية متطرفة .

والرقص الى حد الاجهاد وخاصة مع استخدام المشروبات الكحولية والمخدرات قد يؤدي الى حالات مماثلة من الانهيار العقلي والجسدي ، ففي عشيرة الفودو في هايتي مثلاً يعتقد الناس أن الآلهة تسيطر على الشخص أو تملكه حينما يرقص على دقات الطبول ، وهؤلاء الذين تملكهم الآلهة يسلكون نفس السلوك الذي يسلكه الآلهة طبقاً للتقاليد الخاصة ، وعندما يفيق هؤلاء الأشخاص بعد ساعة أو أكثر لا يتذكرون - كما يزعمون - أي شيء مما فعلوه ولو أن ما عملوه في نظر المراقب قد بدا له أنه عمل يتسم بالذكاء والفاعلية .

وفي جنون الرقص الذى أعقب الموت الاسود فى أوروبا ، والذى وصفناه
فى الفصل السابق يمكننا أن نلاحظ الظواهر بين هؤلاء الذين مارسوه .

لقد كان الراقصون لا يرون أو يسمعون شيئاً لانهم كانوا غير حاسين
بالانطباعات أو الآثار الخارجية عن طريق الحواس ، ولكن كان يسيطر عليهم رؤيا
معينة ، وكانت أوهامهم توحى اليهم بالارواح التى كانوا يتنادونها بأسمائها
وهم يصيحون ، وبعضهم كان يؤكد بعد ذلك أنهم أحسوا كما لو أنهم غمسوا
فى بركة من الدماء - الامر الذى كان يرغمهم على القفز عاليا .

وكانت الظواهر الاخرى التى ظهرت بعد « الطاعون » عندما كان سكان
أوروبا كلها فى حالة رعب مصحوب بالذهول هى جماعات الضارين أنفسهم
بالبسات ليناوا رضا الله . لقد كانوا يسرون فى موكب من مدينة الى مدينة
وهم يضربون أنفسهم بالبسات او العصى وأحيانا كانت عدوى هذا العمل
تسرى بين ربوع البلاد التى ينتقلون فيها .

وهناك أدلة كافية تثبت أن الرقص لعب دورا هاما فى المسيحية الاولى وان
سانت امبروز - احد الابهاء الاولين المشهورين - كتب يقول : « ولهذا السبب
لا يجب على الحكيم أن يعتبر الرقص دلالة على الاحترام للغرور والفخفة - ولكن
يجب أن ينظر اليه على أنه شئ يعمل على رفع كل جسم حى بدلا من أن يسمح
للأطراف أن تظل ساكنة على الأرض ، أو أن يسمح للقلم البطيئة أن تحسس
بالتمثيل . . . وعندما تريد أن تاتى الى حوض المعمودية ارفع يديك . . . اننا
ننصحك أن تسير بخطوات أسرع حتى يمكنك أن تصعد الى الحياة الخالدة فالرقص
حليف للإيمان ، وتكريم للرشاقة » .

ويتضح الدور الذى لعبته الدوافع الغريزية الجنسية المكبوتة فى انتشار
الهستيريا انتشارا وبائيا من المرات العديدة التى تكرر حدوثها فى الاديرة .

ولقد اورد الدوس هاكسلي مثالا مفصلا في كتابه « Devils of Loudun » (١) ، والامثلة الاخرى تتضح في حالة معروفة في القرن الثامن عشر - وهي تتعلق بدير في فرنسا حيث بدأت راهبة تصدر صوت القطعة حتى صار المجتمع كله يصدر صوت القطعة ولم يتوقفوا عن ذلك الا بعد استدعاء المليشيا المحلية، ثم هناك حركة هستيرية جنونية اخرى وهي هستيريا العض والتي انتشرت في الادييرة في : المانيا ، وهولندة ، وايطاليا . وفي الحالة الاخيرة ظهرت الاثارة الجنسية واضحة لا في العض فحسب بل في مظاهر بعيدة كل البعد عن اللياقة ، مثل : تمزيق الشعر من جذوره ، والعواء الجماعي ، او القرض على الاسنان بصورة جماعية .

ولقد بين الدوس هاكسلي أهمية هذه الظواهر مع اشارة خاصة الى اثر الرقص والغناء والترتيل والغناء التوقيعي : « لا يستطيع الرجل - مهما بلغت درجة تمدينه - أن يستمع مدة طويلة لبق الطبول الافريقية ، أو الغناء الهندي ، أو ترتيل التراتيل الويلزية مع الاحتفاظ بشخصيته النقادة الواعية لا تمس ، وسوف تكون تجربة مثيرة لو أخذنا جماعة من كبار الفلاسفة من أكبر الجامعات وأغلقتنا عليهم غرفة جوها حار ومعهم دراويش مغاربة أو أنصار الفودو ، ثم نقيس بواسطة ساعة إيقاف قوة المقاومة السيكلوجية لديهم ضد آثار الصوت التوقيعي . . وكل ما نستطيع أن نتكهن به ونحن واثقون هو أنه لو تعرض الفلاسفة لهذه التجربة مدة طويلة ، لانتهى بهم الامر الى اصدار اصوات وحركات هؤلاء المتوحشين » .

ومن الواضح أنه من الجائز جدا أن التحول يسبقه نوع من الصراع العقلي ذلك لان هؤلاء الراضين عن أنفسهم هم أقل الناس استعدادا للتحول . وجدير بالذكر أن التحول أحيانا ما يتبع حالات من الارهاق العقلي أو البدني وكثيرا ما تنتج الحالات التصوفية أو شبه التصوفية من تجارب يمر بها المرء عندما يكون منفردا في زنزانة ، أو في سجن ، وخاصة عندما يفرض الرعب أو الخوف نفسه فرضا سائدا على التوتر .

Huxley, Aldous, The Devils of Loudun, Chatto and Windus.

(١)

ويفصف جيمس حالة سكير كان قد رهن كل بضائعه وباع كل شيء يملكه لشراء المشروبات الروحية :

« لم أكن قد تناولت طعاما لمدة أيام ، ولمدة أربع ليال سابقة كنت أقاسى من حالة هذيان تصاحبها رعشة من منتصف الليل حتى الصباح . لن أجد نفسي في مازق - اذ عندما تعين الساعة - لو قدر ذلك - فأننى سوف أجد مأوى في قاع النهر . ولكن الله أراد غير ذلك فعندما حانت الساعة لم أكن قادرا على السير ربع المسافة الى النهر . وبينما كنت اجلس مفكرا بدا لى احساس بوجود شيء هائل عظيم لم أدرك كنهه في تلك اللحظة . وعلمت بعد ذلك أنه كان المسيح - صديق الخاطئ . وسرت الى البار ودققت عليه بقبضة يدي حتى اهتزت الزجاجات من عليه . وحملق في هؤلاء الجالسون يحتسون الخمر بحب استطاع مشوب بالاحتقار . وقلت اننى لن أتناول جرعة خمر مرة أخرى حتى لو مت في الطريق - وهذا ما احساسست أنه سوف يحدث لى قبل الصباح . وهتف هاتف « اذا أردت أن تحافظ على وعدك فاذهب واحبس نفسك » وذهبت الى اقرب مخزن للسكك الحديدية وجبست نفسي فيه » .

وبعد ذلك بوقت قصير ذهب الى ارسالية ومارس عملية التحول .

ويسرد جيمس حالة أخرى عن رجل أحس نوبة حادة من الخطيئة امتنع بعدها عن الاكل طيلة اليوم ، وجبس نفسه في غرفته في حالة يأس كامل وهو يصيح بصوت عال : « حتى متى يا الله . . حتى متى يا الله ؟ » ويستمر في الحديث فيقول : « بعد أن كررت هذا بكلمات مماثلة عدة مرات بدا لى أننى اغوص في حالة من اللا شعور . عندما افقت لنفسي كنت جالسا على ركبتى أصلى لا من أجل نفسي ولكن من أجل الآخرين . . لقد احساسست بالخضوع لارادة الله صاغرا . . لارادته أن يفعل بى ما يراه خيرا لى . وتحول اهتمامى بنفسي الى الاهتمام بالآخرين » .

ولقد أوضح لوبا Louba (١) - الذى أجرى دراسات عديدة على ظواهر التحول - أنه ليس من الضروري أن توجد صلة بين مضمون التحول وبين الدين إطلاقاً - وأعطى أمثلة عن تحولات السكرارى الى امتناع كامل عن تعاطى الخمر - فقد كانت التحولات تنسم بالطابع الخلقى ولا تتضمن أية معتقدات دينية .

ويذكر لوبا أنه كم من مرة صاحب التحول شعور من علم الكمال أو شعور من عدم الكمال الخلقى ، أو الخطيئة يصاحب شعور الشغف والتلهف .

ويورد لذلك أمثلة عديدة تتراوح فيها الخطيئة بين العريضة وبين العزة الروحية .

ومغزى هذا بالاصطلاحات السيكولوجية هو أن الخاطئ يحس أنه معزول عن الحقيقة اما في صورة الله ، واما في حياة الكائنات البشرية الأخرى ، ويحس رغبة قوية لازالة السلود . وهذا له أهميته خاصة عندما نتحدث عن الاعترافات فى الباب (الرابع) ، ذلك لأنه يجب أن ندرك أنه يوجد فى معظم الناس رغبة طبيعية لمشاركة الآخرين فى تجاربهم وخبراتهم العقلية والانفعالية - وهى التجارب التى يحس فيها المرء أنه معزول عنها لأنه يحس أنه مختلف اما بسبب الشعور بالخطيئة واما لايامانه بمعتقدات تتعارض مع معتقدات الآخرين .

والاحساس بالحاجة الى التخلص من الشعور بالانعزال عن طريق الاعتراف هو احساس حقيقى جدا بل ملح . ولقد بين المحللون النفسيون مثل « أوتورانك » و « ايريك فروم » حقيقة هى أن عبء الفردية الانعزالية هو عبء ثقيل بالنسبة لنا وخاصة بالنسبة للأشخاص الذين يعانون من أمراض عصبية ، ويوجد فى الانسان احساس بالخوف من الحرية ، احساس يدفع الناس الى اغراق انفسهم داخل جماعة ما . والاعتراف هو أحد الوسائل الممكنة الواضحة التى يستطيعون به أن يفعلوا ذلك - لأنهم بهذه الطريقة يفقدون خواصهم التى هى

Louba, H., The Psychology of Religious Mysticism, Kegan Paul.

(١)

سبب الاحساس بالانعزال • والوسيلة الأخرى هي أن يفقد المرء الاحساس فيه
بكيانه الشخصى وذلك باغراق كيانه الشخصى وادماجه فى السلوك الجماعى
للجمهور •

وكما يقول هوفر : « لأننا عندما نتخلى عن الذات ونصير جزءا فى كل
متكامل متماسك ، فاننا لا نتخلى عن مميزاتنا الشخصية فحسب بل نتخلى أيضا
عن المسئولية الشخصية • وعندما نفقد حريتنا الشخصية فى تضامن أو اتحاد
حركة ديكتاتورية ، فاننا نجد حرية جديدة بأن نفعل كما تفعل الفوغاء - وقد
تتخذ تلك الحرية اشكالا مختلفة مثل « طرد الشيطان » ، أو الذهاب فى حالة
غيوبة طويلة ، أو من ناحية أخرى - اكتساب الحق فى الكراهية ، أو معاملة
الآخرين بقسوة ، أو الكذب أو التعذيب أو القتل ، بل اقتراف أية جريمة من
غير الاحساس بالذنب أو العار أو النثم » •

على أن هناك من ناحية أخرى جانبا هاما من « قابلية الاستهواء » وهذا
الجانِب هو أنه خلال الحياة - بوجه عام - نجد أننا نكافأ لأننا نفعل كما يفعل
الآخرون ، وتعاقب لأننا لم نوفق فى التوافق والامتثال ويقوى من هذا الدافع
للتقليد أو المحاكاة شعور القلق ، لأن القلق - كما يقول فرويد - هو التعبير
عن الدوافع الفطرية القوية المضادة للمجتمع من اللاشعور - وهو الذى قد يؤدى
بنا الى أعمال لا يوافق عليها المجتمع ، ولذلك قد نكون على استعداد لتحايشها
وبهذا نظهر بمظهر الموافقين أو الممثلين بدرجة أكبر •

ولقد أظهر بعض علماء النفس أن القلق يؤدى الى تضيق مجال الانتباه -
الذى يطلق عليه « نفق الرؤيا » Tunnel Vision ، وعندما يحس الناس
القلق يصبحون غير قادرين على الاهتمام بالموقف كله بالدرجة التى تمكنهم من
القيام بهذا بصورة معقولة منطقية ، وتدفعهم النوازع الفطرية الى القيام بالتصرف
بأول ما يخطر ببالهم ، وهذا يحدده ما يفعله الآخرون فى نفس الوقت •

والتحول الدينى - من وجهة نظر العالم النفسى - قد يتخذ صورة
هى ملء الفراغ الذى تسبب فى التدمير أو عدم الرضا من الشخصية القائمة ،
وفى تلك الحالة يقدم التحول - الجزء الناقص من اللغز ، أو قد يتخذ التحول
صورة أخرى هى استبدال جزء من السلوك بآخر ربما ظل فى ثبات لعدة سنوات
سابقة . ومن الواضح - أن التحول يغير معتقدات الفرد وأعماله ، ولكن ما كان
هذا يحدث لو أن المعتقدات الجديدة لم تكن فى حالة اتفاق تام مع شخصية الفرد
الأساسية .

وأخيرا نود أن نشير إلى أن العوامل أو العناصر الانفعالية التى أكد هاكسلى
أهميتها فى حالة الفودو ، والتى استخدمها سارجنت فى كتابه « معركة العقل »
لكى يبرهن على رأيه « بأنه من السهل التعامل مع الناس » - هذه العوامل
الانفعالية من الممكن أن تفسر تفسيراً آخر . وهناك دليل يقدمه المتخصصون فى
هذا الميدان - وهم أكثر تخصصاً من هاكسلى وسارجنت - بأن مثل هذه الأعمال
تتسم بطابع القصد والإرادة أكثر مما يبدو لنا - فهى فى الواقع « أعمال تقوم على
المحاكاة والتقليد » .

وهكذا فإن تلك الأعمال وغيرها ذات الطبيعة المماثلة هى أعمال يدخل فيها
عنصر « النية والإرادة » وهذا يتعارض مع هاكسلى الذى يقول : « بأنه لو وضع
فلاسفة فى جو تسوده الأصوات التوقيعية الصادرة من طبول الفودويين من
تاهيتى ، لانتهى الأمر إلى الصياح والعواء والرقص مثل المتوحشين » .

وبالرغم من كل هذه الاختلافات والتناقضات فإننا لا نستطيع أن ننكر
أن تأثير النغم والترتيلات ودقات الطبول وغيرها مما سبق أن شرحناه لها تأثير
كبير على العقل البشرى ، وقابليته للاستهواء .

الجزء الثالث

بين العلاج النفسي وطب الأمراض
العقلية

• الفصل الأول

أساليب العلاج النفسي
وإستخدام العقاقير

• الفصل الثاني

الخدمات الحديثة
وجراحة المخ

الفصل الأول

أساليب العلاج النفسي واستخدام العقاقير

قد يبدو لنا أن نتساءل هل هناك علاقة بين أساليب العلاج النفسي وتلك التي تستخدم في عمليات التحول الديني أو السياسي ؟ وهل هناك ارتباط بين الآثار الفسيولوجية التي تنتج عن كل منها ؟

لقد سبق أن أشرنا إلى أن العلاج الحديث الناجح في الطب النفسي استطاع أن يحدث في الفرد جميع مراحل النشاط الذهني من مرحلة زيادة الاستثارة حتى مرحلة الانهيار والاستسلام الصامت : أما بوسائل سيكولوجية ، وأما بتلك الأساليب التي تستخدم في علاج مرضى الطب النفسي .

والواقع أن بعض أساليب العلاج النفسي توضح أن أساليب التحول الديني والسياسي لها ما يقابلها في تجارب الطب النفسي Psychiatric إذ يمكن أحداث التحولات الفسيولوجية في وظائف المخ باستخدام مثيرات سيكولوجية متكررة دون اللجوء إلى العقاقير ، أو أحداث انهيار خاص للفرد ، أو أي ضغط صناعي يعين المريض على عملية التفريغ الانفعالي ، بالرغم من أن هذه الوسائل تساعد في الإسراع على أحداث التفريغ الانفعالي المطلوب .

وهذا الفصل يختص بدراسة بعض الأساليب التي تستخدم في علاج مرضى الطب النفسي حتى نستطيع أن ندرك مدى العلاقة بينها وبين تلك التي تستخدم في عمليات التحول الأخرى .

على أننا سنقتصر بحثنا في هذا الفصل على : التنويم المغناطيسي ، والتحليل النفسى ، واستخدام العقاقير لما لها من تشابه كبير بأساليب التحول الدينى والسياسى من ناحية الآثار الفسيولوجية التى تحدثها فى وظائف المخ .

التنويم المغناطيسى وقابلية الإيحاء :

ارتبط التنويم المغناطيسى فى الماضى بمفاهيم أو تصورات خيالية مثل : المغناطيسية الحيوانية ، واثـر النجوم ، وكاذبـ مـمـالـة وبرغم أن الناس لا يزالون يتخبطون حول حقيقته فإن نظرية التنويم المغناطيسى وممارستها من الموضوعات الهامة التى تشغل الرأى العام ، وهى ترتبط ارتباطا وثيقا بما نحن فيه فى هذا الجزء من الكتاب .

ولقد كان أبرز ما اهتمت به الأعمال التجريبية فى هذا الميدان فى السنوات الأخيرة ، هو تحديد الأخطاء التى وقع فيها المنومون المغناطيسيون الأول .

وقبل أن نحاول شرح المظاهر الرئيسية للتنويم المغناطيسى نذكر القارئ هنا بما اشرنا اليه فى الباب الثانى عن « المغناطيسية الحيوانية » التى ترتبط بشخصية « فرانز انطوان مسمر » الغامضة .

ولندخل فى شىء من التفصيل عما جاء به مسمر ، اذ تقوم نظريته على أن هناك تأثيرا متجاوبا بين الأجرام السماوية والأرض والأجسام الحية ، ووسيلة هذا التأثير هى المادة السائلة أو الغاز المنتشر فى الكون . ولقد دلت التجارب على أن انتشار المادة دقيق بدرجة كافية لأن تنفذ فى كل الأجسام بدون فقدان كبير للطاقة .

ويتم هذا العمل من مسافة بعيدة بدون أى تدخل أو مساندة من مادة وسيطة . وهذه المادة - مثل الضوء - تنعكس عن طريق المرايا .

وهكذا كان من المعتقد أن المغناطيسية الحيوانية نوع من السائل أو الغاز الذى لا يمكن لمسه أو الاحساس به ، وكان السائد أن الافتراض بأن الإرادة البشرية كانت تتحكم في انتشار هذا الغاز - غير القابل للمس - وتوزيعه وعمله ، كما كان معتقدا أيضا أن من الممكن انعكاس هذا الغاز بواسطة المرايا ورؤيته .

كما اعتقد أن الذين ينومون مغناطيسيا أو الذين يمشون وهم نيام كانوا يرون هذا الغاز وهو يسبح من أعين النومين المغناطيسيين وأيديهم ، ومع ذلك لم يتفق هؤلاء على لون هذا الغاز ، وهل كان أبيض أو أحمر أو أزرق اللون . وكل هذا يبدو في نظر المفكر الحديث غير معقول ولكن مسمر يؤكد في ادعائه أن هذه المبادئ سوف تشفى الأمراض العصبية .

ولم تلق الأساليب التى اتبعها مسمر قبولا في الأوساط الطبية والدينية ولا سيما الأوساط الطبية في فيينا ، كما كان نجاحه المؤكد في شفاء المرضى الذين استعصى على الأطباء علاجهم - سببا في اشتداد الكراهية نحوه - وأخيرا عندما أوشك مسمر على شفاء فتاة ذات مركز مرموق من العمى ، نجح الأطباء المؤمنون في إبعاده عن فيينا ، فذهب الى باريس .

واشتد ضغط العمل على مسمر ، فاضطر الى ادخال العلاج الجماعى وهذا يشبه الى حد كبير الطريقة التى اضطرت العيادة النفسية الحديثة الى اتباعها . ويبدو أن عيادته كانت مكانا مرموقا حقا . وكان العلاج يجرى في قاعة واسعة كانت تغلق فيها النوافذ لكي يسود الظلام ، وكان يضع في وسط القاعة حوضا واسعا مفتوحا يبلغ ارتفاعه حوالى قدم ، وكان كبيرا بدرجة تسمح لثلاثين مريضا بالوقوف حوله .

وكان الحوض يملأ بالماء ، ويوضع به برادة حديد ، وزجاج مسحوق ، وزجاجات من أنواع مختلفة مرتبة على نمط منتظم . وكان الحوض مغطى بقطع طويلة رفيعة خشبية لها فتحات تبرز خلالها قضبان حديدية متصلة ، وكان المرضى يضعون تلك القضبان الحديدية على مواضع الألم، وبذلك يسمحون للقوى العلاجية

الكامنة في المغناطيسية الحيوانية أن تعمل . وكان يطلب من المرضى أن يلتزموا الصمت ، كما كانوا خلال هذه التجربة يستمعون الى موسيقى تعزفها فرقة موسيقية مختلفة عن الانظار . وفي اللحظة السيكلوجية كان مسمر يظهر مرتديا روبا حريريا زاهيا ، وكان يتنقل بين المرضى وهو يحملق في عيونهم ويمر بيديه فوق اجسامهم ، ويلمسهم بعضا خشبية طويلة .

وليس هناك من شك في أن عددا كبيرا من هؤلاء المرضى كانوا يعتبرون هذا العلاج مفيدا ، بل كانوا يعلنون أن مسمر استطاع شفاهم بعلاجه .

ويصعب علينا اليوم أن نقرر : هل كان مسمر دجالا استغل قابلية مرضاه للاستهواء ، أو أنه كان يؤمن باخلاص في الحقيقة العلمية التي تقوم عليها نظريته .

ولقد هاجم «برنهيم» تدجيل مسمر المقصود واثره السيء على ممارساته ، ولكن «مول» الذي يعتبر حجة في الكتابة عن تاريخ التنويم المغناطيسي كان أقل قسوة من برنهيم في حديثه عن مسمر فقال :

« اننى لا اريد أن انضم الى ركب هؤلاء الذين يشنون هجوما على مسمر فقد مات مسمر ولا يستطيع ان يدافع عن نفسه الآن ضد هؤلاء الذين لم يضعوا في اعتبارهم الظروف أو الوقت الذى عاش فيه . اننى اميل الى الاعتقاد بأن مسمر اخطأ في تعاليمه ، ولكن هذا لا يبرر شن الهجوم ضد خلقه الشخصى ، ولذلك دعنا نتدارس ما كان يعتبر جريمة مسمر الكبرى . لقد اعتقد مسمر في البداية انه يستطيع شفاء الأمراض بواسطة المغناطيس ، واعتقد بعد ذلك انه يستطيع شفاء الأمراض بفضل قوة كامنة فيه يستطيع نقلها الى الحوض المملوء بالمياه . كانت هذه عقيدته القوية ولم يحاول اخفاءها . ولقد اعتقد آخرون أن خيال المريض كان يلعب دورا ، أو أن مسمر كان يحدث آثاره بوسائل خفية معينة .

« وبعد ذلك وتدرجيا ظهرت الأسطورة بأن مسمر كان يمتلك سرا ما ، وأنه استطاع عن طريق هذا السر أن يحدث آثاره على الناس ، ولكنه رفض الكشف

عن هذا السر • والحقيقة هي أن المسألة لم تكن مسألة سر اخفاء مسمر طالما كان يتخيل أنه يمارس قوة فردية من نوع ما •

« أخيرا ، فإذا كان مسمر يستخدم هذه القوة المزعومة من أجل كسب المال ، فإنه لم يكن أسوأ من الأطباء الخديثين الذين يعالجون المرضى لكسب قوتهم وهم محقون في هذا • ولم يكن سلوك مسمر أسوأ من هؤلاء الذين يكتشفون هذه الأيام عقارا جديدا ويعتبرون انتاجه مصدرا للربح • لذلك يجب ألا نتجنى على مسمر ونوقف حملات الهجوم ضده ، فهو لم يفعل أكثر مما يفعله هؤلاء الناس الذين أشرنا اليهم • هؤلاء الناس الذين لا يتعرضون للنقد أو التجريح حتى ولو كانت العقاقير التي يكتشفونها لا تملك أية خواص علاجية » •

وفي باريس تدخلت الحكومة في أعمال مسمر فعينت لجنة للتحري في مدى صحة مزاعمه ، واهتمت اللجنة بوجه خاص بما كان يطلق عليه « أزومات مسمر » .

وفيما يلي ما أحل به الماجور « شارلز دى هاسي » أحد المرضى الذين عالجهم مسمر الى تلك اللجنة بعد أن أقسم على صحة أقواله :

« بعد أن عالجني أطباء آخرون طيلة أربع سنوات من غير جدوى استشرت « مسمر » ، وكان رأسي يهتز بصورة مستمرة ، وكانت رقبتى تميل الى الأمام ، وكانت عيناى جاحظتين وملتهبتين ، وكان ظهري مشلولاً تقريبا ، وكنت أنطق الكلمات بصعوبة ، وكنت أضحك برغمي ولأسباب غير واضحة ، وكنت أنفأس بصعوبة ، وكنت أقاسي من ألم شديد بين كتفي ، وكنت أعاني من هزات عصبية ، وكنت أترنج في سيري •

وعالجني مسمر ، ومرت بازمات عاطفية قوية وكنت أحس برودة الثلج تسري في أطرافي يعقبها حرارة شديدة وسيل من العرق ، واختتم دى هاسي تصريحه بقوله : وأخيرا وبعد مرور أربعة شهور شفيت من مرضي » •

ولقد وصلت تلك اللجنة الى قرار وهو : « لقد ظهر بالتجارب القاطعة أن الخيال بدون القوة المغناطيسية يؤدي الى الهزات العصبية أو الاضطرابات ، وأن

القوة المغناطيسية من غير الخيال لا تترك أى أثر ، ، واتفق أعضاء اللجنة بالاجماع على رأى فيما يتعلق بوجود القوة المغناطيسية وفائدتها فقالوا : « ليس هناك ما يثبت وجود السائل او الغاز المغناطيسى الحيوانى ، ولذا فان هذا السائل او الغاز ليس له اثر مفيد طالما كان غير موجود . ان التأثيرات العنيفة التى نشاهدها فى المرضى تحت العلاج هى تأثيرات تعزى الى اضطراب الخيال ، والى المحاكاة الآلية التى نرغمنا لا اراديا على أن نكرر ذلك الشئ الذى يصيب احساساتنا » .

وفى نفس الوقت تقريبا نشرت الجمعية الطبية الملكية تقريرا مماثلا مؤداه « انه من وجهة النظر العلاجية فان المغناطيسية الحيوانية ليست الا فنا يجعل الناس الحساسين يصابون بهزات عصبية عنيفة » ، وكانت نتيجة تلك التقارير ان قضى على مستقبل مسمر كطبيب يعالج الحالات العقلية ، وغادر مسمر فرنسا بعد ذلك بوقت قصير .

لقد ارتبط فى اذهان الناس ان مسمر كان اول من اكتشف التنويم المغناطيسى ، ولكن الواقع ان الظاهرة الطبيعية للتنويم المغناطيسى كانت معروفة منذ آلاف السنين ، وان مسمر - فى الحقيقة - لم ينوم مرضاه تنويما مغناطيسيا .

لقد بدا ان بعض مرضاه كانوا يصابون بهزات عصبية هستيرية ، وبهزات عاطفية مماثلة ، ولكن ليس هناك فى عمل مسمر ما يشير الى ظاهرة التنويم المغناطيسى الطبيعية الحقيقية . ويعجب المرء كيف ارتبط اسم مسمر باكتشاف التنويم المغناطيسى مع ان ذلك كان اكتشاف اشخاص آخرين !

كان اول من توصل الى ايجاد حالة النوم الهادىء « الفيوبية » وهى الحالة التى تعتبر جانبا أساسيا فى التنويم المغناطيسى هو المركز بايسجور احد تلاميذ مسمر ، فبينما كان يحاول احداث الهزة العصبية الهستيرية العادية لشاب راعى غنم يدعى فيكتور باستخدام طريقة التنويم بالتأثير المغناطيسى ، اكتشف المركز بايسجور ان فيكتور راح فى نوم هادىء لم يستيقظ منه الا بعد وقت طويل ، ولم يستطع فيكتور ان يتذكره بعد ان افاق لنفسه .

وقد الفتت تلك الظاهرة الانظار ، وسرعان ما تحدث آخرون عن ظواهر مختلفة للتنويم المغناطيسى مثل الحالات الهستيرية السلبية ، كأن لا يرى الشخص اشياء موجودة فعلا ، ومثل حالات عدم الاحساس كعدم احساس الشخص عندها يللمسه آخر ، وحالة عدم الاحساس بالألم وغيرها من الحالات من الحالات التى سوف نناقشها فيما بعد .

* * *

والآن قد نسأل كيف تحدث حالة التنويم المغناطيسى ؟

فى الواقع هناك وسائل عديدة لاجداث التنويم المغناطيسى ، وكل منوم مغناطيسى مجرب له وسائله التى تختلف اختلافا طفيفا عن الوسائل التى يتبعها الآخر ، ومن الجائز أن اكثر الوسائل شيوعا هى الوسيلة التى تتبع الأسلوب التالى :

فالنوم المغناطيسى يحاول الحصول على تعاون من الشخص الذى ينومه مغناطيسيا وذلك بأن يوضح له مزايا حالة النوم المغناطيسى كالمساعدة التى يحصل عليها المنوم لمعالجة مرض عصبى .

ويحاول المنوم المغناطيسى ازالة أية مخاوف فى نفس الشخص المراد تنويمه ، وقد يخبره بأن المرور بحالة الغيبوبة ليس دليلا على الضعف او عدم الاستقرار فى شخصيته بل بالعكس فان المرور بحالة الغيبوبة والخضوع لتأثير النوم المغناطيسى هى دليل على ذكائه ، وقدرته على التركيز .

وتأتى بعد ذلك الخطوة التالية ، وهى ان يطلب المنوم من الشخص الذى يراد تنويمه ان يرقد على مسند ، او يجلس جلسة استرخاء فى كرسى مريح ، ثم تقلل المؤثرات الخارجية الى الحد الأدنى ، وذلك باسدال الستائر وبالتخلص من الضوضاء التى قد تكون مصدرا لتشتيت الانتباه فى اثناء العملية . وأحيانا يطلب المنوم من الشخص المراد تنويمه ان يتجه بأنظاره الى شئ معلق فى السقف فوق مستوى النظر حتى يضطر الى النظر لأعلى قليلا ، وهذا يؤدى سريعا الى اصابة اعصاب العين بالتعب فيزداد تقبل الشخص الذى سينام للاستهواء

بأنه يحس التعب وأن عينيه مغلقتان ، ثم يبدأ النوم في التحدث إليه بلهجة خافتة ، ثم يكرر له مرات ومرات الايحاءات بأنه يحس ميلا الى النوم والتعب وأن عينيه مغلقتان وأنه يروح في سبات عميق ، وأنه لا يسمع سوى صوت النوم . فإذا كان الشخص المراد تنويمه حساسا ، فإنه يروح في الغيبوبة بعد دقائق قليلة ، ويبدأ النوم في العمل على تعميق تلك الغيبوبة فيه ، وعلى اختبار ردود الأفعال من جانبه وذلك عن طريق ايحاءات يقوم بها النوم ويصعب على النائم تنفيذها . فمثلا يطلب النوم من الشخص المراد تنويمه أن يشبك يديه ثم يخبره بأنه من المستحيل أن يفصل يديه بعضهما عن بعض ويحاول الشخص النوم - لدهشته الكبيرة - أن يفصل بين يديه ، ولكنه لا يستطيع فعلا . ومثل هذه الايحاءات الناجحة هي اداة مساعدة لتعميق فترة الغيبوبة أو فترة النوم المغناطيسي حتى يمكن استخلاص كل الظواهر المغناطيسية في النهاية ولا سيما في حالة الأشخاص النومين الذين يستجيبون .

هذه باختصار هي الوسيلة العادية لوضع الشخص المراد تنويمه في حالة غيبوبة ، وأنه ليصعب أن نحدد أى عامل من العوامل المشار إليها هو المؤثر في العملية .

فالعزلة مثلا والهدوء والظلام ليست أمورا هامة ، فقد تمت عملية التنويم المغناطيسي في مناسبات كثيرة بنجاح في جو من الضوضاء وفي وضوح النهار . بل كثيرا ما تتم عملية التنويم المغناطيسي بنجاح على خشبة المسرح امام حشد من الجمهور ، والاكثر من ذلك أن بعض النومين المغناطيسيين يزعم أن الضوضاء والضوء يساعدان على احداث حالة الغيبوبة العميقة للأشخاص المراد تنويمهم .

وإن كانت لم تجر أعمال تجريبية على هذه النقطة فإن الرد على ذلك هو أن الظروف المختلفة تناسب اشخاصا مختلفين . فبينما يكون من الأسهل تنويم الأشخاص ذوي النفس الانبساطية والأشخاص المصابين بحالة هستيرية في ظروف يسودها الضوضاء والاضطراب ، يفضل الأشخاص الذين يتصفون بالانطواء النفسي والأشخاص القلقون أن ينوموا مغناطيسيا بعيدا عن الاضواء ،

بل في جو هادئ في غرفة الاستشارة . وبالرغم من ذلك فان كل هذا مجرد حدس وتخمين ولم يصل الأمر الى الحقيقة الثابتة .

وبعكس ما يعتقد معظم الناس فانه ليست هناك صعوبة كبيرة في ايقاظ الشخص الذى ينام عندما يقرر النوم انهاء فترة الغيبوبة . وعادة يوحى النوم له بأنه عندما يصل في العد حتى رقم ١٠ ، سوف يستيقظ من حالة الغيبوبة ، وبانه سوف ينسى كل ما حدث له في اثناء فترة الغيبوبة ، وانه سوف يحس الانتعاش . وليست هناك سجلات تشير الى صعوبات واجهها النوم عندما حاول ايقاظ أى شخص تحت تأثير التنويم المغناطيسى ، وحتى في الحالات التى يصعب فيها على النوم ايقاظ الشخص لأسباب ما ، فان كل ما يمكن أن يحدث هو أن يستمر هذا الشخص في نوم عميق طبيعى يستيقظ منه بعد ساعات قليلة .

* * *

والآن يمكننا ان نسال : ما هى انواع الظواهر الطبيعية التى يمكن استغلالها ؟

ان اول ظاهرة بل اكثر الظواهر وضوحا هى الزيادة الهائلة في تقبل الشخص الواقع تحت تأثير التنويم لآى ايعاء يقدمه النوم ، ويحاول تنفيذه بقدر المستطاع . فاذا اوحى النوم اليه انه كلب فانه سوف يزحف على يديه ورجليه ويدور في الغرفة وهو يعوى ، واذا اوحى اليه انه هتار فانه سوف يرفع يديه في الهواء ويبدا في الخطابة على طريقة الفوهرر .

وقد نكون مبالغين لو قلنا : ان الأشخاص النومين مغناطيسيا يتقبلون جميع الايعاءات من النوم المغناطيسى حتى في حالة الغيبوبة العميقة ، وينطبق هذا بوجه خاص على الحالة التى يوحى فيها النوم المغناطيسى للشخص بعمل شئ يتناقى مع المفاهيم الأدبية او الخلقية التى يؤمن بها هذا الشخص . ونسوق على سبيل المثال قصة تؤيد هذا ، فقد كان شاركوٹ اخصائى الأمراض العصبية الفرنسى يلقى محاضرة عن التنويم المغناطيسى ، وكان يشرح ظواهر الغيبوبة المغناطيسية مستعينا في شرحه بفتاة في سن الثامنة عشرة . وعندما نومها تنويما مغناطيسيا استدعى في امر هام خارج قاعة الدرس ، وتولى احد مساعديه اتمام

الشرح والايضاح . ولما كان المساعد شخصا تنقصه الجدية ، فانه أوحى الى الفتاة الواقعة تحت تأثير التنويم المغناطيسى أن تخلع ملابسها . ولكنها استيقظت على الفور وصفعته على وجهه وخرجت من الغرفة !

وأحيانا لا يستجيب الشخص النوم لايحاء النوم لأسباب غير معروفة . اسباب لا ترتبط بالمفاهيم الأدبية أو الخلقية ، فمثلا قد يوحى النوم له أنه منضدة أو سيارة ، ولكن الشخص لا يستجيب له ، ويرفض مثل هذا الايحاء .

وفي هذه الحالة لابد من وجود سر وراء هذا السلوك ، ولا بد من اجراء تجربة طويلة على مثل هذا الشخص لمعرفة السر وراء رفضه تقبل هذا الايحاء .

والظاهرة الطبيعية الثانية التى نراها فى أغلب الأحيان هى المعروفة باسم « الهلوسة أو الهوس الايجابى » وفى هذا المقام يرى ويسمع ويحس الشخص الذى نوم اشياء ليست موجودة موضوعيا . فاذا قيل له : « ان خطيبته تجلس فى كرسى امامه فانه يبدأ فى تحيتها ثم يعبر الغرفة ويقبلها . واذا قيل له : ان اسدا دخل الغرفة من النافذة فان كل اعراض الخوف تظهر عليه ، بل قد يندفع مرعوبا خارج الغرفة .

« والهلوسة السلبية » عكس « الهلوسة الايجابية » هى حالة يصاب بها الشخص النوم ايضا . وفى هذه الحالة لا يستطيع الشخص ان يرى او يسمع او يحس اشياء أو اشخاصا موجودين فعلا امامه . فاذا أوحى اليه مثلا انه والنوم هما الشخصان الوحيدان فى الغرفة فانه لن يلتفت الى الآخرين الموجودين فى الغرفة ، ويسلك سلوكا كما لو أنهم غير موجودين فعلا فى الغرفة ، واذا أوحى اليه انه لا يستطيع ان يحس اية لمسة جلده ، أو بانه لا يستطيع ان يسمع صوتا معيناً ، فانه سوف يسلك سلوكا مطابقا لذلك .

وكما ان الهلوسة السلبية يمكنها احداث حالة فقدان الاحساس بحيث لا يستطيع الشخص النوم ان يحس لمسة فوق جلده ، فانه من الممكن ايضا احداث حالة عدم الاحساس بالالم .

ولقد ظلت هذه الظاهرة موضع شك وهدفا للسخرية عدة سنوات ، لان معظم الظواهر التي وضعت حتى الآن كان من الممكن أن تختلط بالزيف والخداع .

ومع ذلك فقد نجح خلال منتصف القرن الماضي طبيب هندي يدعى « ايسديل » في استخدام التنويم المغناطيسي في اجراء العمليات الجراحية ، وكانت العقاقير المخدرة لم تكن قد اكتشفت بعد .

واليوم بعد أن ارتقى استخدام العقاقير المخدرة الى درجة كبيرة فانه ينذر استخدام التنويم المغناطيسي في العلاج الطبى لغرض التخفيف عن آلام المريض على الرغم من أنه يفوق فى نواحي كثيرة أفضل العقاقير المخدرة .

ولقد نجح المنومون المغناطيسيون أخيرا فى خلع الاسنان والضروس من غير أن تنزف دماء . ومنذ سنوات قليلة مضت وفى معرض أقيم فى الولايات المتحدة وأمام حشد كبير من أطباء الاسنان استطاع منوم مغناطيسى أن يخلع ضرسين فى الفك العلوى وضرسا فى الفك السفلى فى الجانب الايمن من الوجه بدون استخدام أى عقار أو بنج ، ولم يحس المريض الذى كان فى حالة غيبوبة كاملة أى ألم ، ولم ينزف منه دماء .

وهناك ظاهرة أخرى لوحظت منذ الايام الاولى لاستخدام التنويم المغناطيسى وهى الصلة الوثيقة أو التعاطف المتبادل بين المنوم وبين الشخص المراد تنويمه ، وهذه العلاقة الخاصة تجعل الشخص يتلقى الاوامر والتعليمات ويتقبل الايحاءات من المنوم بالذات لا من أى شخص آخر .

فاذا ما أمكن ايجاد هذه « العلاقة الخاصة » فانه من الممكن نقلها الى أناس آخرين طبقا لاوامر المنوم المغناطيسى .

على أن فقدان الذاكرة التى تعقب عملية التنويم المغناطيسى أو التى تصاحبه هى فى الواقع ظاهرة مصاحبة لحالة الغيبوبة العميقة .

وحالات فقدان الذاكرة هذه هى حالات شائعة فى حالات الغيبوبة العميقة ، وهى حالات لا يستلزم بها للشخص المنوم ، ولكنها حالات تعتبر نتيجة

تلقائية حالات الغيبوبة العميقة ، فإذا لم تكن حالة الغيبوبة عميقة بالدرجة الكافية
وجب على المنوم أن يوحى إلى الشخص المنوم بضرورة نسيان كل ما حدث ، وعادة
تطاع مثل هذه الاوامر بسهولة .

ولذلك فإن هناك استمرارا بين اللحظة الأخيرة قبل أن يروح الشخص
المنوم في غيبوبة ، وبين اللحظة الأولى عندما يستيقظ وهو لا يذكر تماما أى شىء
حدث بين اللحظتين .

وليس هناك شك في القوة الكبيرة الكامنة في « الإيحاء ما بعد التنويم »
وقدرته على أحداث فعل ما ، ولتوضيح ذلك نعطي المثال التالي :

لقد كان موضوع التجربة عالم نفسى معروف يهتم اهتماما كبيرا بظواهر
التنويم المغناطيسى ، وكانت شخصيته مستقرة وقوية ، ولم يكن بها اثر من آثار
الضعف العصبى . ولقد أعرب عن رغبته فى أن يجرب ظواهر التنويم المغناطيسى
بنفسه ، فنوم تنويما مغناطيسيا وراح في غيبوبة عميقة . وفى أثناء الغيبوبة
أوحى له أنه عند إعطاء إشارة متفق عليها من قبل ، يقوم من كرسيه ويعبر
الغرفة ويجلس في كرسى آخر .

ثم أوقف من الغيبوبة المغناطيسية وبعد نصف الساعة أعطيت الإشارة
المتفق عليها من قبل ، فبدأ عليه الاضطراب قليلا وبدأ ينظر عبر الغرفة متجها
بنظره إلى الكرسى الآخر وأخيرا قال : « أننى أميل ميلا شديدا إلى عبور الغرفة
والجلوس في ذلك الكرسى . اننى متأكد أنك أعطيتنى إيحاء بعد التنويم بهذا
المعنى . حسنا على اللعنة اذا كنت أفعل هذا ! »

واستمر يشترك في الحديث ولكن بدا عليه أنه مشتت الفكر ، ثم قفز فجأة
من كرسيه وعبر الغرفة وجلس في الكرسى الآخر وصاح قائلا : « لم أستطع
المقاومة أكثر من ذلك » .

لا عجب إذن في أن المحاولات قد بذلت لاستخدام « الإيحاء بعد الغيبوبة
المغناطيسية » كعامل معالج . وكانت هذه الفكرة واضحة بوجه خاص عندما
عرف أن الإيحاء بعد التنويم المغناطيسى يستطيع أن يدوم فترات طويلة .

وقال بعض المجربين الموثوق بهم أن الايحاءات بعد التنويم تدوم فترات تتراوح بين سبعة شهور وعام ، وبالرغم من ذلك فإن نتائج استخدام الايحاء بعد التنويم المغناطيسى لم تكن ايجابية عادة •

ولنفترض أنك أردت أن تقلع عن عادة تخدير نفسك بالمشروبات الروحية أو التبغ ، فمن الممكن أن تعطى ايحاء بأن المشروبات الروحية سوف تمرضك ، وأن التبغ سوف يكون طعمه كطعم نبات الصبار المر • وسوف يكون لهذا الايحاء أثره في أثناء فترة الغيبوبة المغناطيسية ، وحتى عندما يعطى الايحاء بعد التنويم المغناطيسى فإن آثاره سوف تدوم لمدة يوم أو يومين بعد ذلك ، ولكن قوة الايحاء تتضاءل تدريجيا حتى يزول الأثر بعد أسبوع ، ويعود الشخص المنوم مرة أخرى إلى أدمانه الأصلي • ومن الممكن طبعا إعادة تنويمه كل بضعة أيام قليلة ، ولكن هذا الإجراء غير مجرب لأن الكثير من الناس يخشون أن يتحول التنويم المغناطيسى في حد ذاته إلى أدمان ، بل قد يكون أسوأ وأكثر تكاليف بالنسبة للفرد عن المشروبات الروحية أو التبغ ، ولذلك ففي الوقت الحاضر لا يستخدم الايحاء بعد التنويم إلا نادرا ، بالرغم من أنه يبدو أنه لو أجريت تجارب صادقة مخلصه ذكية على هذه الطريقة لتحقق نتائج أفضل وأكثر فاعلية •

وهناك ظاهرة أخرى نلاحظها أحيانا في التنويم المغناطيسى وهي سمو أو ترقية طاقة العمل العادية ، ولقد بالغ بعض الكتاب القدامى مبالغة تنسم بالحرق في قدرة الشخص المنوم على الاتيان بأعمال خارقة ، ولكنهم لم يجربوا ما إذا كانت هذه الاعمال من الممكن تنفيذها في الحالة الطبيعية • وبالرغم من ذلك فنحن لا ننكر أن بعض الاعمال تتم تحت تأثير التنويم المغناطيسى بسرعة أكثر وبدقة أكثر عندما تتم في حالة اليقظة العادية •

ثم ظاهرة أثارت اهتماما أكبر من غيرها من الظواهر بسبب ما تبشر به من نتائج طيبة في الميدان العلاجي ، هي تحسين الذاكرة تحت تأثير التنويم المغناطيسى • ويقول اخصائيو التنويم المغناطيسى : أن الشخص تحت تأثير التنويم المغناطيسى يستطيع أن يتذكر أمورا قد لا يستطيع أن يتذكرها في حالته الطبيعية • ويقال : أن الشخص تحت تأثير التنويم المغناطيسى من الممكن «ارجاعه»

الى مرحلة مبكرة ، وأنه في هذه الحالة سوف يمر بنفس الأحداث التي كانت قد وقعت طوال المرحلة ، بل سوف يحس العواطف نفسها التي أثارها تلك الأحداث في نفسه . ولقد أثار هذا الادعاء أو هذا الرأي الذي ذهب اليه الاخصائيون في التنويم المغناطيسى جدلا وانتقادا ، لا سيما أن أصحاب هذه النظرية ، نظرية ارجاع الشخص تحت تأثير التنويم المغناطيسى الى مرحلة مبكرة قد بالغوا كثيرا في آرائهم ، حتى زعموا أنه من الممكن إعادة الشخص الى الفترة التي كان فيها جنينا لم ير النور بعد . ومثل هذا الزعم لا يمكن أن يجعل الموضوع مقبولا لدى العلماء الناقدين .

على أن هناك شيئا له أهميته ، فنحن اذا نظرنا الى ذلك الشيء الذي يحدث عندما ينام الشخص عائدا الى المرحلة المبكرة نراه يستخدم عادة اللغة التي يتوقع المرء أن يسمعها من شخص عاد بذاكرته الى مرحلة مبكرة ، وقد يصبح صوته كصوت الاطفال ، وربما احتفظ بلهجته أو نغمته العادية ولكنه لا يستعمل سوى الكلمات والعبارات السهلة ، ويميل سلوكه العام الى ما يطابق السن المبكرة التي أرجع اليها ، فاذا أعيد الى سن الخامسة مثلا فمن المفروض أنه يلعب بالدمى ويبيكى ، أو يحتج مثل الاطفال في حالة تحطيم الدمية ، واذا رسم فستكون رسومه في مستوى رسوم أطفال هذه السن .

ولقد لوحظ في احدى تجارب ارجاع فتاة في العشرين من عمرها الى أعمار متفاوتة تحت تأثير التنويم المغناطيسى أنها نقلت قطعة الطباشير الى يدها اليسرى في مرحلة السنوات الست من عمرها ، لأنها كانت تفعل ذلك وهي في هذه السن ، ثم أجبرت على التغيير بعدها .

كما أجريت أنواع أخرى من الأبحاث على سلوك الاشخاص المنومين الذين أعيدوا الى الوراء في مراحل مبكرة ، وذلك في اختبارات ذكاء واختبارات تحصيلية من أنواع مختلفة ، ووجد عادة أنه عندما يعاد الناس الى مرحلة معينة فانهم يميلون الى السلوك الذي يتناسب تقريبا مع السن المحددة .

هذا واثبتت التجارب بما لا يترك مجالا للشك أن هناك جانبا من الصنق والصحة في الافتراض بأن إعادة الذاكرة الى الوراء يحدث فعلا ، وأنه من الممكن

استرجاع الذكريات التي يظن بعض الناس أنهم قد نسوها تماما ، كما أنه من الممكن استغلال تلك الحقيقة لأغراض علم النفس العلاجي . ونستطيع أن نسوق مثالا نشرح به كيف تستخدم عملية استرجاع الذاكرة في العلاج النفسي .

ففي إحدى حالات العلاج كانت المريضة سيدة متزوجة في سن الأربعين ذكية ومطلعة ، وظلت هذه السيدة أعواما طويلة تعاني من نوبات الربو وكان عملها يتطلب منها التردد على المستشفيات ، فقد كانت تعمل كاختصاصية اجتماعية في العيادات النفسية . وفي كل مرة تدخل فيها مستشفى كانت تحس خوفا ، وكانت الأسباب التي تسبب لها الخوف غير معقولة ، اذ كانت تخاف عندما ترى يد رجل شعراء أو عند رؤيتها سكاكين ، كما كانت تعاني من الكابوس والاحلام المزعجة . وفي ذات يوم وبينما كانت في حالة غيبوبة نتيجة لإيحاء ذاتي أعيدت ذاكرتها الى الوراء لسن مبكرة حيث وقع لها حادث كانت قد نسيتة تماما .

لقد تذكرت هذا الحادث وهي في الغيبوبة فبدأت راقدة على منضدة تحت أضواء براقية يقف بجانبها رجل ممسك سكيننا صغيرا ، وكان هناك شيء غامض يسقط من مكان فوق رأسها ثم رسا هذا الشيء على وجهها ، وأحسست الرعب وحاولت النهوض ولكن ذراعين يغطيها الشعر أمسكتها بخشونة وأرغماتها على النوم على المنضدة ، واستمرت تناضل ولكن شخصا ظل يهزها ويصفعها ، وأخيرا رسا ذلك الشيء على وجهها وكنم أنفاسها .

وبالاستفسار اتضح أنها في طفولتها أجريت لها عملية جراحية في أذنها ، ولكنها ظلت مريضة مدة طويلة بعد العملية نتيجة المضاعفات التي نجمت عن صدمة شديدة . وكانت ممرضتان في المستشفى قد أبلغتا أمها بأن طبيب البنج كان قاسيا للغاية مع الطفلة ، وأنهما قدمتا استقالتيهما احتجاجا على ذلك . وظلت الطفلة وقتا طويلا بعد ذلك تعاني من الكابوس ومن القلق العصبي . وبدأت أول نوبات الربو عندها بعد هذه العملية الجراحية . وكانت نتيجة التنويم المغناطيسي أن عولجت هذه السيدة من الربو ، وزال خوفها من الايدي الشعراء ، ومن منظر السكاكين ، ومن ارتياد المستشفيات .

وقد يبدو للقارىء ان يتساءل بعض الاسئلة التى قد توضح الهدف من هذا الجزء وهى :

♦ هل من الممكن اقناع الأشخاص تحت تأثير التنويم المغناطيسى بارتكاب الجرائم او السلوك بما يتعارض مع اخلاقهم ومعتقداتهم ؟

♦ ما عدد الناس القادرين على ان يناموا تنويما مغناطيسيا ؟

♦ ما علاقة التنويم المغناطيسى بالعلاج النفسى ؟

اما فيما يختص بالسؤال الاول فان الكتاب المترين حتى الآونة الاخيرة يميلون الى تكذيب هذا الرأى ، وكانوا يدللون على ذلك بحالة المساعد الشاب للاخصائى النفسى « شاركوت » ذلك الشاب الذى لم يوفق عند تقييد استاذة فى حث فتاة تحت تأثير التنويم المغناطيسى على أن تخلع ملابسها .

ويعتقد هؤلاء الكتاب أن الإيحاء لشخص تحت تأثير التنويم المغناطيسى بالقيام بعمل مناف لمبادئه وأخلاقه لا يجد استجابة من الشخص المنوم ، بل على العكس قد يدفع الشخص المنوم الى أن يستيقظ من حالة التنويم المغناطيسى . وهناك ملاحظات عديدة من هذا النوع فى الادب التجريبي ، توحى بأن الشخص المنوم لن يستجيب لإيحاء صريح بالقيام بعمل مناف للمبادئ والأخلاق .

الا انه فى الآونة الاخيرة أجريت عدة تجارب تبين أن هذا الحكم ليس صحيحا بصورة عامة ، كما أن اطار ذلك النوع من التجربة اطار ضيق جدا ، ويكفى مثال واحد لكي يبين نوع التجريب المرتبط بهذه المسألة .

فقد أجريت تجربة « إيحاء ما بعد التنويم المغناطيسى » على جندي مكلف بواجب عسكري . وقد نفذ الجندي إيحاء ما بعد التنويم المغناطيسى وترك واجبه ، وهذا عمل مناف للعمل الاجتماعى ويؤدى بصاحبه الى عقوبة صارمة اذا لم تكن الظروف معروفة . ونرى من ذلك أن الاعمال المنافية للاعمال الاجتماعية من الممكن احداثها عن طريق التنويم المغناطيسى حتى ولو لم تبد هذه الاعمال للقارىء ذات طابع خطير جدا .

والصعوبة - بالطبع - هي انه لو كان هذا العمل المنافي للمبادئ الاجتماعية
ذا طابع خطير جدا فان تنفيذه يؤدي حتما الى عقوبة توقعها المحاكم على النوم
والشخص الذى نوم .

ولا يختلف التكنيك الذى يستخدم لاقتناع الشخص النوم على الايمان
بأعمال تتنافى مع المبادئ الاجتماعية والخلقية ، عن ذلك الذى يلجأ اليه بعض
الناس فى الحياة العادية . ولنضرب مثالا لذلك بشخصية « سير بمبر دينك
فلانل فلانل » ذلك الافاق فى الكيلو دراما فى عصر فيكتوريا الذى كان هدفه
الاعتداء على الفتيات العذارى ، فلماذا كان يفعل ؟ كان يلجأ الى أسلوب يقوم على
محاولة خلق اثر موقف معين على عقل الفتاة وهو موقف غير موجود بالفعل ، فهو
يتظاهر بالحب الخالد ، كما يتظاهر بالرغبة فى الزواج منها ، ويقوم ببذل الوعود ،
والنتيجة دائما كانت ناجحة كما تدل احصائيات الاطفال غير الشرعيين .

* * *

ولنتقل من مرحلة الافتراض الى مرحلة التجريب ، ففي احدى التجارب
التي اجريت على جنسدى امريكى يبلغ من العمر عشرين عاما وضع فى حالة
« غيبوبة » فى حضور ضباط برتب كبيرة من الجيش ، ووقف ضابط برتبة عقيد
امام الجندى مباشرة وعلى مسافة ١٠ اقدام منه ثم وضع الجندى حينئذ فى حالة
غيبوبة ، ووجه اليه هذا الالقاء :

« سوف تفتح عينيك بعد دقيقة . سوف ترى امامك جنديا يابانيا ، انه
يمسك بالسوتكى ، وهو يستعد لقتلك اذا لم تبدأ بقتله . عليك أن تخنقه
بيديك » . وفتح الجندى عينيه ، وبدأ يزحف للامام ببطء وأخيرا قفز قفزة سريعة
وأوقع الضابط على الارض وبدأ يضرب رأسه ويخنقه بيديه . وتطلب الامر
ثلاثة رجال لشده وابعاده عن الضابط ، ولم يعد الى هوته الا بعد أن استطاع
النوم أن يرسله فى سبات عميق . ولقد قال الضابط أن هجوم الجندى عليه
لم يكن تمثيلا ، وانه كان من الممكن أن يقتله أو يصيبه باصابات خطيرة لولا أن
هب الآخرون لانقاذه . ولما كان ضرب ضابط فى الجيش مخالفة خطيرة فانه
يتضح لنا أن النوم المغناطيسى الماهر يستطيع بسهولة أن يؤثر على النوم ويحثه
على الايمان بأعمال خطيرة . اذا ما أضفنا الى تلك الاعتبارات حقيقة أن من الممكن

تنويم الشخص تنويماً مغناطيسياً برغم إرادته ، فإننا نستطيع أن ندرك خطورة الموقف بالرغم مما يقال أنه لا يقع ضرر كبير تحت تأثير التنويم المغناطيسي بسبب الضمانات الكامنة في المبادئ الخلقية عند الفرد . ونحن نحتاج إلى جهود كبيرة قبل أن نعرف كيف نقيّد تحكم المنومين المغناطيسيين في الأفراد الآخرين . ولذلك يجب علينا ألا نقلل من شأن الأخطار الكامنة في قدرة المنوم على حث الأفراد على الاتيان بأعمال منافية للآداب والأخلاق .

أما السؤال الثاني الخاص بنسبة الناس الذين لديهم قابلية واستعداد للتنويم من بين أفراد المجتمع فهو سؤال لا يظفر بأي رد واضح . فهناك ظروف لها مواصفاتها ، ولم تجر تجارب كافية لتوضيح آثار هذه الظروف ، فإن الحدس أو التخمين ليس له ما يبرره ، ومع ذلك يقول كثير من الثقات : أنه إذا توافرت ظروف معينة مثل وجود منوم مغناطيسي كفء مستعد لقضاء أربع ساعات على الأقل مع الشخص المراد تنويمه ، وإذا ما تسرت الظروف الملائمة للتنويم فإن ظواهر التنويم المغناطيسي يخضع لها ٨٥٪ من الناس ، بل من الممكن أن يرتفع هذا الرقم إلى ١٠٠٪ ولذلك فإن التنويم المغناطيسي ليس بظاهرة نادرة معزولة ، ولكنه ظاهرة لها صلة بالغالبية العظمى من الناس بل بكل شخص .

وللإجابة عن السؤال الثالث قد يكون من الأفضل أن نشير إلى الدراسات الأولية التي قام بها « فرويد » في علاج الهستيريا ، فقد لاحظ أن بعض المرضى يستريحون بالتنفيس عن طريق الكلام ، كما اكتشف فرويد أن الذكريات العديدة الأثر التي لا يتم فيها أي تفريغ انفعالي كانت عديمة الجدوى ، أي بمعنى أوضح أنه إذا لم يستطع الطبيب المعالج جعل مرضاه يعيشون الانفعالات التي ارتبطت أصلاً بتجربة مكبوتة وكانت سبباً في حالة المريض ، فإن مجرد تذكر التجربة لا يشكل علاجاً .

كما عرف سادلر Sadler فيما بعد أن « التخلص من العقد عبارة عن عملية إحياء ذكرى تجربة غير سارة ، والعمل على خلق الانفعالات المرتبطة بها وبذلك يمكن تخليص الإنسان من آثارها » .

ولقد أجريت محاولات عديدة في الحرب العالمية الأولى لتخليص عدة مصابين ببعض الأمراض العصبية من العقد بواسطة التنويم المغناطيسي، وكللت التجارب بنجاح .

وفي كل من الحربين العالميتين الأولى والثانية كان لعلاج التخلص من العقد بواسطة التنويم المغناطيسي مكان محدد في علاج حالات نورستانيا القتال الحادة .

وقد كتب ميلز كلبن Millais Gulpin (١) يقول : « بمجرد أن يتغلب الشخص على المقاومة الواعية لمناقشة خبراته في الحرب ، فإنه يتبع التفرغ الانفعالي للأحداث خلاص عظيم . وقد بدأ كان الانفعالات الكامنة - نتيجة هذه المقاومة الواعية - قد تخض عنها - نتيجة التوتر - ظهور بعض الاعراض ، فالتذكر - وهو أمر لا شك فيه - يبرز حينئذ، وربما يعقب عودته : ازدياد في امتلاء شرايين الوجه ، وضغط بالأيدي على الوجه ، ورعشات ، وعلامات بدنية أخرى للانفعال » .

وعلى كل حال ، فقد يود القارئ أن يتأمل أوجه شبه بين : تطور نظرية مسمر ، وبين تطور التنويم المغناطيسي ففي كلتا الحالتين هناك شخصية قوية تعتبر المؤسسة للفكرة ، ولكن هناك جماعة كبيرة من أتباع كل مدرسة تتعصب لمبادئ مدرستها والدعوة لها ، كما أن هناك مدارس جديدة انشقت على بعضها البعض وكونت مدارس جديدة . وهناك صياغة لنظريات غير عادية تقوم على أساس براهين لم تثبت صحتها ، وفي كل الحالات نجد تقارير تفيد بنجاح العلاج في بعض الحالات ، ولكن لا توجد التجربة الموجهة المقيسة وهي الوحيدة التي تستطيع أن تتحقق من صدق ادعاء كل منهما .

على أننا قبل أن نختم هذا القسم نود أن نشير إلى نقطة هامة تتعلق بالايحاءات ، فمن المعروف أن الكثيرين من المرضى الذين تعرضوا لعملية التفرغ الانفعالي خلال شهور أو حتى سنوات على مسند المعالج النفسي يصبحون شديدي

Gulpin M. - Recent Advances in the Study of Psychoneuroses, J. and A. (١)
Churchill, London, 1931.

الحساسية من ناحية ايجاءات الطبيب المعالج • وقد يكون قادرا حينئذ على تغيير أنماط سلوكهم السابقة بدون صعوبة كبيرة ، اذ أنهم يستجيبون برغبة أكبر حينما يحاول أن يزرع أفكارا جديدة فيهم ، أو يبعث تفسيرات جديدة لأرائهم القديمة • وتلك أمور من المؤكد أنهم كانوا يرفضونها دون تردد قبل أن يحدث لهم هذا التغيير •

التحليل النفسي Psycho Analysis :

لقد قامت دراسات عديدة في السنوات الأخيرة في موضوع الارتباط بين الاضطرابات النفسية ، وبين الاحوال الفسيولوجية ، ومعنى هذا أن بعض اضطرابات الجسم قد تتسبب عن أحداث سيكولوجية مثل الانفعالات القوية ، وانه من الممكن أن يتحقق علاج الاضطراب الجسماني اذا أمكن أولا أداء عملية تطهير سيكولوجية •

هذا التأكيد للعلاقة بين الجسم والعقل والتفاعل بينهما - يدل على اتجاه حديث ، ويرجع الفضل الى فرويد والمحللين النفسيين الآخرين في اكتشاف ما اعتبره كثير من الناس حقيقة جديدة هامة في ميدان الطب •

ونظرية الارتباط بين الاضطرابات النفسية ، وبين الاحوال الجسمانية هي على الاقل نظرية قديمة قدم التفكير الانساني عن العقل والمادة ، وكل ما نراه في هذه النظريات الحديثة نستطيع أن نراه في أعمال الفلاسفة اليونانيين أو ما قبل ذلك • وليس تطبيق المبادئ التي تستخدم في التشخيص الطبي والعلاج الطبي أمرا جديدا •

وعلى سبيل المثال نروى قصة قيلت في القرن الخامس عشر في كتاب فارسي معروف • وتقول القصة : أن الطبيب العظيم « رازيس » استدعى الى ترانسكيا لمعالجة الأمير منصور اذ كان يعاني من روماتزم المفاصل الذي لم ينجح

أحد من أطباء الأمير في شفاؤه . وعندما وصل « رازيس » إلى ضفة نهر أوكسوس رفض أن يعبر النهر في القارب الذي أعد له لأن القارب كان صغيراً وضعيفاً . ولكن رجال الملك قبلوا يديه ورجليه والقوا به في القارب رغماً عنه . وشرح لهم رازيس سبب مقاومته لهم فقال : أنه يعرف أن آلاف الناس تعبر نهر أوكسوس بسلام ، ولكن لو تصادف وغرق هو في النهر يقول الناس عنه أنه كان مغفلاً لأنه عرض نفسه للمجازفة بمحض إرادته ، ولكنه لو هلك وهو يقاوم أثناء إرغامه على عبور النهر قسراً لكان الناس يحسون الرثاء من أجله . وعند وصوله إلى بخارى حاول « رازيس » طرقاً مختلفة للعلاج ولكن محاولاته ذهبت أدراج الرياح . وأخيراً قال للأمير « سوف أحاول طريقة جديدة في العلاج غدا ولكنها سوف تكلفك أفضل جواد وأفضل بغل في أسطبلاتك » وبعد أن وضع الجواد والبغل تحت تصرفه ، ساق رازيس الأمير إلى حمام ساخن خارج المدينة . وهناك ربط الجواد والبغل بعد أن وضع على كل منهما السرج واللجام ودخل غرفة الحمام الساخن ومعه مريضه « الأمير » وأخرج سكيناً وأخذ يهدد به الأمير داخل الحمام مهدداً إياه بالقتل بسبب المعاملة السيئة التي لاقاها عندما نقله رجال الأمير برغم أنفه في القارب الذي عبر به النهر . وغضب الأمير وبدافع من الغضب أو الخوف وقف على قدميه بقوة بالرغم من عجزه السابق عن ذلك . وهرب « رازيس » من الحمام حيث يقف الجواد والبغل وتابعه ، وفر بأقصى سرعة من البلاد وعبر نهر أوكسوس ، ولما وصل رازيس إلى « ميرف » كتب للأمير يقول :

« أتمنى لك طول العمر في صحة وسلطة دائمة . لقد استخدمت كل قدراتي لمعالجتك . لقد أدركت أن أصل الداء هو نقص الحرارة الطبيعية فيك . وما كنت أريد إطالة مدة العلاج . ولذلك لجأت إلى العلاج النفسي . وعندما أمسكت بالسكين وتفوهت بالفاظي التي تذكرها وهددتك بالقتل فأننى كنت أقصد استشارتك حتى تزيد فيك الحرارة الطبيعية ، ولقد نجح علاجي هذا عندما رايتك تقف على قدميك » .

وسر الأمير لانه وجد أنه استعاد صحته فكافأ رازيس : بعباءة ، وعمامة ،
وأسلحة ، وبزوج من العبيد ، يتميزان بجمال التقاطيع ، وبجواد ، وامرأة ،
ومنحه هبة سنوية قدرها ٢٠٠٠ دينار .

* * *

وقصة شبيهة بهذه تلك القصة التي رواها ابن سينا أكبر طبيب في عصره ،
وكان المريض في هذه الحالة امرأة في حاشية الملك ، وبينما كانت تنحني لاعداد
المائدة أصيبت بتورم روماتزمى مفاجئ في المفاصل لم تستطع بعد ذلك أن تقف
منتصبة القامة . وطلب من طبيب الملك شفاؤها ، ولما لم تكن لديه المعدات الطبية
لجأ الى « العلاج النفسى » . واستعان في علاجه بانفعال الحجل وبدأ يخلع عنها
ملابسها - فبدأ بالبرقع ثم بالفستان وما أن وصل الى هذا الحد حتى « سرت
حرارة في جسم المريضة ازالته التصلب الروماتزمى » ووقفت المريضة منتصبة
على قدميها وقد شفيت تماما .

ونستطيع أن نروى قصصا أخرى من نفس النوع من الكتب التاريخية لبلاد
عديدة . وكل هذه القصص تشير الى أن المعرفة بمبادئ معينة تتحكم في العلاقة
بين الجسم والعقل ، كانت أمرا مفهوما منذ القدم .

* * *

وفي الفصل السابق بينا أنه حينما يستثار مخ الانسان بدرجة تفوق قدرته
على احتمال التوترات المفروضة عليه فإنه يحدث له « توقف وقائي » ، واذا ذلك
لا تكبت فقط تلك الانماط السلوكية التي سبق أن غرست في المخ بل قد يحدث
كذلك أن تتحول الاعمال الشرطية المنعكسة السابقة من ايجابية الى سلبية
او بالعكس ، فيصبح الفرد أكثر قابلية للايحاء حتى ليتقبل أى شيء يلقي عليه
- ولو كان لغوا - على أنه حقيقة ثابتة غير مفروضة عليه .

ويمكن ملاحظة كل هذه الآثار حينما يتعرض مريض الأمراض العقلية في وقت السلم الى تكرار العلاج بالتفريغ الانفعالي سواء باستخلام العقاقير كما سيأتى فيما بعد أو بدونها .

وكلما كانت شخصية المريض أكثر ميلا الى المزاج الطبيعى ازدادت ثقتها عند رؤية الامور فى ضوء جديد . وبعد تفريغ انفعالى عنيف بدرجة معينة فان المريض يتحول تماما فى آرائه عن الدين أو السياسة أو فى وجهات نظره تجاه العائلة أو الاصدقاء ، وقد تتحول وجهات النظر هذه بسرعة ، كما أنه يمكن زيادة القابلية للإيحاء ولو مؤقتا عن طريق التفريغ الانفعالى المتكرر ، فقد يصبح المريض أكثر قابلية للتأكيدات العادية من الطبيب النفسى المعالج، وهذه التأكيدات قد يستحيل أن يتقبلها من محاميه ، أو من الواعظ ، أو طبيب العائلة وهو فى حالة عقلية أكثر هدوءا .

ويعتمد التحليل النفسى أساسا على مشيرات سيكلوجية متكررة ، اذ يستلقى المريض فى أثناء العلاج على مسند حيث يشجع يوميا - لعدة شهور وقد يمتد الزمن الى سنوات - على الاندفاع فى « عملية التنداعى الحر » .

وغالبا ما يكون المرضى على جانب كبير من الحساسية تجاه المعالج الذى يحاول أن يحدث فيهم فورات انفعالية متكررة ، ويطلق المحللون النفسيون على هذه الظاهرة « تكوين تحويل ايجابى أو سلبى تجاه أنفسهم » . وعلى أساس هذه الظاهرة يقترح فرويد ومدرسته وسائل علاجهم . وعلى الرغم من أنه من المعترف به الآن بصفة عامة أن الصدمات الجنسية ليست سبب كل الأمراض العقلية فانهم لا يزالون يشجعون المريض عمليا على إثارة الطاقة الجنسية مبكرا ، أو ما يصاحبها من مشاعر الاثم الجنسى ، وبذلك يساعدون على أن يثيروا فى نفسه الانفعالات الضرورية للتفريغ الانفعالى الناجح .

ونعود الآن الى المريض وهو مستلق على مسند المحلل النفسى . ان عليه أن يعود الى نزواته الجنسية الماضية ويعيش ثانية حوادث من تلك التى أثارت فيه

ولا سيما في طفولته قلقا شديدا : كالحوف ، أو الشعور بالذنب ، أو الاعتداء ، ويتقدم التحليل وربما تزيد العواطف الانفعالية حتى يصبح المريض أكثر حساسية تجاه التحلل ، وتنمو ما نسميه « مواقف التحول » الموجبة أو السالبة نموًا فسيولوجيا ، وغالبا ما يلقي ذلك مساعدة في مراحل العلاج الأولى نتيجة التعب والإرهاق الناجم عن القلق الذي يستثار . وقد يزداد توتر المريض واعتماده على الطبيب المعالج زيادة كبيرة ، وفي النهاية يصل إلى مرحلة تضعف فيها المقاومة أمام تفسيرات الطبيب المعالج لأعراض المرض عند المريض ، وقد يبدأ في تقبلها باستعداد أكبر من ذي قبل ، فيؤمن حينئذ بنظريات عن حالته العصبية تتعارض في أغلب الأحيان مع معتقداته السابقة ، ويجوز كذلك أن ينقلب عدد كبير من أنماط الفرد السلوكية المعتادة نتيجة هذه العملية وتحل محلها أنماط جديدة .

وتعزز هذه التغيرات بجعل سلوك المريض متمشيا بقدر الامكان مع الفهم الجديد الذي اكتسبه ، ويؤكد ذلك ما أشار به أحد المرضى بعد أن عالجته فرويد بالتحليل النفسي :

« كنت عاجزا في الأشهر الأولى القليلة عن الشعور بأي شيء اللهم إلا القلق المتزايد والمهانة والذنب ، وأصبح كل شيء عن حياتي الماضية لا يرضيني بعد ذلك ، وبدأت في كل آرائتي القديمة عن نفسي متناقضة ، وعندما وصلت إلى حالات من حالات اليأس التام بدأ فرويد يسترجع لي ثقتي في نفسي ، ويضع كل شيء في وضع جديد » .

* * *

على أننا يجب أن نشير هنا إلى ثلاثة اكتشافات هامة من بين الأعمال الكبيرة التي قدمها فرويد ، وهي تتصل بصفة خاصة بهذه الدراسة . هذه الاكتشافات هي :

• هناك جزء « لاشعوري » من عقل الإنسان يرغب في أشياء كثيرة لا يقرها الجزء « الواعي » من العقل . ان الكبت النفسي والتعليل العقلي ما هما الا شيئان هشتان لهما أثر عظيم على السلوك .

♦ كثيرا ما يخترع العقل خيالات وتصورات وكثيرا ما تكون لهذه الخيالات والتصورات نفس السيطرة التي للحقائق على السلوك الانساني .

♦ يلعب « الجنس » دورا هاما في تقرير اعمال الانسان .

وعلى اساس هذه الاكتشافات ، وعلى اساس عوامل كثيرة اخرى شيد فرويد صرحه الضخم . وما كاد ينشر موضوعا يعالج فيه نقطة معينة حتى بدأ كثيرون في الكتابة ليدللوا على صحة ما كتب او ليعارضوه . وكان من اثر الخلاف الشديد الذى كان بين أنصار فرويد او الذى كان بين أنصاره ومعارضيه أن ظهرت كتابات كثيرة متعارضة او متناقضة لدرجة لا تسمح لغير من أوتوا مقدرة كبيرة ان يميزوا فيها بين الغث والسمين .

وكان هناك خطان كبيران للهجوم : الاول أنه لم يكن هناك دليل لتأييد معالجة فرويد لعلم النفس ، والآخر أن فرويد كان ينسب صحة ما يقول الى عوامل لا تنطبق ولا تنتشر الا في المجالات الاوروبية .

أما بالنسبة لخط الهجوم الاول فهو معقد الى حد ما . ان المعالجة الساذجة — طالما عجزت عن أن تجرى التجربة على فار فليس هذا من علم النفس فى شيء — قد طرحت فى معظم الاحوال وتركت . وظل بعد ذلك شك فى كل نظريات فرويد على اساس أنه يعوزها الدليل . ويقف أغلب علماء النفس موقفا يشبه الموقف الآتى : « ان علماء التحليل النفسى — مثل فرويد ويونج وأدلر وغيرهم — قد ساهموا دون شك فى مشكلة « الدافع » او « الباعث » ولكن نظرا لحماستهم الشديد فانهم مدوا نظرياتهم الى ما هو أبعد من الحدود العلمية . وفى أحوال كثيرة قاموا بتفسير مادتهم بعبارات غير دقيقة وأعطوها مدلولات غامضة . انهم يتحيزون الى « الشاذ » بحيث يعالجون الشخص « العادى » على ضوء الشخص « الشاذ » .

ولكن مهما اختلفت الآراء فان الخبرة الاكلينيكية تؤيد بعض نظريات فرويد . ان كثيرا من معتقداته الكبرى قد أكدته أحسن البراهين برغم أن كثيرا من التفاصيل لم يمكن اثباتها .

ويقول تقرير كينسى Kinsey (١) فى أحد أقسامه : « ان هذه البيانات عن النشاط الجنسى للذكور الصغار تزودنا بالدليل على صحة وجهة نظر فرويد عن الجنس اذ يقول : ان الاخير موجود فى الحيوان الانسانى من بدء الطفولة • ولكنه لا يؤيد وجهة نظر فرويد التى تقول بوجود مرحلة مبكرة يشعر فيها الصغير بالشهوة التناسلية التى تسبق النشاط التناسلى • كما أنها لا تبين أى ضرورة لفترة يكون فيها الجنس خامدا فى السنوات المتأخرة من المراهقة الا اذا كان هناك كبت من الوالدين ، أو كبت اجتماعى فى الطفل النامى » •

أما النقد الثانى الخاص بأن فرويد عم أمثلة يختص بها السلوك الاوروبى فهو نقد صحيح ، فقد كتب العالم الفرويدى المعروف كارين هورنى Karen Horney عن عقدة أوديب يقول : « يفترض أن الدوافع الغريزية أو العلاقات الموضوعية الكثيرة الحدوث فى معتقداتنا تقررهما طبيعة الانسان ، أو أنها تنبع من مواقف لا تتغير • ان اغفال فرويد للعوامل الثقافية لا يؤدى به فقط الى تعميم خاطئ • ولكنه يقف فى طريق فهم القوى الحقيقية التى تدفعنا الى العمل • وانى اعتقد أن هذا الاغفال هو السبب الرئيسى الذى دفع علماء التحليل النفسى الى أن يصلوا فى النهاية الى طريق مسدود برغم ما يسدو من أن مجاله غير محدود • وهذا يبدو فى ظهور النظريات المبهمة العسيرة الفهم وفى استخدام الالفاظ الغامضة غير الواضحة •

« ان مشاهدات فرويد بشأن عقدة أوديب كانت على اشخاص مصابين بأمراض عصبية ، ففى هؤلاء وجد أن الغيرة الفائقة الحد التى تؤدى الى ردود أفعال تجاه أحد الوالدين كانت من النوع المدمر الذى يثير الخوف ، ويحتمل أن يكون له أثر باق فى تكوين الخلق وفى العلاقات الشخصية • وما أن لاحظ هذه الظاهرة كثيرا

(١) ألفريد تشارلس كيلسى (١٨٩٤ - ١٩٥٦) من علماء علم الحيوان الأمريكين ، كان هو الذى قام بالسج الاجتماعى للسلوك الجنسى فى الولايات المتحدة ، وأهم ما كتبه :

- ♦ السلوك الجنسى عن الذكر •
- ♦ السلوك الجنسى عن الأنثى •

فى المصابين بأمراض عصبية حتى افترض أنها عامة • ولم يكتف بأن جعل من عقدة أوديب أس الأمراض العصبية بل أنه حاول أن يفهم الظواهر المعقدة فى الثقافات الأخرى على نفس الأساس • أن هذا التعميم هو موضع الشك • ليس هناك أى دليل على أن ردود أفعال الغيرة المدمرة التى نفكر فيها عندما نتحدث عن عقدة أوديب موجودة فى ثقافتنا أو فى الثقافات الأخرى ، كما أنها ليست عامة كما يفترض فرويد •

والواقع أن نظرية فرويد أجرى فيها بعض التعديلات والتفسيرات سواء من جانب العلماء الفرويديين أو غيرهم ، إلا أن هذا التعديل أو التغيير لم ينقص من قدر العالم النفسى الكبير •

ولكى نوضح كيف أعيد تفسير نظريات فرويد الأصلية نضرب مثلاً بآريك فروم Erich Fromm (١) فهذا العالم يرى أن الخلق هو الذى يتحكم فى السلوك الجنسى ، وذلك عكس ما كان يقول فرويد : أن التطور الجنسى هو الذى يتحكم فى الخلق •

والآن ما علاقة النظرية الفرويدية بموضوع دراستنا ؟

يجيب فروم على ذلك بقوله :

« لقد ظل الانسان يدرس فقط البيانات الخاصة بما يفكر فيه الناس بدلا من دراسة القوى العاطفية خلف هذا التفكير • ان الاحصاءات الخاصة بالرأى قد تكون ذات أهمية فى بعض الأغراض إلا أننا فى حاجة الى أن نعرف المزيد • أنها ليست الأدوات التى تساعدنا على فهم القوى التى تعمل تحت سطح التفكير • أننا عن طريق هذه القوى الأخيرة فقط يمكننا أن نتنبأ كيف يتصرف أعضاء

(١) إيريك فروم عالم فرويدى مشهور ولد بفرانكفورت بألمانيا (٢٣ من مارس ١٩٠٠ م)

حصل على الدكتوراه من جامعة هيلدبرج سنة ١٩٢٢ ، عمل فى معهد الأبحاث بليوبورك

(١٩٣٢ - ١٩٣٩) ، يعمل فى معهد أبحاث أمراض العقل بواشنطن منذ سنة ١٩٤٣

واستأذا بجامعة مكسيكو سنة ١٩٥٦ م •

تجتمع من المجتمعات حيال مواقف حرجة بالنسبة لأفكار يؤمنون بها ، وبالنسبة
لأيدولوجيات جديدة كانوا يعرضون عنها • فمن وجهة نظر علم القوى الاجتماعية
إن الرأي لا يساوى أكثر من القالب العاطفى الذى صب فيه » •

ثم يمضى فروم فيقول : « أننا ما زلنا بعيدين عن رسم صورة شاملة عن
الخلق الاجتماعى ، ونحن ما زلنا نفتقر الى معلومات كثيرة عن معظم مشكلاتنا
الملحة ، فمثلا الى أى حد يمكن أن نعرف درجة تأثير علم الاخلاق على سلوك الرجل
الحديث ؟ • وهل للمستويات الخلقية أى تأثير ؟ أو هل أعمالنا : يملئها الخوف ،
أو يملئها عدم الموافقة ، أو تملئها العقوبة ؟ » •

ومن رأى فروم أن السبب فى عدم سبر غور هذه الموضوعات يرجع الى
موقف معظم علماء النفس التحليلي • وهو يقول : أن معظم هؤلاء الذين يبدون
اهتماما بالظواهر الاجتماعية يعتقدون أنه ما لم يقوموا بدراسة هذه الاشياء
وهؤلاء الناس بطرق تسمح بتحليل كمى دقيق ، فإنه لا يمكن دراستهم مطلقا •
وبدلا من أن يقوم علماء علم النفس الاجتماعى بابتكار طرق جديدة تكفل دراسة
هذه المشكلات الهامة الخاصة بالناس يجعلون من طرق العلوم الطبيعية أصناما •
وتكون النتيجة أن تحدد الطريقة اختيار المشكلات بدلا من أن تقوم المشكلة
بتحديد الطريقة •

ولقد أثبتت مرجريت ميد^(١) فى دراستها النفسية الانثروبولوجية أن
العقد والغرائز مثل مركب أوديب لا توجد فى بعض القبائل فى جنوب أمريكا
وغيرها وهذا يدل على أنها مكتسبة بواسطة البيئة والثقافة •

* * *

(١) مرجريت ميد ١٩٠١ - من علماء علم الانثروبولوجيا الأمريكان ، درست العلم فى جامعة
كولومبيا وقامت بالبحوث العملية فى جزيرتى « ساموا ، آدمير » • التى عملت فى ادارة
المتحف الأمريكى للتاريخ الطبيعى • ومن أهم كتبها :

- 1) Coming of Age in Samoa.
- 2) Growing up in New Guinea.

ونود أن نشير هنا الى أن القضاء على الأنماط السلوكية القديمة للمريض هو في الواقع من بين الأهداف التي يسعى اليها المعالج ، ويستعين على ذلك بإثارة الانفعالات الشديدة والقابلية المتزايدة للإيحاء عند المريض . وهذا الأسلوب يساعد المعالج لا على تغيير تفكيره الواعي فقط ، بل أيضا على توجيه ما ينتابه من أحلام في حياته اليومية ، وغالبا ما يعتبر التحليل كاملا اذا ما تشرب المريض وجهات نظر المعالج تماما ، وانهارت مقاومته تجاه تفسيراته للأحداث الماضية .

وهذه الطريقة في العلاج قد تشابه بعض الأساليب في عمليات التحويل الديني . والقدرة على أن يحلم الانسان بأنواع معينة من الأحلام لمعالج معين تشهد كذلك بين الشعوب الأكثر بدائية ، ويوضح بنجت صندكلر (١) Bangt Sundkler في كتابه « أنبياء البانتو في جنوب أفريقيا » كيف أن رعاية الكنيسة من البانتو يعلقون أهمية كبيرة جدا على جعل الذين يسعون الى التحول الديني ، أو الذين تحولوا حديثا الى دين جديد يحلمون بالنوع الصحيح من الأحلام ، يقول :

« لقد شعر بعض رجال الارساليات بالمهانة بل حتى بالفضيحة بسبب الأهمية التي يوليها الأفريقيون للأحلام ، ويحس المبشرون صدمة لأن الثروة الروحية مثل التحول الديني تبدو ناشئة في حالات عديدة من حلم سخيف أكثر من رجوعها الى القرار الواعي للإرادة » .

ويدل آينا صندكلر بتفصيلات أخرى عديدة وطريقة عن الأحداث الصناعية لهذه الأحلام بقوله :

« يعرف بعض الصهيونيين ما يشيرون اليه « بهبة الأحلام » ومرة أخرى لابد من تدريب آخرين وتلمذتهم في الأحلام حتى يتسنى احراز الحلم الصحيح المطلوب .

(١) B. G. Sundkler - Bantu Prophets in Africa - Lutterworth press, London, 1948.

وعلق النبي x قيمة كبرى على احلام اتباعه الجدد فبعد اعتراف عام مبدئي بالخطايا ، يطلب منهم الذهاب الى بيوتهم ثم العودة بعد ذلك ليقصوا عليه كل ما حلموا به ، وأكد لهم أنهم لا يمكن ألا يكونوا قد حلموا بحلم ذى مغزى ، والشئ العظيم الذى ينتظره والذى يتوقعه من الحالم هو ظهور ياهوا Jehovah أو الملاك ، أو يسوع فى ثياب طويلة بيضاء لامعة دائما » .

وليس الغريب أن يتسنى تبشير الشخص العادى بسهولة أكثر من الشخص الشاذ ، وحتى التحليل النفسى القوى قد يحرز نجاحا قليلا جدا فى مثل الاضطرابات النفسية الشديدة - كالفصام والاكتئاب - التى تشيع الانقباض فى النفس ، ويمكن أن تكون بنفس القدرة عديمة الاثر فى بعض الحالات المعينة كالقلق والكآبة المزمنة . ويعتبر المجتمع الشخص عاديا أو طبيعيا لأنه يتقبل أغلب مستوياته الاجتماعية وأنماطه السلوكية ، الأمر الذى يعنى فى الواقع انه على استعداد للايحاء ، وأنه قد اقنع بأنه يسير مع الغالبية فى جميع المناسبات العادية أو الشاذة جدا .

والناس الذين يعتقدون آراء الأقلية على الرغم من احتمال ثبوت صحتها من قبل ، غالبا ما يسمون فى أثناء حياتهم بالمجانين أو على الأقل « بالشواذ » ولكن نظرا لامكان اعتناقهم آراء تقديمية أو حديثة لا يستسيغها المجتمع ككل ، فان ذلك يظهرهم على أنهم أقل قابلية للايحاء من زملائهم العاديين الذين يتمتعون بقدرة اعظم على التكيف طبقا للظروف .

وهذه الظاهرة تتمشى مع ظاهرة التحول الدينى أو السياسى .

ويقول سارجننت فى ذلك :

« من الخطأ الشائع أن الشخص العادى أكثر استعداد من الشاذ لمقاومة اساليب غسيل المخ الحديثة . ولو لم يمتلك العقل الانسانى قدرة خاصة على التكيف طبقا لبيئة دائمة التغير وعلى تكوين اعمال شرطية منعكسة باستمرار وأنماط لردود الفعل ، وكذا الاستسلام مؤقتا حينما يبدو عدم جدوى أية زيادة

في المقاومة ، لما استطاعت البشرية أن تعيش وتصبح العنصر السائد ، فالشخص الذي يتسم بالقدرات العاجزة عن التكيف ، والجهود الشديدة في السلوك أو الفكر يتعرض باستمرار لخطر الانهيار العصبي ، أو الدخول في مستشفى من مستشفيات الأمراض العقلية ، أو أن يصبح مصابا بمرض عقلي مزمن .

ويعتبر ارتفاع نسبة أعراض الهستيريا بين الأشخاص العاديين تحت وطأة التوترات الحادة للحرب بمقارنتها بتلك التي تحدث من نفس النوع من الناس تحت وطأة التوترات الأخف في وقت السلم - أو بين المصابين بقلق مزمن أو المجانين سواء في وقت السلم ، أم في وقت الحرب - قرينة أخرى على الرأي الذي نحاول تكوينه ، ألا وهو من الجائز أن يكون البسطاء والأصحاء من بين أكثر الضحايا استعدادا لفسيل المخ أو التحول الديني » .

استخدام العقاقير في العلاج النفسي :

في أوائل الحرب العالمية الثانية في أثناء علاج حالات الأمراض العصبية الحادة الناجمة عن توترات الحرب ، أصبحت قيمة بعض العقاقير المعينة واضحة في مساعدة المرضى على التخلص من الانفعالات التي علقت بأذهانهم نتيجة المحن المخيفة التي تسببت في انهيارهم العصبي ، وقد استخدمت هذه الوسيلة أيضا على نطاق محدود للغاية في ممارسة العلاج أيام السلم بواسطة كثير من الأطباء .

واليوم أصبح من الميسور أن تستخدم أنواع من العقاقير تحقق في وريد المصابين بأحد الأمراض العصبية أو العقلية أو عضلهم لتساعد على الانطلاق في الحديث وتذكر أحداث عاشها من قبل . وفي الوقت الذي يبدأ فيه العقار أثره بعد الحقن يبذل الطبيب جهده لجعل المريض يعيش مرة ثانية في القصة التي تسببت في انهياره العصبي . وفي بعض الأحيان تكون تلك القصة أو القصص قد ضاعت من ذاكرة المريض فيتطلب الأمر إعادتها إلى ذاكرته ، وأحيانا أخرى يتذكر المريض القصة إلا أن الانفعالات التي تصاحبها تكون قد كبتت منذ حدوثها . ومن ثم فإن التحسن الذي قد يلاحظ في حالة المريض من ناحية جهازه العصبي يعزى إلى إطلاق هذه الانفعالات الأصلية وتفرغها .

وقبل ان نحاول ان نبحت أثر استخدام العقار فى علاج حالات الامراض العقلية والعصبية ، وقبل ان نحاول ان نربط بينها وبين تجارب بافلوف - نود ان نشير الى ان عناصر هذه الامراض كامنة فى كل عقل بشرى ، ولكنها فى العقل السليم محجوبة عن الظهور بطبقة رقيقة من الارادة سهلة العطب ، ولعل هذا ما حدا بفرويد الى ان يقول :

« اننا نسير فوق طبقة رقيقة من طبقات العقل السليم على سطح كرة تشتعل بالجنون » ، ان هذا يعنى ان العقل عرضة لهزات نفسية عنيفة وصددمات توتيرية تشبه البراكين قد تؤدى باى عقل سليم الى حالة من حالات الامراض العقلية .

والحقيقة ان مخ الانسان يمكن ان نشبهه بالة دقيقة سهلة العطب قد يعترىها الخلل لأقل المؤثرات ، وفى كثير من الاحيان تبقى آثار الاختلال غير محسوسة ظاهريا ، بينما هى تعمل دون وعى فيظهر صاحبها عاقلا فى تصرفاته وسلوكه بينما يكون فى الواقع مختل الفكر فى تصوراته وتأملاته وتخیلاته ، ولا يمكن كشف ذلك الا عن طريق الطبيب المختص .

واقاردا بالواقع قلما يخلو عقل ولو بدرجة خفيفة من وجود ظاهرتين متباينتين من ظواهر الاختلال العقلى : احدهما من النوع الهستيرى والاخرى من النوع النورستانى ، والظاهرة الأولى تدفع الانسان الى النشاط فى الحياة والجهد فى العمل ، فاذا ما قويت دفعته الى التهور ، واذا وصلت الى أشدها فانه يصل الى درجة من التهيج ويتبع نمطا من السلوك الاعتدائى .

اما الظاهرة الأخرى فانها تجعل الانسان يميل الى : الروية ، والحكمة ، وحب العزلة ، والهدوء والفكر العميق ، فاذا ما ازدادت هذه الظاهرة نتيجة عوامل خارجية فانها تؤدى الى القلق والاضطراب الفكرى ، وقد تصل هذه الحالة الى أشدها فتتحول الى « الاكتئاب » .

ونود ان نشير هنا الى رأى « يونج » Jung الذى قسم البشر من الوجهة النفسية (١) قسمين رئيسيين أطلق على الأول اسم « الانبساطى » Extravert وعلى الثانى « الانطوائى » Introvert ويقول يونج ان النوع الاول تجذبه مباحج الحياة ويجب الاختلاط بالناس ويألف المجتمعات ، والنوع الآخر لا يعبأ بمظاهر الحياة ويجب العزلة ويميل الى الاعتكاف عن الناس . النوع الأول يكون عرضة « للهستيريا » أما الآخر فعرضة للنورستانيا ، وهو يقول أيضا : ان كلتا الظاهرتين فى نهاية الأمر متضادتان من حيث النتائج ، فالهستيريا تنتهى باتخاذ المسلك الاعتدائى ، والنورستانيا قد تؤدى الى الانتحار ، والأولى قد تنتهى بالجنون الحاد ، والاخرى قد تنتهى بالبله والعتة .

ويمكننا الآن ان نشير الى الفصل الثانى من الباب الاول فيما لاحظته بافلوف . فى كلابه نتيجة الانهاك البدنى الذى كان يعجل من أحداث انهيار عصبى تحت وطأة التوترات التى كانت تفرض عليها ، كما يجب ان نذكر ما لوحظ فى ظهور أعراض من النورستانيا على المدنين فى اثناء احتراق لندن وعجزهم عن فهم أسباب ظهور هذه الاضطرابات الشديدة نتيجة قصف القنابل فى الوقت الذى ظلوا فيه غير عابئين بها لمدة اسابيع أو شهور . وقد سبق ان أشرنا الى أن هذه الحساسية المتزايدة فى المرضى جاءت بعد نقص أوزانهم بين خمسة عشر ، وثلاثين رطلا .

على أن عددا كبيرا من ردود الفعل التى تظهر بوضوح أكثر نتيجة توترات الحرب يطلق عليها « هستيريا القلق » Anxiety Hysteria وقد خلع بافلوف نفس الاسم على نفس الاستجابات فى كلابه عند انهيارها تحت وطأة التوترات المفروضة ، وشخص الحالة فوجدها حالة من حالات التنويم المغناطيسى .

وتسجل أوصاف الهستيريا فى جميع كتب طب الامراض العقلية أعراضا غريبة لا يمكن فهمها دائما الا بمقارنة وجه الشبه بينها وبين تجارب بافلوف الآلية على الكلاب . وغالبا ما يكون « الانحراف العقلى » Mental aberration المعروف عن الهستيريا مشابها لصورة من صور التوقف الوقائى ، وينطبق نفس الشئ

على « الشلل الهستيرى » Hysterical paralysis ، وحتى فى وقت هسنيريا السلم فان هناك مرحلة تقرب مما يطلق عليه مرحلة « صدمة القنابل » Bomb Happy (١) اتى تعتبر مرحلة نورستاني الحرب الحادة .

وبمجرد حدوث حالة من حالات الهستيريا فى الرجال أو الكلاب بزيادة التوترات حتى يصبح المخ عاجزا عن احتمالها ، فان من المحتمل أن تحدث حالة « الامتناع الوقائى » التى قد تثير الاضطراب فى الانماط السلوكية المشروطة العادية للفرد والكلب فتظهر حالات من القابلية الشديدة المتزايدة للإيحاء ، أو يحدث العكس عندما يصم المريض أذنيه عن كل إيحاء مهما كان معقولا . ولقد اتاحت الهستيريا مخاوف مفاجئة لا يمكن تفسيرها فى أغلب الحروب ، وغالبا ما كانت بين القوات المشهورة بسجلها العظيم فى القتال ، فقد كان جنود فيلق قيصر القدامى من بين أعظم المحاربين فى العالم القديم ، واختار حملة النسر من بين أشجع المحاربين ، ومع ذلك قد أصيبوا بالانهيار العصبى فجأة بعد عشر سنوات أو خمس عشرة سنة من الغزو المستمر فى بلاد الغال . وسجلت مذكرات « سبتونوس » Suetonius حالتين لاثنتين من حملة النسر أصيبا بالهستيريا وهربا فى مناسبات مختلفة ، وعندما حاول قيصر إبقاءهما حاول الأول ضربه بالسن الحاد لنسره ، وترك الآخر النسر فى يده واندفع الى المعركة ببنونه .

ولقد لفت بافلوف النظر فى أبحاثه الى أوجه تشابه أخرى بين النورستاني فى الانسان ، ونورستاني الكلاب ، فقد كان بافلوف يتعامل مع كلاب عادية فى تجاربه ، وكانت التوترات التى يتعرض لها الكلاب تقترب من تلك التى يتعرض لها الانسان وقت الحرب . فالكلب المعزول داخل قفصه وهو يواجه الفرق فى مياه الفيضان ، والجندى القابع فى خندقه أو فى مكان منعزل أمام نيران العدو ، والمدنى الذى يعمل فى إحدى فرق الانقاذ تحت وطأة القنابل . كان على كل منهم أن يتقبل ما يصادفه مهما كان الأمر ، بالإضافة الى أن هذه المحن التى يتعرضون لها تتشابه فى أثرها .

(١) الاصطلاح يعنى الشعور بالسعادة لسماع أصوات انفجار القنابل ، وليس التعرض لمؤثراتها ، والفكرة أن فى هذه المرحلة تعتبر تهديدية للإصابة بالنورستيا .

ولقد وجد بافلوف عند احداثه النورستانيا في كلابه أن من الضروري أن يضمن تعاونها معه كقاعدة عامة ، فالكلاب التي ترفض وهي في قفص التجربة أن تتعاون في اجراء التجربة يمكن أن تشبهها بالجنود الذين يهربون قبل سماع أول طلقة ، وهم بهذا السلوك يستطيعون أن يحافظوا على جهازهم العصبي سليما مؤقتا حتى تداهمهم المتاعب التي سيتعرضون لها .

ولقد أثّرنا أن نناقش هذه الحالات حتى نعطي القارئ صورة قد يتعرض لها الانسان نتيجة توترات الحرب ، وكذا لنربط بين آثار هذه التوترات على الانسان وتلك التي فرضت على كلاب بافلوف .

ويمكننا الآن أن ننقل لدراسة آثار استخدام العقاقير في علاج حالات أمراض الطب النفسي .

أشرنا في الفصل السابق الى أن مهدئ الطوارئ الذي كان يعطى في الخط الأمامي للقتال في الحرب العالمية الثانية كان له قيمة في منع النورستانيا الحادة من التحول الى حالة مزمنة في مرحلة مبكرة من مراحل الحرب ، كما أن اكتشافات بافلوف أثبتت أن الجهاز العصبي للانسان يستجيب للتوترات الشديدة بنفس الطريقة التي تستجيب بها الكلاب .

وكان يوصف « البريليتيوريت » Barbiturates في أوائل الحرب العالمية الثانية بكميات كبيرة شرابا مهدئا للذين بقوا على قيد الحياة بعد معركة دنكرك ، وبكميات أقل حقنا في الوريد ، وقد احدثت عملية الحقن في المرضى حالة نصف ثملة ساعدتهم على تفريغ بعض انفعالاتهم المكبوتة Inhibited emotion من : الخوف ، والغضب ، واليأس ، وخيبة الأمل .

وكان قد سبق أن اقترح وليم براون William Brown عام ١٩٢٠ (١) : أن التفريغ الانفعالي Emotional abreaction غالبا ما يكون وسيلة أكثر

W. Brown, Psychological Methods of Healing An Introduction to Psychotherapy, (١) University of London Press, 1938.

فعالية بكثير في شفاء نورستانيا الحرب عن مجرد الايحاء تحت تأثير التنويم المغناطيسي ، فالايحاء يزيل الاعراض ولكن التخلص من الانفعالات يزيل اسباب الاعراض ، اذ تحدث اعادة للاتباطات المصاحبة بشكل كامل ، ومع ذلك فانه يجوز أن يكون للايحاء دور هام في الشفاء بواسطة التخلص من العقد والرغبات المكبوتة بعملية التفريغ الانفعالي .

وكانت نتيجة التقارير التي نشرت عن قيمة « التخلص من العقد » بواسطة العقاقير في علاج ضحايا النورستانيا في اوائل الحرب العالمية الثانية أن أصبح هذا العلاج هو الشائع في بريطانيا ، بل برز أيضا الاهتمام بين أطباء الامراض العقلية الامريكيين نتيجة استخدام كل من جرنكر وسبيجل Grinker and Spiegel (١) عام ١٩٤٢ لنفس العلاج في شمالى افريقيا ، على الرغم من أنهم اعادوا تسميته باسم آخر يثير الارتباك وهو « النوم الترابطى » Narcosynthesls « أى العلاج العقلى الذى يهدف لجعل الشخص تحت تأثير وقف النشاط الدهنى يتذكر ويتحدث عن ذكريات مؤلة حبيسة » . وبهذه الوسيلة يمكن تخليص المريض من الصراع الانفعالي ، مع تمكنه من لم هذه الذكريات ودفعها الى ذاته الشعورية .

وبالاضافة الى ذلك كان هارولد بالمر Harold Palmer (٢) طبيب الامراض العقلية البريطانى فى الطريق الى التوصل لنتائج هامة فى نفس مسرح الحرب باستخدام « الاثير » Ether بدلا من البريتييوريت ، وأحرز تقدما فى فنون علاج الامراض الهستيرية .

وفى عام ١٩٤٤ استخدم الاثير بدلا من « البريتييوريت » - كما اوصى بالمر - لاجداث عمليات التخلص من الانفعالات فلو حفظ تحسن مباشر فى سلوك المرضى .

(١) R. R. Grinker and J. P. Spiegel, War Neuroses in North Africa, The Tunisian Campaign (January May, 1943) Jr. Foundation, New York, 1943.

(٢) H. A. Palmer, « Abreactive Techniques - Ether. » J. Roy. Army Medcoros, LXXXIV, 86; 1948.

ويصف سارجنت ذلك بقوله : « في أغلب الحالات أحدث « الأثير » انفجاراً انفعالياً بدرجة أكبر بمراحل عما سبق ملاحظته باستخدام العقاقير الأخرى ، وكان من نتيجة ذلك أن اتخذ المرضى في سردهم للحوادث شكلاً درامياً أو حزناً ، وكانت هناك ملاحظة أخرى تثير الانتباه وهي أن حالات الانهيار المفاجيء بعد الانفجارات الانفعالية يتكرر حدوثها وتستمر أكثر مما يحدث من استخدام التنويم المغناطيسي أو البريتيوريت .

« وحينئذ ظهر لزميل الدكتور H. J. Shorvon ، كما ظهر لي أن ظاهرة الانهيار العصبي المفاجيء هذه التي كنا نلاحظ تكرارها قد تقابل ما سماه بافلوف « التوقف الكامل » ، وهو يحدث عندما تصبح الطبقة الخارجية للمخ عاجزة عن القيام بأي نشاط .

« ولقد تذكرنا كيف أنه في حالة بعض كلاب بافلوف قضي فيضاً لينتجrad صدفة على أنماط السلوك الحديث التكيف التي غرسها بنفسه ، فهل كان يحدث نفس الشيء في بعض مرضانا الذين انهارت أعصابهم فجأة بهمة الطريقة ؟ وإذا كان الأمر كذلك فانه من الجائز أن نتوقع أيضاً أن يصبح الآخرون أكثر قابلية للإيحاء أو أن يظهروا انقلاباً للأنماط السلوكية والفكرية السابقة لأن ظاهرة التناقض أو الشديدة التناقض لنشاط المخ تكون قد حدثت .

« ولقد أمكن اقناع بعض المرضى تحت تأثير الأثير بأن يعيشوا ثانية خبرات الخوف والغضب والانفعالات الأخرى بسهولة ، وقد ينهار بعضهم حينئذ من الانهالك الانفعالي ويسقطون بلا حراك لمدة دقيقة أو ما يقرب من ذلك دون أن يتأثروا بالمثيرات العادية . وقد ينفجرون بالبكاء غالباً ويقررون أن أعراضهم الظاهرة قد اختفت فجأة ، أو يصفون عقولهم بعد أن تكون قد تحررت حينئذ من الخوف الناشئ من بعض الصور التي تسلطت عليها ، ومع ذلك قد يستطيعون التفكير فيها إذا أرادوا ذلك ولكن بدون القلق الهستيرى السابق ، وعندما لا تصل الاثارة العادية الناجمة عن سرد الخبرات الماضية الى مرحلة التوقف الكامل

والانهيار قد نلاحظ تغيرا يسيرا او عدم تغير بالمرة من ناحية تحسن حالة المريض العقلية ، ولكن اذا تكرر العلاج بطريقة التخلص من العقد والرغبات المكبوتة واستعملت العقاقير لزيادة درجة الاثارة الانفعالية حتى يحدث الانهيار العصبى فمن الممكن حدوث التحسن الفجائى •

ومثل هذا الاسلوب الهام لم يكن دائما ضروريا ، فمثلا لم يحتاج بعض المرضى الذين يعانون من فقدان الذاكرة الا الى جرعة صغيرة من البرييتيوريت عن طريق الحقن فى الوريد ، وذلك لجعل أمخاخهم فى حالة استرخاء ، ومن شأن هذا ان يعيد الذاكرة الى الورا فتناسب بدون مجهود اضافى ، وقد ثبتت فائدة الاثير فى حالات لم ينجح فيها البرييتيوريت ، وعلى سبيل المثال تلك الحالة التى اصبح السلوك الشاذ منظما وثابتا بحيث تشبه « النمط المتكرر » Stereotypy الذى وصفه بافلوف فى كلابه • ومن الممكن ان تصبح هذه الحالات مستديمة وهى تعمل على مقاومة الاجراءات العلاجية السهلة • الا ان الاثارة الكاملة التى تنتج من تأثير الاثير والتى تنتهى بحالة من حالات التوقف الكامل والانهيار العصبى يمكن ان تقضى على القالب السلوكى الشرير بأكمله ، وتؤدى الى العودة بشكل سريع الى صحة عقلية طبيعية أفضل » •

* * *

وفى الواقع كان للتقارير التى نشرت عام ١٩٤٥ عن استخدام العقاقير مع ضحايا الحرب لمساعدتهم على التخلص من انفعالاتهم المكبوتة فضل فى توضيح هذه الوسيلة كنوع من العلاج •

ويصف سارجنت حالتين من هذه الحالات واثّر استخدام العقاقير على كل منها • ففي الحالة الاولى ادخل جندي فى الحلقة الثالثة من عمره الى مركز للاسعاف على ساحل نورماندى باكيا فى صمت ويعانى حالة شلل ، وكان قد قضى فترة اربع سنوات فى خدمة الجيش كسائق لعربة قبل ذلك ولم يحدث ان ذكر عنه أنه يشتكى مرض الاعصاب اطلاقا ، حتى تحول فجأة الى سلاح المشاة وارسل

الى جبهة القتال حيث تسببت نيران مدافع الهاون والقنابل في احداث انهيار عصبى سريع ، ولما ثبت عدم جدوى العلاج بواسطة المهوى لمدة اسبوعين في فرنسا ، نقل الى انجلترا وعند دخوله أحد مستشفيات طوارئ الحرب ، كان لا يزال يبدو متوترا يرتعد من الخوف وبطيئا من الناحية الذهنية ، فأعطيت له مهدئات اضافية وأجرى له بعد اسبوع علاج بالأنسولين بقصد زيادة وزنه ، ومع ذلك لم تتغير حالته العقلية فكان يسير ببطء مقوس الظهر جامد الملامح . وقد أدى ببطء تفكيره وخوفه الى صعوبة استنطاقه ومعرفة قصته .

وفي هذه المرحلة أعطى حثنة وريدية من البريتييوريت وطلب منه وصف ما حدث فجعله المخدر أكثر استرخاء من الناحية الذهنية ووصف حالته وهو بين وابل من نيران مدافع الهاون لمدة ثمانية أيام في نفس القطاع من خط القتال ، وحينئذ أخذ عبر نهر من الأنهار الى غابة وصدت اليه الأوامر بالهجوم ، وفي الغابة زادت عصبيته وبدأ يرتعد ويهتز وقتل العديد من الرجال بنيران الهاون بالقرب منه حيث فقد صوته وانفجر باكيا وأصبح مشلولا شللا جزئيا . وفي النهاية ساعده جريحان على العودة على نقالة ، وقال : « شعرت بنوع من الدوار فجلست أبكى ولم أستطع الكلام ، وكل ما أستطعته هو الصراخ واخراج الأصوات » . ولم يستطع البريتييوريت ان يحدث فيه سوى انفعال ضئيل للغاية بينما كان يسرد قصته كما لم يلاحظ أى تغيير في حالته سواء في نفس الوقت ، أو في صبيحة اليوم التالى .

ولكنه أعطى بعد الظهر عقارا يساعده على التفريغ الانفعالى واستخدم في هذه المرة الأثير بدلا من البريتييوريت ، وحينما أعيدت عليه القصة الاصلية مرة ثانية قص القصة في تلك المرة بانفعالات أكبر بكثير . وفي النهاية أصبح في حالة اضطراب وغثيان وحاول تمزيق كمادة الأثير ، وأخذ يتنفس وهو في حالة رعب شديد حتى توقف العلاج . وعندما وصل الى الاريكه ونهض منها ظهر عليه تحسن واضح ، اذ ابتسم لأول مرة وبدأ عليه الخلاص وقال بعد ذلك بدقائق قليلة : ان معظم متاعبه قد تلاشت باستعمال الأثير وأمكن الاحتفاظ بهذا التحسن لفترة اسبوعين بعد ذلك .

أما الحادثة الأخرى فقد استخدم فيها الأثير ولكن بدرجة غير كافية لحدوث تفريغ انفعالي كامل ، وبعد عدم توفيق مبدئي أثبت ثورة المريض عمدا حتى وصل إلى شفى الانهيار الضرورية وعندئذ تحطم قلبه السلوكي وتحسن تحسنا عظيما .

وكان هذا الجندي قد قضى أربع سنوات ونصف السنة في الجيش سابقا ميكانيكيا ، وكان قد نزل في نورماندى بعد « يوم الغزو » أى يوم فتح الجبهة الثانية في غرب أوروبا ، فظهرت عليه الأعراض تدريجيا بعد أن ظل يقاتل لعدة أسابيع فأعطى هو الآخر علاجاً مهدئا في فرنسا لمدة أسبوع ولكنه لم يستجب للعلاج ووجد نفسه وقد نقل إلى المستشفى في إنجلترا ، وكان حينئذ مكتئبا منقبض النفس ويشتكى من الغثيان ، وعجز عن تحمل صوت طلقات المدافع أو الطائرات . ولم يستطع تخليص ذهنه من التفكير في أصدقائه الذين قتلوا في فرنسا ، والأمر الذى أرقه هو منظر قتل فيه أحد أصدقائه بعد حدوث ثقب في رأسه وقد طارت ذقن آخر ، وأخذت الدماء تطفح من يد الثالث .

وعلى الرغم من إعطائه مهدئا اضافيا وعلاجه بالأنسولين لزيادة وزنه فقد اشتكى بعد ذلك بأسبوعين أنه كان يشعر بازدياد حالته سوءا عن أى وقت مضى ، فقد رسخ المنظر الذى قتل فيه أصدقاؤه أو جرحوا في مخيلته ، وعندئذ أعطى له الأثير لجعله يعيش هذا المنظر ثانياً وانفعل انفعالا كافيا وقال : انه اعتقد بأن الرأس التالى الذى سيطير سيكون رأسه ، إلا أنه لم يصل إلى درجة الانهيار العصبى . وعند استرداده لوعيه بكى وقال : انه لم يشعر بأى تحسن ، إذ أنه كان لا يزال يشاهد المنظر بعقله . وعلى ذلك فقد عولج ثانية بالأثير ، وفى هذه المرة تعرض لتجربة قتال مرة أخرى ، فقد كان قد تعرض لنيران الهاون وقنابل الطائرات المنقضة فى فناء إحدى الكنائس ، وعندما أوحى إليه الطبيب المعالج وهو تحت تأثير الأثير أنه أعيد إلى هناك مرة أخرى بدأ يخمش الأريكة بأظفاره متصورا أنه كان فى خندق ، فاستغل الطبيب المعالج مخاوفه عمدا عن طريق الادلاء إليه بتعليقات واقعية عن حالته التى تزداد سوءا باستمرار حتى وصل إلى ذروة الاثارة ، وهنا انهارت أعصابه فجأة وسقط كما لو كان من الاموات .

لقد حدث التوقف الكامل ، وفي هذه المرة عندما استرد وعيه ابتسم وقال : لقد تبدد كل شيء ويبدو أنني أحس ارتياحا أكبر يا دكتور ، وأشعر بأنني أفضل حالا مما كنت عندما حضرت إلى هنا !

وعندما سئل عما إذا كان يتذكر وجه صديقه عندما نسف زمجر وقال : « يبدو أنني قد نسيت كل شيء عنه » ان فرنسا لا تشغل بالي حاليا » وعندما سئل ثانية عن هذه الحادثة قال : « نعم » وكذلك أتذكر الزميل الذي ثقب رأسه ولكن صورته تلاشت من ذهني » . وعندما سئل لماذا حدث ذلك أجاب : لا أستطيع له تفسيراً . وحينئذ ناقش المنظر كله بحرية وبدون الانفعالات المعتادة وقال في وقت متأخر بعد ذلك : « أنني أحس تحسنا كبيرا ، لقد تخلصت منها ، انني أعرف كل شيء عنها ولكنها لا تلازمي ولا تؤثر على بنفس الدرجة ، وبعد ذلك بدأ يتحسن بسرعة » .

على أنه ليس من الضروري دائما أن نجعل المريض يتذكر القصة التي سببت انهياره بدقة ، اذ يكفي أن تبعث فيه إثارة مشابهة لتلك التي تسببت في حالة النورستانية المستمرة حتى ينهار وحينئذ يبدأ في التحسن .

ويقول سارجنت في ذلك : « نرى لزما علينا استعمال الخيال في اختراع مواقف مصطنعة أو في تشويه الحوادث الحقيقية ، ولا سيما اذا كان المريض في أثناء تذكره للتجربة الحقيقية التي تسببت في النورستانيا أو عندما يعيشها مرة أخرى تحت تأثير المخدر - لم يكن قد وصل إلى درجة الانهيار الكامل اللازم للقضاء على أسلوب السلوك المرضى الجديد » . ومن بين المرضى الذين تمكنا من استنباط النتائج الهامة السابقة من حالاتهم نجد جنديا في فرقة من فرق الدبابات أمكن توصيله إلى حافة الانهيار الانفعالي تحت تأثير الاثر فقط عن طريق اقناعه بأنه قد وقع في فخ دبابة تحترق ، وعليه أن يحاول الخروج منها بأي ثمن ، وبالطبع لم يحدث هذا اطلاقا » .

على أن الاستثارة التي توصل المريض الى نقطة « التوقف الكامل » والانهيار قليلة النفع فى العلاج ، الا أنها ذات اتصال وثيق بأساليب التحول الدينى والسياسى الذى تحدثنا عنه فى الباب السابق •

وخلاصة القول : ان التفريغ الانفعالى تحت تأثير العقاقير قد يكون عبارة رنانة أكثر مما ينبغى لظاهرة مألوفة ، فعندما يكون لدى الانسان شيء يقلقه ويود التخلص منه فانه يظهر استعدادا لتناول مشروبات كحولية بكمية كبيرة ، أو لتعاطى أنواع من المخدرات ويتوقع منها أن تفك عقاله •

والتفريغ الانفعالى حيلة فسيولوجية اكل عليها الدهر وشرب ، وقد استخدمت بواسطة أجيال من : الوعاظ والديماجوجيين ، أو غشاشى الشعوب لتهدئة سامعيهم ولمساعدتهم على السير فى الأساليب المرغوبة من العقيدة والسلوك ، كما سبق شرحه •

الفصل الثاني

الاضطرابات النفسية وجراحة المخ

ذكرنا فيما قبل أن بعض الوسائل السريعة للعلاج نتيجة التفريغ الانفعالي الذي ينجم عن العقاقير والعلاجات النفسية الأخرى انما تحدث حينما تصل حالات الاثارة في المخ الى مرحلة التوقف الوقائي والانهيار .

الا أنه في حالات الاضطراب العقلي الشديدة قد لا تكفي هذه الوسائل وحدها لازالة الانماط السلوكية الشاذة التي غرست في المريض ، ومن ثم فان ربط هذه الوسائل بأحد الأساليب الحديثة كالصدمات الحديثة ، وجراحة المخ Leucotomy تعتبر من أنجح الوسائل في علاج كثير من تلك الحالات .

ويؤيد سارجنت ذلك بقوله :

« من الواضح في حالات كثيرة أنه لكي يمكننا تغيير أنماط السلوك في فكر العقل البشري وعمله بشيء من السرعة والكفاءة ، يجب أن تحدث في المخ صورة من صور الاضطراب الفسيولوجي ، وقد يتطلب ذلك : اخافة المريض ، او اغضابه ، او اشاعة اليأس ، او بث الاضطراب فيه من الناحية الانفعالية بطريقة او بأخرى ، ذلك لأنه من المحتمل أن مثل ردود الفعل هذه التي تسبب تغييرا في وظيفة المخ قد تزيد قابليته للايحاء او تجعله معرضا للتخلص من تكييفه الطبيعي .

وأساليب العلاج النفسى التى تتضمن مجرد التحدث مع المريض برهنت على عدم جدواها بصفة عامة فى علاج حالات الاضطراب العقلى الأشد حتى عندما ينسنى إثارة انفعالات قوية ، اذ أنه فى أغلب مثل تلك الحالات من الامراض العقلية نجد أن الأنماط السلوكية الطبيعية أصيبت بالدمار ، وحلت محلها أخرى شاذة ، أو أخرى فى طريقها الى ذلك . وقد يمكن احراز نتائج أفضل بكثير بالربط بين العلاج النفسى بواحد أو غيره من العلاج بالصدمات أو عن طريق اجراء عمليات جراحية فى المخ . ويبين تاريخ العلاج العصبى أنه قد بذلت منذ أزمان بعيدة لا تعيها الذاكرة محاولات لعلاج الاضطرابات العقلية باستعمال الصدمات الفسيولوجية والتخويف ، ومختلف العناصر الكيميائية ، وقد تمخضت هذه الوسائل دائما عن نتائج رائعة فى أنواع معينة من المرضى ، على الرغم من أنها استعملت بدون تمييز أو روية مع مرضى عجزوا عن الاستجابة الى ذلك النوع من العلاج » .

وقد ثبتت قيمة وسائل العلاج بالصدمات الكهربائية فى تبديد حالات معينة من الاكتئاب الذهنى الشديد . وهذه الوسيلة ببساطة عبارة عن احداث نوبة صناعية من « الصرع » Epileptic-fit ويحدث ذلك بتمرير تيار كهربى خلال المخ بحيث لا تزيد قوة التيار عما هو لازم لاحداث النوبة .

وقد تؤدى سلسلة من أربع نوبات الى عشر بحيث تكون مرة أو مرتين أسبوعيا الى تحسين مدى الإصابة بالاكتئاب فى فترة أسابيع قليلة ، على حين قد تطول حالة المرضى الى سنة أو سنتين ، أو ربما أطول من ذلك اذا لم تستخدم هذه الوسيلة .

ومع هذا فانه اذا لم تحدث نوبة من نوبات الصرع فان العلاج الكهربى يكون عديم النفع ، فالصدمة الثانوية Sub - Shock أى الصدمة الكهربائية التى لا تسبب تشنجا فى المخ Convulsion يكون ضررها أكثر من عدم استخدامها .

ونعنى بالتشنج الكامل أن المخ يستمر في تشنجاته الى الحد الذى لا يستطيع أن يعمل بعده ، ولكنه يصبح مرهقا ومتوقفا بصفة مؤقتة فيستطيع أن ينفث عن انفعالاته المكبوتة عن طريق التفريغ الانفعالى . ونود أن نشير هنا الى أن هناك تشابها بين التشنج والتفريغ الانفعالى الشديد تحت وطأة العقاقير القوية .

على أنه من جهة أخرى فإن من العسير جعل المرضى شديدي الاكتئاب ينفسون عن انفعالاتهم المكبوتة بواسطة العقاقير . ولا تكون الانفعالات حينئذ انفعالات اعتدائية كما هى الحال في الأنواع المزاجية الأقوى التى سبق أن وصفناها ، ولكنها تأتى في جملتها على صورة تحقير النفس ولومها .

ومع ذلك فإن هذه الحالة الشاذة التى تدل على وجود نشاط عقلى متناقض أو شديد التناقض سرعان ما تتلاشى بعد سلسلة من التشنجات التى تحدث بواسطة الصدمات الكهربائية ، ويبدأ المريض حينئذ في اظهار الاعتداء ضد العالم مرة أخرى أكثر من لوم نفسه ، كما يتوقف احساسه عن الشعور بالمسئولية عما ارتكبه من أخطاء ، وقد يصب جام غضبه على الطبيب الذى يقوم بعلاجه .

وعند هذه النقطة يصبح المريض مرة أخرى متقبلا للصور العادية للايحاء والعلاج النفسى ، لأن العقل كما يبدو يكون قد تخلص من أوهامه بالذنب ، وذلك بعد أن تحرر من اسباب توقفه ، فنجد أن المشاعر المخيمة عليه تتلاشى وتلبد .

ونود أن نشير هنا الى أن « الفصام » قبل الحرب العالمية الثانية ولا سيما في المراحل الأولى من المرض كان يعالج بنجاح بواسطة صدمة الأنسولين ، وهذه الطريقة عبارة عن اعطاء المريض مقادير كبيرة من الأنسولين لتقليل كمية السكر في دمه ، وبذلك يمكن احداث حالة من الاضطراب والاستثارة العقلية فيرقد لمدة ساعة أو أكثر في حالة نصف يقظة وهو يهتز ويرتعد ، وربما يتحدث حديثا غير مترابط حتى تحدث نوبة عميقة . وعندما يستعمل طبيب الأمراض العقلية هذا العلاج في معالجة الفصام قد يبقى المريض في حالة غيبوبة لفترة نصف الساعة ، فيعطى السكر حينئذ بواسطة أنبوبة معوية أو حقنة وريدية ، فيتنبه بسرعة .

وقد تزول الأعراض بعد علاج من هذا النوع يعطى يوميا مع اضافة علاج عادى من علاجات الامراض النفسية . وعلى ذلك نجد هنا علاجا اضافيا يتضمن مرحلة مبدئية من حالات الاستثارة العقلية التى لا سيطرة للمريض عليها ، وتنتهى باستسلام وتوقف مؤقت للمخ .

ويرى سارجنت أن كلا من الصدمة الكهربائية وصدمة الانسولين يصلحان لازالة الانماط السلوكية الشاذة الحديثة بالرغم من أنهما نادرا ما تكونان فعاليتين فى الحالات التى تكون قد رسخت فيها لفترة طويلة ، وهو يفرق بين المجالات المفيدة لهذه العلاجات المختلفة بقوله (١) :

« من المعترف به بصفة عامة أن الحالات الشديدة من الفصام المبكرة قد تستجيب جدا لعلاج الانسولين الاكثر تعقيدا ، على حين أنه يمكن فى أغلب الاحيان شفاء حالات الكآبة العقلية التى قد تحدث بسبب طول فترة الاضطراب بوساطة صدمة كهربية فقط ، وقد يستجيب مرضى الأعصاب فى الحرب الذين تظهر عليهم أعراض الانقباض الناجمة عن توتر شديد العنف مرة أخرى لعمليات تفريغ انفعالى أقل شدة بوساطة العقاقير .

« فالمصاب بعصاب الوسواس القهرى المزمن Obsessional Neurotic هو من بين أنواع المرضى المختلفين الذين لا يستجيبون بسهولة اطلاقا سواء للعلاج النفسى أو لأى علاج من علاجات الصدمات الحديثة ، وهو الذى يحس الدوافع للقيام بأعمال متكررة كما كان الدكتور جونسون يحس رغبة قاهرة للمس الاعمدة المقامة فى مفترق الطرق للإشارة للاتجاه فى أثناء سيره ذهابا وإيابا فى شارع فليت ، وغالبا ما تكون هذه غير مؤذية .

« وسال مرة أستاذ كلاسيكى بجامعة أكسفورد فى العشرينات الماضية الدكتور وليم براون وهو قلق عما اذا كانت رغبته الدائمة الجامحة فى السير

جيتة وذهابا في الحجرة وهو يلقي محاضراته في سبع خطوات متتابعة يعتبر أمرا خطيرا ؟ فوضع براون أصبعه على خده وبدأ على ذهنه الهدوء وقال : « عندما لا تجد نفسك سائرا في خطوات سبع فلتحضر لى ثانية ٠٠ لأن الخطوات السبع لا غبار عليها » .

وفي الواقع هناك درجات مضطربة للشعور بالضيق ، فقد تحس أم مثلا القلق المستمر خشية أن تكون قد أسقطت دبوسا في زجاجة اللبن ، وأن الزجاجات ستعاد الى محل الالبان دون أن تكون قد غسلت جيدا ، وأن الطفل التالي الذى سيشرّب اللبن من الزجاجات سوف يبتلع الدبوس ، وقد تكون مدركة تماما سخافة مثل هذه المخاوف المتكررة التى لا يكون لها سبب محتمل ، ولكنها مع كل ذلك تحس أنها مضطرة لفحص كل زجاجات فارغة خمس مرات أو ست مرات قبل أن يتسلمها اللبن . وقد تكون في جميع مظاهرها الاخرى ربة بيت عاقلة وعلى درجة كبيرة من الكفاية . اما غيرها ممن تظهر عليهن اعراض أخف من نفس المرض ، فيتأكدون قبل النوم من أن كل صناديق الغاز مغلقة ، وأن كل الابواب موصدة جيدا ، ويكررون العملية مرتين أو ثلاث مرات ، وبالطبع يحتمل أن يبرزن سلوكهن أحيانا بقولهن : ان كل العقلاء من الناس يقومون بأعمال امن مختلفة ، والامر يستحق ذلك فعلا .

ويصف سارجنت مرضى الوسواس القهرى الذين يخيم عليهم الشعور بالمرض بأنهم يميلون : الى شدة العناية بمظهرهم ، وترتيب منازلهم ، وإلى غسل أيديهم مرات عديدة دون ضرورة ، وإلى أن يكونوا جامدين جمودا دائما في أنماطهم العقلية ، وعادة ما يستطيع الجيران ضبط ساعاتهم بالوقت الذى يسير فيه المصابون بالوسواس القهرى في طريقهم للعمل وعند عودتهم منه . وهذا النوع من الناس يفخر بأنه لم يحدث أن ذهب متأخرا لعمله في الثلاثين سنة التى قضاه في عمله ، ولم يحدث أن ذهب اليه مبكرا بأكثر من دقيقة او دقيقتين ، وبرغم ذلك فقد تنهال على روحه هواجس تافهة ، وشكوك دينية منفرة يعجز عن تبديدها .

ويقول سارجنت : أنه حينما تتطور حالة المريض الى حالة مزمنة ، ويفقد ارادته بحيث يصبح عبئاً على نفسه وعلى من معه ، فانه لا يوجد سبيل لشفائه في مجال طب الامراض العقلية سوى القيام بجراحة المخ Leucotomy التي خلالها تقطع الالياف العصبية الموصلة بين الفص الامامي في المخ والتلاموسي وهي احدى الدوائر العصبية التي تعبر عن الانفعال ، والضيق والاكتئاب . . الخ .

كما يشير الى انه كثيراً ما تتلاشى الأعراض الاشد اثاراً في مرضى الوسواس القهري تدريجياً من تلقاء نفسها على طول الزمن ، وقد يجوز أن تكون حادة فقط عندما تقترون بالانقباض ، فاذا تسنى تخفيفها فان المصاب بالوسواس القهري يستفيد من علاج الصدمات الكهربائية ولكنه يجد من الاستحالة حتى ولو لم يكن الانقباض كاملاً مناقشة نفسه في آتفه التفاصيل ، فمثلاً اذا كان يعاني من صدمة قنبلة فقد يناقش بدقة ما اذا كان الانفجار حدث في الدقيقة الخامسة أو الدقيقة العاشرة بعد الثالثة مساءً . وهو في هذه الحالة سوف يعوق كل المحاولات التي تبذل لاستثارته استثارة كلية لاصراجه على الدقة المطلقة في كل ما يدلى به ، ويصبح بذلك محصناً ضد الايحاء حتى ولو كان تحت تأثير الاثير .

ويعلق سارجنت على هذه الظاهرة ، ومدى امكان استغلال التغلب عليها كسلاح ضد عمليات التحول الديني والمذهبي بقوله :

« لو أمكن اكتشاف طريقة طبية يسيرة للتغلب على الانقباض المزمن فسيكون لدينا أحد الاسلحة الحاسمة النهائية نستعمله ضد الذين يمارسون عمليات التحول الديني والسياسي . على أنه في نفس الوقت قد نجحت أساليبهم بدرجة أكبر مع الغالبية التي تتمتع بصحة عقلية سليمة ، وغالباً ما يكتب لهم عدم التوفيق مع الشواذ ما لم يستطيعوا انهاء قواهم البدنية اولا

وارهاقهم الى الحد الذى تصبح فيه معتقداتهم أقل رسوخا ، ويرون أن أملهم الوحيد فى البقاء على قيد الحياة هو الاستسلام ، وحينئذ يجوز أن يتحولوا تحولا كاملا ، ويعاد تبشيرهم تبشيرا سياسيا » .

على أننا قبل أن ننتهى من هذا الفصل نود أن نشير الى أن العلاج الوحيد لحالات الفصام الشديدة المزمنة ، وكذا المرضى المصابين بالانقباض والقلق المزمن الذين لا يستجيبون لأى صورة من صور الصدمات العلاجية أو العلاج النفسى والعلاج بالعقاقير - هو العلاج عن طريق جراحة المخ .

وإذا كان لا يصح أن نعرض لهذا الموضوع لأن هناك من يستطيع أن يبحثه افضل منا على أساس التخصص ، كما أننا لا نستطيع ان ندلى فيه بأراء أكليينكية سليمة ، فاننا لأهميته وعلاقته بعمليات التحول الدينى والسياسى سنكتفى بسرد أراء الدكتور وليام سارجنت الذى بنى هذه الآراء على أساس من التجربة والبحث .

يقول سارجنت : ان الجراحة فى صورها المختلفة الحالية تلقى ضوءا كبيرا على الميكانيكية المخية التى يمكن بواسطتها بذر الأنماط السلوكية والفكرية فى الانسان أو ازيلتها ، وقد أدخلت لأول مرة فى سنة ١٩٣٦ على يد طبيب الاعصاب البرتغالى مونيز Moniz الذى نال جائزة نوبل لنجاحه فى تمكين مرضى يشكون المرض المزمن من الخروج من مستشفى الامراض العقلية والعودة الى أعمالهم وعائلاتهم ، وقد تمت دراسة الآثار المترتبة على هذه الجراحة دراسة دقيقة فى حالة المرضى البريطانيين الذين تعرضوا لها حتى عشر سنوات ماضية أو اكثر ، فقد تم علاج حوالى خمسة عشر ألف مريض فى بريطانيا العظمى وحدها .

كما يشير الى أنه يحتفظ بجراحة المخ للمرضى الذين يعانون من حالات شديدة ومستمرة من القلق والتوتر الناجم فى بعض الحالات من بعض الحقائق

الثابتة غير السادة أو غيرها من الهلوسة أو الاوهام ، وفي كلتا الحالتين تكون هناك مقاومة عنيدة للعلاج بالطرق غير الجراحية . والجراحة لا سيما في صورها المتطورة المعدلة الحديثة يمكن أن تقلل التوتر بدرجة كبيرة ، ولو أنها لا تزيل دائما الأفكار التي خلقها التوتر . فالإنسان يمكنه في الواقع بهذه الوسيلة تقليل القلق الحاد الناتج سواء من التفكير العادي ، أو التفكير الشاذ دون أن يؤثر على العمليات الفكرية الأخرى ، أو على الذكاء نفسه . ولقد هذبت العملية تهديسا كبيرا في السنوات الأخيرة ويمكنها الآن أن تسبب تغييرا أقل بكثير في الشخصية بصفة عامة .

ويقول : ان مراقبة التقدم في مثل هؤلاء المرضى بعد الجراحة معناه ان ندرك انه بمجرد التقليل من قلق المريض من جراء فكرة حقيقية أو وهمية ، فان الفكرة في حد ذاتها تتضاءل في أهميتها ، فمثلا يجوز أن يوضع المريض في مستشفى من مستشفيات الأمراض العقلية لانه مريض بوهم مؤداه أن له وجها شاذ التقاسيم يشير ضحك كل من يراه ، وبعد الجراحة قد يظل على تفكيره في وجهه الشاذ ، ولكنه يتوقف عن اعتباره عجزا اجتماعيا ، وسوف يمكنه هذا من ترك المستشفى والعودة للعمل ، والاستمرار في الحياة كما يفعل كثيرون غيره ممن لهم بالفعل تشوهات في وجوههم ، وبعد ذلك بأشهر قليلة نجد أن فكرة تشوه الوجه هذه تتلاشى ، أو تقل في أهميتها بدرجة ملحوظة من ناحية أنها تتوقف عن تقوية انفعالاته وقلقه من ناحيتها .

ثم يشير الى أثر جراحة المخ على شخصية الفرد فيقول : « يقال ان جراحة المخ تميل الى جعل الناس جامدين وتقليديين بشكل يجعلهم يفتقون شخصيتهم ، والحقيقة أن النتيجة هي بصفة عامة جعل الناس عاديين بشكل أكثر من الأفراد العاديين وقابلين للإيحاء والإقناع بلا مقاومة عنيدة ، لأنهم لن يفكروا في آرائهم

بعد ذلك بعمق ، وعلى ذلك فسيفكرون بمنطق الفضل ، ويفحصون النظريات الجديدة بدون تحزب انفعال . وكمثال لذلك كان هناك مريض من المرضى له أفكار مسيحية مضللة ، وثبتت مقاومته تماما للعلاج بالتحليل النفسي ، ولكنه استطاع بعد الجراحة التي أجريت له في المخ أن يناقش آراءه المسيحية مع ممرض ذكي وتخلص منها بعد الجدل . كما يمكننا أن نشاهد كذلك التحولات الدينية الصادقة بعد جراحات المخ الجديدة المعللة ، لأن العقل يتحرر بعدها من أصغاده القديمة ، وحينئذ يمكن للمعتقدات الدينية أو لوجهات النظر الجديدة أن تحل محل القديمة في سر » .

ويرى سارجنث أنه من الممكن القضاء على المشاعر الدينية في الإنسان إذا أجريت له عملية أكبر مما ينبغي في الفصوص الأمامية للمخ Frontal Lobe ويعطى مثالا لاحدى هذه الحالات فيقول : ان عاملة في جيش الخلاص ، وضابطة من كبار الضابطات تزوجت أحد رجال الدين وبقيت في المستشفى لسنوات عديدة وهي تشكو باستمرار ارتكابها الخطايا ضد الروح القدس ، وشكت من هذا لأسابيع وشهور ، وفعل زوجها المسكين كل ما في وسعه لابتعاد الهواجس عنها ولكن بلا جدوى ، وحينئذ تقرر إجراء عملية جراحية لها ، وبعد فك الرباط عنها سئلت عن حالتها ورأيها في الروح القدس فأجابت وهي تبسم : آه الروح القدس .. لا يوجد شيء اسمه الروح القدس .

كما يقول : انه مع ذلك أمكن باستعمال أساليب الجراحة الأحدث ، واستئصال أجزاء محدودة من الفصوص الأمامية - تقليل أعراض القلق والانقباض المزمن بدون إحداث آثار مرغوبة من ناحية المعتقدات الدينية العادية .

ثم يعود فيقول : انه سوف تبقى مسألة ما إذا كان من الخطأ تغيير أناس يتمتعون بتنظيم عقلي الى أناس عاديين ممن لم تكن تعالج في نفوسهم مثل هذه

المشاعر العاتية بطريقة أو بأخرى - ستبقى مسألة جدلية بالنسبة لعدد كبير من الناس •

وعلى أى حال فإن نجاح جراحة المخ ليس الا وسيلة للتذكير بعدم جدوى الطريقة الجدلية المجردة بالنسبة لعدد كبير من المرضى الذين يعانون من آراء ثابتة ، ولما يتبع ذلك من الالتجاء التعس لكثير من الناس عبر التاريخ الى مستشفيات مرضى العقول ومعسكرات الاعتقال أو المشانق كوسيلة من وسائل تخليص المجتمع من أفراد لا يمكنهم بوسائل أخرى قبول عقائد يقبلها الناس العاديون أو الغالبية العظمى القابلة للإيحاء •

الباب الرابع

وسائل الاستجواب

- ◆ الفصل الأول
الاستجواب .. وضاع الاعتراف
- ◆ الفصل الثاني
سيكولوجية وسائل كشف الكذب

الفصل الاول

الاستجاب وضاع الاعتراف

اهتم اغلب الباحثين الغربيين في كتاباتهم عن عملية غسيل المخ ببحث الوسائل التي كان يستخدمها الشيوعيون في استجواب اسراهم أو المرتدين عن الشيوعية من أبناء وطنهم على أساس أنها إحدى الوسائل التي استغلها الشيوعيون في الهجوم على المعتقدات والاتجاهات والقيم .

وعلى الرغم من أن الكثيرين قد كتبوا في هذا الموضوع عند دراساتهم لعملية غسيل المخ بشيء من التفصيل والتحليل ، فإننا نعتقد أنهم لم يأتوا بجديد في ميدان الاستجواب واستنطاق الاعتراف . فالشرطة في جميع أنحاء العالم تستخدم في يومنا هذا نفس الأساليب الأساسية لاستنطاق الاعترافات ، كما اتبعت نفس الأساليب الحركة الكاثوليكية المناهضة للهرطقة التي كانت تحاول أن تبحث عن المعلومات الخاصة ، وتجبر الفرد على أن يدلل باعترافات زائفة .

ومن هنا نرى أنه لكي نستطيع أن نقيم هذه الأساليب تقييما صحيحا يجب أن نشير إلى الأساليب التي استخدمت في الماضي ، والتي تستخدم اليوم للحصول على الاعترافات ، كما يجب أن نحاول أن نربط بين أهداف هذه العملية في أنظمة المجتمعات المختلفة ، وأن كنا من زاوية أخرى نرى أن الشيوعيين لجئوا إلى أبحاث فسيولوجية للوصول إلى أسلوب قائم بالفعل إلى حد الكمال .

لقد اتبع المحققون في الكنيسة أساليب أساسية قريبة جدا من تلك التي تستخدم في عملية غسيل المخ ، ففي عام ١٢٢٩ ميلادية أيام البابا جريجوريوس التاسع تقرر انشاء محكمة يقدم اليها كل من اتهم في دينه الكاثوليكي سواء من : اليهود ، او البروتستانت ، او جماعة المفكرين ، او الاحرار ، او المسلمين الذين كانوا يعيشون في أوروبا في ذلك الوقت ولا سيما أولئك الموجودين في أسبانيا والبرتغال ، وكذلك كل من كان يتهم بالاحاد والزندقة في مسيحيتة الكاثوليكية .

والمعجب في هذه المحاكم - وهو ما يخص بحثنا - أن محاكم التفتيش هذه تحولت لتصبح طريقة جديدة لتحويل الناس الى المسيحية الكاثوليكية ، وكانت نتيجة رفض الناس التحول اليها التعذيب حتى الموت . ويشهد التاريخ أن المسيحيين الأوائل الذين عاشوا قبل قسطنطين ، والذين كانوا يعذبون ويقتلون ويلقى بهم الى الاسود في روما لم يعاملوا بمثل تلك القسوة التي عومل بها غير الكاثوليك في ظل محاكم التفتيش التي استمرت أكثر من مائة عام ، وقتل خلالها آلاف الناس بأبشع طرق التعذيب والوحشية ، اذ كانوا : يحرقون احياء على قوائم خشبية ، أو توضع على أجسامهم آلات هائلة تتفنز في تعذيبهم حتى الموت ، أو يمزقون اربا بأدوات وحشية رهيبة .

وكان من يطلق عليهم الهراطقة يدعون للتحقيق الأول ، ويمنعون من التحدث عن استجوابهم لاقاربهم . وبمجرد أن يجلسوا أنفسهم في السجن يواجهون بالتهديد بحرقهم احياء ، ثم يوحى اليهم أنهم يمكنهم تفادي ذلك بوسيلة واحدة هي الادلاء باعتراف كامل ، ونظرا لأن هذا الاعتراف لابد أن يكون اعترافا مخلصا ، فانه يجب عليهم أن يصدقوا أنفسهم باخلاص أنهم مذنبون بارتكاب جرائم يوحى بها المحققون أو يختارها ويزيفها خيالهم المريض نتيجة ما تحملوا من آلام ومشاق .

وكان النادمون الذين يعترفون بمنحون ميزة الموت شنقا قبل حرقهم ، او ربما يعتقون ويجردون من كل ممتلكاتهم ، او يسجنون مدى الحياة ، كما كان يطلب منهم كذلك الادلاء بكل شيء عن عائلاتهم ، وكان عدم الادلاء بأي معلومات تتعلق بجريمة أب أو أحد أفراد العائلة يعرض الشخص للعقاب بنفس القدر .

وقد نقسأل لماذا يعترف هؤلاء الناس بما لا يعتقدون ؟ لو تصورنا درجة التعذيب التى كان يتعرض لها هؤلاء الضحايا لوضعنا هؤلاء الضحايا فى قائمة الشهداء !

ويعصف سليمان مظهر فى كتابه « بين السماء والارض » صورة من آلات التعذيب التى استخدمتها محاكم التفتيش لتحويل عقائد الناس بقوله :

« كانت قاعة التعذيب عبارة عن غرفة مظلمة ، جدرانها سوداء تغلق بباب من الحديد السميك ، وفى داخل هذه الحجرة تفنن الاخصائيون فى اختراع أدوات التعذيب من : مسامير ناتئة فى الحائط ، الى مجالد من الجلد المعقود على رصاص ، الى تلك القيود الحديدية ذات المسامير الناتئة التى كانت تضيق تدريجيا حول رأس الضحية ، علاوة على تلك الآلات الرهيبة ذات الرؤوس الحادة التى تستخدم لسحب اثناء النساء من الصدور ، وغيرها لسل اللسان من أصله ، وأخرى لتكسير الأسنان ، وغيرها من وسائل التعذيب الرهيبة .

« وفى النهاية نجد تلك المشنقة المعلقة فى السقف لكى تشنق الضحية نصف شنق ، فلا هو حى ولا هو ميت . وفى وسط هذه القاعة نجد ما يسمى « بالجحش الخشبى » الذى كانت تربط اليه الضحية لازهاق روحها بواسطة التضيق على رثليه . وتحت هذه الظروف كان يستجوب من تعتبرهم الكنيسة كفر أو هراطقة خارجين عن الكنيسة ، وكلما ازداد ايمان الفرد فى تحدى المستجوب ازداد جزاؤه ، ونال من وسائل التعذيب ما لم تعرفه البشرية . »

كان هدف المحققين من استخدام هذه الأساليب هو الضغط على الهرطوقى حتى ينهار ويعترف ويندم باخلاص . وكانت الأساليب التى استخدمت هى نفس الأساليب المستخدمة اليوم ، فكان يوحى الى المتهم أنه باعترافه وندمه سينقذه من نار الجحيم الأبدى حتى ولو أدانته القانون وقرر حرقه حيا على الأرض ، كما استخدم الجواسيس لمواجهة الهرطوقى الذى لم يعترف بهرطوقى أدلى باعترافه ، كما كانت تعطى الوعود بالعفو بعد الاعتراف وهو وعد كان من الممكن سحبه

فيما بعد ، ومع ذلك فقد تم حرق أشخاص أحياء ، ولكن الكثيرين أسرعوا بالاعتراف وتقبلوا المعتقدات الجديدة والغرامات التي فرضتها الكنيسة ، وكان ضحايا الحرق عادة من الهراطقة الذين سبق العفو عنهم ، ولكن العفو عنهم سحب بعد ذلك .

ونروى على سبيل المثال قصة أحد الشهداء المؤمنين الذين وضعوا تحت أصعب الظروف للحصول على اعترافات زائفة منهم ومحاولة تحويل عقولهم وعقيدتهم ، لكن إيمانهم الراسخ جعلهم يفضلون الموت والخلاص من هذه الآلام عن متعة الدنيا .

حينما قامت هذه المحاكم بمحاكمة صموئيل فرناندس . وواجه من وسائل التعذيب والآلام ما لا يستطيع أن يتحملة بشر لكي يسل بعترافات زائفة ، استمر في المقاومة معتمدا على إيمانه الراسخ . ولكن الحوار الذي دار بين رئيس المحكمة وهذا الشهيد ، وكذا الأسلوب الذي استخلم لاستنطاقه الاعتراف بالحاده الكاثوليكي لا يختلف عن تلك الأساليب البشعة المعروفة ، والتي طبقت فيما بعد. وربما فاقتها ضراوة وقسوة .

وسنذكر فيما يلي ما دار في محاكمته فهو يوضح لنا كيف استغلت هذه المحاكم للقضاء على معتقدات الناس وقيمها ، مستخدمة أبشع ما عرفت البشرية من وسائل سلب عقول الناس وجعلهم آلة صماء مسلوطة الإرادة .

لقد دار الحوار بين رئيس المحكمة ، والمتهم على النحو التالي (١) :

♦ ما اسمك ؟

♦ أنا مسلم مغربي .

♦ لا بل اذكر اسمك المسيحي الجديد .

(١) بين السماء والأرض لسليمان مظهر ص ٤١٧ - ٤٢٤ .

- ♦ صموئيل فرنانديس •
- ♦ ان صموئيل هذا اسم يهودى ؟
- ♦ لقد كان المسيح يهوديا ايضا •
- ♦ قل صدقا • كم عمرك ؟
- ♦ ثلاث وثلاثون • • مثل عمر المسيح •
- ♦ اذن انت مستعد للتضحية ؟
- ♦ باذن الله •
- ♦ اتقبل ذلك وانت راض ؟
- ♦ نعم •
- ♦ ما الذى تفكر فيه الآن وما هو تأثير المحاكمة عليك ؟
- ♦ تأثير داخلي •
- ♦ وماذا يقول لك هذا التأثير الداخلى ؟
- ♦ لا أدري • فانى الآن لا أدري ماذا أقول •
- ♦ قل ما فكرت فيه بصوت مسموع •
- ♦ لا أقدر على الكلام لأنى متألم جدا من الضغط على صدرى والكلام لا يكون حسب الامر بل حسب الاستطاعة •
- ♦ سننظر ذلك جيدا جدا • • ايها الخراس • • اظن ان ضرب وجهه بالسوط يمكنه من الكلام •
- ♦ وسرعان ما جذب به احد رجال التعذيب • وجعل يجلد على وجهه بجلدة سميقة مبللة بالماء • فأحمر جلد وجهه حتى كاد يخرج منه الدم واخذ يتلوى من الألم •

ثم عاد رئيس المحكمة يسأله :

- ♦ أين ولدت ؟
- ♦ في طنجة ..
- ♦ اسباني أنت ؟
- ♦ كنت اسبانيا ..
- ♦ ولماذا تقول كنت ؟
- ♦ أقول هذا لانى لست باسباني لكى اظل اسبانيا الا الابد ..
- ♦ واين أبوك وأمك ؟
- ♦ ليس لى أب ولا أم .. فقد ماتا ..
- ♦ واين ماتا ؟
- ♦ فى سجون ديوان التفتيش ..
- ♦ احرقا ؟
- ♦ بل تعذبا حتى تهرأ جسدهما فماتا من شدة العذاب ..
- ♦ هل لك أخوة ؟ واين يقيمون ؟
- ♦ بل قل أولا .. اين ماتوا واين قبورهم ؟
- ♦ يظهر أنك تريد أن ينفذ صبرنا معك فسنبدأ بتعذيبك ..
- ♦ يسوءنى هذا ..
- ♦ اذن أنت لا تريد ان تدلنا على البقية الباقية من اخوتك ، ولا عن مكان اقامتهم .. ان الديوان المقدس لا يخفى عليه أن لك أخوة على قيد الحياة وانهم يصلون فى مساجد خفية .. ألا تعلم اين هم ؟
- ♦ لا اعلم ..

- ♦ عندما صدر الامر بسجنهم هربوا ، ألا تعلم الى أين ؟ تذكر .
- ♦ كيف يمكنني أن أتذكر وأنا مضطرب الفكر مسلوب العقل ؟
- ♦ يجب ان تساعدنا على معرفة مقرهم حتى نخلص نفوسهم .
- ♦ كما ستفعلون معي الآن !
- ♦ أنت تسكن مع امرأة فمن تكون ؟
- ♦ زوجتي ..
- ♦ يجب عليك ان تسلمها الى ديوان المفتيش .. نحن نأمرك ..
- ♦ اذا كنتم تأمروني فأولى بكم أن تقتلوني . وهذا كل ما يمكن أن تفعلوه .
وعندئذ سوف تصلي زوجتي من أجلى .
- ♦ سوف تساق الى التعذيب الآن فأولى لك الاقرار .
- ♦ لا يعينني العذاب فان جسمي مخدر لا يشعر .
- ♦ اذا لم تجب على ما سألتك فسوف نسقيك الماء برغم أنفك .. يدفع اليك من حلقك حتى يقضى عليك .
- ♦ لقد احترقت قدمي أولا بناركم فلم أمت حتى الآن .
- ♦ واقترب منه أحد المعتدين وهو يتصنع الرقة والعطف ، وقال بصوت متكلف :
♦ اعلم يا بني أننا لا نرمي من وراء تعذيبك الا أن تقرر عن بقية أهلك الذين تحبهم ، وبذا تنجي نفسك ونفوسهم ونصعد بكم الى السماء .
اجاب الرجل :
♦ اذا صعدنا نحن الى السماء فمن يهوى بكم أنتم الى الجحيم .
- ♦ وعندئذ استلمه المتوحشون الواقفون أمام آلات التعذيب ، وبعد أن أوثقوه وضعوه على مائدة خاصة وتقدم أحدهم وهو يحمل جرة مملوءة بالماء وتقدم آخر

وفى يده قمع وأدخله قسرا فى فمه ، ثم صب الماء داخل القمع تدريجيا والطبيب الى جواره يلاحظ عملية التعذيب ليرى الى أى حد يمكن لهذا الشهيد أن يتحمل العذاب الذى يؤدى الى قنله خنقا ، ولكن ايمان الرجل منعه من الاعتراف وظل بطنه ينتفخ الى أن جحظت عيناه ثم مات خنقا بالماء !

هذه صورة من الصور التى كانت تجرى فى محاكم التفتيش ، برغم ما فيها من وحشية وقسوة فان ايمان هذا الرجل بمعتقداته الراسخة جعله يتحمل كل تلك الآلام ، وأن يضحي بنفسه فى سبيل مبادئ معينة .

* * *

وفى هذا العصر الذى نعيش فيه نجد أنه حتى فى تلك الدول الكبيرة المتقدمة التى تشلّق بالديمقراطية ، وتفخر بسلامة التحقيق وعدالته كثيرا ما يدان أبرياء ويساقون الى الاعدام نتيجة استنطاق المتهمين اعترافات خاطئة ترجع أساسا الى الاساليب التعسفية التى استخدمت فى الاستجواب .

ان قضية تيموثى ايفانز ومحاكمته لاتهامه بقتل زوجته وطفله تعتبر سبة فى جبين الطب الشرعى الانجليزى ورجال سكوتلانديارد ، لانها انتهت باعدام رجل من المحتمل أن يكون بريئا نتيجة استنطاقه لاعترافات تالية خاطئة اقتنع بها البوليس بعد أن عثر على جثتى زوجته وطفله مخبأتين فى حجرة من الحجرات التى كانت تستأجرها الاسرة فى أحد المنازل بلندن .

وفى عام ١٩٥٣ اكتشف مستأجر آخر لبعض الحجرات فى نفس المنزل بقايا بشرية مخبأة خلف الحائط ، وكشف تفتيش تالى للمنزل والحديقة بقايا جثث لست فتيات قتلن من قبل ، وحوكم مجرم اسمه كريسى وأدين بالقتل بعد أن اعترف بأنه قتل الفتيات الست فى ظروف تشابه مقتل زوجة ايفانز وطفله .

لقد أدلى ايفانز بأربعة اعترافات للبوليس ، ولكنه لم يعترف بالقتل الا فى الاعترافين الثالث والرابع ، وقد كان ايفانز على درجة كبيرة من التخلف العقلى أميا عاش بين يدي رجال البوليس لمدة ٤٨ ساعة دون أى عون قانونى .

ان الاجزاء التى نشرتها الحكومة الانجليزية عن هذه القضية المشهورة تشير الى التوترات الانفعالية المختلفة التى لابد من أن يكون عقل ايفانز المختل قد تعرض لها قبل الادلاء باعترافاته النهائية ، ومن المؤكد أن هذه الاشياء لعبت دورها فى تغيير وظائف مخه والسلوك التالى لذلك .

ويصف سارجنت أسلوب استجواب ايفانز فيقول :

«وأول كل شيء انه مرت بايفانز فترة طويلة من الرعب والقلق بعد أن وجبت زوجته قتيلة فى منزله ومنزل كريستى ، ونتج عن ذلك هربه الى ويلز ، وهناك نجد أن الاعترافين الاولين اللذين أدلى بهما للبوليس يتلخصان فى عملية التخلص من جثة زوجته وليس قتلها ، ثم تبع ذلك سفره بالقطار للعودة الى لندن تحت حراسة البوليس ، وهناك قابل أحد كبار المفتشين الجدد الذى كان قد تولى امر القضية .

وعند الوصول اعترف ايفانز بأنه علم لأول مرة أن طفله الذى كان يحبه جدا قد وجد أيضا قتيلا مثل زوجته وفى نفس المنزل . ومع أنه لم يكن لديه الوقت الكافى ليفيق من هذه الصدمة فقد ازداد توتره حينما عرضت عليه بعد هذا الموقف مباشرة بعض ملابس زوجته وطفله القتيلين ، وكذا حبل طويل وغطاء منضدة أخضر وبطانية ، وقيل له : أن كلها تشير اليه كمتهم لا كقاتل اعترف بقتل زوجته وطفله . كما أن ايفانز أخطر بواسطة رجال الشرطة بالطريقة التى خبئت بها زوجته وطفله فى المنزل وأنه يعتبر مسئولاً عن الجريمتين ، وحينئذ أدلى باعتراف عام ثم بعد ذلك باعتراف مفصل عن ارتكابه جريمتى القتل » .

والواقع أن هذا الاستجواب لعب فيه الايحاء فى المستجوب والمتهم دورا كبيرا . وأحدثت هذه القضية ضجة كبيرة فى رأى العام البريطانى ، واعتقد الكثيرون أن ايفانز لا يمكن أن يكون قد قتل زوجته وطفله . وعلى كل فان المعلومات الخاصة بهذه القضية نشرت فى كتاب أبيض صدر بواسطة الحكومة

البريطانية ، وكذلك في كتاب « الرجل الذي يعيش في ضمائرنا (١) » وفي نشرة خاصة من جريدة سبيكتاتور بقلم لورد الترشم وإيان جلمور (٢) تحت عنوان « قضية تيموثي إيفانز » ويمكن الرجوع إليها للراغبين في دراسة تفصيلية .

* * *

ويروى هوجو منستر برج الذي كان أستاذا لعلم النفس في جامعة هارفارد في كتابه « فوق منصة الشهادة » On The Witness Stand قصة اعتراف زائف حدث نتيجة توترات فرضت على المتهم ، وملخص هذه القصة فيما يلي :

« ان فتاة قتلت وعثر رجال الشرطة على جثتها في الطريق ، وحصرت الشبهة في شاب كان له بها اتصال قديم ، فاستدعاه المحققون الى غرفة التحقيق حيث توجد الفتاة ثم كشفوا له الغطاء عنها » .

وبدا للشباب وجهها الشاحب المخضب بالدماء فباغته المحققون على الفور بسؤاله : « أين رايتها ؟ » وخر الفتى جاثيا على ركبتيه ثم وضع كفيه على وجهه لتجذب رؤيتها عن ناظره ، الا أن المحققين جذبوه بغلظة نحو جثة الفتاة وأمروه أن يضع يده فوق جبينها البارد فأطاع كرها وقسرا . ولكنه لم يلبث أن سحب يده عن بدنها مقشعرا ، وسرعان ما جروه عنوة اليها وأرغموه على أن يضع يده ثانية عليها .

وفي خلال ذلك أطلقوا عليه السؤال تلو السؤال حتى أصابوا من عزمه مقتلا ومن ارادته مصرا ؛ فسقط منهوك القوى واعترف بقتلها في الحال وهو شارذ الفكر مضطرب البال .

ولقد أطاع الشاب المحققين في كل ما طلبوا منه الاقرار به ، بل ابتدع لهم الاسباب وانتحل المعاذير ، وأضاف من بنات أفكاره الى الوقائع بعض التفاصيل .

M. Eddowes, The Man on Your Conscience, Cassell, 1955.

(١)

Lord Altrincham and I. Gilmour The Case of Timothy Evans, Special Spectator (٢)
Publication, 1956.

وبناء على هذا الاقرار قدم الشاب الى المحاكمة ، وشاءت الاقدار بعد ذلك أن يكشف الغطاء عن سر قراره الغريب وظهرت لهيئة القضاء براءته بأجلى بيان .
اذ اتضح أنه لم يعترف الا بتأثير صدمة عصبية أصابته من جراء الرعب الشديد فتركته في شبه حالة تنويم ، فاضحي عقله المضطرب سهل الاقتناع شديد التأثير بفعل الايحاء والتغريير ، واعترف متأثرا بما أوحى به اليه في خلال الاستجواب ، واتهم نفسه معتقدا في نفسه الاجرام وهو يرى » .

ومما لا شك فيه أن الخوف الناتج عن التوتر الشديد قد يصل بمخ الانسان الى حالة من حالات توقف وظائفه التي ثبتت في تجارب بافلوف كما سبق ان بينا ، ويصبح مخ الانسان خاضعا لاي ايحاءات توجه اليه .

* * *

ويروى لنا سارجنت بعض التفاصيل الطريفة عن الاساليب المستخدمة في الدول الغربية فيقول :

« اذا كان أسلوب الاستجواب يتخذ طريق العطف واطهار الود للمتهم فمن المستحسن استغلال التبرير النفسى الذى يكون عادة في ذهن المجرم عند ارتكابه للجريمة ، ولهذا أوحى اليه أنه كان هناك سبب وجيه لارتكاب جريمته ، وبأنه يتمتع بقدر كبير من اللكء يمنعه أن يفعل ذلك دون مبرر ، وفي حالات جرائم الجنس يشرح للمتهم أن الجوع الجنسي يعتبر غريزة من أقوى الغرائز التي تحرك حياتنا ، وفي حالة السرقة يوحى اليه أنه ربما كان جائعا أو محروما من ضروريات الحياة ، وفي ارتكاب جرائم القتل يقال له : ان الضحية قد أساءت اليه اساءة بالغة ، وربما كان القتل في الطريق اليه . كن صديقا وعطوفا وشجعه على كتابة القضية وسردها بأكملها حتى ينفس عن نفسه ويبدأ من جديد » .

ويستشهد سارجنت بحديث أدلى به نائب مدير بوليس نيويورك الى مجلة البوليس عام ١٩٢٥ - على الاساليب الغربية المعروفة في استنطاق الاعترافات والذى يقول فيه :

« ان اسلوبى المعتاد هو أن ادون بيانات السجين عندما يحضر امامى فى الشكل الذى يريده تماما ، وفى اليوم التالى بعد أن تكون قد جمعنا معلومات اضافية نقوم باستجوابه ثانية ، ونوجه أسئلتنا على ضوء هذه المعلومات ، وبعد ذلك نحلل التناقض بين بياناته الاولى والاخيرة ، ثم نستجوبه فى اليوم التالى ونحلل مرة ثانية الاختلافات ، ثم نضيق عليه الخناق اذا اشارت الحقائق التى تم جمعها الى اذانته بصفة مؤكدة . ونستمر فى اجباره على الكلام مرارا وتكرارا يوما بعد يوم ، وفى النهاية ينهار ويدل بالقبصة كلها وذلك اذا كان مذنباً او لديه فكرة عن الجريمة . »

« وفى حالة وجود مجرم دمث لطيف مستقيم ومثقف تثقيفا طيبا فاننا نستمر معه حتى نكتشف نقطة ضعف ، ومثل هذا المتهم يدل بروايته الاولى بطلاقة ويكون زلق اللسان فى كل مناسبة تالية ، ولكن التناقض يبدأ فى الظهور بوضوح متزايد فى كل مرة ، ومن ثم فاننا نكرر عليه السؤال حتى ينهار فى النهاية . وبطبيعة الحال فان المتهم سوف يردد نفس القصة اذا كان صادقا ، اما اذا كان يكذب فان لسانه سوف يزلف فى احدى المرات ؛ لان الكاذب لا يستطيع تذكر كل شىء اذ انه معرض لنسيان أى شىء ذكره من قبل . »

« وهناك اسلوب ثالث هو أن ندفع ببساطة المتهم الى مايقع عقل بشرط أن يكون مذنباً فعلا ، وحينئذ نجده يتعثر فى كل مرة ، ومعنى ذلك أنك دقت « اسفيننا » كبداية ، فإذا لم يكن لديك مفتاح صغير تبدأ منه لتوجيه أسئلتك فانه يصعب عليك الحصول على الاعتراف ، ولكن بعد أن تستكشف نقطة الضعف يبدأ التناقض يتسع فى رواية المتهم حتى يصبح فى النهاية فى غاية الارتباك والحيرة بل يرى أن اللعبة قد بلغت نهايتها بسقوط جميع دفاعاته ويصبح أشبه بالفار فى المصيدة وحينئذ ينفجر باكيا ويأتيه العذاب من داخل نفسه لا من خارجها . »

ويعلق سارجنت على ذلك وعلى علاقته بالعلاج النفسى بقوله :

« ان الشئ الوحيد الذى يضاف هو أنه من المعروف فى مثل هذا الاسلوب ان تختلط الحقيقة والزيف بشكل يدعو لليأس فى عقل كل من المتهم والمستجوب ،

ومن المحتمل اذا لم تبرز ما يسمى بنقطة الضعف فان المستجوب قد يخلق بنفسه الایحاء بالاعتراف اذا أصر على أن يحصل عليه .

« ان استنطاق الاعترافات غير الصحيحة التي قد يقتنع بها كل من المستجوب والمتهم عن طريق الایحاء لتذكرنا بظاهرة مشابهة في حجرة استشارة المعالج النفسي عندما يبدأ في تصديق وتقبل ما يصدقه هو ومريضه من أن صدمة في الطفولة مثلا قد سببت هذه الاعراض . وبعد ساعات من امعان الفكر والاضطراب قد ينتهي المريض بالإدلاء بروايات مفصلة عن الضرر الانفعالي الذي حدث له في هذه المناسبة أو تلك ، واذا كان الطبيب واحدا من أولئك الذين يؤمنون بالصددمات في الطفولة فيسأل عنها ؛ فان المريض حينئذ يبدأ يتذكرها وهكذا يعيش مرة أخرى في تفاصيلها . ان المريض يردد عن حسن نية ما أوحى به اليه ، ومع ذلك قد يصدق كل من الطبيب والمريض عن اقتناع مثل تلك الحوادث » .

وهنا يبدو مدى التشابه بين « غسيل المخ » الحديث ، وبين بعض الاساليب الحديثة للعلاج النفسي ، الا أن خطر تعرض الطبيب النفسي والمريض الى « غسيل المخ » يظهر في كتاب أيرنست جونز الحديث عن فرويد الذي يقول فيه (١) :

« كانت حماسة فرويد في التوصل الى الحقيقة على أعلى درجة من الكمال واليقين ، ومع ذلك فقد لاحظت في حالة مريض كان يعالجه فرويد قبل الحرب وكان تاريخ حياته معروفا تماما لي ، ان فرويد كان يصدق البيانات التي كان يدلي بها المريض المرة تلو الاخرى في أثناء عملية التحليل النفسي ، وكنت أعلم علم اليقين أنها غير حقيقية ، كما كان يرفض عرضا ان يصدق أمورا مؤكدة تماما » .

* * *

ومع التطور العلمي استخدمت آلات ومعدات لتساعد المستجوب في استنطاق الاعترافات ، وأهم هذه وأحدثها جهاز كشف الكذب الذي يستخدم أغلب الدول المتقدمة .

E. Jones - Sigmund Freud: Life and Work. 2 Vols, Hogarth Press, London, 1965. (١)

وجهاز كشف الكذب الذى تستخدمه هذه الدول الآن فى استجواب المجرمين ما هو الا التطور العلمى لوسائل كشف الكذب البدائية التى استخدمها الاقدمون، فقد كانوا يعتمدون على الوسائل العضوية والنفسية فى محاولة كشف الكذب عند استجواب المتهمين .

فمن الوسائل العضوية التى استخدمت قديما تلك التى كان يستخدمها الصينيون الاقدمون مع المتهم وذلك بوضع أرز مسحق فى حلق لسانه ويأمرونه بمضغه ثم بصقه فاذا وجد جافا فالمتهم مذنب ، وشبيه بذلك ما كان يقوم به العرب من وضع قطعة من الحديد المحمى على لسان المتهم فاذا لم يحرق اللسان من تأثير هذه النار كان المتهم بريئا . كانت مثل هذه الوسائل تعتمد على ردود فعل الغدد واللعاب فى جسم الانسان .

كما استخدمت الوسائل النفسية البحتة كذلك لكشف الكذب ، فمن اقدم الامثلة على ذلك قصة سليمان المعروفة حينما جاءته امرأتان تتنازعان طفلا وكل منهما تدعى أنه ابنها ، ولما اقترح سليمان تقسيم الطفل وقبلت احدهما عرف سليمان أنها كاذبة . كما أن هناك تلك الوسيلة المضحكة التى كان يستخدمها اليهود ، اذ كانوا يضعون حمارا مقدسا فى حجرة مظلمة بعد أن يدهن ذيله بمسحوق أسود ، ثم يطلبون من المتهم أن يمسك بذيله فاذا نهق كان مذنبا .

وبرغم أن هذه الوسائل تعتبر محل طعن ولا يمكن الاعتماد عليها ، فإن جهاز كشف الكذب الذى خرج على أساس علمى يعتبر أيضا آلة لا يمكن التعويل عليها فى قاعة المحكمة ، ولكنها كما يقول مستر كلارنس لى فى كتابه The Instrumental detection of deception « أنه أداة فعالة للغاية لاختافة فليل الخبرة والجاهل من المذنبين واجباره على الاعتراف (١) » .

والواقع أن جهاز كشف الكذب واجراءات الاختبار التى يواجهها المذنب يكون لها أثر نفسى قوى على نفسه من ناحية اقناعه بالاعتراف .

G. D. Lee, The Instrumental Detection of Deception. The Lie Test, Edited by (١)
V. A. Leonard Charles G. Thomas, Springfield, Illinois, 1953.

ويقول سارجنت في كتابه « Battle for the mind »

« ان منظر المؤشرات وهى تتأرجح مع كل دقة من دقات القلب أو نفس من الانفاس قد تحطم معنويات المذنب • كما أن اطلاعه على النتائج المسجلة مع شرح مختصر عن مغزى كل خداع مسجل يتمخض فى الغالب عن نتائج مباشرة » •

ويرى سارجنت أن هذه الوسيلة مباحة وقانونية ، ولكن يجب أن يقتنع المستجوب أولا بتهمة الشخص بوسائل أخرى • ويضيف لى « أن ما بين ٦٠٪ ، ٨٠٪ ممن تظهر ادانتهم باجراء الاختبار عليهم يعترفون فى النهاية ، ولكن النسبة المثوية للاعتراف تتوقف على ثقة المستجوب فى نفسه وقدرته على الاقناع وجلده ومثابرتة ، واطهار عطفه نحو المتهم ، كما يجب على المستجوب أن يوحى للمتهم بكل الطرق فكرة تأكده من ارتكاب الجريمة ، ذلك لان أى بادرة من بوادر الشك من ناحية المستجوب قد تقضى على هدفه •

ويرى لى نتيجة تجاربه أن أسهل الناس فى الادلاء بالاعترافات نتيجة استخدام هذا الجهاز هم أولئك الذين يتأثرون بشكل كبير عند مخاطبة انفعالاتهم. ويشمل هذه الفئة من يسمون بالمجرمين العرضيين مثل : المجرم الذى يضرب ويهرب ، أو الذى يقتل فى ثورة غضب ، أو الاحداث الذين يرتكبون جريمتهم الاولى ، وكذلك مرتكبى جرائم الجنس ، والذين يغتصبون الاعراض ، والسفاحين الذين يقتلون بعد هتك العرض ، والسادين ، والماسكويين(١) •

أما الذين يستعصى اكراهم على الاعتراف بواسطة « كاشف الكذب » فهم المجرمون المحترفون ممن يحتمل أنهم تعلموا بالتجربة خطورة التعاون بأى صورة مع رجال الشرطة أثناء استجوابهم أو أثناء الاختبار بجهاز كاشف الكذب ،

(١) السادى هو الشخص الذى يجد لذته الجنسية فى ايقاع الالم على الغير وخصوصا فى الجنس الآخر ، والماسوكى هو الشخص الذى يتلذذ ويصل الى نشوته الجنسية من ايقاع الالم على ذاته : اما بنفسه واما بواسطة شريكه فى العملية الجنسية •

فهم يرفضون بناتا الاجابة على أى سؤال . وسنتحدث عن ذلك بالتفصيل فى
الفصل القادم .

* * *

والآن نستطيع ان ننقل للدراسة الاساليب التى اتبعها الشيوعيون فى
الاستجواب حتى تكتمل الصورة لدينا ونرى الى أى مدى تشابه أو تتباين تلك
الاساليب عن غيرها المستخدمة فى الدول الاخرى .

لقد لجأ الشيوعيون الى هذه الوسائل فى حركات التطهير التى قام بها
ستالين قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة ، كما استخدمها الصينيون مع كثير من
الاسرى فى الحرب الكورية ، وكذا مع كثير من الصينيين المرتدين عن الشيوعية .
ونظرا لعدم اتساع المجال فاننا سنأخذ أسلوب الصينيين فى استجواب
الاسرى كنموذج لذلك .

كانت الاستجوابات تستمر لساعات ولايام بل حتى لاسباب ، وفى بعض
الاحوال كان المحقق يعيش مع من يستجوبه ويحاول أن يخلق معه جوا من
الصدقة .

وكانت النقطة الاساسية على ما يبدو هى جعل الاسير يتكلم دون تحديد
موضوع يدور الحديث حوله ، وكان الحديث أحيانا يأخذ طابع الجلسات التهديدية
التثقيفية نتيجة علاقة الصداقة التى أقامها المحقق ، فاذا ما تطرق الضعف الى
معتقدات الاسير وبدأ يفحص معتقداته فحسا انتقاديا يكون بذلك قد وصل الى
منطقة الخطر حيث يصبح عرضة لان يتغلب عليه المحقق بجذبه الجدلية .

ولقد حاول الصينيون أن يوجئوا انطبعا بانهم يستطيعون الحصول على
أى معلومات يريدونها من أى فرد ، وذلك باتباع أسلوبهم الخاص فى الاستجواب .
فاذا ما استمر أسير ما فى رفض الاجابة عن سؤال معين برغم الاجهاد والضغط
وتكرار القاء السؤال عليه المرة بعد الاخرى ، أخرج المحقق من جيبه دفترًا صغيرًا

وراح يعبث في صفحاته ثم يلقي على مسامع الاسير الاجابة الصحيحة . وأحيانا تكون الاجابة دقيقة في أقل التفاصيل بدرجة تثير الدهشة ، وينتقل المحقق عندئذ الى موضوع آخر ويتكرر ما حدث المرة بعد الاخرى حتى يحس الاسير الحيرة متسائلا عما اذا كان ليس هناك شيء لا يكون الصينيون على دراية به .

لقد كان التكرار أحد المبادئ العامة في استجابات الصينيين للأسرى ، كما كان الصبر الذي لا حده له إحدى الخصائص البارزة في كل ما يقومون به سواء في استجواب الأسرى أو الحصول على اعترافات ، فهم يكررون الطلب مرة بعد الأخرى بصبر عجيب ولا ينتابهم اليأس من عدم التوفيق .

وكانت الخاصية الثانية للصينيين هي « التدرج في المطالب » اذ كانوا يبدأون في استجوابهم بمسائل تافهة لا قيمة لها ، وبعد أن يفرضوا في الاسير عادة الاستجابة ينتقلون تدريجيا الى ما هو أهم فاهم تبعا لزيادة تدريبيه على الكلام أو الكتابة ، وكانت هذه الوسيلة مؤثرة جدا ولا سيما في الحصول على اعترافات عن طريق الاستنتاج والاستنباط ، وكذا في جعل الأسرى يقبلون على نقد أنفسهم ، وعلى تقديم المعلومات أثناء عمليات الاستجواب .

وقد ارتبط بأسلوب « التدرج » أسلوب « المشاركة » اى جعل الاسير نفسه يشترك في العملية دون أن يدرك الى أى مدى سيوصله ذلك .

واستخدم الصينيون أسلوبا آخر هو أن يطلب من الاسير أن يكتب السؤال ثم يطلب منه الاجابة عنه ، فاذا رفض أن يكتب الاجابة الصحيحة طواعية واختيارا طلب منه أن ينقلها من كراسة المحقق . وهنا لا يجد الاسير أى غضاضة في نقل هذه الاجابة ما دام لن يوقع في الورقة التي كتبها ، ولكن كانت هذه الورقة تعرض على زميل آخر للتدليل على أنه قد اعترف بما كتبه بخطه ، كما أن هذه السطور التي كتبها بخطه كانت تستعمل ضده لتهديده ، ذلك لانه في الواقع يكون من الصعب أن يقنع أى فرد بأن دور زميله انما كان مجرد نقل بعض سطور من كراسة المحقق .

ولقد تضمنت أيضا الاستجابات التي تعرض لها كل الاسرى تقريبا
معلومات غير عسكرية تماما .

كان الصينيون شغوفين بكل صور الحياة في العالم الغربي . وقد ألقوا
الكثير من الاسئلة عن هذه الحياة، وكانوا يطالبون باجابات تفصيلية الى حد بعيد .

وكانوا يستخدمون استمارات مطبوعة بقصد الحصول على تاريخ شخصي
لكل اسير ، وشددوا بخاصة على : الماضي الثقافي لكل اسير ، ومستواه الاجتماعي ،
وكذا مستوى ابويه ، وما يعملان فيه الى غير ذلك .

وقد عمد اغلب الاسرى في البداية الى عدم الادلاء بمعلومات حقيقية فملأوا
الاستمارات ببيانات مصطنعة ، ولكن طلب منهم بعد فترة أن يقوموا مرة ثانية
بإعادة ملء هذه الاستمارات . ولما كان من العسير أن يتذكر الاسير ما سبق أن
اصطنعه فإنه غالبا ما كان يتعرض لمواجهة هذه الاختلافات ويواجه مجهادات
تستلزم منه أن يوضح اسباب هذا الاختلاف والتباين .

فاذا ما شعر الصينيون بأنهم حصلوا على بيان صحيح نسبيا من أحد
الاسرى كان هذا البيان موضوع مناقشة بين المحقق ، وبين الاسير بقصد تعظيم
معتقداته وما يؤمن به من قيم .

وقد استغلت بعض النقاط التي تجيء في تاريخ كل اسير لتوضح له اخطاءه .
فمثلا اذا قال الاسير : ان والديه كانا من الرأسماليين وضح له كيف استغل
ابواه العمال الذين لم يتالوا جزءا ناهضا من هذا الاستغلال .

ومن الاساليب المؤثرة الاخرى التي استخدمت لجعل الجنود يشكون في
معتقداتهم وفي القيم التي يؤمنون بها محاولة جعلهم يعترفون علانية باخطاءهم .
اقتربوا ثم انتقاد أنفسهم . وفي طوال الوقت الذي قضاه الاسرى في المعسكر
طلب منهم أن يمروا بهذه « الطقوس » المرة تلو الاخرى . ولقد كان على الاسير
أن يعترف بأقل الاخطاء وأتلفها ، وكانت هذه الاخطاء في الواقع مخالفات

ومناقضات لنظم المعسكر ، وكان الاسرى فور وصولهم الى المعسكر الدائم يعطون نسخا من نظم المعسكر ويطلب منهم أن يوقعوا اقرارا بأنهم سيتبعون هذه النظم ، وكان أغلب الجنود يحسون الجوع وكانوا ينتفضون من البرد ، فلم يكن تتوافر لهم الطاقة لقراءة عدة صفحات تجمع أدق التفاصيل للحياة فى المعسكر ولذا غالبا ما كانوا ينقضون تعاليم هذه الانظمة نتيجة جهلهم بها .

وعلى سبيل المثال قد تضمنت هذه التعليمات عدة فقرات خاصة بكيف يستطيع الاسير أن يبصق لطرد البلغم ؟

ولذا فانه كان محتما عاجلا أو آجلا أن ترتكب بعض مخالفات لهذه القواعد والنظم ، وكان يعرض مرتكب المخالفة من فوره على رئيس المعسكر الذى يذكر له أن جريمته خطيره ، وأنه كان لابد أن يعاقب بشدة لولا سياسة اللطف التى يتسم بها الصينيون ، كما يوضح له أنه ينظر اليه كشخص مسئول قد وقع كتابة على اتباع هذه القواعد وعدم مخالفتها ، وهنا قد يذكر الاسير أنه فى الواقع لم يقرأ الاوامر التى وقع عليها مما يعرضه الى المزيد من اللوم ، وعندئذ يسأله قائد المعسكر عما اذا كان على استعداد ليعترف بأنه قد خرق القواعد ، وهل هو أسف لهذا السلوك ، وهل يعد بالآلا يفعل ذلك مستقبلا ؟ فاذا ما وافق الاسير على هذا لا سيما أنه قد لا يبدو له اطلاقا أى خطر فى مثل هذا الاعتراف بل قد يعتبره وسيلة سهلة للافلات من موقفه ، يطلب منه قائد المعسكر توا أن يكتب « اعترافا » بخطئه الذى ارتكبه .

وقد ينتهى الامر أحيانا عند هذا الحد ، ولكن فى العادة كان يطلب منه أن يقرأ اعترافه أمام مجموعة من زملائه الاسرى وأن يتبع هذا « بنقد نفسه » الامر الذى يستدعى تحليل الفعل الخاطىء على أساس أنه وراء « فكرة » خاطئة وأنه كان من واجبه أن يكون « عميقا فى اخلاصه » .

وهكذا تنشأ سلسلة متتابعة من « فكر » و « فعل » فيتساءل الاسير : لماذا كان هذا « الفكر خطأ » ولماذا كان هذا « الفعل جريمة ؟ » ويصحب هذا بتجسيم للوعد عن المستقبل والاعتذار عن الماضى .

وكان في هذا « المحو لآثر النفس » أو بمعنى أدق « طمس النفس » علانية ،
اذلال للشخص واهدار لكرامته كما أنه يعتبر سابقة سيئة لأولئك الذين كانوا
يحاولون مقاومة التكيف .

على أنه قد نظر في البداية الى أن كتابة الاعترافات وقراءتها علانية ونقد
النفس لاختفاء تافهة في المعسكر مسألة لا أهمية لها إذا ما قورنت فيما يحتمل
من توقع عقوبات بدنية أو تعذيب أو سجن . ومع ذلك فإن هذا الأسلوب على
بساطته كان يمكن أن يتحول الى تعذيب سيكولوجي بمجرد أن يتم الاذعان الاول
من جانب الاسير ، وكان الرجل الذي يخالف أمرا ما من أوامر المعسكر ويمر بهذه
السلسلة من الطقوس من : اعتراف ، الى تسطير اعترافه كتابة ، الى قراءته علانية ،
ثم الوقوف أمام الآخرين لتوجيه النقد الى نفسه – لا يلبث أن يعود من جديد لمخالفة
أمر آخر مما قد يثير عدااء الصينيين ، وفي هذه المرة يطالبونه باعادة تلك الطقوس
بصورة أكثر تجسيميا ، ولكن الفكرة أن الاسير كان في المرة الاولى قد ارتكب الخطأ
عن جهل بالقواعد والتنظيم ، واعترف طواعية بخطئه ، ولكنه في هذه المرة يجد
نفسه متهما بجرم لا يعرف اذا كان هو على صواب أم خطأ فالتقدير ليس من
جانبه ، وفي هذه المرة يجد الاسير الامناس له من الاعتراف كوسيلة للخلاص ،
ولكن لابد له من أن يجسم هذا الخطأ التافه ويعترف بجرمه الكبير .

وبرغم أن الصينيين قد حاولوا اغراء بعض الاسرى للتعاون معهم عن طريق
المكافآت والوعود باعادة ترحيلهم الى أرض الوطن ، الا أنهم استخدموا التهديد
بالعقاب في حالات كثيرة .

وقد استخدم الصينيون كل اشكال التهديد من : انذار بالموت ، أو عدم
الاعادة الى اوطانهم ، أو التعذيب ، أو انقراض كميات الغذاء ، أو الامتناع عن تقديم
الدواء والعلاج .

على أن العقوبة التي استخدمت فعلا كانت « الحبس الانفرادي » وإن كان قد
أوحى للاسرى أنه من الممكن تنفيذ باقى ألوان التهديدات ، لا سيما أنه من السهل

انكار وجودهم ، اذ لم تكن لدى الأمم المتحدة أى معلومات عن الأسرى حتى تم تبادل البيانات الخاصة بهم في « بانمونجوم » وذلك حينما قطعت محادثات الهدنة شوطا بعيدا . وكان من الواضح أيضا أن من المستطاع قتل أى أسير وتسجيل انه مات بسبب نوبة قلبية أو ما شابه ذلك .

وكان الخوف المبهم من المجهول يزيد من شدة تأثير هذه التهديدات ، فلم يكن الأفراد يعرفون ما سيواجههم بعد لحظات ، ولم يستطيعوا أن يقدروا ردود الفعل من جانب الصينيين بالنسبة لأى أمر ، وكانت الوسيلة الوحيدة لتخفيف هذا التوتر هى الاسهام بصورة ما في مشروعات الصينيين .

وكانت العقوبات الواضحة التى اتبعتها الصينيون بصورة علنية تختلف :
تبعاً للجرم ، وتبعاً للموقف السياسى ، وكذا الشخص الذى ارتكب الجريمة .

وقد قام الصينيون في أثناء عمليات الاستجواب ببعض العقوبات البدنية العادية كالصفع أو الركل بالقدم ، وذلك اذا ما رفض الأسير الاجابة عن سؤال ما ولكن الأسير الذى كان يبقى صامتا كان عادة يصرف من أمام المحقق دون أى عقاب بدنى آخر .

وكان للعقوبات البدنية التى وقعها الصينيون على الأسرى اثر كبير في انهيار الكثير منهم وهذه العقوبات على سبيل المثال :

- ♦ القيام بعمل عنيف مجهود .
- ♦ الوقوف في الوضع انتباه لفترات طويلة .
- ♦ التعرض للحرارة الشديدة أو البرد الشديد .
- ♦ الحبس الانفرادى في غرفة ضيقة لا تمكن الأسير من الجلوس أو الرقاد ، وكانوا يطلقون على هذا النوع من الحبس الانفرادى « الاسقاط في الحفرة » .
- ♦ الوقوف على أطراف أصابع القدمين .

♦ الإبقاء في غرف قلعة دون السماح له حتى بإزالة الضرورة في الأماكن المعدة لذلك .

وكان الصينيون بالإضافة الى هذا يعزلون غير المتعاونين عن باقي الأسرى ، ويبقونهم في معسكر آخر بحيث يكونون عرضة لنظام أكثر قسوة .

وكحديث عام فان « سياسة اللطف » لم تطبق الا على هؤلاء الذين أمل الصينيون أنهم يستطيعون استخدامهم .

على ان الكثير من صور العقوبات للمخالفات العادية كانت تأخذ طابعا اجتماعيا بايقاف الأسير للاعتراف بأخطائه امام زملائه ، او بتسفير اعترافه وقراءته علانية امام الآخرين ، او يجعله يقوم بنقد نفسه ، وذلك بقصد تقليل قيمته في نظر نفسه وفي نظر اخوانه .

ولا يوجد أى دليل على أن الصينيين استخدموا العقاقير او وسائل « التنويم المغناطيسى » كما لم يعرف قط أنهم عرضوا « ممارسات جنسية » أو استخدموا الاتصال بالنساء كوسيلة للحصول على معلومات غير قانونية ، أو الوصول الى جعل بعض الأسرى يتعاونون معهم مقابل ذلك .

وبرغم ذلك فقد تحدث بعض الأسرى عن تعذيب بدنى قاس ، ولكن من الصعب تقدير المجال الذى حدث فيه ذلك .

ويذكر لنا ادوارد هنتر في كتابه « غسيل المخ » صورة تفصيلية عن الوسائل والأساليب التى استخدمها الصينيون الشيوعيون في استجواب الدكتور جون د . هيز John D. Hayes الأمريكى عام ١٩٥١ ، ومحاولة استنطاقه اعترافات خاصة ، ونحن نذكرها هنا على سبيل المثال اذ أنه مهما كانت هذه المعلومات تشوبها الدقة أو المبالغة فانها تعطينا صورة واضحة للأساليب التى قد تستخدم في عمليات الاستجواب واستنطاق الاعترافات (١) .

(١) Edward Hunter, Brain Washing, Farar, Straus and Gudahy, New York, 19٥6, PP. 66 - 88.

كان هيز مبشرا بالوراثة فقد ولد بالقرب من كفو «Chefoo» في شمالي الصين من أبوين من المبشرين وورث عنهما هذه الوظيفة ، وكان يحس وهو بين الصينيين أنه في وطنه تماما كما اتقن لغة الـ Mandarin أى اللغة القومية اتقاناً تاماً ، وكثيراً ما كانوا يقولون : انهم يعتبرونه واحداً منهم .

ولكن المتاعب ابتدأت معه حينما أعدمّت السلطات الصينية عام ١٩٥١ أحد أصدقائه الصينيين وكان يعتبره قدوة له ومثله الأعلى . وفي أحد الفصول التي كان يلقى بها دروسه سأل بعض الطلبة الحمر رايه في هذا الموضوع ، فاجاب بصراحة : « لا يمكن للدولة متحضرة أن تعلم انسانا بسبب آرائه السياسية » .

وفي اليوم التالي اخبرته السلطات أنه ارتكب خطيئة كبرى للهجوم على الحكومة ، وأنه لا بد من وجود أشياء أخطر من ذلك وراء هذا الهجوم ، ولذا فإن القانون سيتخذ مجراه .

ومنذ ذلك الوقت وضع هيز لمدة شهر شبه معتقل في منزله تحت وطأة قلق وخوف من المستقبل المجهول ، ثم رفعت الحراسة عنه وأبلغ أنه يستطيع أن يتصرف كما يشاء لعدم ثبوت أى نشاط مضاد له .

ولكن في فجر أحد الأيام سمع طرقا عنيفا على بوابة منزله تبعه صوت اطلاق رصاصات مسدس على باب حجرة نومه ، وعندما فتح الباب حملق في ثلاثة مسدسات وكانت أول كلمة سمعها : « انك جاسوس استعماري » .

كان الهدف من هذا كله اجهاد ذهنه ، ووضعه في حالة من التوتر النفسى تهيئه للتدرج في عملية أخرى أشد قسوة وعنفاً .

وتم بعد ذلك نقله الى إحدى الزنزانات، حيث تناوب عليه لفترة تتراوح بين ثلاث ساعات وتسع يومياً وليلة أربعين يوماً متتالية جماعات متتابعة من المسجونين والمبشرين السياسيين ، وقد حطم التوتر الناشئ من الضغط السيكولوجي أعصابه ، وحينئذ بدأت الضغوط البدنية العنيفة المصحوبة بالضغوط الذهنية .

ويصف هيز نفسه في هذه الحالة قائلاً :

« كنت جائعا بصفة مستمرة فقد كان غداثي اليومي عبارة عن قليل من الأرز مع ملعقتين من الخضر ، وكنت أحس التخدير نتيجة قلة النوم ، كما كان الامتحان أشد أثرا على نفسي ، وشعرت أن آدميتي قد امتهنت في بلد أحبته .

وحينما كنت أستدعى الى غرفة غسيل المخ أجد نفسي في حجرة في الطابق السفلي من السجن مساحتها ١٢ × ١٨ قلما حيث يواجه الانسان فيها عددا من الناس يتراوح عددهم من شخص الى سبعة أشخاص وذلك كلما نظر الى أى اتجاه ، فمنهم : المستجوب ، والمبشر السياسى ، والجلاد ، والقاضى ، والفضولى ، والمكلف بالتعذيب .

وهنا بدأت مرحلة استنطاق الاعترافات حينما أخطره المحققون في بساطة أنه كبير الجواسيس في منطقة شرق الصين بأكملها ، وطلبوا منه ان يكتب جميع التفاصيل في اعترافاته .

واستخلصت مع هيز أغلب الوسائل والأساليب المعروفة فمن : وعود باغتفار ذنوبه اذا اعترف ، الى ضغوط نفسية حادة ، الى كيل اتهامات وإهانات تجعل الانسان ينهار فورا ، ويستغل المستجوب الموقف فورا فيضع البيان المطلوب في صيغة سؤال .

ولم يكل المستجوبون من عدم توفيقهم في الحصول على الاعترافات المطلوبة ، بل استخدموا المداورة وخاصة حينما كان يصمت المتهم .

وكان المستجوبون في كثير من الحالات يركزون على تفاصيل لا ترتبط بالموضوع ويرددونها بين الحين والآخر ، ثم يقفزون فجأة من نقطة لأخرى حتى يسقط الموضوع برمته ويظهر شيء آخر لا علاقة له بالموضوع ، مما يثير المتهم ويجعله دائما في حالة من التوتر والانفعال .

ففى أحد الاستجوابات مثلا وهى شبيهة بما كان يحدث في محاكم التفتيش أصر المستجوب على أن يذكر له هيز أسماء المتاجر التى حول السوق ، وبعد أن فكر هيز بامعان أخذ يذكر اسم كل متجر . واستمر الاستجواب المضحك كما يلي :

♦ هل قلت : أن هناك متجرين للأدوات الكهربائية ؟

♦ نعم .

♦ هل اشتريت من المتجرين ؟

♦ لا .

♦ من أى متجر اشتريت ؟

♦ الثانى .

ويقوم المستجوب بنهره بصوت حاد :

اشتريت من ذلك المتجر ولم تشتري من المتجر الآخر ولماذا ؟

♦ آه .. لا أعرف .

♦ لابد وأن هناك سببا .. فكر الآن وكن صريحا لماذا اشتريت من ذلك المتجر بالذات ؟

♦ أعتقد أننى أحببت هذا المكان .. وأننى أحاول دائما أن أصادق من اشتري منهم .

♦ آه .. إذا كان هذا هو السبب .. هل ابتسم صاحب المتجر حينما اشتريت منه ؟

♦ ابتسم .. آه .. ابتسم .. نعم .. ابتسم .

♦ لماذا ابتسم ؟

♦ لماذا ؟ لماذا ابتسم ؟ لا أعرف لماذا ابتسم .. لقد ابتسم وكفى لأنه ..

ولقد مرت بهيز الكثير جدا من مثل تلك الاستجابات التافهة ، ولكنها لم تخرجه عن اتزانها ، الا أن الأثر الذى كان يهدف اليه المحقق هو تشويش صفاء ذهنه .

واستطاع المستجوبون فى النهاية أن يصلوا بهيز الى درجة من الهلوسة نتيجة وطأة المطالب المتتالية المستمرة على ذهنه فى تلك البيئة المزعجة ويقول هيز :

« انه بسبب المحاولات الملحة لجعل أتذكر كل تفصيل نسيته كانت الغمامة تنحسر عن المنظر طالما تعلق الأمر بالحقائق ، ولكن المستجوبون كانوا يدقون باستمرار على الوتر فيما يتعلق بأى اتهام يوحى الى ، ولذا كان أمامى خليط غريب من الحقيقة والخيال » .

وبعد أن وصل المستجوبون بهيز الى هذه الدرجة ولم يستطيعوا أن يقتطعوا منه الاعترافات المطلوبة انتقلوا الى طريق آخر ، ففى إحدى الجلسات قال له أحد المحققين :

« لقد وجدنا أنك لست جاسوسا امريكيا بل جاسوسا دوليا » وترك هيز يتخبط فى حيرته واستطرد المحقق فى القول : « ان لديك أفضل جهاز للتجسس مر بنا ايها الصديق » .

وبعد أن ترك هذا النبا يغوص فى اعماقه سألته : « أى بلاد زرت ؟ ولقد ذكر هيز تلك البلاد بعناية وهو يدرك أن الدقة مطلوبة فى هذا النوع من الاستجواب الذى كان يقصد به أن يكون فخا أكثر منه استجوابا .

وقد ذكر هيز كل البلاد ولكن اجابة المحقق على ذلك كانت ضحكة عالية مخيفة مما جعل فرائص هيز ترتعد لعجزه عن فهم مغزى ذلك .

واستدار المبشر العقائلى اليه وقال : « انك لم تذكر الصين فى قائمتك » ثم أمره بالانصراف الى زنزانته مكبلا بالحديد .

هذه صور لبعض الأساليب التى لجأ اليها الصينيون فى الاستجواب واستنطاق الاعترافات ، وبرغم أن هذه الأساليب لم تنجح مع هيز الا أنها نجحت مع الكثيرين غيره ، وهى فى شكلها لا تختلف عن الأساليب المعروفة قديما وحديثا .

ويقول هيز وهو جالس فى زنزانته يحلل معركته الصغيرة فى حرب العقل : « كلما ازدادت تفكيرا فيها ازداد يقينى بأن العقل يتأثر الى حد كبير ببيئتها

وتدريباتها الا ان عامل الروح يعتبر العامل الحاسم الحق في مقاومة هذه المعركة .
فانت لا تستطيع تحطيم الروح اذا كانت سليمة مؤمنة » .

ومن ثم فاننا نجد ان وسائل الاستجواب واستنطاق الاعترافات لا يختلف بعضها عن بعض من ناحية الجوهر في كل المجتمعات المختلفة ، وان كان الشيوعيون قد استخدموها كوسيلة من وسائل التنقيف الايديولوجي .

والحق ان استنطاق الاعترافات يتطلب دائما من المستجوب ان يحاول خلق مشاعر من القلق والاثم عند الفرد ، وكذا وضعه دائما في حالات من الصراع النفسي . وحتى لو كان المتهم مذنباً بحق فان المستجوب يحاول دائما اثارة الاضطراب في وظيفة مخه العادية بحيث تصبح احكامه خاطئة .

وحينما يصل الفرد الى درجة الانهيار نتيجة الاستجواب فان عقله لا بد من ان يحدث له احد امرين : فاما ان يظهر استعدادا في زيادة القابلية للايحاءات التي قد يستغلها المستجوب فورا في عملية اقناع الفرد باعترافه ، واما ان تحدث حالة متناقضة تماما اذا ما اصبح ذهن الانسان في حالة من الارتباك والفوضى ، وفي هذه الحالة ينتقض الانسان تماما كل معتقداته وانماطه السلوكية السابقة بشكل يجعله يحس الرغبة في الادلاء باعترافات تتناقض مع طبيعته واحكامه العادية .

* * *

وفي الحروب قد يحس الأسرى في بعض حالات الاستجوابات تحت وطأة التوتر الناتج مع الظروف القاسية صراعا في الرغبة في الاعتراف ، ثم الانصراف عن ذلك ثانية .

ففي هذه الرحلة يبدو للأسرى اشياء غريبة للغاية ، ومن لحظة لآخرى يتارجح ايمانهم بوجهات نظر وآراء مختلفة تماما ، نتيجة علم استقرار وظيفة المخ ، ولكن من المحتمل غالبا ان ينتهي هذا الصراع بتقبل وجهات النظر الجديدة ، والادلاء باعترافاتهم .

ويقول سارجنت :

« اذا ضمنا أن الضغط الصحيح يتم تطبيقه بالطريقة السليمة ولمدة طويلة كافية ، فإنه لا يتسنى للأسرى العاديين سوى فرصة ضئيلة لتجنب الانهيار العصبي . ومن المحتمل ألا يكون عنيدا غير الشاذ أو المريض عقليا لمدة طويلة ، ودعنى أكرر هنا أن الأشخاص العاديين لابد من أن ينفاروا لانهم مرهفو الحس يتأثرون بما يدور حولهم . ان المريض بعقله هو الذى يستطيع أن يكون عنيدا ضد الايحاء ، كما أن الجندى اذا ظل مدة طويلة يحارب فى الخطوط الامامية دون توقف لفترة فإنه لابد من أن ينفار فى النهاية ، وقد حدث ذلك فعلا لجميع رجال الولايات المتحدة المحاربين باستثناء بعض الشواذ . ومع ذلك فإنه يمكن حتى للشخص المتوتر عصبيا أن يستثار فى زنازة السجن وفى مركز الشرطة بواسطة استجواب ماهر ، وبشكل أشد من الاثارة التى قد تحدثها قناصة العدو ، أو رجال مدافعهم الرشاشة القابعون فى خندق » .

والحقيقة أن الاساليب العقلية التى تستخدمها الدول المختلفة فى الاستجواب واستنطاق الاعترافات تهدف كلها : الى اثارة القلق ، وغرس الشعور بالذنب ، واشاعة الاضطراب فى نفسية المتهم وعقله ، كما تهدف الى خلق حالة له لا يعرف فيها ما سيحدث له بين دقيقة وأخرى . فاذا أضفنا الى ذلك المثيرات الفسيولوجية التى تنتج بسبب الاعياء والظروف القاسية التى يعيش فيها المتهم مما تؤدى الى القضاء على الانماط السلوكية العادية له _ فان تلك الاساليب يشوبها احتمال عدم العدالة بالنسبة للمتهم ، وكما أوضحنا سابقا فان هذه الاساليب قد أوصلت الكثير من الابرياء الى الموت نتيجة أحكام خاطئة ، ولذا فان الاعتراف الحق هو الذى يصدر عن المتهم بكامل ارادته وتحت الظروف العادية .

وان كان الشيوعيون قد استخدموا هذه الاساليب كوسيلة من وسائل تقويم الفكر والاصلاح الايديولوجى فقد سبقهم من فاقوهم فى ذلك . ان الانسان لا يمكن أن تفرض عليه أى معتقدات ولا يمكن تقويض قيمه حتى فى أحلك الظروف ، اذ أنه بمجرد أن تزول هذه الظروف الخارجية لا يلبث أن يرتد عن هذه المعتقدات التى أجبر عليها ، ويعود الى عقيدته الاصلية النابعة من : وحيه : وضميره ، وعقله الكامل .

الفصل الثاني

سيكولوجية وسائل كشف الكذب

اشرنا في الفصل السابق الى بعض الاساليب التي كان يستخدمها الاقدمون لاكتشاف الكذب ، وكذا تحدثنا باختصار عن جهاز كشف الكذب الذي يستخدم في هذه الايام لاستجواب المذنبين والمجرمين .

وفي هذا الفصل سوف نحاول أن ندرس هذه الوسائل بشيء من التفصيل محاولين أن نتعرف العوامل الفسيولوجية والسيكولوجية التي بنيت عليها نظريات وسائل كشف الكذب ، وكذا لتوضيح الاستجابات وردود الفعل التي تحدث نتيجة استخدام هذه الوسائل في عمليات الاستجواب ، والحصول على الاعتراف .

وكما قلنا سابقا فإن طرق الكشف عن الكذب التي استخدمت في الماضي البعيد قد بنيت على اساس فسيولوجي وسيكولوجي ، واغلب هذه الطرق يقرها اليوم علماء علم النفس .

ونعود لنضرب مثالا لاحدى هذه الطرق التي استخدمت في الماضي بشيء من التفصيل . وتتلخص هذه الطريقة في قصة حدثت منذ آلاف السنين حينما قتل رئيس احدى القبائل ، ووجهت التهمة الى خمسة اشخاص كان رئيس القبيلة قد سبق ان اساء اليهم . وظهرت المشكلة في التعرف على المذنب ولكن الطبيب

الساحر - طبيب القبيلة - حل هذه المشكلة ، اذ جمع القبيلة فى شكل نصف دائرة بجانب شاطئ النهر ووقف المتهمون الخمسة يواجهون القبيلة وظهرهم للنهر .

وبدا الساحر وهو يرتدى ملابس مخيفة ووجهه مقنع يرقص من مكان لآخر امام القبيلة على صوت دقات الطبول المنتظمة ، وبدأ التوتر يزداد لاقتراب لحظة اكتشاف الحقيقة .

واخيرا توقف الرقص وبدأ الساحر يملأ خمسة أطباق مصنوعة من سف النخيل بالارز من اناء كان يحمله . وبدأ يتحدث مع أفراد القبيلة عن خطوة الجرم فى قتل شيخها ، وعن السحر الذى سوف يساعده على اكتشاف القاتل . وقال لهم : أن الابرياء سوف يأكلون الارز بسهولة ، أما المذنب فانه لن يستطيع ابتلاع حبة واحدة . ولكى يكون حديثه هذا أثر كبير قال : « ان طريقته هذه لاكتشاف المجرم قد حققت نجاحا فى مرات عديدة سابقة » .

ثم قدم للمتهمين الخمسة الاطباق المملوءة بالارز فاقبل أربعة منهم عليها بنهم ، ولم يبد عليهم أى أثر من آثار القلق ، بينما وقف الخامس وقد شحبت لونه واهتزت ركبته محاولا ابتلاع بعض الارز ولكنه لم يوفق . وكان هذا اوضح دليل على جرمه .

وأمر الساحر أفراد القبيلة باعتقال الرجل المذنب الذى اعترف بجريمته قبل أن يلقى به الى أفواه التماسيح .

ان العمليات النفسية واضحة هنا بصورة معقولة ، فكلنا يعرف عن « جفاف الريق » عند الخوف اذ أن الانفعال الشديد يمنع افراز اللعاب وهو على صلة قوية بالهضم ، وبدون اللعاب يكون ابتلاع الطعام صعبا بل مستحيلا .

وفى ضوء هذا نستطيع أن نفسر ما حدث للمتهم الذى ثبت جرمه ، فقد كان المتهم يعرف ذنبه ، ويشعر بخوف من قوة الساحر ، ومن قدرته على

استخراج الحقيقة منه ، ولذلك فقد آمن بكل ما قاله الساحر عن الصعوبات التي سوف يلقاها عند محاولته ابتلاع الارز .

ولذلك فإن خوفه من اكتشاف جريمته - وهو اكتشاف حتمي - عمل على تخفيف لعبه ، كما أن احساسه بوقوع هذا التغيير زاد خوفه واعتقاده أن جريمته قد اكتشفت . وحينما قدم له الارز لم يكن في حالة تسمح له بالاكل .

وقد تبلو هذه القصة بدائية ، ولكن كل الوسائل التي تستخدم حديثا تعتمد الى حد كبير على ما جاء في هذه القصة . وبالرغم من أن هناك تحسينات فنية معينة في تسجيل آثار الانفعالات الا أنه من ناحية أخرى فإن الوسائل الحديثة تولد قدرا أقل من الانفعال الذي استطاع الساحر أن يولده في نفس المتهم . ولو قارنا بين الاثنين فانا لا نستطيع أن نجزم بأن الوسائل الحديثة أفضل من الوسائل القديمة .

ومن جهة أخرى فإن خبراء الكشف عن الكذب الحديثين لا يستخدمون « در » اللعاب كدليل على الانفعال ، بل أصبح يعتمد اليوم بدرجة أكبر على : الدورة الدموية ، وعملية التنفس ، والآثار الكهربائية على الجلد .

وهناك قصة أخرى أقل فظاعة من قصة الساحر وهي توضح لنا أن هذه الوسائل معروفة منذ ألف عام .

هذه القصة رواها « ابن سينا » شيخ الاطباء في أحسن كتبه « القانون » ، والفصل الذي تحدث فيه عن الحب - وهو فصل عن الامراض المخية والعقلية - تضمن أيضا الحديث عن : الارق ، والسبات ، وفقدان الذاكرة ، والجنون ، والكآبة . الخ .

ففي إحدى جولات ابن سينا وصل متنكرا الى مدينة هيركانيا عن طريق بحر ايجه ، وكان أحد أقارب حاكم هذه المدينة مريضا بمرض حير كل الاطباء المحليين . واستشير ابن سينا في هذا المرض وبعد أن فحص المريض بعناية طلب أن يؤتى بشخص يعرف كل شيء عن مناطق هذه الولاية ومدنها .

وبدا هذا الشخص يردد أسماء المناطق والمدن بينما كان ابن سينا يضع أصبعه على نبض المريض ، وحينما جاء ذكر مدينة معينة أحس ابن سينا سرعة في نبض المريض . وحينئذ طلب احضار شخص يعرف كل الشوارع والاحياء في هذه المدينة .

ومرة أخرى حينما جاء ذكر شارع معين في هذه المدينة أحس ابن سينا ازدياد نبض المريض . ومرة أخرى حينما احضر شخص يعرف كل شيء عن سكان هذا الشارع بدأ هذا الشخص يردد أسماء الاشخاص القاطنين في هذا الشارع ، وحينما جاء ذكر عائلة معينة ارتفع نبض المريض . وحينئذ توقف ابن سينا عن التجربة معلنا أنه قد توصل الى سبب المرض ، وهو أن المريض يحب فتاة من عائلة فلان تسكن في الشارع الفلاني في الحي الفلاني في المدينة الفلانية ، وأن رؤيته لوجه هذه الفتاة سوف يشفيه من المرض . وتم الزواج بين المريض والفتاة وشفى من مرضه نهائيا .

هذا مثال آخر للاستجابة العاطفية غير الارادية التي عملت على افشاء سر أراد صاحبه لسبب ما أن يخفيه لنفسه ، وهذه الاستجابة غير الارادية هي إحدى العوامل المصاحبة المعروفة للانفعال الشديد . وهذه العلاقة أو الصلة الوثيقة من الانفعالات التي تحسها الكائنات البشرية ، ومن التغيرات الفسيولوجية التي تظهر على أجسامهم - هي أساس الوسائل التي تتبع اليوم للكشف عن الكذب.

* * *

ولقد أجرى عدد من علماء الفسيولوجيا وعلم النفس تجارب عن هذا الموضوع ، وقد يكون مناسباً أن نشير هنا الى الجهود التي قام بها « وليام جيمس » مع « لانج » العالم الفسيولوجي ، وخرجا بنظريتهما المعروفة بنظرية « جيمس - لانج » ، وهذه النظرية هي التي قلبت ما يمكن أن نعتبره التابع الطبيعى للاحداث .

فماذا يحدث حينما نحس عاطفة ؟

اننا نحزن فنبكى ، ونخاف فتزداد سرعة دقات قلوبنا ، ونغضب فتفرز الغدد فوق الكليتين مادة الادرينالين فى اوعية الدم . ومعنى هذا أن الانفعال كما نحسه عن ادراك ووعى يأتى أولا ثم تأتى العوامل الفسيولوجية المصاحبة بعد ذلك .

ولكن « جيمس ولانج » يعتقدان أن ذلك قلب للاوضاع السليمة ، فيقولان : أن هناك فرقا بين الانفعال وبين الغريزة ويشير جيمس لذلك بقوله : « ان ردود الفعل الغريزية والتعبيرات العاطفية الانفعالية انما تتداخل فى ظلال بعضها البعض دون أن تكون محسوسة وكل غرض يثير الغريزة أو يحركها انما يحرك العاطفة بالمثل » . كما قال فى تاريخ لاحق : « يقول المنطق السليم اننا عندما نفقد مستقبلنا فاننا نحزن ونبكى ، وحينما نقابل دبا كاسرا فاننا نشعر بالخوف ونهرب ، وحينما يسبنا خصم نغضب ونسارع الى الاعتداء عليه ، ولكن نظريتى عن هذا كله تناقض كل ما يقال ، فان التغيرات البدنية انما تتبع مباشرة ادراك الحقيقة المثيرة ، فنحن نشعر بالخوف والاسى لاننا نبكى ، ونشعر بالغضب لاننا نضرب من يسبنا ، ونشعر بالخوف أو الغضب لاننا نرتعد تبعا لما تكون عليه حالنا » .

ولقد نوقشت هذه النظرية كثيرا وأجريت عليها تجارب عديدة ، ولكن المناقشات والتجارب لم تلق الا ضوا خفيفا على هذه المشكلة ، أى مشكلة العلاقة بين الجسم والعقل بصفة عامة .

وبرغم أنه وجد من الناحية التجريبية أن من الصعب تحديد : هل يسبب الانفعال الاستجابة الفسيولوجية أو أن الاستجابة الفسيولوجية هى التى تحدد الانفعال ، الا أن من المؤكد أن حدوث أحدهما دليل على حدوث الآخر ، وهذه القاعدة هى الاساس الذى تقوم عليه عملية كشف الكلب ، وليس هناك من شك فى أنها قاعدة علمية سليمة .

والآن فلنحاول أن نبث طبيعة ردود الفعل الفسيولوجية التى تشير الى وجود انفعال . فلو تحدثنا بطريقة عامة فاننا نستطيع أن نقول : ان الكائنات

البشرية لها جهازان عصبيان ، الاول ويطلق عليه الجهاز العصبي المركزي وهو المسئول عن نقل الدوافع IMPULSES الى الجهاز العضلي العظمى المسئول عن تنفيذ الحركات التلقائية . فضرب الكرة بالقدم مثلا أو القفز في البحر وغيرهما كلها أعمال تلقائية قام بها هيكلنا العظمى الذى تتحرك العظام فيه بواسطة عضلات تتلقى الاوامر من الطبقة الخارجية للمخ عن طريق الجهاز العصبي المركزي .

وبالرغم من ذلك فان هناك جهازا آخر أكثر استقبالا عن الجهاز العصبي المركزي يطلق عليه اسم الجهاز العصبي الذاتي ، وهو يتعامل أساسا مع نشاطات أو أعمال لا شعورية تعمل على ابقاء أجسامنا فى حالة طيبة . وهكذا فاننا نتنفس وتدفق قلوبنا وتتم عملية الهضم ، وتنصب الهرمونات فى أوعيتنا الدموية ، وتنظم كمية الدم التى تمر بأجزاء الجسم المختلفة بدقة استجابة لدرجة الحرارة ، ويتسع انسان العين أو يضيق استجابة للاختلافات فى درجة الضوء ، وكل هذا يحدث دون أى نوع من « التلاؤم » .

ان هذه الاستجابات الذاتية هى التى تتصل اتصالا وثيقا بالانفعال . وبعض التغيرات الذاتية الاساسية المصاحبة للانفعال مألوفة لدى كل شخص ، ولا تتطلب وسائل للكشف عنها . وهذه التغيرات تتضمن : احمرار الوجه ، او شحوبه ، وتدفق العرق بغزارة ، وازدياد نبض القلب ، وجفاف الفم ، واحساسات مبهمه اخرى .

كما أصبح من السهل اكتشاف تغيرات فسيولوجية دقيقة أخرى فى العمل : كارتفاع ضغط الدم ، أو زيادة استهلاك الاكسجين ، أو التمدد فى شعب الرئتين ، أو الزيادة فى عدد الخلايا الحمراء فى الدم ، أو اختفاء الادرينالين أو زيادة فى سكر الدم وغير ذلك من الاشياء .

ويبدو أن معظم هذه التغيرات هدفها الملاءمة ، فالانفعالات الرئيسية مثل الخوف والغضب هى عادة دليل سابق أو مقدمة لنشاط عنيف ، وهذا النشاط

يتمثل : اما في قتال ، واما في هرب ، ذلك لأن كلا من القتال والهرب يتطلب كمية كبيرة من الدم ، ونتيجة لذلك فان دقائق القلب تسرع لسد الاحتياجات المنتظرة ، فتتحرر بعض الطاقة التي اختزنها الجسم في الدم ، وهذا يجعل الجهاز العضوى اكثر قدرة على تحمل المجهود .

ومن جهة أخرى فان الانفعال الشديد غالبا ما يعوق التوافق العقلى والعضلى اللازم لاداء عمل ماهر . ويستطيع معظم الناس أن يستقوا الدليل على ذلك من تجاربهم الشخصية . فالانفعال الشديد يضعف القدرة على الحوار الماهر ، ونحن لا نستطيع أن نفكر تفكيرا سليما منطقيا حينما نحس الضيق ، وإذا اشتركنا في مباراة لكرة القدم ، فان الانفعال الشديد قد يجعلنا أكثر دفعا في اللعب ، وأقل احساسا بالاصابات ، وأقل خضوعا للارهاق البدنى ، الا انه من جهة أخرى سوف يجعلنا أقل مهارة وأقل لجوءا للعقل أثناء المباراة ، فقد نضرب الكرة بقوة ، ولكن على حساب المهارة والدقة في تسديد الهدف .

على أن من الوظائف الاجتماعية المفيدة للانفعال هي أنه يساعد على كشف الكذب ، واستخدام تعبير « الكشف عن الكذب » في هذا المجال هو استخدام مضلل ، وانما ما نكتشفه حقيقة هو وجود نوع من الاستجابة الانفعالية ، فخوف المذنب من أن يكتشف مرتبطا باصراره على الكذب يهيئ استجابة انفعالية لا تحدث في حالة قول الصدق . ونتيجة لذلك تحولت عملية « اكتشاف الانفعال » الى عملية « اكتشاف الكذب » في ظروف معينة أعدت اعدادا خاصا .

ولكن الانتقال الفجائى من اكتشاف الانفعال الى « اكتشاف الكذب » هو انتقال فجائى ، ولذلك يجب أن نحذر ونتأكد أن هذا الانفعال الفجائى له ما يبرره كما يجب أن نبتعد عن الاستنتاجات الخاطئة .

ولنضرب مثالا لتوضيح بعض المتاعب التى تنتج من ذلك . ولنفرض انه في حالة محاولة الساحر لاكتشاف المجرم كان الأشخاص الخمسة أبرياء ولكن أحدهم كان يعرف أن الساحر كان يكن له حقدا قديما ، وأنه سوف يدينه في

جريمة القتل . ففي ظل هذه الظروف نتوقع من هذا الشخص أن تظهر عليه علامات الخوف كما لو كان مذنباً حقيقياً ، ونتيجة لذلك الخوف فإنه قد لا يقدر على ابتلاع الارز ، وقد يفسر سلوكه هذا تفسيراً خاطئاً على أنه القاتل وعلى أن عدم قدرته على ابتلاع الارز كانت نتيجة خوفه ، وخوفه نتيجة جرمه . ولكن هناك طرقاً مختلفة تفيد في تجنب مواطن الخطأ والزلل من هذا النوع والتي سوف نناقشها فيما بعد .

* * *

ولنعد الآن الى الجهاز الذى يستخدم فى الوقت الحاضر لاكتشاف الكذب . ان الفكرة السائدة عن جهاز اكتشاف الكذب هو أنه جهاز يلدق جرساً أو يضيء ضوءاً لامعاً كلما فاه الانسان الموضوع تحت التجربة بأية أكذوبة ، ولكن لسوء الحظ ليس هناك جهاز بهذه الصورة الدقيقة ، فاكتشاف الكذب يعتمد على الاستنباط والبرهان العارض وعلى نسج مجموعة من الحقائق المفككة .

ويحصل الجهاز على معظم المعلومات التى يعتمد عليها من تسجيل مستمر للتغيرات فى ضغط الدم والنبض والعرق . وتتم هذه التسجيلات على آلة تسمى « بوليغراف » .

وهي تقدم تسجيلاً لهذه الاستجابات الفسيولوجية . وتتكون هذه الآلة من ملف طويل من الورق مشدود على سطح يتحرك بسرعة موحدة ، وعليها يقوم عدد من أفلام التسجيل يتحكم فى حركاتها آلات مختلفة متصلة بالشخص الذى يجرى عليه التجربة ، وهذه الآلات متصلة بأقلام التسجيل اما بالطريقة الالكترونية ، واما بالآلية .

وعند اجراء حالة بحث حقيقية ، سوف تكون أول مهمة أمامنا هي اختيار غرفة خاصة هادئة للفحص ، ثم توصيل الاجزاء المختلفة للجهاز بالشخص الذى تجرى عليه التجربة ويعطى فكرة عن الطبيعة العامة للاختبار .

اما الخطوة التالية فهي أن نجعل الشخص يلقي نظرة على الجهاز ، ويقال له : ان هذا الجهاز قادر على أن يحدد ما اذا كان شخص معين يقول الكذب

أو الصديق . ثم يشرح له أن آلة التسجيل تسجل تغيرات بدنية معينة تستطيع أن تكشف الكلب . على أنه من جهة أخرى يجب تهدئة باله بأن يقال له : أنه لن يحس آلاما جسمانية فيما عدا المضايقة اليسيرة المؤقتة الناجمة عن جهاز قياس الضغط ، وبأن الجهاز سوف يبين بأنه يقول الصديق إذا كان صادقا حقا ، ولذلك فليس هناك ما يدعو إلى القلق . وبالإضافة لذلك يجب أن يطمئن الشخص من أنه لن توجه إليه أسئلة عن مسائل شخصية أو شيء آخر بخلاف الجرم المتهم به . وبعد ذلك يكون كل شيء معناه لإجراء الاختبار . وفي الجزء الأول من الاختبار تجرى محاولات للإشارة إلى نجاح الجهاز في الاختبارات السابقة، ويحاول القائم بالتجربة أن يثبت ذلك بقيامه بتوضيح العملية وشرحها . وفيما يلي الطريقة التي تتبع عادة في هذا المجال :

يبدأ القائم بالتجربة بالتقاط سبع ورقات من أوراق اللعب أو ثمان ، ويطلب من الشخص الذي تجرى عليه التجربة أن يختار ورقة وينظر إليها ويعيدها إلى الكوتشينة . ثم يقول للشخص الذي تجرى عليه التجربة : أنه سوف يريه أوراق الكوتشينة الثمانية الواحدة بعد الأخرى ، وأنه يريد منه أن يقول « لا » كلما سأل « هل هذه الورقة التي اخترتها ؟ » ويطلب منه بوجه خاص أن يقول « لا » أيضا عندما يعرض عليه الورقة التي اختارها فعلا ومعنى هذا أنه يطلب منه أن يكذب .

ثم يبدأ في إجراء التجربة ويريه أوراق الكوتشينة ويطلب منه الإجابة على سؤاله كل مرة ، وفي أثناء ذلك يراقب بعناية حركات أقلام التسجيل على « البوليجراف » . وفي ٩٥ حالة من بين كل مائة حالة يظهر رد فعل مبالغ فيه من الجهاز العصبي الذاتي للشخص الذي تحت التجربة . ويظهر رد الفعل هذا واضحا في التسجيل في كل مرة يقول فيها « لا » حينما تعرض عليه الورقة التي كان قد رآها واختارها .

وللتأكد يعيد القائم بالتجربة الاختبار مرة أخرى ويخبر الشخص الذي تجرى عليه التجربة بالورقة التي كان قد اختارها ، ويبين له التغيرات التي

وقعت في البوليجراف عندما رد على سؤاله بالكذب . وبهذه الطريقة يثبت القائم بالتجربة للشخص الذي تجرى عليه التجربة أن جهاز اكتشاف الكذب من الممكن أن يكون آلة خطيرة على أى شخص يحاول الكذب .

وبعد ذلك يكون الشخص الذي تجرى عليه التجربة في حالة انطباع ملائمة، فيبدأ القائم بالتجربة بتوجيه أسئلة له لها صلة بالجريمة التي يستجوبه عنها .

• • •

وفي أثناء الاستجواب قد تستخدم وسيلة أو وسيلتان مختلفتان . الوسيلة الأولى هي التي يطلق عليها « تكنيك » الأسئلة ذات الصلة وعديمة الصلة
Relevant - irrelevant question technique

وفي هذه الطريقة - توجه أسئلة « ليست لها صلة » بالموقف مثل « هل اسمك كذا ؟ » أو « هل ولدت في مدينة كذا ؟ » ، بالتبادل مع أسئلة لها صلة بالجريمة مثل « هل سرقت الحاتم الماسي ؟ » أو « هل أطلقت الرصاص على فلان ؟ » وهذه الطريقة تشبه إلى حد ما الطريقة التي استخدمت في أوراق الكوتشينية - حيث لعبت ورقة الكوتشينية التي اختارها الشخص الذي أجريت عليه التجربة - دور « السؤال الذي له صلة ؟ » كما لعبت أوراق الكوتشينية الأخرى دور الأسئلة الأخرى التي لا صلة لها بالموضوع .

أما ما يدل على الكذب فهو الفرق في رد الفعل الفسيولوجي حينما تنتقل من « الأسئلة التي ليست لها صلة » إلى « الأسئلة التي لها صلة » .

ما هي اذن التغيرات الدالة على الخداع ؟ ان العلاقة التي نستطيع الاعتماد عليها أكثر من غيرها هي ظاهرة الكبت اللاشعوري للتنفس ، وارتفاع ضغط الدم فوراً بعد أن يرد الشخص الذي تجرى عليه التجربة على السؤال ، وحتى لو ظهر رد فعل واحد من الاثنين السابقين فإن ذلك يكون دليلاً كافياً للقائم بالتجربة .

وأحيانا يظهر الخداع أو الكذب بانخفاض في ضغط الدم ، ويظهر ذلك بعد ثواني قليلة من الرد الكاذب على سؤال المختبر . وأحيانا يكون « التنفس بصعوبة »

اللى يظهر بعد خمس عشرة دقيقة ، أو عشرين من الرد على سؤال له صلة بالموقف - دليلا على الكذب . ولكن من جهة أخرى فإن التنفس بصعوبة ظاهرة فسيولوجية مصاحبة للشعور بالامان بعد النجاة من موقف خطير ، وقد تظهر هذه الحالة أيضا فى نهاية فترة الاستجواب عندما يقال للشخص الذى تجرى عليه التجربة : أنه لن توجه اليه أسئلة أخرى . ودليل آخر على الخداع هو البطء فى نبضات قلب الشخص الذى تجرى عليه التجربة بعد رده على سؤال مباشر .

* * *

ولابد من اتباع قوانين معينة فى تفسير تلك الاستجابات أو ردود الافعال - ومع ذلك فالقانون الاساسى هو أنه لكى تعتبر الاستجابة دليلا على الكذب ، « فان الاستجابة الفسيولوجية لسؤال له صلة بالموقف يجب ان تكون مختلفة عن الاستجابة الفسيولوجية لسؤال لا صلة له بالموقف » .

وبالرغم من براءة عدد من الناس من الجريمة التى يجرى عليها الاستجواب فانهم يعانون من توبيخ الضمير عموما ، وهذا قد يجعلهم فى حالة عصبية شديدة ، ويجعلهم مستجيبين انفعاليا بشكل مبالغ فيه . ومثل هؤلاء الناس يظهرون استجابة فسيولوجية كبيرة حتى بعد توجيه أسئلة اليهم لا صلة لها بالموقف ، ولذلك فاننا قد نعتبرهم كاذبين اذا لم نأخذ فى الاعتبار هذه الحقيقة .

وهناك ضمانات أخرى يجب أن نراعيها وهى أنه يجب ألا تؤخذ الاستجابة الواحدة كدليل على الكذب ، فالسؤال نفسه أو السؤال المشابه يجب أن يوجه عدة مرات ، فاذا ظل الشخص الذى تجرى عليه التجربة يردد نفس الإجابة أو يستجيب بنفس الطريقة التى تدل على اقترافه الجرم ، فاننا عندئذ نستطيع اعتبار هذه الاستجابة المستمرة دليلا على كذبه . وهذه ضمانات هامة واحتياط ضرورى .

فالعوامل « العارضة » مثل إصابة الشخص بتقلص فجائى ، أو بالعطس ، أو بسماع صوت عال مفاجئ كلها قد تؤدى الى آثار لا تفرق كثيرا عن المظاهر الانفعالية المصاحبة للكذب ، وهذه العوامل التى لها صلة بالموقف لا يمكن استبعادها الا بتكرار العملية كلها عدة مرات .

وفي ظروف معينة نستطيع اللجوء الى صورة أخرى مختلفة من الاستجواب او توجيه الاسئلة . ولقد أطلق عليها اسم طريقة « ذروة التوتر » Peak of tension او طريقة « المعرفة الآثمة » Guilty knowledge وتعتمد هذه الطريقة على حقيقة أن الشخص المذنب قد تكون لديه معرفة لا يملكها أى شخص برى ، فعند توجيه أى سؤال له صلة بهذه « المعرفة » او يشير الى هذه المعرفة فان هذا السؤال سوف يؤدى الى ردود أفعال انفعالية من جانب الشخص المذنب وهي ردود أفعال لا تظهر فى سلوك الشخص البرى .

ويعطى الدكتور « ايسنك » Eysenck أستاذ علم النفس فى جامعة لندن مثالا لذلك يوضح هذه الظاهرة (١) :

فى احد المستشفيات كانت تجمع مفارش الاسرة مرة كل اسبوع وتوضع فى سلات الغسيل فى كل طابق من طوابق المستشفى . واكتشفت ادارة المستشفى ذات يوم أن المفارش فى احدى السلات كانت ممزقة ، وتكرر تمزيق اللات لمدة عدة اسابيع ، ولما كان عسيرا على المرضى أن يصلوا الى مكانها تركزت التهمة على الممرضات اللاتى يعملن فى هذا الطابق بالذات . وروعى الا يتسرب نبأ هذا للممرضات ، ولذلك لم يكن يعلم بهذا الحادث سوى الممرضة التى ارتكبت هذا الجرم . وكان هذا الموقف تمهيدا لاجراء التجربة ، وابلغ رؤساء القسم الممرضات أنهن سوف يشتركن فى تجربة سيكولوجية حيث تقرا عليهن كلمات . وأن عليهن أن يذكرن أول شئ يخطر ببالهن عند سماع كل كلمة . ومن بين المائة كلمة التى استخدمت فى التجربة كانت هناك كلمات قليلة لها صلة بالجريمة . مثل « مفارش سرير » ، « تمزيق » ، « سلة الغسيل » . وبعد اجراء التجربة وتسجيل الكلمات التى نطقت بها الممرضات ، وقورنت الكلمات « المذنبية » بالكلمات « البريئة » لكل من الممرضات ، أظهرت ممرضة واحدة فقط زيادة ملحوظة جدا فى النشاط الذاتى أو الاستجابة الذاتية

Sense and Nonsense in Psychology: H. J. Eysenck, Richard Clay and Company, (١)
Ltd. Bungay, Suffolk, 1958.

للكلمات « المذبذبة » ، وفي حالتها ظهر رد الفعل هذا لكل كلمة من الكلمات المذبذبة . وعندما واجهوا الممرضة بالتسجيل اعترفت بالجزم ، وكشفت عن دوافعها التي دفعتها لارتكاب تلك الجريمة . وكان الدافع الاساسى لها هو رغبتها فى الانتقام من رئيسها التي كانت تعاملها معاملة سيئة .

* * *

وقد يبدو لنا ان نتساءل الآن :

الى أى حد يعتبر جهاز الكشف عن الكذب صالحا ؟ وإلى أى حد نستطيع الاعتماد عليه ؟

يجيب ايسنك عن ذلك بقوله :

« هذه اسئلة صعبة ، وقبل الرد عليها يجب أن نضع فى اعتبارنا عوامل معينة . ان احدى الصعوبات الرئيسية فى اختبارات من هذا النوع هى الحالة العصبية التي تظهر على شخص برئ أو شخص صادق فى جو الاستجواب البوليسى . وتظهر هذه الحالة العصبية على التسجيل ، فيبينها الشكل الشاذ للخطوط التي ترسمها اقلام الجهاز ، وكذا عدم النجاح فى الربط بين الاستجابات وبين الاسئلة التي لها صلة بالموقف . ولذلك » فان الاضطرابات الفسيولوجية المرتبطة بالحالة العصبية تظهر على مسجل اكتشاف الكذب بدون أى صلة دائمة بأى سؤال أو أسئلة معينة . وقد يحدث أحيانا اضطرابات مماثلة أثناء فترات الراحة عندما لا توجه أسئلة على الاطلاق . والطريقة المثلى لمنع وجود هذه الحالة العصبية فى الشخص الذى تجرى عليه التجربة هى عن طريق التاكيد والتكرار . وتكرار التجربة كلها خمس مرات أو حتى عشر مرات هو بمثابة مهدئ ، لأن الشخص الذى يخشى فى الاصل كل هذه الاشياء يصبح معتادا بعد التكرار هذا الاجراء ، ويدرك أنه ليس فى التجربة ما يبعث على خوفه ، كما أن التكرار من حين لآخر يمكن المختبر من البحث عن عنصر الاستمرار فى الاستجابات المبالغ فيها لنفس السؤال أو لاسئلة تعتبر لها صلة بالموقف . على أنه من جهة أخرى نجد أن تشخيص الحالة العصبية أمر أسهل نسبيا ، فالامر لا يتطلب عادة فحص مسجل جهاز اكتشاف الكذب لمعرفة ما اذا كان الشخص عصيبا جدا أم لا . والحالة العصبية لا تشكل صعوبة كبيرة فهناك عوامل أخرى يصعب التعامل معها ،

« فالتخلف العقلي » مثلا Mental deficiency يجعل الشخص المجرب عليه لا فائدة منه تقريبا عند اجراء اختبار الكشف عن الكذب ، فالابله أو القبي بدرجة كبيرة لا يستطيع التمييز بين الصديق والكذب ، ولا يستطيع فهم الواجبات الاجتماعية المرتبطة بقول الصدق • كما أن الفرد الذي لا يخشى مغبة اكتشاف كذبه سوف لا يعطى نتائج مفيدة يمكن تفسيرها بأية صورة • وينطبق هذا أيضا على الاطفال الذين لا يصلحون لان يكونوا موضعا لاجراء اختبارات الكشف عن الكذب •

وتظهر صعوبات ومتاعب أكبر من ذلك من أشخاص معينين لا يستجيبون نسبيا لظروف الاختبار ، فالشخص الذي لا يؤمن بفاعلية الاختبار • والذي لا يحس قلقا كبيرا من أن يكشف عن نفسه لا يظهر انفعالا كبيرا عندما يقول الكذب • ولذلك فإن تسجيلات ردود أفعاله على مسجل جهاز « البوليجراف » ، هي تسجيلات يصعب تفسيرها • وبعض الأشخاص يظهر انفعالا كاملا للانفعال ، ومثل هؤلاء الناس قد نحكم ببرائتهم مع أنهم قد يكونون مذنبين • وهناك بعض الأشخاص الذين يستطيعون التحكم في ارتباطاتهم العقلية بدرجة تجعلهم يتحاشون ردود الأفعال التي تكشف عنهم • ولكن لحسن الحظ وجد أن الناس من هذا النوع الذين يملكون القدرة على « هزم » جهاز الكشف عن الكذب ، هم أناس قليلون جدا ، وهم أولئك الذين يطلق عليهم اصطلاح « المجرمين المحترفين » •

وهناك أشخاص آخرون لهم المام بالأسس السيكولوجية التي يقوم عليها جهاز الكشف عن الكذب ، وهؤلاء يستطيعون اللجوء الى حيل مختلفة تقلل من قيمة أجهزة الكشف عن الكذب ، فكما سبق أن أشرنا فإن الكشف عن الكذب يعتمد اعتمادا كبيرا على اجراء مقارنة بين المواقف أو الاسئلة التي لها صلة بالموضوع ، وبين المواقف أو الاسئلة التي لا صلة لها به • فإذا كان الشخص موضوع التجربة قادرا على اظهار ردود أفعال أو استجابات فسيولوجية للاسئلة والمواقف التي لا صلة لها بالموضوع فإن المقارنة لن تكون مجدية ، ولن يستطيع المسجل أن يكشف عن معلومات هامة •

* * *

ولنتقل الآن لنحاول أن نقيم الفائدة العملية لاختبارات الكشف عن الكذب . وقد يكون من المفيد هنا أن نشير الى آراء « اينبو » Inbau (١) الذي يستند تقديره على خبرة ١٢ عاما في « العمل العلمى للكشف عن الجرائم » فى شيكاغو حيث يقول :

« ان لاختبارات الكشف عن الحقيقة فائدتها العملية اذا ما كان المشرفون عليها أشخاصا أكفاء لهم خبراتهم وتجاربهم . فبالاستعانة بجهاز الكشف عن الكذب يمكن كشف الخداع بدرجة من الدقة أكثر من أى شيء آخر ، كما أن الجهاز والاختبارات والاجراءات المصاحبة له ، كلها لها أثرها الفسيولوجى المحدد فى حث الافراد المذنبين على الاعتراف » .

وتقدير اينبو لدقة وسائل الكشف عن الحقيقة هو أكثر التقديرات اقناعا ، ويقول اينبو :

« ان الباحث يستطيع أن يقوم بتشخيص دقيق محدد للكذب أو الخداع فى ٧٠ حالة من كل ١٠٠ حالة ، وفى ٢٠ حالة تكون التسجيلات غير محددة جدا فى دلالاتها لدرجة لا تسمح للباحث الكفء أن يقوم بتشخيص محدد . والشك فى هذه الحالات قد ينسب : أما الى عامل عدم الثبات والاستقرار وطبيعة الاستجابات السريعة فى التسجيل ، وأما الى عدم الاستجابة العامة للشخص الذى يجرى عليه الاختبار . أما فى الحالات العشر الباقية فإن أكثر الباحثين مرانا وتجربة معرض للقيام بتشخيصات خاطئة ، ومصدر الخطأ الرئيسى فى مثل هذه الحالات يكمن فى عدم توفيق المختبر فى الكشف عن الخداع فى شخص مذنب ، أكثر من تفسيره الخطأ ليسجل ردود أفعال الشخص البرى » .

ويقول ايسنك : « ان تقدير اينبو معقول ، ويجب أن نقول : أن بعض الخبراء أعلنوا ان نسبة دقة الاختبارات بالطرق التى اتبعوها تتراوح بين ٩٧٪ ، ٩٨٪ أو ٩٩٪ وفى حالة من الحالات وصلت الى ١٠٠٪ وهذه التقديرات مبالغ فيها ، وقد

(١) Inbau, F. E. and Reid, J. E., Lie Detection and Criminal Interrogation Third Edition, Baltimore, The Williams and Wilkins Co., 1953.

عول الناس عليها الكثير ، ولكن آمالهم خابت حينما أجريت التجارب لتحقيق تلك النتائج . وكان الاحساس بغيبة الامل سببا في اضعاف ثقة الناس في طرق الكشف عن الكذب وهذا ما يحسه بعض أعضاء قوة البوليس . ومع ذلك ، فاننا لا نستطيع أن نحول أجهزة الكشف عن الكذب الى أداة عديمة الجدوى .

* * *

ان اول فائدة لطريقة الكشف عن الكذب هي أنها تساعد في الحصول على اعتراف في الحالات التي لم توفق فيها الطرق الاخرى ، وكذا في الحالات التي تتطلب قدرا كبيرا من العمل . فمواجهة المجرم بدليل موضوعي عن كذبه مكتوبا على المسجل في جهاز « البوليجراف » تجربة مقلقة لمعظم المجرمين ، وقد دلت التجربة على أن عددا من المجرمين أدلوا باعترافاتهم في حالات كثيرة . وهناك حالات أخرى عديدة اعترف فيها المجرمون لمجرد استماعهم بأن اختبار الكشف عن الكذب سوف يجري عليهم . وفي حالات أخرى اعترف المجرمون بجرمهم أثناء فترة انتظار اجراء تجربة كشف الكذب عليهم ، واعترف آخرون في اللحظة التي أتم فيها خبراء جهاز الكشف عن الكذب اعداد الجهاز .

والاعترافات التي يحصل عليها لابد من أن تراجع أو تقارن بدليل موضوعي ، والاعتراف وحده سواء حصلنا عليه باستخدام جهاز الكشف عن الكذب أو بدونه ، وهو اعتراف لن نعتبره المحاكم كافيا في حد ذاته ، ومع ذلك فالاعتراف يتضمن عادة تفاصيل تجعل من الممكن الحصول على تصديق موضوعي لادعاءات الشخص المذنب . ولقد ثبت من التجارب أنه لم يحدث في حالة حتى الآن أن أدلى شخص باعترافات زائفة بسبب الاثر الفسيولوجي للجهاز أو التكنيكات التي استخدمت في تشغيله . وفي هذا الصدد هناك فرق كبير بين طرق الكشف عن الكذب ، وبين استخدام طريقة « الدرجة الثالثة » Third degree وهي الطريقة التي أرغمت المتهمين على الاعتراف بجرائم لم يرتكبونها لا بسبب الا لانهم أرادوا الهرب من موقف لا يطاق ولا يحتمل .

وقدرة أجهزة الكشف عن الكذب على حث الاشخاص المذنبين على الاعتراف هي بالنسبة لعدد كبير من الناس ذات فائدة عملية . وبالرغم من تعرضه للخطأ في نسبة صغيرة من الحالات ، لا نستطيع أن نفعل الدور الذي تقوم به أجهزة الكشف عن الكذب حتى في الحالات التي لا نحصل فيها على الاعترافات ، فإن وجود دليل للحقيقة ولو كانت درجة الاعتماد عليه ٩٠٪ أفضل على أي حال من عدم وجود هذا الدليل على الإطلاق . وفي حالات عديدة ، تمكن سجلات اختبار الكشف عن الحقيقة رجال البوليس من التغلغل عن اجراء طويل من التحريات بسبب البراءة الواضحة للشخص الذي تحوم حوله الشبهات . وفي حالات أخرى تبين أن الاشتباه في جرمه علاوة على ما سجله اختبار الكشف عن الكذب سوف يمكن البوليس من تركيز الجهود على الاشخاص الذين تحوم حولهم أكبر الشبهات . وفي حالات عديدة ، تساعد بعض تفاصيل الاختبار على الإيحاء للبوليس بأدلة معينة مثل أسماء أشخاص من المحتمل أن يكون لهم ضلع في الجريمة ، أو الأماكن التي قد يكون المجرمون قد أخفوا فيها المبروكات . على أنه يجب أن ندرك أن الادانة لا تقوم أساسا وبطريقة مباشرة على تسجيلات جهاز الكشف عن الكذب ، فهذه التسجيلات عامل مساعد فقط يؤخذ في الاعتبار للوصول إلى قرار أو حكم ، ونحن لا نستطيع أن نعتمد على عامل واحد اعتمادا تاما ، ولكن اجتماع هذا العامل بعوامل أخرى تشير إلى ذنب الشخص الذي تحوم حوله الشبهات أو براءته .

والذين ينتقدون طرق الكشف عن الكذب لأنها طرق لا نستطيع الاعتماد عليها اعتمادا كاملا ، هم أناس تغافلوا حقيقة هامة وهي أن كل الطرق الأخرى التي تستخدم في الوقت الحاضر للكشف عن الصلح أو الكذب هي طرق معرضة للخطأ أيضا ، بل أكثر تعرضا للخطأ من طريقة الكشف عن الكذب . فالسؤال إذن الذي يجب أن نسأله لا يكون « هل الطريقة الجديدة التي نلجأ إليها هي طريقة دقيقة تماما ؟ » . ولكن السؤال الذي يجب أن نوجهه هو « هل الطريقة الجديدة أكثر دقة من الطرق التي سوف تحل الطريقة الجديدة مكانها ، وهل تعمل الطريقة الجديدة على تحسين درجة النجاح التي نحصل عليها في الوقت الحاضر؟ » فإذا اتبعنا هذا الأسلوب في التساؤل وجدنا أن طريقة الكشف عن الكذب هي أفضل الطرق .

ونستطيع أن نضيف اعتباراً آخرًا للاعتبارات السابقة التي ترجح استخدام أجهزة الكشف عن الكذب • فالطريقة الممكنة الوحيدة التي نستطيع بها أن نظور الطرق غير الكاملة هي طريقة التجريب والاستعمال • فقولنا بأنه لا يجب استخدام أجهزة الكشف عن الكذب لأنها طرق لا يعتمد عليها اعتماداً كاملاً ، يعني تماماً أن الطريق الوحيد المؤدى إلى تحسين طريقة الكشف عن الكذب هو طريق مسلود ومن الممكن – لحد معين – أن نجرى التجارب في العمل السيكولوجي ، ولكن لكي يتطور تكتيك معين تطويراً عملياً مثل طريقة الكشف عن الكذب ، فإن استخدام هذه الطريقة استخداماً فعلياً في ممارساتنا أمر لا غنى عنه •

على أنه من جهة أخرى ، فإن تكتيكات الكشف عن الكذب المستخدمة الآن تقوم على نمط أو مقياس واحد بدرجة كافية وذلك فيما يتعلق بالأجهزة وبطريقة إجراء الاختبار ، وتفسير أو قراءة التسجيلات ، وتدريب المختبرين الأكفاء ، وفي مثل هذه الظروف قد يقوم أشخاص يفتقرون إلى الكفاية والنزاهة بتقديم أنفسهم على أنهم « خبراء في طريقة الكشف عن الكذب » وبذلك قد يسمح لهم بأن يدلوا بشهادات كاذبة أو غير دقيقة •

وغالباً ما يحاول محامو الدفاع الدفع بأن استخدام أجهزة الكشف عن الكذب هو عبارة عن ممارسة « الدرجة الثالثة » وهذا الجدل لم يلق قبولا لدى أكثر المراقبين كفاية أو السلطات القانونية ، فالألم الجسماني الوحيد الذي ينشأ عن استخدام جهاز الكشف عن الكذب هو ألم طفيف مؤقت ناشئ عن جهاز ضغط الدم ، ثم إن إجراء الاختبار ليس من النوع الذي يشجع أو يجبر الشخص على الاعتراف للهرب من موقف لا يطاق أو لا يحتمل • وجدير بنا أن نذكر في هذا المجال أن هناك حالات عديدة لم يعترف فيها المتهم تحت ضغط طريقة « الدرجة الثالثة » ، ولكنه اعترف بجريته في النهاية بعد جلسة قصيرة مع خبير جهاز الكشف عن الكذب • فاستخدام طريقة « الدرجة الثالثة » يدل على الوحشية والتجرد من الإنسانية ، وهي طريقة تفتقر إلى الكفاية والفاعلية • ولذلك فإن

استبدال هذه الطريقة الوحشية فى استجواب البوليس للمجرمين بطريقة
« اختبارات الكشف عن الكذب » من شأنه أن يرفع من مستوى كفاءة الكشف
عن الجرائم .

* * *

أما مسألة اللجوء الى حيل للحصول على اعترافات من المجرمين فهى مسألة
تثير مشكلة قانونية شائكة . وليس من المؤكد تماما أن قولنا « يمكنك أن تكذب
علينا ، ولا يمكنك أن تكذب على جهاز الكشف عن الكذب » هو مجرد حيلة ،
لأن هذه الجملة صحيحة فى جوهرها . وبطبيعة الحال ، فانه من الممكن أن يعتبر
هذا مراوغة لأن الجملة تصير حقيقة لأنها قيلت ، ولأن المتهم قد صدقها ،
وبالرغم من ذلك فان عددا من الناس وخاصة هؤلاء الذين يقدرّون النواحي
الانسانية ويتمسكون بالمبادئ الدينية والخلقية قد اعترضوا على استخدام
أجهزة الكشف عن الكذب لأن استخدام الجهاز يجعل الكفة غير متعادلة للمتهم ،
وان طريقة الكشف عن الكذب ان لم تكن تلجأ الى الحيلة ، فانها تلجأ الى طريقة
قريبة جدا من الحيلة . ومحاولة التأكد من أن المتهم يلقي حماية كاملة من المجتمع ،
ومن أن الظلم لن يقع عليه لانه لا يستطيع الوقوف بمفرده أمام القوى التى
تمثل القانون تعتبر جانبا من أهم جوانب الحياة الديمقراطية . ومع ذلك ،
فاذا كان من حق المتهم أن يحظى بالحماية من المجتمع وخاصة فى صورته الحديثة ،
فان من حق المجتمع أن يحظى بالحماية من المجرم ، ولذلك فانه يجب ألا يقتصر
عطف الفرد على المجرم بل على ضحيته الفعلية أو المرتقبة .

وعموما فان اختبار جهاز الكشف عن الكذب أسلوب محايد شرعا فى حد
ذاته ، وكفايته فى الوقت الحاضر معروفة بدرجة كبيرة وقيمه فى الوصول الى
اعترافات صحيحة هى قيمة لاشك فيها . وجهاز الكشف عن الكذب لا يشترك
بأية صورة مع وسائل « الدرجة الثالثة » ، فهو لا يتسبب فى الألم للمتهم ، واذا
لم يوفق فان عدم توفيقه لا يؤدى الى ادانة الشخص البرى بل يقتصر على عدم

النجاح في الكشف عن الشخص الذي كذب ، كما ان جهاز الكشف عن الكذب
يعتبر درعا للشخص البريء .

على اننا قبل ان ننتهي من هذا الفصل نود ان نشير هنا الى استخدام
العقاقير في هذا المجال ، والتي سبق ان تحدثنا عنها بالتفصيل في الفصل الاول
من الباب الثالث .

كما نود ان نذكر القارئ بان هذه العقاقير تشبه الى حد كبير المشروبات
الكحولية في انها تخفض من نشاط المراكز العليا للمخ ، وبذلك تحرر مراكزه
السفلى مؤقتا من الرقابة . وفي هذه اللحظات التي يخدر فيها « الرقيب » الذي
يكون متيقظا دائما ، يزلف اللسان بكلمات ما كانت تصدر لو ان الرقيب كان
متيقظا .

فاذا ما ازداد تناول الكمية ، فان المراكز السفلى تصاب أيضا بالشلل .
ويروح الشخص في سبات عميق ، وبعد وقت قصير تستعيد المراكز العليا
وظائفها كرقيب ، وفي تلك اللحظة يزلف اللسان بكلمات قليلة لها قيمة عادية .

الباب الخامس

الصراع الأيديولوجي

- ◆ الفصل الأول
الأيديولوجيات ومعرفة المعتقد
- ◆ الفصل الثاني
برنامج الإصلاح الأيديولوجي
لدى الصينيين
- ◆ الفصل الثالث
توحيد الفكر
- ◆ الفصل الرابع
الثورة الثقافية
البروليتارية الكبرى

الفصل الأول

الأيديولوجيات ومعركة المعتقد

تلعب الأيديولوجية (١) دورا كبيرا في معركة المعتقد ، فاختلاف في المعتقدات الذي لا يمس الأسس الرئيسية لا يعتبر أكثر من خلاف في الرأي ، ففي أى مجتمع قد يرى بعض الأفراد أنه لا داعي لفرض رسوم جمركية على سلع معينة ، بينما يرى الآخرون عكس ذلك • وقد يعتقد البعض أن أفضل استخدام للمدخرات الفردية هي استثمارها أو ادخارها لوقت الحاجة ، بينما يرى آخرون أن اتفاق مدخراتهم على الاستهلاك أفضل وسيلة لتحقيق رفاهيتهم • ولكن من ناحية أخرى هناك كثير من المسائل العامة لا يختلف فيها الناس ، فالزواج مثلا يعتبر أفضل نظام لاقامة الاسرة ، وليس هناك انسان حر يختلف مع غيره في

(١) اختلف الفلاسفة على مر العصور في تفسير اصطلاح الايديولوجية ، ففي فلسفة القرن التاسع عشر كانت الايديولوجية هي : التأمل النظري أو الفكر المجرد ، وعرف معجم وييمستر الايديولوجية بأنها نسق من الافكار بشأن الظواهر وخاصة الاجتماعية ، وفي تعريف آخر له يقول : انها علم الافكار أى دراسة اصل الافكار المستمدة من الاحساس وحده كما جاء في مذهب كوندتيك Condillac ، أما في النظرية المادية الديالكتيكية فان الايديولوجية لا تشمل نظرية المعرفة والسياسة فحسب بل تشمل ايضا علم ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا) والأخلاق والدين ، ومع هذه التفسيرات المتعددة يمكن ان نعرف الايديولوجية بأنها نظام أو نسق لمعتقدات بعيدة الجذور عن المسائل الأساسية في الحياة أو الشئون البشرية •

ضرورة اجراء انتخابات حرة ، او تحقيق العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص الى غير ذلك من الموضوعات المختلفة التى تؤثر على كيان المجتمع .

فاذا ما وصل الخلاف فى رأى بين الناس الى درجة حادة شاملة ، وأصبحت جماعات المجتمع لا تستطيع أن تتفق على شىء ما فى الميدان السياسى أو الدينى .
كان معنى هذا أن الخلافات قد تحولت من مجرد رأى الى أعماق الايديولوجية .
وهنا يتأثر هيكل التنظيم ودعامته مما قد يؤدى فى أغلب الاحيان الى صراع عقائدى ، وفى كثير من الاحيان قد يؤدى ذلك الى حرب أهلية أو مذهبية .

فالصراع الايديولوجى القديم بين « الاسلام » و « اليهودية » بدأ ببداية الدعوة الى الدين الجديد ، وظهرت صورته عندما ذهب أهل قريش الى اليهود يسألونهم عما اذا كان فى كتبهم ما يشير الى الدعوة التى جاء بها محمد - عليه الصلاة والسلام - ويسألونهم رأيهم فى الدين الجديد .

ومع أن اليهود « أهل الكتاب » من أهل التوحيد فقد أكدوا لقريش ان عبادتهم خير من هذا الذى جاء به الرسول الكريم ، فكان بهذا أن ناصروا عبادة الاوثان على الدعوة الى وحدانية الله .

وقد اعترف بهذا الخطأ كثير من الكتاب اليهود المحدثين وأشار اليها اسرائيل ولفسن فى كتابه « تاريخ اليهود فى بلاد العرب » .

وقد حاول اليهود عندما هاجر النبى الكريم الى المدينة ان يوقعوا بين المهاجرين والانصار ، كما حاولوا ان يضعفوا من وحدة المدينة فى مواجهة قريش وخاصة عندما خرجت « الأحزاب » لقتال المسلمين ، مما أدى الى مسارعة الرسول الى تصفية الاحياء اليهودية فى المدينة باخراج بنى قريظ وبنى النضير ، ثم القضاء على احيائهم فى خيبر وغيرها على الطريق الى الشام (١) .

(١) راجع سورة الأحزاب « الآية ٦٠ مدنية » .

وفي النوافع وراء الحروب الصليبية يحاول دائما مؤرخو الفرنجة أن يصوروا الحروب الصليبية على أنها حملات قدسية ، وانها كلها قامت تلبية للدعوات الدينية التي يوجهها « بابا » روما ويحمل رسالتها قسس متعصبون . كما يحاولون التبرير بأن الهدف الأول انما كان لانقاذ قبر المسيح ومهاد النصرانية من قبضة الاسلام . مع ان الحقيقة أن هذا الهدف لم يكن الا حجة ظاهرة للسيطرة والتأثير على تفكير المؤمنين من البسطاء وعامة الناس . وكان الغرض الصحيح هو حرص الكنيسة على سيادتها الزمنية وعملها على دعم سيادتها باسم الدين بين أمراء النصرانية ، وتحويل هؤلاء الأمراء عن مناهضتها . ثم اغرائهم بالسلطان والثروة في بلاد المشرق .

وتبدو هذه الصورة في سرد « فيل هاردوان » Ville - Hardouin حوادث الحرب الصليبية الرابعة ، وهي الحرب التي دعا اليها البابا انوصان الثالث ، وحمل رسالتها القس الفرنسي المتعصب فلك ده تى وخرج فيها أمراء في مقدمتهم الكونت تيبو أمير شمبانيا ، وأشرف عليها ومولها فيليب أوجست ملك فرنسا ، وان كان لم يشترك فيها . وبدلا من أن تذهب الحملة الى الشام كالحملات الأولى ، أو الى مصر كما فعل لويس التاسع فقد سارت الحملة من فرنسا الى البندقية ، وعقدوا مع البنادقة معاهدة تلتزم فيها البندقية بتقديم السفن والمؤن نظير أموال وعهود معينة ، وفي البندقية رسم طريق الحملة الى بيت المقدس .

ولكن الصليبيين بدلا من السفر الى مصر أو الشام قاتلوا هم وأهل البندقية ضد ملك المجر ، واستولوا لهم على ثغر زارا ، ثم فاضوا الكسيوس المطالب بعرش القسطنطينية ، ورحلوا بالسفن الى القسطنطينية لاستعادة عرشه - مقابل تعويض مالى كبير للحلفاء - والعمل على رد الكنيسة اليونانية لحظيرة كنيسة روما .

وفي ربيع سنة ١٢٠٣ ميلادية وصل الصليبيون على سفن البنادقة الى مياه البوسفور، وهزموا الامبراطور الكسيوس الكبير واجلسوا حليفهم الكسيوس

الصغير على العرش ، فلما لم يف بعهوده تركوه للشوار والحوارج فخلعوه من عرشه وقتلوه وأجلسوا مرزوفليس أحد الحوارج على عرش القياصرة . فوثب الصليبيون على الامبراطور الجديد وخلعوه واستولوا على القسطنطينية وعلى قصورها وقلاعها في ابريل سنة ١٢٠٤ ، ونادوا بأحد امرائهم بلدوين كونت فلاندر امبراطورا على عرش القياصرة ، ونشطوا لاختضاع كل مقاومة ، والى توطيد عرشه الجديد ، وتوزيع أسلابه فيما بينهم ، وبذلك اختفت الفكرة الصليبية نهائيا .

* * *

وفي الامبراطورية الاسبانية لعبت محاكم التفتيش كمظهر من مظاهر « معركة المعتقد » دورا مهما في تحويل الناس الى المسيحية الكاثوليكية وخلعة التاج .

والواقع أنه قد يكون من الضروري قبل أن نعرض لمحاكم التفتيش التي عرفت باسم « لجان التحقيق الاسبانية » The Spanish Inquisition أن نتعرف الدوافع التي دعت اليها (١) .

فلقد كانت الكنيسة الاسبانية قوية موفورة الثروة بسبب تدين الاسبان الى حد بعيد ، ولأنه كان من المحال أن يحصل أى أجنبي عن البلاد على أية وظيفة من الوظائف الخاضعة للملك . على أنه في حكم هنرى الرابع ١٤٥٤ - ١٤٧٥ م حصل اليهود على قوة ونفوذ ، وكانوا أحيانا يستطيعون بحكم سيطرتهم على المال ونتيجة لتوليهم الأقراض أن يرغموا الناس على أن يتركوا دينهم المسيحي ويرتلوا عنه ، بل أن « المارانو » Marranos وهم يهود متنصرون كانوا يقيمون شعائر اليهودية خفية ، وفي نفس الوقت فإن « المرازقة » Mariscos وهم مراكشيون تحولوا للمسيحية ، فازدادت قوتهم ، وأخلوا في أحياء شعائرتهم القديمة .

(١) دائرة المعارف البريطانية مادة The Spanish Inquisition مجلد ١٢ ص ٣٨١ ط . سنة ١٩٦١

واستشار الملوك الكاثوليك البابا سيكستس Sixtus الرابع الذى أصدر فى أول نوفمبر سنة ١٤٧٨ أمرا بابويا يعطى الملك اختيار اثنين أو ثلاثة من المحققين المعروفين بالفضيلة والعلم لتولى الامر مع اعطائهم سلطة قضائية .

وقد نفذت هذه المشورة البابوية بالأمر الملكى الذى صدر فى مدينة ديلا كامبو Madina Del Campo فى ١٧ من سبتمبر سنة ١٤٨٢ بإنشاء الادارة المقدسة فى القسطل .

والواقع أن من الصعب المبالغة فى استخدام محاكم التحقيق لتقوية الملكية وتوحيد شبه الجزيرة الاسبانية ، كما أن من المبالغة العودة بمقبة الامر على البابا ، فان موافقة البابا كانت شكلية . وكانت الهيئة العليا التى تسيطر على هذا التحقيق مجلسا ملكيا ، وكان المحققون على اختلاف درجاتهم مأجورين للحكومة يعينون ويطردون من عملهم بأمر الحكومة .

كانت محاكم التحقيق نوعا من الحرب النفسية الداخلية ، وأصبح كل فرد يخشاها ، فلم تهتم سلطات التحقيق بأى امتيازات للنبل ولا بالحريات ما دامت هذه الحريات تضايق التاج ، والواقع أن التاج استخدم هذه المحاكم لنظر القضايا التى يصعب أن تتولاها المحاكم العادية .

وفيما عدا الفترة من ١٥٠٧ الى ١٥١٧ م كان هناك : محقق واحد ، ومحقق عام للبلاد كلها ، وفى ضوء قيام محكمة التحقيق العليا هذه انتهى عمليا تقسيم البلاد الى « القسطل » و « أرجون » و « فالنسيا » و « قطالونيا » .

واذا كنا لا ننكر أن محاكم التحقيق قد ارتكبت الكثير من القسوة والفظائع فى تاريخها الطويل ، فقد واجه هذه القسوة كثيرون من ذوى العقيلة الراسخة وضجوا بأنفسهم فى سبيل مبادئهم ، كما شرحناه سابقا فى الباب الرابع من هذا الجزء .

وجاءت المبالغة في وصف اعمالها من السعاية المضادة لأسبانيا في ذلك العصر،
ومن كتابات جوان أنطونيو لوريلتا Juan Antonio Lorenta (١٧٥٦-١٨٢٣)
وغيره من كتاب القرن التاسع عشر .

وقد ألغى جوزيف بوناپرت هذه المحاكم سنة ١٨٠٨ ولكنها عادت من
جديد في حكم فرديناند السابع سنة ١٨١٤ ، ثم ألغيت وأعيدت ثانية من
١٨٢٠ - ١٨٣٣ ، وألغتها أخيرا ماريا كريستينا سنة ١٨٣٤ .

* * *

ولم تجعل النظريات الميتافيزيقية كلا من البروتستانت والكاثوليك
يعرقون أنصار العقيدة الأخرى على أساس أنهم هرطقيون كفر ، وقد حدث ذلك
في الحروب الأولى التي قامت بينهم . ففي القرن السابع عشر عرف البروتستانت
تماما ماذا كان يحدث لهم لو أصبح للكاثوليك اليد العليا ، وكذلك كان يعلم
الكاثوليك حقيقة مصيرهم لو كان البروتستانت قد وصلوا الى السلطة . وفي
كل حالة كان الحكم الجسد في غمرة خوْفهم من ضياع السلطة من أيديهم
يستغلّمون أساليب بعيدة كل البعد عن الانسانية مستهدفين بذلك القضاء على
الحكام السابقين عن طريق السجون المظلمة والقوائم التي يشد اليها من يعرقون
أحياء ، وما الى ذلك من الوسائل كندابير وقائية ضد الثورة . وفي هذه الظروف
لم يكن مسموحا للأفراد بالحرية خارج نطاق الايديولوجية الغالبة .

وفي الواقع لا يستطيع أى فرد أن يحترم حرية الحديث ، وحرية الممتلكات
والأمن الشخصى لشخص لا يحترم حريته وحقوقه . ان الحد الأدنى المطلق لأى
أيديولوجية هو التسليم والاعتراف بأن كل فرد يعيش فى منطقة متناسقة
أيديولوجيا - هذه التى أطلق عليها الجنرال النازى « كادل هوزهور » متبعا
« رودلف كجلين » اصطلاح المنطقة الجيوفيزائية - سيحترم حقوق الأفراد
الآخرين الذين يعيشون فى المنطقة نفسها .

* * *

وفي الحرب النفسية الواقية التي قام بها شوجون(١) توكوجارا بعد سنة ١٦٣٦م مثل رائع يوضح أثر عقيدة الشوجون في تعبئة عقول اليابانيين عن طريق سيطرة قاسية عنيفة لم يحدث مثلها في أى مكان آخر بالنسبة لشعب متمدنين •

فقد كان نظام الشوجون يعطى سلطة وقوة لطبقة المحاربين ، وكان لهذا أهمية بسبب النفوذ المعنوى والروحي لهذه الطبقة •

ان الاصطلاح بوشى Bushi أى « المحارب » كان معروفا في اليابان منذ زمن بعيد ، الا أنه استحدثت كلمة جديدة في هذا العصر هي Boshido أى « طريق أو اسلوب المحارب » وقد استحدثت للتعريف بقانون يماثل قانون الفروسية في الغرب •

ومع أنه لم يكن هناك أى وحي أو الهام وراء طابع المحارب اليابانى بالرغم من أنه يؤدى الصلاة قبل المعركة استجداء للنصر ثم بعدها لشكر الآلهة ، فان عقيدة الشوجون أوجدت عوامل نفسية مانعة قوية من الولاء والنظام مع الشجاعة والجرأة والاقبال على التضحية بالنفس والفداء في المعركة مع عدم الترفق بالضعفاء ، وفي هذا العصر تطور الاعتقاد المبهم الغامض في السيف كسلاح ، وكانت الصلوات تقام للتطهير قبل صنع السيوف •

(١) تعنى كلمة « شوجون » الجنرال ، وكان الامبراطور يمنح هذا اللقب للفرد أو لأسرة عندما تلشا الحال التي توجب اعطاء هذا الفرد أو هذه الأسرة قيادة مطلقة لكبح جماح المتبربرين ، وقد منح الامبراطور اللقب اول مرة لأسرة اشيكاجا Ashikaga عام ١٣٣٨ عندما قامت الحرب الاهلية بين الاثنين من الباطرة المتنافسين ، وبقي الشوجون انصارا للامبراطور كوميو امبراطور الشمال ، ومنح الامبراطور اللقب لأسرة توكوجا سنة ١٦٠٣ وبقي هؤلاء يسيطرون على اليابان رسميا حتى سنة ١٨٦٨ عندما ألغى نظام اصلاح الحكم هذا التنظيم ، وكان هذا بعد نقل العاصمة الى ييدو التي عرفت فيما بعد باسم طوكيو أى العاصمة الشرقية ، ولكن النظام بقى في الواقع حتى سنة ١٩٤٥ أى الى ان هزمت اليابان في الحرب العالمية الثانية •

وكان من اثر الشوجون في الشعب أن صارت الأسرة النواة التي تدور عليها حياة الفرد ، وصارت هي الوحدة الاقتصادية والاجتماعية ولا تزال كذلك حتى اليوم في اليابان المعاصرة . وثبت في عقول الناس : الطاعة ، والصبر ، والتضحية ، وعادة احترام كبار السن واصحاب السلطة مع الكياسة في الحديث وفي التصرف ، وكان لهذا كله دوره الكبير على الحياة الاجتماعية للناس (١) .

* * *

وفي العناية ضد ثورات الفلاحين في أوروبا الاقطاعية بوصفها أنها حركات القنلة القساة صورة أخرى توضح الى مدى كبير العلاقة بين الايديولوجيات التي كانت سائدة ، وأسلوب الحرب النفسية الذي استخدم في غمار هذا الصراع .

فقد صرح ملك إنجلترا في نهاية القرن الثالث عشر بفكرة عقد جمعية عامة تضم كبار الرجال من دعاياه لاستشارتهم والحصول على معاونتهم في أثناء الأزمات ، وسرعان ما خرجت الفكرة الى الوجود وانتشرت في كل غرب أوروبا وعرفت هذه الجمعية في إنجلترا باسم Parliament وفي فرنسا Etate وفي ألمانيا باسم Landtag وفي اسبانيا Cortes وفي دول وسط أوروبا بالاسم اللاتيني Diet ولكن الغرض من هذه الجمعية كان بحث موارد التمويل « الميزانية » أو فرض الضرائب على الرعية مما يمكن الملك من تكوين قوات عسكرية دائمة تخضع له ، ولا سيما في نهاية القرن الخامس عشر عندما برز طابع الدولة الموحدة التي تخضع لحكم ملك واحد يتولى الامر بحكم الوراثة ، وبمعاونة جيش دائم على أن يكون الملك هو الذي يقرر السلم والحرب .

وبدأت في نهاية القرن الخامس عشر حركة لتأصلاح الكنسى ، ثم تحولت هذه الحركة في القرن السادس عشر الى ثورة ضد البابا مع المطالبة بتغيير كبير في : النظام الكنسى ، ونظام الرهبنة ، وحقوق الكنيسة .

ولكن على الرغم من أن الشعب صاحب كل هذه الحركات فإن جمهرة الناس شغلوا بمسائل لا تمس حياتهم في الأوضاع المدنية ، حتى جاءت ثورة سنة ١٦٩٠ في إنجلترا على أساس المبادئ الأساسية للسياسة الفلسفية التي برزت في القرن الثامن عشر ، والتي كانت دعامة النظام السياسي للقرن العشرين .

* * *

وفي سنة ١٧٨٩ جاءت أول ثورة شعبية جارفة هي الثورة الفرنسية ، وسرعان ما وجدت لها أصدقاء في كل ركن من أوروبا ، ولهذا فإن معاهدة فيينا في ٢٠ من نوفمبر ١٨١٥ لم تقم لضمان الحقوق الإقليمية في أوروبا بقدر ما استهدفت القضاء على الروح الثورية التي تهدد نظم الحكم القائمة في أوروبا .

وكان ميترنيج وزير خارجية النمسا هو الشخصية البارزة وراء هذه المعاهدة وقد قال في سنة ١٨١٧ : أن كلمة « دستور » إنما هي دعوة إلى الفوضى والاضلال بالنظام ، وأن الهدف الذي يهدف اليه المهيجون من : الكتاب ، والمحامين ، والمدرسين هو قلب كل شيء يقوم على القانون ، ومن ثم يجب أن يعمل الملوك للمحافظة على بقاء القانون . وقد عرفت مبادئ المحافظة على الوضع القائم باسم « نظام ميترنيج » .

والواقع أن الحوادث كانت تسبق ميترنيج فقامت في أوروبا كلها عام ١٨١٤ معارضة « للسلطات المطلقة » المخولة للملوك ، وقد عرفت هذه الحركات في البداية باسم « حركة الأحرار » ثم عرفت فيما بعد باسم « الحركات القومية » .

وقد بقي ميترنيج لبعض الوقت يوجه سياسة حكام أوروبا ، واستغل ثورة الطلاب الألمان ، والثورات العسكرية الأربع التي قامت في أسبانيا سنة ١٨٢٠

ليجمع حكام دول أوروبا كل عام في أرض النمسا لتقرير أسلوب مشترك للقضاء على هذه الحركات ، ومن ثم قام نظام بوليسى على جامعات الولايات الألمانية وعلى صحفها بأمر المؤتمر ٠٠ بل أن المؤتمر قرر سنة ١٨٢٠ التدخل بواسطة الجيش النمساوى ضد الحركات الشعبية في مملكة نابولي •

* * *

وفي أثناء هذا بدأت العناية ضد الحركات الشعبية وخاصة حركات الفلاحين على أنها حركات دموية للمخربين السياسيين الذين يعملون للانتفاع من الفوضى والاضطراب ، ورمى الثوار بأنهم قتلة سفاكون قساة ومن واجب جيوش ملوك أوروبا أن تقضى على هذه الحركات •

ولكن هذا كله لم يقض على الحركات الشعبية التى قامت فى بريطانيا سنة ١٨١٧ ، وفى سويسرا وبلجيكا سنة ١٨٣٠ ، بل فى باريس بعد ذلك بالرغم من أن أغلب هذه الحركات لم تحقق نجاحا •

ولكن سرعان ما تم فى البلاد التى مالت الى القومية والى ازالة الفوارق بين الطبقات نوع من التفاهم • فحدث اتفاق بين النبلاء المجريين ، وبين المحرضين الشعبين المتحررين أمثال كوزوت ، وحدث مثل ذلك أيضا فى الولايات الألمانية بعد سنة ١٨٤٠ بمعاونة الاحرار الالمان أنفسهم ، وفى بوهيميا تحت زعامة الأستاذ فولاكى ، وفى كرواتيا تحت رئاسة الصحفي جاى(١) •

* * *

ومن الأمثلة السابقة نجد أن الحروب التى دارت استخلفت العقائد كقوة دافعة وراء الحرب • ومن هذه الحروب نستطيع أن ندرس النواحي المستحدثة

(١) دائرة المعارف البريطانية مادة Europe ٨ : ٨٥٧ ، ٩٥٩ •

فى استغلال الحرب النفسية للعقائد ، ونعرف الى اى مدى يمكن تطبيق هذه التجارب أو تطويرها فى ضوء العصر الذى نعيش فيه • والبحث هنا يكون فى استغلال نقاط الضعف فى معتقدات العدو بدرجة تسمح بالتأثير عليه بمعتقدات جديدة • وهنا تبرز نقطة هامة هى أنه فى مثل تلك الحالة يجب أن نتجنب المسائل الرئيسية التى لا يصح الاعتراض عليها من وجهة نظر العدو • فالمسائل والموضوعات التى يبجلها العدو أو يقدرها يجب عدم التعرض لها فى النشرات أو الاذاعات التى توجه اليه • وفى هذه الحروب العقائدية يلعب الخداع والحيلة دورا فعلا للتشكيك فى المعتقدات ، وذلك كما جاء فى الصراع بين اليهود والاسلام ، أو بين البروتستانت والكاثوليك ، كما أن للعنف دور فعال فى هذه الحروب العقائدية ، ولكن من وجهة أخرى لا تكفى القوة وحدها لتغيير عقول الناس • وإذا أجبرت شعوب على تغيير عقيدتها تحت ظروف خارجية قاسية لكى تكيف نفسها مع الظروف الجديدة فليس معنى ذلك ألا يرتد الناس ثانية الى عقائدهم القديمة اذا ما زالت هذه الظروف كما يحدث بعد عمليات الغزو •

فاذا ما تطلبت عملية تحويل شاملة مباشرة اجراء عمليات حربية قد تكون قاسية أو قد تكون على نطاق واسع ، فان نفس النتيجة يمكن أن تتم بالتسامح مع العقيدة المعارض عليها ، على أن يقتصر هذا بالاعلان عن الامتيازات التى تعطى لتبعية العقيدة الجديدة ، ويترك أفراد الشعب المغزو والمغلوب على أمره يستمتعون بعقائدهم القديمة واساليب حياتهم المهنية • أما أولئك الذين يسهمون فى الحياة العامة سواء أكان هذا الاسهام فى النواحي : السياسية ، أو العقائدية ، أو الاقتصادية ، فانه يجب أن يكونوا من بين أولئك الذين اتبعوا العقيدة الجديدة ، وفى هذه الحال فان كل الجيل الصاعد فى المجتمع يتجه فى أجيال قليلة نحو العقيدة الجديدة بفكرة الوصول الى : الثروة ، والقوة ، أو المعرفة ، ولا يكون ما يبقى من العقيدة القديمة غير خرافة لا حول لها ولا قوة ، ولا تحظى باجلال واكبار •

* * *

وفى الحرب الأهلية الإسبانية مثل رائج لتأثير الايديولوجيات المختلفة على عقائد الشعب بدرجة أوصلتهم فى النهاية الى فقد الثقة فى بعضهم البعض ، حتى أصبح من الضرورى قيام حرب أهلية استمرت سنوات عديدة قبل أن يشعر أحد الجانبين بالأمن والسلامة ، ومهما كان الشكل الذى اتخذته الدولة بعد انتهاء الحرب ، وبرغم المساعدات المختلفة الخارجية التى كانت ترسلها الفاشية والشيوعية الى كل من المعسكرين ، فإن هذا كله تمخض عن وجود حكومة واحدة ، ونظام واحد للسيطرة على الاراضى الإسبانية •

* * *

فاذا ما انتقلنا الى تاريخ أوروبا المعاصر نجد فى النازية مثالا قيما يوضح حقيقة العلاقة بين الحرب النفسية التى شنتها المانيا النازية وايديولوجية الحزب النازى •

ولنقف لحظة لنتساءل كيف استطاع هتلر بالحزب النازى أن يغوض غمار حرب شاملة متوليا زمام أمة كانت قبل أقل من ربع قرن سابق قد تحطمت فى هزيمة ساحقة ؟ هل كان ذلك مرجعه الى كفاءة القوات المسلحة الالمانية وصناعاتها الثقيلة ، او مرجعه الى التعبئة : المعنوية ، والعاطفية ، والسيكولوجية التى غرسها هتلر فى الأمة الالمانية ؟

فى الواقع لا نستطيع أن ننكر كفاءة القوات المسلحة الالمانية ولا قدرة الدولة على التعبئة الجيدة الشاملة ، ولكن من جهة أخرى فإن التعبئة السيكولوجية التى قام بها الحزب النازى للأمة الالمانية تعتبر حجر الزاوية التى ساعدت المانيا فى صراعها المرير بالداخل والخارج ، بل ما كانت لتستطيع المانيا أن تغوض غمار الحرب : الايديولوجية ، والاقتصادية ، والسياسية فى الفترة من عام ١٩٣٣-١٩٣٩

دون رسوخ العقيدة النازية في الشعب الالمانى . فقد تمكنت هذه الحرب من أن تمنع بعملياتها السرية ضد المجتمع الدولى من تكوين تحالف دولى ضد المانيا ، كما نشرت التفكك والخيانة بين ضحايا الاعتداء الالمانى .

لقد كان هذا المجهود من عمل الحزب النازى الذى اوجده هتلر وسيطر عليه تماما ، ولم يكن من السهل على هتلر أن يحدد أو يحقق طريق العمل ، فبالإضافة الى المشكلات الخارجية التى كانت تواجهه كان عليه أن يوازن بين طبقة الضباط المتحفظين الذين كانوا يرون فى تقاليد الجيش الالمانى خير مثل للجندية ، وبين متطرفى النازية والجيل الصاعد الذى يتطلع للقوة ، كما لم يكن تنسيق الارتباط بين الجيش والحزب مسألة هينة ، فان ذلك لم يتم الا بسفك دماء الكثيرين وذلك فى عملية التطهير التى قام بها عام ١٩٣٤ ، ثم بالسيطرة السياسية الكاملة فيما بعد .

وتعتبر سلسلة الانتصارات التى لم تسفك فيها أى دماء منذ بداية احتلال ارض الراين حتى عقد اتفاقية ميونخ هى قمة نجاح هتلر ، بل نستطيع أن نؤكد أن انتصاراته فى ميدانى : الحرب النفسية ، والحرب السياسية لا يمكن مضارعتها .

كانت استراتيجية هتلر الاولى فى غمار هذه الحرب النفسية هى جمع الشعب الالمانى كله فى كتلة واحدة تثير الرعب والفرع فى العالم كله ، وقد تم ذلك جزئيا عن طريق برنامج الحزب النازى الذى عمل لتحطيم : اليهود ، والكنايس ، والجامعات ، واتحادات العمال ، والاشتراكيين ، والشيوعيين ، وغيرهم ممن يشك فى مشاعرهم الدولية واتجاهاتهم الى المسألة .

لقد تحقق له ذلك بحملة دعائية واسعة ، دعمها بتطبيق النظام الصارم الذى يفرضه الحزب ، وكذا الدعوة الى تفاخر الناس بالطابع الالمانى ، وانارة روح التفاخر فى الأمة كلها .

وليس بغريب أن نجد الحزب النازي يستغل الجذور العميقة في كيان التاريخ الألماني من حيث : الطابع العسكري ، وفكرة وحدة الشعب الألماني كله ، ومعاداة السامية ومبدأ الجنس السائد ، وتقديس الدولة فيضعها بارزة في مظاهر برنامج الحزب •

ويقول هتلر في هذا المجال : « ان بعث الشعب الألماني لا يتم الا عن طريق استعادته لقواته الخارجية ، ولا يحدث هذا عن طريق الأسلحة كما كان ساستنا البورجوازيون يقولون ، بل أن وسيلته قوة الارادة •

« ان أفضل الأسلحة لا قيمة لها ما دامت تنقصها الرغبة والارادة لاستخدام هذه الأسلحة ولهذا ربما لا تكون مسألة استعادة ألمانيا لقوتها متوقفة على كيف نستطيع أن نصنع الأسلحة ؟ بل تتوقف أساسا على كيف نستطيع إيجاد الروح التي تعاون الشعب على حمل هذه الأسلحة ؟ (١) » •

وفي تعبئة الشعب الألماني نفسيا نجد أن هتلر يبعث في الأمة الألمانية الرغبة في القتال متخذا من الاسطورة التي تقول : ان الجيش الألماني لم يهزم في الحرب العالمية الأولى ، بل أن الخيانة في الجبهة الداخلية هي التي اسهمت في نتيجة الحرب ، وقد حقق باعطائه هذه الاسطورة الشعبية نجاحا لا يمكن تحقيقه بغيرها ، ووصل الأمر الى أن صدق الشعب الألماني أن القاءهم السلاح في نوفمبر ١٩١٨ لم يكن الا رغبة منهم في تلبية لوعده ويلسون في الحصول على سلم عادل ، واعتبر الشعب الألماني تنصل ويلسون من هذا الوعد أعظم خيانة عرفها التاريخ •

بهذه الأسطورة وغيرها أثار هتلر في قلوب عدد غفير من الألمان روح الانتقام ، وحياء النظرية التي كانت تقرر أن ألمانيا المسالمة طوقت بدول حقوق معادية ، كما أوجد روحا إسبارطية وولاء مطلقا للفوهرر الزعيم الذي لا يتوانى عن القيام بكل عمل طيب للسلم العالمى(١) .

وقد استطاع هتلر قبل أن يتولى مركز المستشار للرايخ الثالث أن يخلق الروح العسكرية في ألمانيا بواسطة قوات الحزب وقوات العاصفة « S. S. » التي تعتبر أعظم جيش خاص في التاريخ الحديث ، وأصبحت صرخة الحرب شعار ذو القمصان الرمادية ، وكان واجب الدولة على حد قول هتلر : « توحيد الألمان ، وتجمعهم في وحدة واحدة ، وقيادتهم تدريجيا الى موقف السيادة على العالم (٢) » .

ولم يعتبر هتلر قط أن القوة هي السلاح المؤثر وحده ، فالقوة والتهديد يجب أن يصحبهما : الكلمات ، والشعارات ، والآراء التي تعتبر من بين الأسلحة الحاسمة ، فقد ثبت ذلك في الثورة الفرنسية وأوضحها « وودرو ولسن » و « البلاشفة » .

لقد كان هتلر أستاذا عبقريا في استغلال خلافات الآراء بين الحلفاء ، وقد نجح في مناقشة موضوعات السياسة الأوروبية لا في الصورة التي يراها هو بها ، بل في الصورة التي تسبب أقصى خلاف في الرأي العام الخارجى .

وقد قال روسشنج(٣) : « ان أسلحتنا هي : الأرباك العقلى ، ونضارب المشاعر ، وإشاعة الدعر ، وإثارة التردد ، وعدم استطاعة خصومنا الخروج

(a) Henri Lichten Berger, The Third Reich, New York 1937 Book V.

(b) S. Hoberia, The House That Hitler Built, New York, 1938, Part IV. Sec 2. (١)

Mein Kampf PP. 601. (٢)

Hermanin Rauschning, The Voice of Destruction, New York, 1940 P. 9. (٣)

بقرار حاسم ، ، ولهذا فإن التحالف مع اليابان قد أوضح للناس فى العالم خارج ألمانيا أنه حلف ضد الكومنترون ومن ثم فهو هجوم على الشيوعية •

وقد أدرك هتلر أن الخوف من الشيوعية قد قوى بين صفوف المحافظين فى : بريطانيا ، وفرنسا ، والولايات المتحدة ، إذ رأوا جميعاً أن فى هذا الحلف وسيلة لامنهم فى الباسفيك ، وكان المحافظون ينظرون الى هتلر نظرتهم للرجل الذى حل مشكلة العمال لا نظرتهم للرجل الذى جند العمال لصناعة الأسلحة •

وباختصار فإن استراتيجية الحزب النازى فى السلم والحرب كانت تقوم على الارهاب ، فهو لكى يصل الى القوة فى ألمانيا كسب معركة الحرب النفسية الداخلية فى ألمانيا ، ولكى يبقى فى الحكم : غلب ، وسجن ، وذبح أعداءه ، وليشق طريقه فى أوروبا استخدم نفس الوسائل فيما وراء حدود الرايخ •

* * *

وقبل أن نختم هذا الفصل نود أن نشير الى أهم سمات هذا العصر الذى نعيش فيه ، حيث يعانى العالم ما يسمى بالقلق النفسى نتيجة النزاع الأيديولوجى الكبير •

صحيح أن العالم قد عرف خلال تاريخه الطويل سلسلة من الحروب والمنافسات ولكن كانت الخطوط المميزة يوم ذاك تختلف تماماً عن عصرنا • كانت هناك منافسات اقليمية وحروب « أرستقراطية » وكانت النزاعات محلية ، أما اليوم فإن النزاعات عامة والاحداث المحلية تتعلق بالمنافسات العالمية ، وتبدو كل النزاعات وكأنها تتجمع حول نقطة مميزة واحدة هى : « التنافس بين الشرق والغرب أى بين العالم الشرقى وبين العالم الغربى •• أو بمعنى آخر بين الماركسية والراسمالية •

وفي ضوء هذا يبدو لنا أن التعارض تعارض أيديولوجي تماما . فالهدف الأول للماركسيين هو نشر ثورة البروليتاريا في كل مكان من العالم سواء بالعنف أو بالوسائل السلمية وفقا لأصلح السبل ، أما البلدان الرأسمالية فهي تحاول أن تحافظ على مصالحها الرأسمالية الاستغلالية بكل الوسائل العنيفة والسلمية . وفي غمرة هذا نشأ عالم ينقسم الى ثلاث كتلات :

• الكتلة الشرقية

• الكتلة الغربية

ثم كتلة ثالثة هي كتلة المحايدين الذين يتأرجحون حينا نحو الشرق وحينا نحو الغرب ، ولما كانت الحرب الباردة قد سلخت من عمرها ما يزيد على العشرين عاما فأننا نستطيع أن نحصر سماتها المميزة بطريقة موضوعية ، وأهم هذه السمات :

♦ تقف في الصدارة زعيمتان هما : الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي .

♦ استمرار الصراع مع انتقال الصراع من منطقة الى أخرى تبعا للاختيار .

♦ تهديدات متقطعة قصيرة الأمد حتى لا يمكن أخذها مأخذ الجد ، اللهم الا التهيدة الأخيرة بعد سنة ١٩٦٣ عندما اتفقت موسكو وواشنطن على تحديد التجارب النووية .

♦ يهدف الشرق الى بلوغ مستوى الحياة في الولايات المتحدة حتى يمكن إبراز تفوق نظامه الاقتصادي .

♦ تتنافس المجموعتان في الجهود لظهور تفوقهما وخاصة في غزو الفضاء ، وفي الانجازات الذرية .

والواقع أن البحث الدقيق للواقع الاقتصادي والاجتماعي للدولتين الكبيرتين : الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفييتي ليكشف لنا على أنه توجد بينهما نقاط كثيرة مشتركة أكثر مما يوجد من خلاف : التنظيم ، التقلم الفني ، تحسين الظروف المادية بين الناس ، وتحضير المواطنين وثقيفهم ، مما يجعلنا نستطيع أن نسال أنفسنا عما اذا كان هناك احتمال لتقارب نسبي يؤدي الى تعايش سلمى .

وهكذا فأننا نستطيع ان نفترض انه اذا استمرت الظروف الاقتصادية والاجتماعية للدولتين الكبيرتين اللتين تتوليان الصدارة فى الكتلتين المتصارعتين فى التقارب - كان من الممكن أن يستقر التعايش بصفة نهائية ، وأن تضعف التعارضات الى حد كبير .

الفصل الثاني

برنامج الإساليب الأساليب لري الصينيين

سبق أن أشرنا الى أن برنامج التثقيف الذي كان الصينيون يطبقونه هو عبارة عن الجهود التي كانوا يقومون بها في عملية ما يطلق عليها « غسيل المخ » ، كما أشرنا الى أن الكتابات التي نشرت عن هذه العملية اعتمدت أساسا على استجواب : الاسرى الامريكيين العائدين لبلادهم بعد الاسر ، أو المدنيين الغربيين ، والصينيين المثقفين الذين تعرضوا لعملية « غسيل المخ » .

وعلى الرغم من أن هذه المعلومات قد يعوزها الدليل ، أو فيها من المغالاة ما لا يخفى على أحد ، فإننا سنحاول دراسة هذا البرنامج من زاوية علمية عامة ، كي نتعرف على مدى الاستجابات وردود الفعل التي تحدث للفرد اذا ما تعرض لمنهله الموقف . ولما كانت المعلومات التي أخذت من أسرى الحرب الكورية عن برنامج التثقيف أكثر دقة ووضوحا من غيرها فإننا سنعتمد عليها أساسا في بحثنا كنموذج يمكن الاسترشاد به في إبراز العناصر الأساسية لهذه العملية .

كانت صور الحياة في المعسكرات الدائمة لاسرى الحرب الامريكيين تتشابه من الناحية الواقعية داخل برنامج التثقيف ، على أننا يجب ألا ننظر الى هذا البرنامج على أنه مجموعة من الاساليب الفنية الخاصة تطبق بصورة روتينية رتيبة ، بل يجب أن ننظر اليه كنتاج لمجموعة كاملة من الظروف الاجتماعية تعمل داخلها بعض هذه الاساليب الفنية المعينة .

وقبل أن نحاول شرح هذه الأساليب نرى أنه لكي تكتمل لدينا صورة واقعية لابد من أن نعطي للقارئ فكرة عما حدث لهؤلاء الأسرى منذ وقوعهم في الأسر حتى بداية برنامج التحقيق في المعسكرات الدائمة .

الأسر والاقامة في المعسكرات المؤقتة :

استخدم الصينيون في المرحلة الأولى للأسر « سياسة الترفق » مع الأسرى، كما استغلوا قسوة معاملة الكوريين الشماليين للأسرى ، وحاولوا أن يظهروا صداقتهم وترفقهم بهم .

كانوا منذ اللحظة الأولى يحاولون اظهار ترحيبهم بالأسرى موحين اليهم أنهم حرروهم من الاستغلال البورجوازي ، وأنهم يستطيعون من فورهم الانضمام للذين يقاتلون من أجل السلام .

كما استغلوا العامل النفسي للتأثير على عقول الأسرى بأن حاولوا أن يقنعوهم بأن الأمم المتحدة اشتركت في الحرب بطريقة غير قانونية ، ولذا فإن كل جنودها يمكن اعتبارهم من مجرمي الحرب ومن ثم يمكن اعدامهم رميا بالرصاص ، ثم يوحون اليهم أنهم يعرفون أن الجنود العاديين انما ينفلون أوامر قادتهم الذين هم مجرموا الحرب الحقيقيون ، ومن هنا فإن الصينيين يعتبرون الجندي الأسير « طالبا » وأن من واجبه أن يعلموه « الحقيقة » ، ومن لا يريد أن يتعاون بالذهاب الى المدرسة والاستذكار طوعية يمكن أن يحول الى « مجرم حرب » ويعلم رميا بالرصاص ، ولا سيما اذا أمكن الحصول منه على اعتراف بجرائمه .

وكان الأسير يمر في الساعات الأولى من الأسر « من ٦ الى ٢٤ ساعة » بصدمة أشبه بحالة فقد للوعي مما يجعله غير قادر على القيام بأي عمل متكامل ، أو الادلاء بأي معلومات عما كان يحسه في أثناء تلك الساعات الأولى .

وكان يتبع هذه الحالة عادة توقع الموت أو التعذيب من أسريه ، ذلك لان الشائعات كانت تنتشر بين الجنود في الخطوط الامامية بأن هذا ما يجب أن يتوقعوه عند أسرهم ، وكانت هذه الشائعات تستند الى ما حدث فعلا لبعض الجنود الذين وقعوا في أيدي الكوريين الشماليين ، ولكن كل هذه المخاوف لا تلبث أن تتبدد نتيجة الشعور الودى الذى يبديه الجنود الصينيون . لقد كان تشديدهم في الحديث عن السلم أهم الخطوات الاولى التى تجعل الاسير أكثر تقبلا للتثقيف الذى سيواجهه فيما بعد .

وكان الاسير في الاسابيع أو الشهور التالية يتعرض لصعاب بدنية كبيرة ، ولسلسلة من الضغوط السيكولوجية التى تسبب له توترات شديدة ، وانهيارا نفسيا .

كان الاسرى يجمعون خلف الخطوط الامامية ، ثم يسيرون للشمال فى جماعات تختلف فى عددها ، وكان السير يتم فى أثناء الليل فقط لمسافات تصل الى عشرين ميلا .

كانت أحوال السير سيئة جدا ، وقد قال كثير من الأسرى : انهم لاقوا صعوبة كبيرة فى ازدياد طعام غريب لم يألوه ، كما أنه كان معدا اعدادا سيئا . ومع هذا فانه كان يذكر لهم دائما سواء عن حق أو باطل لانهم يعطون نفس الطعام الذى يعطى للجنود الصينيين المشاة وكانت الرعاية الطبية معومة بالنسبة للأسرى ، وكذا للجنود الصينيين وذلك لعدم توافر الامداد بالدواء ، مما نتج عنه اصابة معظم الجنود بالاسهال وبالدوسنطاريا ، كما قاسى الجنود كثيرا من قلة الملابس الضرورية لوقايتهم من الظروف الجوية الصعبة .

وفى عمليات السير هذه التى استغرقت من اسبوع الى اسبوعين ازداد تفكك الاسرى ، وازداد تبدل شعورهم ، وانعدم الترابط بين الأسرى من ناحية القيادة ، فلا قادة ولا جنود ، بل أصبح الاتجاه العام « كل رجل لنفسه فقط » .

وقد أدى التنافس للحصول على : الغذاء ، والملبس . والماوى الى استحالة الاحتفاظ بالروابط داخل الجماعة ، وكان أمل الاسرى الوحيد هو الوصول الى المعسكر حيث كان الجميع يأملون أن تكون الحالة أحسن (١) .

على أن الوصول الى أحد المعسكرات المؤقتة كان دائما بمثابة خيبة أمل قاسية ، فالغذاء لا يزال سيئا كما كان من قبل ، وأماكن الإقامة مزدحمة قذرة ، والرعاية الطبية للمرضى والجرحى معدومة .

وكانت الأنباء التى تقال لهم مليئة بالخدين عن انتصارات الشيوعيين العسكرية ، وكان لهذه الأنباء أثر كبير فى اضعاف معنويات الاسرى ، وصار أغلبهم متبلدى الذهن بدرجة أثرت على صحتهم وأدت ببعضهم الى الوفاة .

وقد استمر الصينيون فى الاسراف فى اعطاء الوعود بتحسين الحالة أو سرعة إعادة الاسرى الى أوطانهم ، وكانوا يعززون عدم التوفيق فى تحقيق هذا الى : العراقيين التى تضعها الامم المتحدة ، وإلى النشاط الجوى لطائراتها ، وإلى نقص التعاون من جانب الاسرى . كما كانوا يوضحون دائما وبكل وسيلة أن عددا معينا من الاسرى هم الذين يمكن أن يأملوا فى الانتفاع بهذه الوعود ، وهم أولئك الذين قد قاموا بالتعاون ، والذين تعلموا وعرفوا الحقيقة .

وكان الصينيون يوزعون على الاسرى نشرات شيوعية ويطلبون منهم أن ينشدوا الاناشيد الشيوعية ، وطلب من الحراس أن يتعرفوا على الافراد الذين يمكن جعلهم « متعاونين » وذلك بملاحظة ردود الفعل من جانب الاسرى فى أثناء قيامهم بهذه الالوان من النشاط .

(١) فى الواقع لم يتعرض كل الاسرى لهذه الظروف السببة فاعلم الذين اسروا فى سنة ١٩٥١ وسنة ١٩٥٢ قد نقلوا بالسيارات وفى ظروف اقل قسوة ، وقد عنى بالمرضى والجرحى وان كانت العناية لم تصل الى الرعاية الطبية ، على ان الافاصيص كثيرة بان الحراس الصينيين كانوا يعاونون الجرحى والمرضى الى حد حملهم كما ان كثيرين من الاهالى الذين سبق من كوريا الشمالية كانوا يعاونون الاسرى باعطائهم الغذاء وبأخفائهم من مطاردتهم .

ولم تبذل أية محاولة لتثقيف الجنود في أثناء السير ، ولا في أثناء تجمعهم في المعسكرات المؤقتة ، ولكن أولئك الذين كانوا يصلون أخيرا الى المعسكرات الدائمة كانوا يصلون في حالة اعياء جسماني ونفسي ، وغير مؤهلين بحال ما لضغوط التثقيف التي سبوا جهونها •

الحياة في المعسكرات الدائمة للأسرى :

كانت أغلب المعسكرات الدائمة أجزاء من قرى كورية صغيرة ، وكان يحاط كل معسكر بنطاقات الأسلاك الشائكة أو بالموانع الطبيعية ، أو قد لا يحاط بأي شيء على الإطلاق • ومع أن الحراس كانوا يوضعون في النقاط الرئيسية فانهم لم يكونوا بالقدر الذي يكفي لمنع الهرب ، أو على الأقل لمنع الانتقال من قسم الى آخر •

وكان المعسكر في العادة عبارة عن عدة أكواخ من الطين يعيش فيها الاسرى يفترشون الأرض ، أو ينامون على حشيات من القش ، كما أعد به مبنى للمدرسة يستخدم : للادارة ، ولقاعة المحاضرات ، ولأعمال الترفيه • وكانت أماكن اعداد الطعام أو الأماكن المخصصة لازالة الضرورة غير كافية الى حد كبير ، ولكنها مع هذا كانت احسن حالا من نظيرها في المعسكرات المؤقتة •

وقد قسم الاسرى في المعسكر تبعا : للجنس ، وتبعا لاطوانهم ، ورتبهم العسكرية ، ثم قسموا بعد هذا الى : سرايا ، وفصائل ، وجماعات • كانت الجماعات عادة تتكون من عشرة الى خمسة عشر أسيرا يشتركون معا في مكان اقامة واحد ، وكان الصينيون يتولون رياسات الفصائل ، كما كانوا يعينون أفرادا من الاسرى لرياسة الجماعات دون تقدير لاي رغبة منهم •

ومع أن النظام الرتيب في المعسكر كان يختلف من مكان الى آخر فان الاسرى كانوا يستيقظون عند الفجر ، فيمارسون بعض الحركات الرياضية لمدة ساعة ، ثم يوزعون للقيام بعدة اعمال مثل : جمع خشب الحريق ، وحمل المياه ،

وطهى الطعام ، واصلاح الطرق ، ودفن الموتى من الاسرى ثم يقومون بنظافة المعسكر . وفى قرابة الساعة الثامنة صباحا يتناول الاسرى طعام الفطور من حساء البطاطس أو غير هذا من ألوان البقول .

وكانت باقى ساعات الصباح والمساء تقضى فى ندوات التشقيف ، أو فى غير ذلك من الاعمال . ويتوقف تقديم وجبة فى منتصف اليوم على : اتجاهات الاسرى وعلى سير الامدادات والتموين ، ثم على الموقف السياسى ، ذلك لان الوجبة الرئيسية كانت تقدم فى الساعة الخامسة مساء وتكون من : الحضر ، والبقول ، والارز ، مع قطع من دهن الخنزير أو من السمك . ومن الطبيعى أن مثل هذا الغداء القليل كان لا يكفى العمل العنيف الذى كان يقوم به الاسرى .

وقد اختلف الموقف بالنسبة للترفيه ، ففي السنة الاولى أو ما يقرب منها كان التشديد كبيرا على مطالعة الكتب الشيوعية ، ومشاهدة أفلام الدعاية وتمضية الوقت فى لعب الشطرنج ، ولكن مع تقدم سير المحادثات الخاصة بالهدنة ، ومع اشاعة احتمال عودة الاسرى الى بلادهم تحسن الحال بصفة عامة ، وقل التشديد على مطالعة الكتب الشيوعية ، وافسح المجال للاسرى ليقوموا بالترفيه عن أنفسهم كما يحلو لهم .

وقد سمح للجنود بأن يعدوا ميادين للرياضة ، وأن يصنعوا ما يحتاجون اليه من ادوات ، وأعد الصينيون برنامجا لمباريات « أولمبية » بين المعسكرات ، ولكنهم استخدموها كوسيلة للدعاية . وقد أسهم فيها الجنود الذين تتوافر لهم مهارة رياضية بغض النظر عن المظهر السياسى الذى لها .

ولا توجد أى معلومات دقيقة عن الممارسة الجنسية للاسرى ، مع أنه كان من الميسور أن يتصل الجنود بالنساء الكوريات فى القرى ، ولكن من جهة أخرى نفشى بين الاسرى الشذوذ الجنسى .

معالم برنامج التثقيف :

مما لا شك فيه أن السلوك الاجتماعي للناس يتأثر الى حد كبير بالسلوك الفردي ، وفي مسائل الفكر والمعتقدات يميل الناس أساسا الى الاعتماد على آراء الآخرين وأفكارهم ، وهم في تبادلهم هذه الآراء والأفكار يحاولون أن يقرروا اذا كانوا في جانب الصواب أم الخطأ •

هذه الآراء غالبا ما تستقى عن طريق وسائل الاعلام والاتصالات الجماعية ، او قد تكون مستنبطة بوسائل شخصية بحتة •

وفي كل الجماعات المختلفة نجد أنه في التحولات : الدينية ، والسياسية ، والاجتماعية وغيرها التي عرفها الانسان عبر التاريخ ، استخدم دعايتها أسلوبا واحدا سواء في ازالة المعتقدات القديمة أو في التبشير والدعوة الى المذهب الجديد ، وان كانت الوسائل التي اتخذت يختلف بعضها عن بعض تبعا للعصور المختلفة التي عاشت فيها تلك الجماعات •

ونحن في بحثنا هنا سنحاول أن نبرز معالم برنامج التثقيف الصيني لاسرى الحرب الكورية كجزء لعملية غسيل المخ ، وقد سبق أن بينا في الباب الثاني الاساليب التي اتبعها الانسان في تحولاته : الدينية، والسياسية، والاجتماعية، حتى نستطيع ان نحدد مدى التشابه او التباين بين هذه الاساليب وتلك ، وبذا يتضح لنا مدى نجاح أو فشل هذه الاساليب في التأثير على معتقدات الناس وقيمتها •

ولقد سبق ان اعطينا قبل ذلك صورة حياة الاسرى داخل المعسكرات المؤقتة والدائمة ، وكان هدفنا من ذلك هو أن نوضح للقارئ الحالة النفسية لهؤلاء الاسرى نتيجة البيئة والظروف غير العادية التي كانوا يعيشون فيها • وعلينا الآن أن ننتقل الى المرحلة التالية حيث نتحدث عن أسلوب الصينيين في محاولاتهم للقضاء على معتقدات الاسرى والدعوة لمذهبهم •

تهيئة الجو للتبشير المذهبي :

منع الصينيون كل مصادر المعلومات التي اعتادها الأسرى من قبل لمعرفة الأحداث اليومية في المجال المحلى أو العول ، واستبدلوا بذلك صحفهم ومجلاتهم وإذاعاتهم • وكانت صحيفة « الدلي ووركر » بمختلف طبعاتها والتي تصدر في عدة مدن متوافرة في مكاتب المعسكر ، بالإضافة الى عدد لا حصر له من المجلات التي تصدر في : الصين ، والاتحاد السوفييتي ، وبولندا ، وتشيكوسلوفاكيا • أما الإذاعات فكانت تعد في الصين وتذاع على الأسرى في المعسكرات بواسطة مكبرات الصوت •

كما حددت الاتصالات الشخصية بالزوار الذين يفدون الى المعسكر من الخارج تحديدا دقيقا ، حتى لا يعلم الأسرى حقيقة ما يجرى في العالم •

وعمل الصينيون باستمرار على تقويض كل روابط العاطفة والصداقة بين الأسرى ، فتغاضوا عن الرتب وحاولوا في كثير من الاحيان أن يولوا على جماعات الأسرى أفرادا منهم صغار السن أو لا يصلحون للقيادة ، بهدف تذكيرهم ان الأسس القديمة للتنظيم لم يعد لها مكان ، كما أخذوا يلحون على أن الرتبة العسكرية لم تعد لها أهمية ، اذ أن كل مجموعة عبارة عن اخوة تعمل من أجل السلام يتساوى الكل فيها تبعا لتعاليم الشيوعية •

وقد صاحب ذلك تقسيم الأسرى مجموعات صغيرة على أساس الجنس Race والرتبة ، وكان الهدف من ذلك استخدام الاقليات من الزنوج لاستغلالها في عملية التشقيف ، وكذلك تحطيم الكيان الداخلي للجماعة على أساس ابعاد القادة الطبيعيين لكل جماعة •

أما من الناحية المعنوية والروحية فقد منع الصينيون كل صور العبادات الدينية ، وعذبوا باستهانة كل الاساقفة العسكريين الذين حاولوا تنظيم اقامة صلوات دينية ، كما حطموا الارتباط بالاهل والاقارب في أرض الوطن بتعطيل

البريد ، موحين اليهم أن عدم وصول البريد اليهم معناه أن الاهل والأقارب قد تخلوا عنهم ولم يعودوا يعنون بآمرهم .

واستغل الصينيون الاستخدام المنظم للجواسيس من الصينيين ومن الاسرى لمعرفة ما يجرى فى معسكرات الاعتقال ، وقد ادى ذلك الى ايجاد جو من عدم الثقة بين الاسرى ، وكانت الوسيلة الوحيدة للسلامة هى انعزال كل فرد تماما عن باقى زملائه .

ولذلك كان الصينيون على دراية تامة بآى تنظيمات تقوم بين الاسرى لغرض المقاومة ، وهذه سرعان ما كانت تحطم منذ البداية ، مما يدل على أن أسلوب الكبح والكبت الاجتماعى كان له أثر كبير على السلوك الانعزالى للاسرى داخل المعسكر .

وكانت الجماعات التى تتشكل بين الاسرى تهدف الى ثلاثة أغراض :-

- ♦ التخطيط للمعاونة على الهرب .
- ♦ منع الافراد من التعاون مع الصينيين .
- ♦ أسباب اجتماعية .

وتبعا للمعلومات فان الجماعات التى تشكلت لتعاون على تهريب الاسرى قد حطمت بسرعة . ومع أنه قد وضع تخطيط لعدة محاولات للهرب فان المنطقة الموحشة المجاورة مع الجهل بالارض ، والطرق ، والخوف من عنف الكويزيين الشماليين قد عاوت على الحد من هذه المحاولات .

كما استخدمت المكافآت للتبليغ عن حوادث الهرب ، فإذا هرب أسير مثلا كان من السهل القبض عليه باعلان أن الذى سيجىء به سيعطى جوالا من الارز ، وقد كانت هذه المكافآت تعتبر من المكافآت السخية للاسرى فى مثل هذه الظروف القاسية التى كانوا يعيشون فيها .

أما الجماعات التي نظمت لمنع الأسرى من التعاون أو التهديد بالانتقام منهم إذا ما تعاونوا مع الصينيين ، فقد كانت تتكون من بعض الذين يجيدون النقاش والجدل ، والذين كانوا من أكثر الجنود عنفا في أعمال المقاومة •

وقد أطلق الصينيون على إحدى هذه الجماعات الاسم « كلوكوكس كلان » لسياستها الاعتدائية ، وظهر أن هذه الجماعة كانت تتكون من الأفراد الذين تعرضوا أكثر من مرة لسجن الصينيين ، أو الذين اضطهروا لنقضهم ومخالفتهم قوانين السجن ونظمه •

أما النوع الثالث من الجماعات فقد كان يتكون من الأسرى الذين يسرهم اجتماعهم معا على مثال الجمعية التي كونها كبار السن من الجنود ، وأطلقوا عليها « منزل الجندي العجوز » •

ولقد عهد الصينيون لعدد كبير من الجنود بتشكيل « لجان السلام » وكانت وظيفتها تعويق أى حركات للمقاومة ومنعها • وكان أفرادها يقومون بالأعمال الدعائية مثل : اعداد النشرات ، والتماسات السلام للأمم المتحدة ، وكتابة بعض الاحاديث للاذاعة ، وكانت جهود هذه الجماعات تختفى تحت ستار أعمال الترفيه •

كان أعضاء هذه اللجان يختارون بطريقة ديمقراطية ، ولكن الانتخاب كان يجرى المرة بعد الأخرى حتى يتم اختيار من يريدهم الصينيون فعلا • وفي كثير من الأحيان كان الأسرى يوفرون على أنفسهم العناء بأن يختاروا منذ البداية الأفراد الذين يريدهم الصينيون •

وكانت اللجان التي تتولى الاعمال الادارية اليومية الرتيبة في المعسكرات مسئولة عن : الشئون الصحية ، والغذاء ، والترفيه ، والدراسة ، ويبدو أن اختيار بعض الافراد من « غير المتعاونين » لعضوية هذه اللجان كان يتوقف على مدى رغبة الصينيين في الإبقاء على اتصالاتهم بالأسرى ومعرفة مختلف الاتجاهات ،

وعندما تحسنت الاحوال في المعسكرات عامى ١٩٥٢ ، ١٩٥٣ ، كانت هذه اللجان تمثل مختلف الجماعات في المعسكرات تمثيلا جيدا ، وفي ذلك الوقت لم تكن الحاجة ماسة الى جماعات السلام اذ كان الصينيون قد استنفذوا منها كل احتياجاتهم لحملات الدعاية .

على أن الظاهرة البارزة في كل هذه اللجان كانت عدم اتزانها ، وعدم استقرارها من وجهة النظر الداخلية ، ذلك أنه بسبب احتمال وجود جواسيس ومبلغين بين أعضائها أوجد جوا من عدم الثقة المتبادل ولا سيما بين جماعات السلام ، فلم يكن أى عضو يستطيع أن يعرف على التحقيق ما اذا كان أى عضو آخر هو من الموالين فعلا أو ممن يتظاهرون بذلك بقصد متابعة الحياة في هدوء .

وحتى أعضاء جماعات المقاومة ، وجماعات الخدمة الاجتماعية كانوا يواجهون نفس موقف عدم الثقة ، ذلك لأن أحدا لم يكن يستطيع أن يعرف الجواسيس والمبلغين الذين يدسهم الصينيون في كل من هذه الجماعات للاخطار بنشاطها ، ثم ان توقع الغاء كل جماعة أو حلها في أى لحظة جعل كل عضو عازفا عن الاعتماد أو الارتباط بأى عضو آخر .

وهكذا حالت هذه العزلة الاجتماعية عن أن يكشف أى عضو عن معتقداته واتجاهاته عن طريق صلاته بأى فرد آخر في وقت كانت مختلف المعتقدات عرضة لهجمات عنيفة من مختلف الاتجاهات .

المحاضرات والمناقشات :

كانت الوسيلة الرئيسية للتثقيف المباشر عبارة عن سلسلة من المحاضرات يحضرها كل الاسرى طوال مدة أسرههم ، وكانت هذه المحاضرات تلقى يوميا وتستمر من ساعتين الى ثلاث ساعات .

وكان في كل معسكر معلم سياسى أو أكثر يلقى محاضراته من أوراق معدة له ، والعادة أن يجلس معلم آخر يراجع ما يقرأه الأول على نسخة أخرى من المحاضرة ليتحقق من اتباع النص المكتوب .

وكانت المحاضرات سهلة ، دعاية مباشرة واضحة تهاجم الامم المتحدة بصورة عامة ، والولايات المتحدة بصفة خاصة في مختلف النواحي : السياسية : والاجتماعية ، والاقتصادية ، وفي نفس الوقت تمجد ما حققته الدول الشيوعية وما تتطلع اليه من رفاهية ودعوة « للسلام » .

وبرغم عدم دراية الكثير من المعلمين بأهميات الكتب الشيوعية ، فان استمرار الضرب على نقاط معينة ، واقتراح ذلك بالاساليب الاخرى المستخدمة وفي موقف لم يتوافر للأسرى فيه أى مصدر آخر للمعلومات - جعل الكثير من نقاط الجدل الصينية تنفذ الى أذهان الجنود وتجعلهم يناقشون ببلبلة بعض وجهات نظرهم القديمة من زاوية أخرى .

وكانت دعوات السلام تلقى استجابة من الجنود المتعبين الذين أجهدتهم ظروف الحرب لا سيما أن ذلك كان يصاحبه تبرير للأسرى بأنهم انما يخوضون معركة على أرض أجنبية عنهم ، وأنهم يشتركون في حرب أهلية لا ناقة لهم فيها ولا جمل .

وقد شددت المحاضرات والمناقشات التثقيفية على التوقعات التفصيلية لما سوف يحدث للأسير عند عودته الى وطنه ، وقد تحقق بعض ما تنبأ به الصينيون(١) اذ قدروا أن مشكلات معينة من المشكلات العديدة التى سوف تنشأ انما ترجع الى « ضعف » أو عدم عدالة الايديولوجية الرأسمالية .

على أن المناقشات الجماعية التى كانت تجرى بعد كل محاضرة زادت قابلية الاسرى فى تقبل وجهات النظر الجديدة ، وحاول الصينيون بكل عزم ودون كلل استغلال ذلك فى عملية التثقيف .

(١) نالش هنرى سيجال هذا فى مجلة علم النفس العقل الأمريكية مجلد ١٩٥٤ عدد ١١١ ص ٣٥٨ - ٣٦٣ ، كما ناقشه روبرت ليفتون فى العدد ١١٠ من نفس المجلة . الصفحات ٧٣٢ - ٣٧٩ .

كانت أغلب المحاضرات تنتهي عادة بسلسلة من الخلاصات مثل « بدأ الكوريون الجنوبيون الحرب بغزو كوريا الشمالية » أو « أن غرض الدول الرأسمالية السيادة على العالم » ، ثم يقسم الأسرى بعد ذلك جماعات تذهب إلى أماكن إقامتها لتناقش وحدها الخلاصة التي انتهت بها المحاضرة لمدة ساعتين أو أكثر .

وكان على كل جماعة اثر انتهاء مناقشتها أن تقدم إجابات مكتوبة عن أسئلة كانت توزع عليهم أثناء المحاضرة .

ولذلك فإن مناقشة المحاضرة إنما كانت تعنى فى الواقع الاقتناع بالخلاصة التي سبق وانتهت اليها المحاضرة (١) .

وقد خصص لكل جماعة « مرشد » لمعاونة الأسرى في المناقشة ، وكذا للتأكد من أنهم يتبعون الاتجاه الصحيح السليم ، ثم عليه أن يجمع منهم الاجابات ويتأكد من أنها تسير في الاتجاه الصحيح .

وفي البداية كان هذا المرشد عادة صينيا يتحدث الانجليزية ، ولكن كلما سنحت الفرصة كان هذا المرشد يكل الامر الى أحد أفراد الجماعة الذي يبدي تعاوناً وعطفاً أكثر على وجهة نظر الشيوعية .

وكان التكرار أسلوباً أساسياً في المناقشة إذ كانت الاجابات لا تتمشى مع ما يطلبه المرشد ، فإذا قال أحد أفراد الجماعة مثلاً : « ان الكوريين الشماليين قد غزوا كوريا الجنوبية كان على الجماعة أن تنصت للمحاضرة ثانية ، وان تعود لاجراء المناقشة مرة أخرى » .

(١) في السنة الأخيرة من الأسر أو ما يقرب من هذا أصبح حضور الكثير من هذه المحاضرات اختياريًا ، وكان يحضر هذه المحاضرات أو يشترك في المناقشات الأسرى الذين أرادوا أن يعرفوا مزيداً عن الشيوعية ، وكان هؤلاء الذين يحضرون المحاضرات الاختيارية يعرفون باسم « المتعاونين الذين يريدون الدراسة » وقد منحوا عدة امتيازات لم تكن تمنح لباقى الأسرى .

وقد يستمر هذا الاجراء لعدة أيام دون أن يمل الصينيون من هذا التكرار ،
ويبدو أنهم كانوا يعتقدون بأن في المناقشات الجماعية الفرصة الكبرى للنجاح
في تحويل الجنود الى وجهات نظرهم عن محاولة تحقيق ذلك بالتشقيف الفردى .

وكان نجاح مثل هذه المناقشات غالبا ما يتوقف على درجة الاشراف ، فاذا
كان المرشد متهاونا فان من المحتمل أن تقضى الجماعة الوقت في الحديث عن أى
شيء عدا المادة المطلوب مناقشتها ، ولكن المشرف الذى يكون من أسرى الحرب ،
أو من الصينيين الذين تتوافر لهم دراية باللغة الانجليزية كان يدير المناقشة
بنجاح وبقدر كبير .

ولم يكن من الضرورى أن تؤدى المناقشات الموجهة الى أن يعارض الفرد
أو يتشكك في معتقداته نفسه ، ففي كثير من الاحوال سمح لاسرى الحرب بدعم
معتقداتهم السابقة باعطائهم فرصة للحصول على ادراك لا شعورى بصلاحيه هذه
المعتقدات . وكان الهدف من ذلك هو الايحاء للاسرى بأن المناقشات هدفها
تعليمى وتعتمد على الاقتناع .

المكافآت والعقوبات :

قد يبدو من تكتيك الصينيين أنهم أرادوا لاغراض الدعاية أن يجذبوا بعض
الاسرى بوسائل معينة دون أن يعينهم أن يؤمن هؤلاء الافراد بالشيوعية ، وذلك
لاستغلالهم فى مواقف كثيرة . وقد استطاع الصينيون اجتذاب هذا النوع من
الافراد : بواسطة الحث والمكافآت من ناحية ، أو بواسطة التهديد بالعقاب من
ناحية أخرى .

ولقد ظهر للاسرى منذ البداية أن التعاون مع الصينيين سوف يحقق لهم
حياة هينة فى الاسر ، على حين أن علم التعاون أو المقاومة سيخلق لهم المتاعب
والمضايقات .

وقد اختلفت أنواع المكافآت التي كان يمنحها الصينيون للأسرى باختلاف حالاتهم ، وتبعاً للظروف التي يعيشون فيها .

ففي أثناء عمليات السير ، وفي أثناء الإقامة في المعسكرات المؤقتة كانت الأحوال تسوء بالقدر الذي يجعل : اعطاء أى كمية اضافية من الغذاء ، أو أى علاج للأسير ، أو منحه أى قطعة من الثياب ، واسكانه فى غرفة غير مزدحمة - مكافأة كبيرة القيمة ، فلما وصل الأسرى الى المعسكرات الدائمة كان : مجرد الوعد بالاطلاق المبكر ، وإعادة الأسير الى وطنه . أو حتى أى تحسين عادى فى حاله يعتبر وسيلة كافية لاجتذابه واستغلال تقبله .

ومع أن الأحوال كانت فى المعسكرات الدائمة جيدة نسبياً وبالقدر الذى جعل الاحتياجات الأساسية لا تعتبر حافزاً كبير الاثر للتعاون ، فان الوعد بالاعادة المبكرة الى الوطن ظل حافزاً قوياً على الرغم من أنه تكرر مراراً ولم يتحقق .

وفى هذا الوقت برز حافز قوى جديد هو امكان الاتصال بالعالم خارج الصين ، مما جعل بعض الأسرى - فى سبيل أن يعرف أهلهم أنهم على قيد الحياة - يتعاونون مع الصينيين: بتسجيل بعض فقرات الدعاية ، أو بكتابة الخطابات المليئة بالدعاية ، أو بالتماسات السلام حتى يضمنوا ارسال رسائلهم الى أهلهم .

ومع استمرار تحسن الأحوال صارت الكماليات وسيلة جيدة لاجتذاب المتعاونين ، وصارت : السجائر ، والامشاط ، والصابون ، والخلوى ، وبعض قطع الثياب ، والفاكهة الطازجة بل حتى كوب ساخن من الشاي ، أو كأس من الشراب - وسيلة جيدة لاجتذاب المتعاونين ، وكان بعض الأسرى يبذلون دائماً كل جهد للحصول عليها .

على أن الحصول على مثل هذه الكماليات كان يرتبط دائماً بمدى رغبة الأسير فى التعاون ، وكان أى اتجاه للتعاون سرعان ما يتبع بزيادة المكافآت المادية ، وبالوعود الخاصة بالمستقبل . وقد ظهر من استجابات بعض الأسرى بعد

عودتهم الى أرض الوطن أن السوق السوداء قد انتعشت بينهم في المعسكرات .
اذ كان الاسرى الذين يمنحهم الصينيون هذه الاشياء ولا يرغبون في استعمالها
بييعونها لزملائهم . وبالإضافة لذلك تداولت السوق السوداء الادوية والعقاقير
الطبية التي كان الموالون يحصلون عليها من الصينيين لبييعونها لمن يحتاج اليها .

ولقد استخدمت هذه المكافآت في بعض الاحوال بمهارة للربط بينها
وبين عمليات التثقيف ، فكانت السجائر والفاكهة الطازجة تعطى فقط في مقابل
كتابة موضوعات عن مسائل معينة في السياسة الدولية ، وكانت الموضوعات
التي تفوز بالجوائز تنشر عادة في الصحيفة أو المجلة التي تصدر في المعسكر ،
وكان الفوز بالجائزة رهينا بتمشى الرأي الذي يبرزه المقال مع وجهة النظر
الشيوعية ، ويكون الاسير الذي يفوز بالجائزة غالبا في طريقه الى التعاون
بصورة ما . وقد نجحت هذه المنافسة في جعل الكثيرين يشتركون في الكتابة ،
كما أتاحت دراسة مختلف وجهات النظر مناقشة الاسرى لوجهات نظرهم القديمة
ونقدها .

وقد استخدم الصينيون أيضا أسلوب المكافأة أو العقاب لتحطيم أى
منظمات جماعية يمكن أن تتشكل بين الاسرى .

فعلى سبيل المثال حدث بعد تجمع الاسرى في المعسكرات الدائمة أن أوحى
الى بعض الافراد أنهم لو قاموا بإذاعة أحاديث في الراديو موجهة الى الامم المتحدة ،
فان ذلك سيساعد على اطلاق سراحهم في تاريخ مبكر . ولم تكن محتويات الاذاعة
محددة ، ولكن الاسرى وافقوا على القيام بهذه الاذاعات بأمل أن يعرف أهلهم
عن طريق هذه الاذاعات أنهم على قيد الحياة ، وقد جمع هؤلاء الافراد علانية أمام
باقي الاسرى وسير بهم الى مبنى على مسافة من المعسكر حيث توجد استديوهات
الاذاعة ، وفي نفس الوقت أوهم باقي الاسرى بأن هؤلاء سيعطون امتيازات خاصة
بسبب تعاونهم في اقرار السلام في أرض كوريا .

وظهر أن محتويات الاذاعات كانت مجرد التماسات تشتمل بطريقة ملتوية
على ادانة الامم المتحدة ، وعلى تقرير أن الاسرى يعاملون معاملة طيبة كريمة ، وعندما

اطلع الأسرى على نصوص الاذاعات رفض البعض اذاعتها بالرغم من التهديد بتوقيع عقوبة ، ووافق البعض مع محاولتهم ان يضمنوها بعض كلمات تدل على انهم تحت ضغط قهرى .

وعندما عاد هؤلاء الى المعسكر بعد تسجيل الاذاعات ، وجدوا انهم قد اثاروا الشك والعداء من جانب زملائهم بخاصة ان الصينيين اظهروا رضاهم بان اسبقوا عليهم بعض التقدير .

وقد استمر بعض هؤلاء الافراد في تعاونهم مع الصينيين معتقدين ان ذلك لا يضر بقضية الامم المتحدة بحال ما ، بل ان بعضهم تصور انهم يقومون بدور عملاء سريين بدافع من انفسهم لمحاولة التغلغل في اعماق التنظيمات الصينية للحصول على معلومات وانباء يمكن بها معاونة قضية الامم المتحدة .

وقد كان في مقدمة المكافآت التى حرص الصينيون على منحها للأسرى المتعاونين معهم امتيازات رمزية مثل : منح الرتب ، والدرجات في سلم القيادة في المعسكر ، ولكن كان الاهم من ذلك منح هؤلاء الافراد حرية التحركات ، اذ كانوا يستطيعون دخول مبنى الرئاسة الصينية للمعسكر في اى وقت ، كما كانوا يستطيعون ان يذهبوا الى المدينة في اى وقت شاموا ليلا او نهارا ، بالاضافة الى انهم كانوا يختصون بالاعمال المريحة فى المعسكر ، ويجنبون الاعمال المرهقة التى تسبب الضيق والاعياء للقائمين بها .

وكان الصينيون يستشيرونهم في المسائل السياسية ، واعطوا لهم علامة مميزة يعرفون بها ، وهى عبارة عن رسم صغير لحماية توضع على الياقة أو يضعون علامة تحمل صورة ماوتسى تونج .

وقد منح الصينيون الكثير من الوعود الخاصة بمستقبل الاسرى ، وقيل لهم : انهم يلعبون دورا هاما في حركة السلام ، وانهم سوف يستمتعون بمكانة عالية فيها لو استمروا في العمل لها .

ولو سألنا أنفسنا : لماذا يسلك الافراد مثل هذا السلوك ؟ ولماذا صدقوا هذه الوعود ؟ للإجابة عن ذلك يجب أن ننظر الى الظروف التي كانت تكتنفهم والتي سبق وصفها ، فان هؤلاء الافراد لم يكن أمامهم بحال ما أى مصدر آخر للمعلومات يعتمدون عليه ، كما أن هناك نقطة هامة هي أن هؤلاء الافراد اذا ما بدأوا التعاون مع الصينيين ولو في عمل تافه فانهم كانوا يفقدون الثقة والتعصيد من باقى زملائهم مما كان يدفعهم الى التعاون الى أبعد مدى مع آسريهم سعيا وراء السلامة والطمأنينة .

وليست هذه كل وسائل المكافآت والعقوبات ، فقد ذكرنا الكثير منها في الفصل الخاص بالاستجاب واستنطاق الاعترافات .

والواقع أنه من الناحية الجوهرية يمكننا أن ننظر الى تجربة كل أسير حرب في معسكرات الاسرى وكأنها سلسلة من المشكلات كان على كل فرد أن يحلها حتى يستطيع أن يبقى حيا في حالة متكاملة ، وكان في مقدمة هذه المشكلات : مشكلة « الحرمان البدنى » ومشكلة « الخوف من عدم العودة الى الوطن » أو « التعذيب » أو « القتل للتخلص من الاسير دون أى دليل على وجوده أو أسره » .

على أن المشكلتين اللتين تليان ذلك في الاهمية هما مشكلة النظر الى الحياة تحت ظروف وأحوال تحطمت واضطربت في ضوءها القيم والمعتقدات ، ثم مشكلة الاحتفاظ بمكانة صالحة في مجتمع مع الابقاء على صلات صداقة وروابط مع آخرين في جو يقوم على عدم الثقة المتبادلة بين الافراد ، وتنعلم فيه القيادة .

استغلال الدعاية :

ولقد استغل الصينيون أساليب الدعاية المعروفة في أثناء عملية التشقيف ، فقد كانت النشرات توزع ، وتعرض الافلام التي تمجد ما حققه النظام الشيوعى في الاتحاد السوفييتى وفي الصين ، وتبين المكاسب والمنافع التي يحققها هذا النظام للعامل والفلاح ، أكثر مما حققه النظام الرأسمالى .

على أن أشد هجوم تعرضت له المعتقدات والاتجاهات جاء من شهادات الأسرى الذين كانوا يعضلون في وضوح مشروعات الصينيين ، ولقد تضمنت هذه الشهادات : خطبا ، وأحاديث إذاعية ، والتماسات للسلام ، واعترافات دعائية .

وكان لاستخدام هذه الشهادات نفع مزدوج ، إذ أنها من ناحية ساهمت في تحقيق دعاية الشيوعيين ، ومن ناحية أخرى أضعفت الروابط الجماعية بين الأفراد . وكان نتيجة ذلك أن كل أسير كان يشعر بالانعزال والوحدة ، وأصبح في حيرة وشك لا يمكنه من اتخاذ موقف مشترك متماثل مع باقي الجماعة ، بل يفطر كل فرد نتيجة هذه الظروف التي تحيط به أن يعيد دراسة معتقداته ، ومن ثم فانه يتعرض لان ينقاد الى جانب الرأي الذي يتكرر على مسامعه كل يوم .

* * *

وكانت « حرب الميكروبات » من الموضوعات الحيوية التي استغلها الصينيون في دعاياتهم ضد الولايات المتحدة بارتكابها جريمة كبرى ضد الانسانية ، وقد اعتمدوا في ذلك على الاعترافات الخاصة بها ، والتي أخلت من عدد من ضباط السلاح الجوي وجنوده .

لقد أصبح موضوع حرب الميكروبات في كوريا هو الموضوع الرئيسى للتصريحات الرسمية وشبه الرسمية ، وكانت الاتهامات تدعم بجميع الأدلة التي يتقبلها العقل ، إذ جاءوا بالعمال الزراعيين ليقصوا كيف شاهدوا خزانات الجراثيم وهي تتساقط ، وأطلعوا المخبرين الصحفيين على شظايا القنابل ، وعرضت صحائف زجاجية يستطيع أن يرى كل انسان عليها بالمجهر خلايا البكتريا وهي تسبح ، كما كان هناك بالفعل بعض الدباب والفيران مما يكفى للعرض في جميع أنحاء البلاد .

وحاول الموظفون الصينيون مخاطبة فطنة الناس لأن الرؤية هي المعرفة ، كما دعوا بعض المتخصصين في علم الاحياء ليؤمنوا على أقوالهم ، ولم يبق سوى اعترافات الجماعات المذنبة حتى يصبح الاتهام ثابتا ، وقد تحقق ذلك باستجواب عدد من الطيارين الذين اعترفوا بجرائمهم وأسلفهم .

ولقد نجح الصينيون في الحصول على الاعترافات المطلوبة لاعمال الدعاية ،
ففى قصة أحد الطيارين الذين استجوبوا وصل به التوتر والانهايار الى حد انه
اعترف وهو معظم الشعور بعقدة الذنب بأنه ارتكب جريمة كبرى في حق
الشعبين : الصينى والكورى ، وأنه يأمل أن يغتفر له ما اقترف من ذنوب واثم ،
ثم اخذ يشرح بصراحة مذهلة كيف انه اشترك في شن الحرب الميكروبية ضد
الفلاحين البسطاء . لقد ارتسم على عينيه وهو يدلى بهذه الاقوال الحزن الشديد ،
كما ازيلت الطلاقة التى اتسمت بها اجاباته كل ريبة وشك .

لقد كانت أقلام المخبرين الصحفيين تتسابق في الكتابة وهو يدلى باعترافه ،
وكان يبدو انه مخلص فيما يقول ، مما يوحى للذين يسمعون انه فعلا يسدى
اقواله دون أى ضغط عليه ، او ايحاء خارجى .

وقام الصينيون بتصوير افلام سينمائية تبين بعض الأسرى وهم يدلون
باعترافاتهم امام اللجنة الدولية التى شكلها الصينيون لبحث الأمر ، وعرضوا
هذه الافلام في المعسكرات .

وبالاضافة الى ذلك كان يتنقل ضابط او ضابطان أمريكيان من معسكر
لآخر ليوضحا للأسرى كيف أن قوات الامم المتحدة استخدمت القنابل المعبأة
بالميكروبات .

وفى الواقع كان لذلك اثر بالغ ، فان التفاصيل التى شرحت للأسرى ،
والافاضة فى الشهادات مع الاخلاص الظاهر فى احاديث الضابط وحرية تحركه
من معسكر لآخر اوحت الى الأسرى انه ليس هناك أى نوع من القسر والارغام ،
مما جعل الكثيرين منهم يؤمنون بأن ما حدث لابد من أن يكون حقيقة واقعة .

كما استخدمت الاذاعة والبرقيات لنشر هذه المعلومات على العالم الخارجى
لكسب الراى العام ، ويقول ادوارد هنتر فى ذلك : « رددت الاذاعات الصينية النبا
وارسلت البرقيات الى جميع انحاء العالم حتى يتسنى وصولها الى اهالى الهند

الشديدى الحساسية ، وسكان الارجتين الحادى المزاج ، والسفسطائيين من اهل الريف الانجليزى ، وحتى الى الامريكيين المذنبين انفسهم • وفى كل مكان من نيودلهى الى لندن ، ومن جاكرتا الى مكسيكو سيتى ، قال عدد كبير من المحررين الذين ادعوا أنهم على يقين مما يقولون : ان مثل هذا الكشف يجب الا يظل فى طى الكتمان • كما عرضت الافلام السينمائية على جماعات منتقاة من الموظفين والمواطنين العاديين فى اثناء الحفلات التى كان يقيمها الدبلوماسيون الصينيون لاقناع المتشككين بالادلة الدامغة » •

وعموما فان هذا الاسلوب وان كان يعوزه الدليل على أن الاعترافات التى استغلت فى الدعاية لم تؤخذ تحت ظروف قهرية ، الا أننا نرى أن هذه الوسيلة قد نجحت الى حد كبير فى أعمال الدعاية ضد الأمم المتحدة عامة ، والولايات المتحدة بصفة خاصة •

* * *

وثمة صورة أخرى من صور الدعاية ، هى ما قام به الصينيون من استخدام الكوريين الشماليين للادلاء بشهادات عن وحشية الأمم المتحدة ، فكانوا يحضرون فى فترات معينة نسوة واطفالا ليدكروا أمام احدى لجان السلام كيف أن طائرات الأمم المتحدة ألقت على القرى بعض اللعب والدمى الصغيرة التى كانت تنفجر بمجرد أن يلمسها الأطفال •

والحق أنه يصعب تقدير تأثير مثل هذه الدعاية ، ولكن ليس غير محتمل أن الكثيرين من الأسرى وشعوب الدول الأخرى قد اعتقدوا صدق كل هذه القصص وما شابهها ، بل ان هذه الدعاية قد نجحت الى حد كبير لتأليب الكثير من شعوب العالم ضد أعمال الولايات المتحدة •

لقد أصبحت الحرب فى هذا العصر حربا عقلية أكثر منها حربا جسدية ، وأصبح من الواضح أن كسب هذه الحرب العقلية يتوقف تماما على غزو الميول والمشاعر ، وفى هذا المجال يمكن أن نطلق كلمة « سلاح » على كل ما يساعد على تحقيق هذا الغرض •

مدى نجاح برنامج التشقيف :

من الصعب تقدير مدى النجاح الذى حققه الصينيون فى تحويل أسرى الحرب الى الايديولوجية الشيوعية ، وذلك لعدم تيسر وسائل التقدير السليم للتحويل الايديولوجى ، وكذا لاستحالة تقدير التأثيرات المستترة لهذا التشقيف .

على أنه فى ضوء المعيار المكشوف الواضح للتحويل الايديولوجى فاننا نستطيع أن نقول : ان البرنامج الصينى كان عملا غير موفق اذا ما قورن بالجهد الذى وجه اليه وبذل فيه ، فان عدد الافراد الذين رفضوا العودة الى وطنهم والذين لا يتجاوزون الواحد والعشرين يعتبر صغيرا جدا ، وربما قد فضل هؤلاء البقاء لأسباب غير التحويل الايديولوجى^(١) ثم ان الرأى الاجماعى بين الاسرى كان ينصب على أن أولئك الذين تعاونوا كانوا من الانتهازيين ومن الضعفاء الواهين . وعلى أية حال فان كل ما يستطيع المرء هو أن يقدر على أساس التخمين والحدس كيف عمل هؤلاء الاسرى الذين آمنوا بالشيوعية على اخفاء اتجاههم هذا عن زملائهم ، كما يستطيع أن يقدر الدرجة التى هبى بها هؤلاء الأفراد لتقبل العقيدة الجديدة .

والحق أنه من الصعب أن نقرر ما اذا كان عدم توفيق البرنامج الصينى النسبى يرجع الى عدم كفاية مبادئهم للتشقيف ، او الى ضعف أسلوبهم الفنى لتنفيذ هذا البرنامج أو نتيجة هذين العاملين معا .

على أن الممارسة العملية كانت فعلا غير ذات أثر ايجابى نتيجة أن الكثيرين من المدربين كانت تنقصهم الخبرة بالثقافة الغربية ، ولم يكونوا يجيدون التفاهم باللغة الانجليزية ، وكان الكثير من « الحقائق » التى أعطوها للأسرى عن وطنهم تشوبها الدقة ، ومن ثم فانهم لم ينجحوا فى الحصول على مستمعين يستجيبون لما يقولونه ، هذا عدا أن محاولاتهم للتعليم بواسطة المناقشات الجماعية لم تحقق

(١) ناقشت لوجينيا باسلى فى كتابها « ٢١ بقوا » 21 Stayed طبع نيويورك عام ١٩٥٥ بعض العوامل فى حياة هؤلاء الذين بقوا ولكن كتابها مع الأسف لا يعتبر كاملا لأنها أغفلت العوامل والقوى المؤثرة وراء أولئك الذين قرروا العودة بالرغم من تعاونهم بصورة أو باخرى

اغراضهم لانهم لم يدركوا سخرية الاسرى من المصطلحات الانجليزية التي اصطنعوها للتعبير عن آرائهم ، وذلك نتيجة لضعف تمكنهم من اللغة .

ومع ان وسيلة التعليم عن طريق اقامة علاقات شخصية وثيقة بين المعلمين والطلبة تعتبر وسيلة ناجحة جدا في نشر البرامج العقائدية ، فانه لم يتوافر للصينيين فعلا العدد الكافي من المعلمين الصالحين للقيام بهذه التجربة ، ومن ثم لم يوفقوا في تثقيف أكثر من حفنة من الرجال .

وكان أسلوب الصينيين لتحطيم كل المنظمات ذات الطابع الرسمي ، أو المنظمات التي قامت بين الأسرى بدافع من أنفسهم ناجحا جدا في خلق شعور بالعزلة الاجتماعية والعاطفية ، ولكن هذا الأسلوب لم يكن كافيا قط بالقدر الذي يجعل الأسرى يعتمدون تماما على الصينيين ، ذلك لأن الفرصة لمقاومة هذا التثقيف كانت تظل قائمة ما دام الأسرى يعيشون معا ويتلقون هذه الدراسات في جماعة واحدة ، وبذلك كان في استطاعتهم أن يتعرفوا وجهات نظر بعضهم بعضا مما كان يهيئ لهم طاقة على تبين الحقيقة بقدر يكفي للمقاومة بشكل مستتر ، اذ لم يستطع الأسرى تبعا للسيطرة والرقابة تكوين مقاومة علنية منظمة ، أو اقامة علاقات مع الخارج بواسطة تهريب المعلومات سرا خارج البلاد .

وكانت أقوى دعائم الجدل ضد الشيوعية تدور حول المستوى المنخفض للحياة في قرى كوريا الشمالية التي عاش فيها الأسرى ، وجادل الكثيرون منهم كيف يمكنهم أن يصدقوا نظاما تبدو قيمه أخاذا جذابة على الورق دون أن تمارس عمليا ، ولم يستطع الكثيرون أن يتقبلوا ما قيل لهم : ان هذه الاحوال ما هي الا لظروف موقوتة .

ويمكن أن يقال اجمالا : أن الصينيين نجحوا في تقييد بعض أنواع السلوك بين الأسرى ، ولكنهم لم ينجحوا تماما في تحويل معتقداتهم . ولكن علم النجاح الكامل قد يرجع الى علم كفاية برنامج التثقيف ، نتيجة قلة توافر المعلومات الصحيحة لدى الصينيين ، وكذا النقص الكبير في المدرسين والمرشدين .

وفي الحروب قد يحدث تعاون مع العدو من جانب الاسرى بدرجة تقل أو
تكثر عن ذلك .

وفي الحرب العالمية الثانية شاهدت كل معسكرات الاسرى أنواعا متباينة
من التعاون الا انه لم يحدث أن واجه الاسرى جهدا منسقا منظما يهدف الى دفعهم
الى التحول ايدولوجيا وجعلهم موالين سياسيا للجانب الآخر .

وكانت السابقة الوحيدة في التاريخ الحديث هي معاملة النازيين للمعتقلين
السياسيين على ما وصفها بروتو بيتلهم بقوله : « لقد استطاع النازيون بواسطة
التطرف في التعذيب البدني والنفسى ارجاع اسراهم الى « حالة الطفولة » وهي
حالة ينظر فيها الاسير الى حارس السجن او المعتقل برعب ، كما ينظر الطفل الى
ابيه الذي يخافه ويخشاه » .

وتحت هذه الظروف والاحوال ، مال المعتقلون الى ممالاة السلطات
التأديبية ، والى ممارسة الكثير من العادات التي ألفوها في حياتهم العامة بالمعسكر
لا سيما من ناحية السلوك اللائق داخل المعسكر . وقد يتذللون لينالوا حظوة
لدى الحراس لدرجة أنهم كانوا يقلدونهم في ارتداء الثياب وفي اسلوب الحديث ،
ثم يحاولون دفع باقي المعتقلين لاتباع قوانين المعسكر بدقة تامة .

ومن المحتمل أن يكون الصينيون قد اتبعوا هذا الاسلوب في معسكرات
الاسرى الا أن النازيين نجحوا في جعل المعتقلين لينى الشكيمة ، وهبطوا بهم الى
مستوى الاطفال المستسلمين ، كما حولهم الى عمال رقيق يعملون في خنوع
وخضوع ، على حين اتخذ الصينيون سياسة الملاينة ومعاملة المعتقلين كرجال في
حاجة الى التثقيف بغية الوصول الى « مهتدين » يعاونون ايجابيا على وجهة النظر
الشيوعية .

ولم يعامل معاملة تأديبية الا اولئك الاسرى الذين حاولوا أن يظهروا
بمظهر المتخلفين في الفهم او الادراك ، أو « الرجعيين » الذين لم يستطيعوا تبين
حقائق الشيوعية وادراكها .

وكان لب هذا الاقتراب الجديد يهدف الى سيطرة كاملة على الاسرى جسمانيا واجتماعيا ، اى السيطرة على كل العوامل التى تدعم وتعصف الاتجاهات والمعتقدات والقيم الجديدة ، وتحطم كل الروابط العاطفية التى توطد القيم والمعتقدات القديمة .

واذا كان الاتصال الوحيد الذى كان مسموحا به للفرد هو اتصاله بأفراد تسودهم معتقدات تخالف وتباين معتقداته ، فمن المحتمل أنه سيوجد فى النهاية بعض المعتقدات المشتركة بينه وبينهم . ومن ثم فانه لا يلبث أن يصير بعد وقت مؤمنا ببعض هذه المعتقدات .

ولنتساءل هل يكفى السلوك المتعاون فى حد ذاته تحقيق عملية التحول الايديولوجى ؟ ..

قد يحتمل أن يقوم المرء بأى أعمال تتفق مع ايدىولوجية جديدة ، بل قد يضطر الى اعتناق مبادئها لكى يبرر سلوكه فى المجتمع الذى يعيش فيه .

والانسان تحت ظروف معينة غالبا ما تتشابه آراؤه ومعتقداته مع الجماعة التى يعيش معها ، كما أن هناك من العوامل المتعددة التى قد تجعل الانسان يقتنع بمبررات العقيدة الجديدة .

على أن عوامل التبرير والتسويق التى تستخدم للتبشير المذهبى الجديد قد لا تتضمن ثبات هذه المعتقدات اللهم الا اذا صحبتها عوامل اجتماعية تعززها ، فقد يؤمن الانسان بمعتقدات جديدة تحت ظروف معينة وبايمان عن تفلؤل من تطور اجتماعى ، ولكنه قد ينفذ يديه من هذه المعتقدات اذا تغيرت الظروف وعاد الى عقيدته الاولى ، وحينئذ يجد من المبررات والوسائل ما يجعله يرتد عن العقيدة الجديدة .

وفى برنامج التشييف الصينى للاسرى نجد أنه علاوة على الصعاب الفنية التى واجهها الصينيون فى اجراء برنامجهم للتشييف لم يكونوا قادرين على السيطرة على الاتصالات الاجتماعية بالقدر الكافى الذى يمكنهم من تعزيز العلاقات الاجتماعية ذات الطابع الشيوعى ، والتى يمكن بها تبرير هذا التعاون .

على أننا عندما ننظر الى الاسلوب الذى عمل به الصينيون وأدى الى الانعزالية الفردية ، نجد أنه لا يعتبر عملاً جديداً أو مخيفاً ، كما أنهم لم يخترعوا أى وسائل غامضة للتعامل مع الناس ، وكان أسلوبهم للسيطرة على المعلومات بالرقابة الكاملة على كل وسائل النشر أسلوباً معروفاً عن كل الحكومات الطغوانية فى كل مراحل التاريخ . ثم إن أسلوبهم فى الدعاية بواسطة : المحاضرات ، وأفلام السينما ، والنشرات ، والكتب أسلوب معروف له مثيله فى عمليات التعليم والاعلان فى النظم الغربية ، كما أن نظام المناقشات الجماعية وغير هذا من الوسائل التى تتطلب اشتراك الافراد معا فى النقاش والجدل لها شبيهها فى التعليم ، وفى علاج الامراض النفسية والعقلية .

لقد كانت مسألة افضلية المناقشات الجماعية على المحاضرات للوصول الى قرارات متوازنة من أولئك الذين يشتركون فى المناقشات موضع بحث ضافية فى مدارس علم النفس الغربية .

وكذلك كانت أساليب الصينيين للاستجواب معروفة وتستخدم على نطاق واسع فى الجيوش الأخرى بل بواسطة : رجال البوليس ، ومخبرى الصحف ، وكل المهتمين بالحصول على معلومات مستترة مخفية .

وشئ آخر هو أن الاعترافات التى تجيء قسراً وبثقل النفس قد استخدمت بدرجة كبيرة بواسطة الحركات الدينية كقاعدة للتحويل الدينى ، أو كوسيلة لنشر عقيدة دينية معينة كما جاء فيما قبل .

ثم إن تقييد السلوك عن طريق الحث والمكافأة ، أو عن طريق العقاب لهو أقل وسائل الصينيين جادة واستحقاقاً ، ذلك لأن الناس قد سيطروا على بعضهم بعضاً بالمنع وبالعقاب منذ أقدم عصور التاريخ .

وكان الشئ الجديد الذى استحدثه الصينيون هو أنهم لجئوا الى كل هذه الوسائل مقترنة معا فى وقت واحد ، وذلك بقصد الحصول على سيطرة على الجزء الأهم من البيئة الجسمانية والاجتماعية لمجموعة من الناس .

الفصل الثالث

توجيه الفكر

تحدثنا في الباب الرابع عن أساليب الاستجواب واستنطاق الاعترافات في المجتمعات المختلفة ، كما بينا في الفصل السابق برنامج الإصلاح الايديولوجي لدى الصينيين بصفة عامة والذي طبق على أسرى الحرب في كوريا •

وفي هذا الفصل سنحاول أن نبحث بشيء من التفصيل حالات من الحالات التي واجهت عملية توجيه الفكر في سجون الصين : احدهما لطبيب فرنسي عمل في الصين لمدة عشرين عاما قبل سجنه ، ويدعى الدكتور تشارلس فنسنت ، والاخرية لقسيس ايطالي يدعى الاب فرنسيس لوقا •

وعلى الرغم من أن هذه المعلومات قد لا تكون دقيقة تماما ، أو قد يكون فيها مبالغة بخاصة أنها جاءت على السنة الذين تعرضوا لها ، فإن دراستها من الزاوية العلمية ذات أثر نافع ، فهي تعطينا فكرة واضحة لردود الفعل التي قد تحدث للانسان اذا ما تعرض لمثل تلك التجربة ، كما توضح بعض الأساليب التي تستخدم للتأثير على معتقدات الناس وشل ارادتهم الحرة •

على اننا سنحاول أن نقوم بتحليل سيكولوجي واف للمشاعر التي كانت تختلج فيمن تعرضوا لها ، حتى نستطيع أن نخرج بدراسة وافية عن هذا الموضوع •

ونود ان نشير هنا الى ان حالة الدكتور فنسنت تبرز اساليب « اعادة
التثقيف » وتوضح حالة الأب لوقا كيف يمكن ان يدلى الانسان باعتراف زائف
تحت ظروف وتوترات معينة حتى يصل به الامر الى ان يصدق هو هذه
الاعترافات .

كما نود ان نشير ايضا هنا الى احد تعليمات السجن الصينى الشيوعى
التي ترتبط ارتباطا وثيقا بعملية « توجيه الفكر » واننا نضع ترجمتها امام
القارئ لانها تعطى تلخيصا للاسلوب الذى يستخدم داخل جدران السجن
لتطبيق عملية التثقيف .

« تتبع فى معاملة المجرمين اجراءات مطردة منتظمة من : تجنيد جماعات
للاصلاح ، الى مقابلات او اجتماعات فردية ، مع دراسة الوثائق المقدمة منهم ،
ثم اجراء مناقشات منتظمة عامة بقصد تعليمهم الاعتراف بالذنب ، واطاعة القانون ،
والانصياع للاحداث السياسية الجارية ، علاوة على العمل الانتاجى والتثقيف .
وبذلك يمكن الكشف عن طبيعة جرائمهم التى ارتكبوها ، وازالة الافكار
الاجرامية ، واقامة شريعة معنوية جديدة يدينون لها بالولاء » .

اعادة التثقيف :

كان الدكتور فنسنت احد اطباء الاجانب الذين عملوا فى شنغهاى ، وكان
بين عملائه عدد كبير من المواطنين الشيوعيين ، وظل يمارس عمله حوالى العشرين
عاما فى راحة ويسر .

ولكنه بعد ظهر احد الايام وهو سائر فى احد طرق شنغهاى اعترضه
خمسة رجال شهبوا مسدساتهم نحوه ، وقلعوا له امرا باعتقاله واخلوه الى مكان
الاعتقال او الى « مركز اعادة التثقيف » حيث قضى السنوات الثلاث والنصف
التالية .

وتعرض فنسنت فى الاسابيع الثلاثة الاولى وهو فى سجنه لتلك الصور التى
يستخدمها الصينيون فى استجواباتهم والتى سبق ان شرحناها فى الباب

الرابع ومن ثم لن نعرض لها خشية اللالة . وبعد ثلاثة أسابيع قضاهما في السجن وهو يستجوب تحت تلك الظروف القاسية ، قدم اعترافاته عن جرائمه التي نسجها من خياله نتيجة التوترات الشديدة التي فرضت عليه .

على أنه حين بدأ يتكلم من وجهة نظر الشعب الصيني - على حد تعبيرهم - شعر فجأة بالتحسن الكبير في أسلوب معاملته ، اذ نزعته عن يديه وساقيه الاغلال والسلاسل ، وسمح له بأن يجلس مستريحا وهو يتحدث الى المحقق ، وقيل له : ان الحكومة تأسف لانه واجه مثل هذه المتاعب وان تكن الحقيقة انها ارادت بهذا كله معاونته ، وتمشيا مع سياسة الملاينة التي اخذت بها نفسها فانها لابد من أن تعامله برفق ، وقد تطلق سراحه بسرعة اذا قدم « اعترافا كاملا » وحاول أن يعمل بجهد وجد لاصلاح نفسه » .

وفي هذه المرحلة وجه توجيهها وديا لمعاونته في اعادة كتابة اعترافه ، وقد اعطاه هذا التغيير في حالته دافعا لأن يكيف نفسه مع الواجب الذي يطالبونه به . ولكنه سرعان ما وجد أن هذا « التوجيه » لم يكن لين الملمس ، ففي مرات ثلاث حينما بدأ نوعا من المقاومة رافضا الاعتراف بارتكابه أمرا معيناً قائلاً : « اننى لم افعل هذا » . أعيدت الاغلال الى يديه وعاد الى زملائه في غرفة السجن لهاجمته بالاقتوال المقلعة ، وفي كل مرة كان يظل في اغلاله ليومين أو ثلاثة أيام .

لكنه على أى حال لم يتعرض ثانية لما تعرض له في الايام الاولى لسجنه ، فكان يسمح له بالنوم ثماني ساعات ، وبدأت جلسات التحقيق تأخذ طابعا هادئا وسمح له بالجلوس على مقعد في اثناء التحقيق ، ولم يعد زملاؤه في السجن يشيرون ضجة من حوله . وهكذا قضى الاسبوعين أو الاسبوع الثلاثة التالية لا يفعل شيئا عدا زيادة تفاصيل اعترافه . وكان في جلسات التحقيق يتلقى من المحقق مزيدا من التعليمات التي تكشف له عن الطريقة الصحيحة لتطبيق « وجهة نظر الشعب » في كل ما يكتب أو يقول .

وبعد هذه المرحلة التي استغرقت حوالى الشهر أخذ فنسنت يسهم بنصيب في عملية « اعادة التعليم » ، وكان معنى هذا الاسهام النشاط في برنامج دراسة الجماعة Hsao hsi التي كانت تستمر من عشر الى ست عشرة ساعة يوميا .

وكان الاجراء للدراسة ميسرا كما بينا اذ تجلس الجماعة تحت اشراف رئيس الغرفة « الزنزانة » ، ويقرا أحد « المسجونين » شيئا ما من : جريدة شيوعية ، أو من كتاب ، أو من نشرة ، فاذا ما انتهى من القراءة كان على كل فرد أن يعبر عن رأيه فيما سمع ، ومن يمتنع عن ابداء رأيه يوجه اليه لوم عنيف من كل الافراد الآخرين وكان على كل فرد كذلك أن ينتقد وجهات نظر الآخرين ، كما كان من الضروري أن يعرف كل فرد كيف يعبر عن وجهة النظر الصحيحة في ضوء ما يرى الشعب ، وأن يطبق هذا لا في المسائل الشخصية فحسب بل كذلك المسائل : السياسية ، والاجتماعية ، والثقافية . ومع شعور كل سجين بأن حريته واطلاق سراحه رهينان بما يقول ، فان الاشتراك في المناقشة كان عنيفا نشطا دائما لان كل فرد يريد أن يتكلم وأن يناقش .

ولقد ركزت المناقشات على ما وجهه الغرب للصين في الماضي من اهانات مثل : التوسع الاقليمي ، أو الاعتداء على السيادة الصينية ، أو طلب امتيازات خاصة للمواطنين الغربيين ، ووجهت اليه وحده تهمة خطيرة هي أنه تحت ستار معطف الطبيب لم يكن أكثر من : ممثل « للاستغلال » وعميل « للامبريالية » و « جاسوس » كانت كل أعماله منذ البداية « ضارة بالشعب الصيني » .

وكان النقاش الذي يبدأ عادة في مستوى ثقافي عام يتحول سريعا ليعنى بالتحليل وبالتقد الشخصي ، وعندما كان يبدو أن الدكتور فنسنت تنقصه الخبرة في مسألة ما ليتعرف على حقيقة وجهة نظر الشعب ، أو عندما تبدو آراؤه خاطئة كان لزاما عليه « أن يفحص نفسه » وأن يتعرف وحده أسباب هذه الاتجاهات « الرجعية » ، كما كان عليه أن يبحث عن المؤثرات « البورجوازية » و « الامبريالية » الضارة التي تلتطخ ماضيه وذلك للوصول الى اعادة تقييم حاله ، وإلى « نقد النفس » حتى يصل الى الحقيقة من « وجهة نظر الشعب » .

وفي بعض الاوقات كانت غرفة السجن تأخذ طابعا أكاديميا ، اذا عرضت للمسجونين النظرية الماركسية ووسائل تطبيقها على المشكلات الصينية والمشكلات الدولية . وكان يطلق على المسجونين في هذه المرحلة « زملاء الدراسة » كما كان يشار الى موظفي السجن بأنهم « المعلمون » .

وفي عملية اعادة التثقيف كان يفرض على المسجونين الاصغاء الى ما كان يشير اليه المعلمون من تقدم المواطنين ومستقبل الشعب ، وما كانوا يقولونه لهم عن نظريات ماركس في التاريخ التي علمتهم أنه يجب القضاء على الامبريالية •

وكانوا يدللون على ذلك باعطاء أمثلة ، فيشيرون الى أعمال الكبت والقمع التي مارسها الامبرياليون في الصين ، وكذا الى أعمال الهيئات التبشيرية من الارساليات الدينية التي كانت تساعد الامبرياليين ملاك الارض وحزب الكومنتانج « الصين الوطنية » تحت ستار أعمال الخير ، وكل هذه الامور أضرت بالشعب •

ومن ناحية أخرى كان يشار دائما الى تقدم الاتحاد السوفييتي في : التصنيع ، والنهوض بالشعب ، ومد يده بالمعونة الاخوية للصين ، ثم تدرس لهم مشروعات : السنوات الثلاث ، والسنوات الخمس الصينية على أساس أنها تسعى للوصول الى مجتمع اشتراكي ، وتهدف الى تحقيق نهضة كبيرة في : الزراعة ، والصناعات الثقيلة ، والقوات المسلحة المدافعة عن الشعب •

كما كانوا يركزون كثيرا على ارتفاع مستوى معيشة الناس في الاتحاد السوفييتي ، ويدللون على ذلك بعرض افلام سينمائية ، واصدار دوريات اسبوعية ، وصحف يومية •

ثم كانوا يدللون على تحسن احوال الصينيين بعد التحرير مشيرين الى : النهضة الصحية ، والثقافية ، والاقتصادية ، ومنح الحقوق للأقليات ، واعطاء ما للرجل وما للمرأة من حقوق ، مع عقد المقارنات بين « الحرية » في العالم الاشتراكي وبين الحرية في العالم الامبريالي • فهم يحلون كل مشكلة عن طريق المناقشة حتى ولو كانت مشكلة الحرب الكورية ، أو الحرب الصينية الهندية ، وهم لا يستخدمون القوة كالامبرياليين بل يرون أن كل مشكلة يجب أن تحل عن طريق النقاش والجدل في المؤتمرات •

ولقد تعلم الدكتور فنسنت أن يعبر تلقائيا عن كل ردود الفعل ، وعن كل وجهات النظر في أثناء المناقشات ، كما استطاع أن يبرز « أفكاره الخاطئة » ، ويصف فنسنت حالته هذه بقوله :

« يجب عليك أن تتخلص من كل أفكارك الامبريالية وأن تتنكر لها ، كما يجب أن تلتقط كل أفكارك بتوجيه من مستخفي السجن ، فإن لم تستطع فستجد هناك الشخص الآخر الذي يحل مشكلاتك ويوجه اليك الانتقاد بدرجة أكبر . انك تشعر بوجود مسألة محيرة امامك أو مشكلة معقدة تبدو لك ، ومن واجبك ان تعلن عن هذه المشكلة المحيرة ، ومن الضروري أن يعاونك زميل من زملائك في الدراسة أي من الذين يزاملونك في غرفتك في السجن ، ومعاونته لك تعني أن يجعلك تدرك وجهة النظر الصحيحة »

وهم يقولون لك : أنت لديك مشكلة . وأقول أنا مثلا : انني أدهش لماذا لم يصادر الصينيون ممتلكات الراسماليين كما فعل السوفييت ؟ انني اظن أنه يكون من الافضل أن يفعل الصينيون ما فعله السوفييت ، وهذه هي مشكلتي التي تعيرني !

« وهنا يجيء زملاء الدراسة لحل مشكلتي ، وليوضحوا أنني في جانب الخطأ ، ذلك لان الشيوعيين الصينيين يجب أن يعملوا بأسلوب آخر . ان هدفهم الاصلاح لا القسر . ويوضح لي الزميل أن الثورة السوفييتية تختلف عن الثورة الصينية ، وأن الصينيين قد قاسوا الأمرين من الراسماليين لأن الراسماليين لم يمنحهم الفرصة لتطوير صناعاتهم ، ولكن الراسماليين الصينيين الآن اتجهوا لنفع الحكومة الصينية ، وهم يهرون بعملية الاصلاح ، ولو ساروا في طريق الثورة فسيكون مستقبلهم زاهرا »

« كان عليهم أن يوضحوا هذه الحقائق حتى اقتنع بها ، فاذا لم اقتنع وجب ألا أذكر عدم اقتناعي بل أذكر أنني لم أفهم ما قيل لي ، ومن ثم فإنهم يعرضون على حقائق جديدة ، فاذا لم أكتف بهذا كان من حقى أن استدعى أحد المفتشين ليوضح لي كل شيء »

« وهكذا يمر بك اليوم بطوله وأنت تحت ضغط ضرورة الاعلان عن أفكارك ، وحل مشكلاتك دون أن تستطيع الفكك ، ذلك لأنهم يستطيعون - على حد ما يقولون - معرفة ما يختلج في نفسك من انفعالات داخلية ، واذا ما تابعت الاعلان عن آرائك فأنت تشعر بسعادة للافصاح عن نفسك ، ولا تستطيع مقاومة

هذا الإصلاح ، فهم يحفظون لك سجلا يقيرون فيه كل تصرفاتك ، فاذا مر اسبوع دون أن تذكر شيئا قالوا لك : انك بدأت في مقاومة إعادة التثقيف ! اما اذا قدمت خمس مشكلات أو ستا فان ذلك يعتبر دليلا على أنك تتقدم لأنك تريد أن تناقش أفكارك الامبريالية ، وهذا الامر ضرورى لأنك لو لم تتخلص من هذه الأفكار فلن تستطيع الحصول على افكار جديدة ، فالمسألة هي مسألة تفريغ للشحنة القديمة الموجودة لماكن وضع شحنة جديدة مكانها » •

وحينما كان فنسنت يلتزم الهدوء ولا يعرض ما يكفى من « الآراء الخاطئة » فان الكثير من الاتهام بعدم اخلاصه كان يوجه اليه ، واذا ما تكشفت وجهات نظره عن أقل انحراف أو تحول عن الاتجاه الشيوعى فانه كان يخطر بأنه صار « موضوعيا الى حد بعيد » أو أنه « انفرادى » أو أنه استعاد « اتجاهاته الامبريالية » ، واذا يبدو عليه أنه لا يندمج تماما فى عملية الإصلاح فانه يتهم بأنه : ينشر « سخابة من الدخان » أو « يضع سجفا على النافذة » أو أنه « يبحث عن منفذ ومهرب » أو أنه « لم يوفق فى أن يقرن النظرية بالعمل » • وبعد وهلة يجد نفسه متتبعا توجيه الآخرين فى البحث عن هذه الأخطاء فى نفسه عن طريق نقد النفس ، وعن طريق تحليل أسبابها ومغزاها •

وقد اشرنا من قبل الى أن جزءا من ساعات الدراسة كان يخصص كل يوم « لنقد الحياة اليومية » : الخلق العام ، الاتجاهات نحو الآخرين ، الرغبة فى القيام بنصيب الفرد من العمل فى غرفة السجن ، عادات الأكل والنوم • فاذا ما خالف فنسنت شيئا من ذلك دون قصد فانهم كانوا يعزون ذلك الى أفكاره الاستغلالية « الامبريالية » أو « البورجوازية » •

واذا ما لوحظ تراخ فى عمله انتقد على أساس أنه يفتقر الى وجهة النظر الصحيحة للعمل : فلو أسقط طبقا مثلا على الأرض كان هذا اسرافا فى نقود الشعب وتبيديدا لها ، واذا ما احتسى كميات كبيرة من الماء كان هذا امتصاصا للماء الشعب ، واذا ما شغل مساحة كبيرة من أرض الغرفة عند نومه كان هذا « اتساعا امبرياليا » •

وظل فنسنت حتى هذه المرحلة يسمع الأحاديث عن الناس الذين أعلّموا نتيجة قيامهم بمقاومة لعملية اصلاح أنفسهم ، ولكنه من جانب آخر سمع عن : « المستقبل الزاهر » وعن اطلاق السراح المبكر ، والاقامة السعيدة في الصين لكل أولئك الذين « تقبلوا عملية اعادة تثقيفهم » .

وبعد مضي عام تقريبا على هذا النحو من اعادة التثقيف تعرض فنسنت من جديد لسلسلة من الاستجابات تهدف الى اعادة اقامة كيان لاعترافه ، وكانت الحكومة تأمل في أن تهيب للفرد الذي يقضي عاما كاملا في السجن ظروفًا تمكنه من أن يفهم جرائمه « على نحو أفضل » .

والآن بعد عام كامل ركز القاضي اهتمامه على عدد قليل من النقاط المختارة من الاعترافات الكثيرة التي حررها فنسنت ، وبذلك انتقل من مرحلة الاعتراف المطلق الذي يهتم بالكلم الى مرحلة اعتراف مقصور على نقاط معينة .

وكانت اعترافاته الاولى دلت على أنه ارتكب ثمانى جرائم ، فقد : انضم لمنظمة سياسية فرنسية ، وقام بعمليات « تجسس » ، وحاول الحصول على معلومات وتعاون مع أمريكيين وكاثوليك وجماعات رجعية أخرى مهائلة ، وقام أيضا بنشاط معاد للشيوعية ، كما أهان الشعب الصينى بالسب .

على ان فنسنت أصبح الآن ينظر الى الأمر من « وجهة نظر الشعب » ، ومن ثم أصبح للاعتراف طابع أكثر واقعية عما كان من قبل . ويصف ذلك بقوله :

« في بعض الأحيان يتجمع لك الشعور بأن تنظر الى نفسك من وجهة نظر الشعب ، وتحس أنك مجرم في حقه ، ولكن هذا الشعور لا يستمر طول الوقت ، وتقول لنفسك : « لقد فعلت هذا واذن فانا مجرم ! وحتى عندما تشك في هذا فانك تحتفظ بهذا الشك لنفسك لأنك لو صرحت به فانك تعود من جديد للمجاهدة على اساس انك فقدت ميزة كل التقدم الذى حققته من قبل . وبهذه الطريقة يوجدون فيك : « عقلية جاسوس » ، ويبنون في أعماقك شخصا مجرما ،

وحينئذ يصبح كل ما اخترعته أنت واصطنعته من اعترافات حقيقة لها كيائها ،
وتبدأ تحس جرمك طالما رحت تنظر الى نفسك من وجهة نظر الشعب ، وكلما
تعمقت في وجهة نظر الشعب ازداد ادراكك لجرائمك » •

وكان من أهم النقاط التي يركز عليها الصينيون في مناقشاتهم الهجوم
على الرأسمالية ، وتفسيرهم لصور استغلالها • فكان المسجونون يدرسون :
مفهوم الاستغلال ، ويوضح لهم حقيقة الفرد الرأسمالي ، ومعنى استعباد الشعب
واستغلاله ، وكيف يمكن لجماعة صغيرة من الناس أن يستمتع أفرادها بالحياة
على حساب الجماهير ، وكيف يحصلون على مالهم من دماء الشعب ، وليس
نتيجة عملهم •

وتبعت هذه المرحلة مرحلة أخرى امتدت أربعة عشر شهرا استغلت كلها
في إعادة التثقيف ، واستمر فنسنت يحشد كل جهده لتطبيق النظرية الشيوعية
على موقفه الشخصي موضحا ادراكا اوسع لجرائمه •

ولم تكن أوجه نشاطه اذ ذاك مقصورة على حالته وحده بل أصبح الآن
قادرا على نقد الآخرين ، ويعاونهم في الادلاء باعترافاتهم وفي اصلاح حالهم •
لقد صار سجيننا مدربا على نظام السجن واخلدوا ينظرون اليه على انه يكشف
عن تقدم كبير • والواقع أنه بدأ يصدق الكثير مما يقوله ، وان لم يكن في أسلوب
ميسر عادي •

ويصف فنسنت ذلك بقوله :

« قد تبدأ فتصدق كل شيء ولكن في طابع خاص من التصديق ، فانت
لا تعتقد بهذا عن ايمان بل تتقبله لكي تتجنب المتاعب ، ذلك لأنك في كل مرة
تبدى عدم موافقتك تبدأ المتاعب من جديد » •

وفي السنة الثالثة من سجنه استدعى من جديد لمراجعة اعترافه ، وكانت
وثيقة الاعتراف قد صارت أكثر ايجازا وأكثر اقناعا ، وبدأ يفكر في الحكم
ودرجته مقدرا ذلك من وجهة نظر الشعب على أساس أنها صارت جزءا منه •

كان يشعر ان الحكم سيصدر ، وانه سيرسل الى مكان ما غير السجن الذى يقضى فيه فترة انتظار الحكم ، كما كان يفكر فى مدة السجن التى سيحكم بها عليه والتى قد تكون عشرين سنة او خمسا وعشرين ، ثم يتصور انهم سيرسلونه الى مكان للإصلاح عن طريق العمل ، او الى مصنع ، أو حقل . . انهم متساحون . . ان الحكومة سخية ، والشعب شعب كريم !

واخطر فنسنت بأن اتجاهه تحسن بدرجة كبيرة ، فنقل الى جناح آخر فى السجن ، وأعطى امتيازات لا تقدر بمال ، كالسماح له بقضاء ساعة فى تدريب خارج المبنى مع أوقات أخرى للراحة فى غرفة السجن . ووجد فنسنت نفسه يعيش حياة متناسقة مع أسرته ، وخلال الشهور القليلة الأخيرة من سجنه سمح له : باعطاء دروس فى اللغة الفرنسية للمساجين الآخرين ، والقاء بعض دراسات فى الطب على طلاب يحضرون الى مبنى السجن ، ولم يكن هذا كله دون قصد ، فقد أدرك فنسنت الهدف من ذلك ، اذ أرادوا ان يوضحوا له انهم لا يقفون موقف التضاد من عمله أو من مهنته كطبيب ، وانما هم يقفون موقف التضاد فقط من عقليته الرجعية ، كما كان هدفهم أن يوضحوا له انهم يوافقون على عمله وانهم يتقبلون نظرياته . لقد كان هدفهم أن يوضحوا له ما معنى أن تعيش بين الشعب كفرد من أفراد ، ويثبتوا له أن الحياة بين أفراد الشعب انما هى حياة طيبة دائما .

وسرعان ما استدعى ليوقع رسميا على اعترافه بلقته الفرنسية ، وعلى ترجمة للاعتراف باللغة الصينية ، ثم التقطت له عدة صور وأخذ له فيلم سينمائى ، وطلب منه بعد ذلك ان يقرأ اعترافه بصوته لتسجيله ، لكى يذاع على نطاق واسع فى ارض الصين ، وفى أنحاء كثيرة من العالم .

وبعد فترة قصيرة استدعى للمثول امام القاضى ، وتليت عليه الاتهامات التى وجهت اليه ، والتى اعتبر أنه قام بها ضد الشعب الصينى ، ثم صدر الحكم بسجنه ثلاث سنوات كانت قد استنفذت كلها . ومن ثم أبعد مباشرة من الصين ، وفى مدى يومين كان فى سفينة انجليزية متجهة الى هونج كونج .

ويبدو من قصة الدكتور فنسنت أنه كان حصيلة ناجحة « لاصلاح الفكر » ولكنه كان يشعر في غمرة اضطرابه وخوفه أنه موضع مراقبة مستمرة ، وكانت أعراض « البارونيا » التي ظهرت عليه (١) امتدادا داخليا لا احيط به في السجن ، ويصف هذه الحالة بقوله :

« اننى أعتقد أن شخصا ما يتجسس على • ان امبرياليا يتجسس على لأننى قادم من العالم الشيوعى ، كما أنه يهتم بأن يدرك فيم افكر ؟ وعندما أعمل أى شيء فاننى أحس وكان شخصا ما يراقبنى بفكره ليعرف ماذا يدور فى قرارة نفسى • لقد دربنا على هذا فى أثناء فترة اعادة تثقيفنا » •

وفى هذه الحالة العقلية يصف فنسنت حالة انفصام الشخصية التى كانت تسود كل تصرفاته :

« عندما تركت الصين كنت أحس هذا الشعور الغريب ، وكنت أهمس لنفسى : أننى ذاهب الى العالم الامبريالى ولن يعنى بأمري أحد ، سأندخل عن العمل وسأضيق فى هذا العالم الفسيح ، وسينظر الى كل فرد على أننى مجرم ! على أنه قد خطر لى أيضا أن فى وطنى حزبا شيوعيا وأنا قادم من العالم الشيوعى ولا شك أن الحزب يعرف أننى اجتزت مرحلة التثقيف واصلاح الفكر ، ومن ثم فربما يهمهم الاحتفاظ بى ، ولربما يستطيع مساعدتى ومعاونتى ، وبذلك لن أواجه الضياع • سأذهب الى الشيوعيين وأخبرهم من أين جئت وبذلك سيكون لى مستقبل !

ولكن عندما وصلت الى هونج كونج ، تغير الموقف كله ، فقد بعث القنصل رجلا بقارب بخارى لآخذنى من السفينة • لقد اهتموا بأمري وسألونى عن كل ما احتاج اليه ، وأخبرونى أنهم بعثوا برقية الى حكومتى والى أسرتى ، وجاءوا

(١) Paranoid وهى مرض عقل قوامه اعتقادات خاطئة إما فى هيئة هلاوات عظيمة وإما

فى هيئة اضطهاد • الخ •

بى الى غرفة جبة الرياش ، واعدوا لى طعاما جيدا ، واعطونى نقودا للانفاق ،
لقد أبدى العالم الراسمالى نحوى أكثر مما كنت أظنه سيفعله » •

وفى كفاح فنسنت للوصول الى جانب من الواقعية كانت ادراكاته الحسية
ليئته الجديدة تتذبذب بين عدة معتقدات ومتأثرة دائما بخوفه وقلقه ، وأخذ
يستعيد وهو فى هذه الحالة الكثير من التعاليم التى تلقاها فى عملية التثقيف
الفكرى •

فمثلا حينما وصل الى هونج كونج قابله أجنبى آخر قادم من الصين ووضعه
فى موقف حرج حينما حدثه عن سوء الحال فى شمالى الصين حيث يستحيل
الحصول على اللحم هناك ، كما أخبره أنهم يستخدمون بطاقات التموين لأن كل
شئ يرسل الى الاتحاد السوفييتى ، وقد رد عليه فنسنت بأنه من المحال أن
يكون هذا صحيحا ، فان الأجنبى يحب دائما المبالغة وهو شخصا لم يسمع
قط عن التموين بالبطاقات فى أثناء وجوده بالسجن ، ثم كيف يحصل الاتحاد
السوفييتى على مواد الغذاء من الصين فى الوقت الذى يحقق الاتحاد السوفييتى
مثل هذا التقدم ؟ لقد عرضوا عليه فى السجن بيانات الوجبات الغذائية فى
الاتحاد السوفييتى من الزبد واللحم ، بل كل ما يشتهي الانسان من ألوان
الطعام ، وحينما سمع فنسنت أن الغذاء فى الاتحاد السوفييتى ليس كافيا
أصبح فى حيرة وأخذ يسأل نفسه عن الحقيقة •

ومثال آخر وضعه فى موقف مماثل حينما قرأ فى مجلة أمريكية الكثير عن
عمليات التطوير التى تجرى فى الولايات المتحدة فى صناعة القطارات الحديدية ،
وقد سأل عن هذا مستفسرا فى دهشة لأنهم قالوا له : أن الامبرياليين يعنون فقط
بالصناعات الخفيفة لاستغلال الشعب ، وأن الصناعات السوفيتية الثقيلة لها
مراكز الصدارة فى كل شئ •

على أن فنسنت لم يلبث أن شعر بالقلق وهو في منتصف الطريق بين سلسلة المقابلات التي تجرى في بيئته الجديدة ، كما بدأ يحس أنه شخص مهم من المجتمع الذي يعيش فيه . ومن ثم بدأ يقف موقف العداء من كل جديد يراه من حوله ، وهكذا ارتد من جديد إلى اتجاهاته السابقة وصار متشككا في الدوافع الخارجية لكل شيء في هذه البيئة الجديدة التي تحيط به ، ويوضح هذا بقوله :

« اننى أقرأ كل يوم في صحف هونج كونج أن الأطفال يتلقون اللبس والبيض عن طريق المعونة الأمريكية ، ولكنهم قالوا لى في السجن : أن الامبرياليين الأمريكين يعطون هذه الأشياء للشعوب للتمويه . أنهم يريدون أن يظهروا بمظهر من يهتم بغيره . اننى أرى أن هذه في الواقع مسألة سياسية ، ولا شك أن شعورى هذا ليرتبط ارتباطا وثيقا بإعادة تثقيفى » .

وصار فنسنت كثير الانتقاد بشكل ملحوظ لكل ما يراه من حوله ، وأصبح يتوق دائما إلى العودة بكل شيء إلى ما قيل له داخل جدران السجن .

اعتراف زائف :

هذه هي الحالة الثانية التي وعدنا بتقديمها على أساس أنها صورة أخرى لعملية توجيه الفكر ، وهي عن الأب فرنسيس لوقا وكان قسا إيطاليا في أواخر الثلاثينيات من عمره ، قضى بين جدران سجن التوجيه في الصين ما يزيد على ثلاث سنوات .

وسنحاول في حالة هذا الأب أن نبرز العوامل : النفسية ، والسيكولوجية التي أدت إلى جعله يدلى ببيانات واعترافات زائفة ، وأن نبين إلى أى مدى نجحت معه عملية التثقيب .

وسواء أكانت محاولة « إعادة تثقيب » الأب لوقا قد نجحت أم لم تنجح فقد تحول تماما نحو الحياة الصينية ، على الرغم من الآلام والمهانة التي تعرض

لها في السجن • ولقد كان يحس حيرة حينما ترك أرض الصين بعد السنوات الثلاث التي قضاها في السجن • وقص على بعض من قابلوه بعد ذلك أنه بكى طويلا حينما غادر أرض الصين ، لأنه أحس أنه لن يجد الفرصة للعودة من جديد إليها ، كما شوهده مرتديا لباسا أسود من تلك التي يرتديها العلماء الصينيون ، وبالرغم من أنه كانت تقدم اليه أجود الاطعمة الغربية في المستشفى الذي كان يعالج به في هونج كونج بعد ترحيله من الصين فإنه ظل يشكو دائما من أنه لا يستطيع الحصول على طعام صيني جيد ، وهو الطعام الوحيد الذي يتوق الى تناوله •

كان الأب لوقا قد عاش في الصين حوالي عشر سنوات وهو يعمل في الكنيسة الكاثوليكية ، ولم يكن اعتقاله بعد حركة التحرير في الصين مفاجأة له ، فقد سبق أن سمع اتهامات علنية وجهت اليه في اجتماعات عامة وقيل : أنه يعمل للتخريب ، كما يقوم بنشاط مضاد للشيوعية •

وكان قد قرر فيما بينه وبين نفسه أنه لو سجن فسيدافع عن كنيسته ولن ينطق بكلمة واحدة غير حقيقية •

وحينما سأله القاضي عما اذا كان يعرف سبب اعتقاله ؟ اجاب بأنه :
اما ان يكون نتيجة سوء فهم ، واما لسألة لها صلة بالدين •

وقد اغضبت اجابته هذه قاضي التحقيق الذي أصر على أنه ليس للأمر أي صلة بالدين ، ففي الصين حرية مطلقة للعبادة ، وأعلن أن اعتقاله جاء نتيجة معارضته لمصالح الشعب •

ولاحظ الأب لوقا من الأسئلة التالية التي راح المحقق يوجهها اليه عن نشاطه في الصين ، وعن معارفه وأصدقائه فيها ، أنه يدور بخاصة حول علاقته بقسيس آخر هو الأب « س » وهو صديق له كان له نشاطه العسكري والسياسي ضد الشيوعيين موضع نقد الأب لوقا نفسه •

ومع أن جلسة التحقيق الأولى استمرت ساعة واحدة فقط ، فانها كانت ذات أثر في تهيئة الأب لوقا لاعترافه فيما بعد •

« كان يدور في رأسي سؤال : « بماذا يتهمونني ؟ وكيف سيصوغون هذا الاتهام ؟ ومع أنني كنت قد بدأت أدرك أنهم سيضعون علاقتي بالأب « س » في مكان الصدارة والأهمية فأنني لم أكن أعرف كيف سيوجهون الأمر . وكنت قد سمعت أن الشيوعيين يرغبون الناس في الاعتراف باتهامات غريبة من وحي الخيال ولا حقيقة لها ، ولكنني اعتزمت ألا أعترف إطلاقا بأي شيء غير حقيقي » .

وبنفس الصورة كان الأب لوقا وهو في سجنه متحديا مناوئا ناقدا لمعتقليه ، ولما وجد رئيس الزنزانة التي نزل بها أنه مستمر في عناده ، حث زملاءه على « معاونته » وهو اصطلاح يعنى سوء المعاملة .

وفي الليلة التالية من اعتقاله أيقظ من نومه بعنف ، وسئل عن اثنين من مساعدي الأب « س » وقد استطاع أن يذكر الاسم الاول لأحدهما ، ولكنه قال : أنه لا يعرف الثاني ، وهنا أصر القاضي على رأيه بأنه من المستحيل أنه لا يعرف اسم المساعد الثاني ومن ثم فهو ليس بأمين ولا بمخلص .

وقد غضب الأب لوقا لهذا التكذيب وأصر في غضب على أنه أمين فيما يقوله . وأنه لا ينطق الا بالصدق . واستجاب القاضي بسرعة لغضب الأب لوقا فأمر بوضع الاغلال حول ساقيه مع ثقل زنته عشرون رطلا .

ثم عاد فسأله نفس السؤال فتلقى نفس الإجابة فصرفه من الغرفة وأمر بإعادته الى الزنزانة . وحينما رأى رئيس الزنزانة الاغلال حول ساقيه علفه بقسوة ، وبعد أقل من ساعة أعادوه الى غرفة التحقيق ، حيث استمر في اصراره فأمر بتقييد يديه بالاغلال .

وفي أثناء استجوابه في الليلة الثالثة شدد قاضي التحقيق على صلته الوثيقة بالأب « س » وكرر بشدة أنه لابد من أنه كان يعرفه قبل مجيئه الى الصين . وحينما أصر لوقا على أنه قابله لأول مرة في بكن تترك القاضي الغرفة .

وكان على الأب لوقا أن يقبع في ركن الغرفة على الارض وقد مد ساقيه أمامه ، ولكنه لم يستطع الاحتفاظ بجلسته هذه فرجع بظهره الى الوراء وهنا

وقع كل ثقل جسمه على ساعديه المقيدتين وراء ظهره ، وعندما وجد أن أغلاله تضغط بقسوة على ساعديه وأحس أن آلامه لا تحتمل خطرت لأول مرة فكرة الاستسلام والتسليم بكل ما يريدونه منه :

« لقد ذكرت لهم الحقيقة ، ولكنهم لا يريدون الحقيقة ، وخطر لي أن أأامي طريقة واحدة للنجاة وهي أن أخمن ما يريدونه . ومع كل الظروف التي في حياتي فإن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يصدقوه هو أن أعود بذاكرتي إلى حياتي السابقة في أوروبا ، ومن الممكن أن أقول : أنني قابلته هناك وهذا شيء غير صحيح ، ولكنه قابل للتصديق » .

وهكذا أجاب الأب لوقا على سؤال القاضي عن ثقائه بالأب « س » بأنه قابله في روما عام ١٩٣٩ .

وسمح له فور هذا أن يقف من جلسته المجهدة فشعر بتخلص مباشر من آلامه وبعد دقائق قليلة أعيد إلى غرفة سجنه .

ولكن رئيس غرفة السجن استمر - بناء على تعليمات من سلطة أعلى - يهجم على لوقا ويتهمة بأنه ليس « مخلصا » وقد أمره بالبقاء واقفا لكي « يتدبر » جرائمه .

ومر الشهر التالي بالأب لوقا وهو يواجه استجوابا يدور في حلقة مفرغة كل ليلة ، ويقضي نهاره في مواجهة كفاح مستمر ضد زملائه في غرفة السجن الضيقة دون أن يهنا بلحظة واحدة من الراحة . فقد أبقاه زملاءه متيقظا : « بالوكز » و « الصفح » و « والقرص » ونظموا هذا الواجب الليلي بينهم حتى يضمنوا يقظته المستمرة ، وقد نتج من وقوفه الدائم تورم قدميه وامتلات الأورام بسائل مائي . ويذكر لوقا أنه سمح له بالنوم ثلاث مرات فقط ، ويقدر أنه نام لمدة ست عشرة ساعة فقط في طوال أربعة أسابيع .

وقد تزايد اضطرابه حتى أصبح لا يستطيع أن يفرق بين النهار والليل ، ووجد نفسه تحت ضغط مجهاد متواصل نتيجة محاولته استخدام ذكائه وحصافته ليذكر ما يتوقعونه منه :

« لقد كانت المسألة في البداية مسألة فضول وحب استطلاع ، ولكن بعد ذلك أصبحت لا أحتمل ذلك ، وكان عقلي مضطربا فخطر لي : لماذا لا أقول تماما كل ما يريدونه مني ؟ صحيح أنه من الصعب أن أتمشى معهم فيما يريدون ، ولكن بعد أسبوعين كان في استطاعتي أن أقول كل ما يريدون ، ولكن هذا بالطبع لم يكن بالأمر الهين السهل » .

وفي هذه الحال النفسية اعترف الأب لوقا بثلاث جرائم رئيسية هي :

♦ استخدام جهاز لاسلكي نجح في اخفائه ، وأنه كان يرسل منه ويستقبل عليه المعلومات الخاصة « بالجاسوسية » .

♦ تنظيمه لشبكة من الصبيان الصغار بقصد القيام بأعمال التخريب وتوزيع المنشورات المضادة للشيوعية .

♦ اشتراكه الايجابي في « شبكة الجاسوسية » التي يقال انها كانت تحت رئاسة الأب « س » ، بقيامه بأعمال « السكرتارية » لها .

وكانت كل هذه التهم زائفة ومبنية على معلومات مصطنعة في جملتها وفي تفاصيلها . ولكن تطورات الاستجواب له ، والتوترات التي تعرض لها نتيجة التعذيب جعلته يسهب في سرد اعترافات كاذبة ، بل الأدهى من ذلك أنه اقنع نفسه بهذه المزاعم والأكاذيب .

وبصف الأب لوقا كيف بدأ اعترافه عن التهمة الأولى الخاصة بالجهاز اللاسلكي بقوله :

« لقد جاءت الفكرة الأولى عن جهاز اللاسلكي حينما قال المحقق : هناك أشياء أخرى لم نتحدث عنها ، ويجب أن تثق بأن الشعب يعرف الكثير عنها ولا نظننا نجهل ذلك ! فقلت له : أننى أعرف أن هناك بعض الناس يقولون : أن لدى جهاز اذاعة خاص على الموجة القصيرة ، وسمعت بهذه التهمة قبل اعتقالى ، وأخبرته بأنه لا حقيقة لهذا كله - - حينئذ قال لى : أتقول اذن ما الحقيقة وماذا وضعت فى غرفة المخزن بمنزلك أثر التحرير مباشرة ؟

« واجبت باننى لم اضع فيها اى شىء ، وبعد ان فكرت قليلا قلت : قد يكون فى الغرفة شىء ما ولكنه ليس راديو • لقد زارنى صديق قبل وصول الشيوعيين واستأمننى على بعض متعلقاته ، وحاولت أن اذكر اذا ما كنت قد وضعت بعض هذه المتعلقات فى غرفة المخزن ، ولكن ذاكرتى لم تكن قوية بالقدر الكافى فقلت : حقا ، هناك بعض اشيء ولكنى لا اذكر ! وكنت اعرف كذلك ان صبيا كان يعمل فى خدمتى وانه قد انقلب ضدنا وربما يكون هذا الصبى قد ابلغ عن اشيء وضعت فى اثناء غيابى ، ومع اننى لم اكن اعتقد انه كان هناك راديو فلم أجروا على معارضة ما يقوله القاضى ، وعندئذ سألنى :

« هل هو جهاز للاستقبال او للارسال ؟ ولم اكن اعرف الكلمة الصينية للاستقبال او الارسال فأجبت بأنه لا هذا ولا ذاك ، ولكن حينما وضح لى المعنى قلت « ربما للاستقبال • نعم • • وربما كان للارسال ! وفى لحظة واحدة مرت بخاطرى الصورة الصحيحة لجهاز الارسال ، ولكنى كنت اعرف عن ثقة ان هذا الأمر كله ليس بالأمر الصحيح • كان موقفى موقف الرجل الذى يعيش فى حلم وهو فى الواقع لا يرى شيئا •

« وبعد ذلك عندما سئلت عن كيفية وصول الجهاز الى يدي ، كان على أن اختلق قصة فقلت : ان صديقى كان قد رحل فتركه لى ، وأن خادما قد عاوننى فى فكه ، وحينئذ سألنى القاضى : لابد من أن يكون قد عاونك فى تركيبه أشخاص ممن يفهمون فى الأجهزة اللاسلكية ! وهنا ذكرت رجلين أحدهما كهربائى يعمل فى الكتدرائية ، والآخر صبى صغير كان تواقا الى العمل فى مثل هذه الأجهزة • وجاء الجزء الثانى من الاعتراف تابعا منطقيا لكل ما ذكرته من قبل ، اذ فكرت فى أنه لو كان لدى شخص ما جهاز لاسلكى فان أسوأ مكان لاختفائه هو أن يضعه فى الكتدرائية على أساس أن الشيوعيين يراقبون الكنائس بصفة خاصة ، كما أنهم كانوا دائما يتهمون رجال الكتدرائية باخفاء الرجال الذين يعملون على الأجهزة اللاسلكية فى مباني الكتدرايات • وهكذا قلت : اننى قد وضعت فى مكان آخر • ولكننى لا أستطيع تذكر اسم الشارع الذى به المنزل المخبأ فيه الجهاز ،

فأصر المحقق على ضرورة ذكر اسم الشارع • فأجبت دون وعى بأن اسمه شارع الجدار الحديدى Iron Wall St. وعندما أخبرنى القاضى فى اليوم التالى أنه لم يجد هذا الاسم على الخريطة • أجبت بأننى ربما لا أذكر اسم الشارع جيدا •

وعند ذلك تصورت أمام عيني منظر طريق ضيق فيه منزل صغير وبه غرفة أمامية تطل على الطريق ووراء هذه الغرفة غرفة أخرى فيها جهاز الإرسال • • كانت هذه الصورة الخيالية واضحة لعيني ولكن دون أن أعرف على وجه التحديد ما إذا كان حديثى هذا حقيقيا أم زائفا • لقد كان الأمر بالنسبة لى شبيها بما سمعت عنه من قبل عن كتابة القصص والروايات ، حيث يتخيل الكاتب أشخاصا يقومون بأعمال ويتحركون طبقا لأسلوب معين محكم • وكل هذا بالنسبة لكاتب الروايات يبدو حقيقيا ، ولكنهم يعرفون عن إيمان أن كل ما يتخلونه لا نصيب له من الحقيقة ولا كيان له فى الوجود الفعل ، ولكن الأمر بالنسبة لى كان بمثابة حقيقة واقعية ، وإن كنت فى الواقع لم أنس تماما أن المسألة كلها غير صحيحة » •

ولقد اقترح عليه زملاؤه فى غرفة السجن بعض الاقتراحات التى تساعد فى مسانيرة تطور الأمور ، فأوحوا اليه أن يقول : أنه قد أرسل رسائل بواسطة الجهاز اللاسلكى كما استقبل به بعض المعلومات • وهكذا بدأ الأمر تدريجيا يضم أشخاصا آخرين بعضهم من رجال الدين ، وبذلك أصبح أولئك الذين أشركهم فى الأمر يمثلون شبكة كاملة متعددة الأطراف ، واستطاع لوقا وهو فى هذه الحالة النفسية أن يتوهم قيام منظمة للجاسوسية ، ومن ثم اخترع أسماء كما اخترع بعض التفاصيل •

أما عن الموضوع الثانى - موضوع حلقة الصبيان الذين يقومون بأعمال الهدم والتفويض - فقد تضمن الأمر مواجهة شخصية •

فبعد أسبوع سأل القاضى عن صبي صينى معين، فأجابه بصراحة أن اسمه ليس معروفا له وعندئذ جئى بالصبي فى مواجهته وأصر على عدم معرفته ، ولكن الصبي قال له : أنه يعرفه كما أنه طلب منه أن يكتب نشرات ضد الشيوعية •

وبدا على لوقا نوع من الحيرة والتردد ، فهو فى الواقع يتولى شئون ألف صبي فى الأسقفية • وهو لا يستطيع أن يذكر أسماءهم جميعا •

وهنا قال القاضى له : أنه غير مخلص ، واعد القيود الى يديه ثانية ، ثم أمره بالجلوس على الأرض فى هذا الوضع المؤلم ، وتركه حتى أعياء الاجتهاد فاعترف بأنه يعرف الصبي •

وفى ضوء مثل هذا الاستجواب وعلى أساس المقترحات التى كان زملاؤه فى غرفة السجن يقدمونها له بين الفينة والفينة • بدأ الاعتراف فى جملة يأخذ طالبا معنا • فقد فهم أنهم يتهمونه بأنه قد حرض صبيا على كتابة عدة شعارات معادية للشيوعية ، كما حرضه على قذف مصابيح الاضاءة بالأحجار •

وجاء المزيد من المقترحات ، وراح رئيس غرفة السجن يقول له : « لقد قلت : انك فعلت ذلك فلا بد من أن تكون قد فعلت أكثر مما قلت ، ولا بد من أن تكون قد حرضت صبيانا آخرين فتذكرهم » • وأخيرا أمكن أن يأخذ اعترافه طالبا مجسما فأدلى فى اعترافه الجديد بأنه كانت هناك منظمة فيها خمسة وعشرون صبيا بقصد القيام بأعمال التخريب وكتابة نشرات مضادة للشيوعية •

وفى مسألة منظمة الأب « س » واجه لوقا وهو فى غرفة السجن ضغوطا من زملائه ، وقد أدى ذلك الى تطوير النقاط التى كان اعترف بها الأب لوقا فى جلسات التحقيق السابقة • ويصف لوقا ذلك بقوله :

« وفى غرفة السجن قال لى زملائى : حسنا لابد من أن تكون قد فعلت شيئا من أجل الأب « س » ! فاجبت : ان هذا مستحيل فقد جئت لتوى الى الصين وكنت لا أعرف شيئا عن الموقف ، ثم اننى لم أكن أعرف اللغة الصينية ! فيقولون : أنت لا تعرف اللغة الصينية ولكنك تعرف عدة لغات أجنبية ! واعترفت باننى أعرف حقا عدة لغات • وهكذا جاء الاقتراح عن الشيء الذى يمكن أن نستطيع القيام به من أجله • • فليكن عملا كتابيا • • وما استطيع أن أفعله • يمكن أن أكون قد فعلته فعلا • وتذكرت أن الأب « س » قال مرة أمامى : أن له

عما في سويسره وأنه تعرف على سيادة عجوز تقيم هناك ، ومن ثم يمكن أن أقول أنني قد كتبت نيابة عنه بعض الرسائل لهذا العم ولهذه السيادة العجوز ، وهكذا قلت : أنني قد كتبت هذه الرسائل نيابة عنه وأرسلتها الى سويسره •

« وعادوا يقولون : لقد قلت : انك لم تشترك بأى عمل فى منظمتك ، والآن تقرر أنك كتبت بضع رسائل نيابة عنه ، وهذا عمل يوجد صلة بينك وبين منظمتك والآن ماذا هو لقبك ؟ الرجل الذى يكتب مثل هذه الخطابات لمنظمة ماذا يقال له ؟ ما لقبه ؟ ولم يفسروا لى شيئاً ، ولكن المعنى الذى يقصدونه كان واضحاً • ان مثل هذا الرجل يقال له « السكرتير » ، ولذا كان من الضروري أن أتقبل لقب « السكرتير » •

« ولم أكن أصدق قط أنني كنت سكرتيراً للأب « س » ولا لمنظمتك ، ولكن كان عقلي قد بدأ يضطرب ، وشعرت بأنه من المستحيل أن أنقض أو أفسد أسلوبهم الجليل » •

* * *

والواقع أن تصورات الأب لوقا الزائفة اختلفت فى مداها من لحظات عابرة الى فترات اختلفت بين أسابيع قليلة أو شهور ، وتداخلت فى بعضها البعض كما يتداخل الحلم •

وبالرغم من حالة الأب لوقا المضطربة ، فإنه ظل يكافح ضد أى خيانة لولائه للكنيسة الكاثوليكية ، فقد قام قاضى التحقيق بالضغط عليه محاولاً جعله يعترف بعلاقة الكنيسة بالنشاط الامبريالى للحكومات الغربية ، وحينما رفض أن يقوم بذلك أعيد الى وضعه الاول بالجلوس على الارض ، وقد عقدت ذراعه خلف ظهره ، ثم أوضح له قاضى التحقيق ما يريد منه :

« اننى لا اطلب منك أن تندد بالدين ، بل أتوقع منك فقط أن تدرك أن الامبرياليين استخدموا الدين غطاء وستارا لغزوهم للصين » •

وهكذا تحت ضغط التعذيب ، وفى غمرة هذا التوضيح اعترف الأب لوقا بأن الامبرياليين استخدموا الكنيسة الكاثوليكية ستارا لغزوهم للصين •

ولكن فى قرابة نهاية الشهر الاول كانت حالة لوقا البدنية والعقلية قد بدأت تنهار . كان التعفن قد بدأ يظهر فى ساقيه المتورمتين من ضغط السلاسل والأغلال ، وازداد اضطرابه نتيجة صعوبة احتفاظه بتفاصيل اعترافه متمشية مع بعضها البعض ، اذ أن أى جزء مصطنع من هذه الأقوال كان يتطلب المزيد من الاصطناع لدمجه .

وفى يوم ما أصدر القاضى أوامره بإطلاقه من أغلاله ونزع السلاسل من ذراعيه ، ثم أمره بأن يذهب الى غرفته لينام نوما هادئا لمدة يومين كاملين ، وان كان لم يغفل أن يخطر بباله أنه لا يزال غير راض عن اعترافه ، حالما اياه على أنه بعد هذه الراحة الطويلة يجب أن يعود بمادة صالحة تدغم كل أقواله السابقة .

وهكذا عاد لوقا الى غرفته ، وبرغم الاجهاد والاعياء الذى كان يعتريه فان مخاوفه حالت دون أن يغمض عينيه الا للحظات قصيرة .

على أن هذا التساهل أو الملاينة لم تعاون لوقا على اضافة أى جديد الى اعترافه ؛ فحينما استدعى بعد عدة ليال قليلة لمقابله المحقق سأل القاضى « هل تعترى أن تكون مخلصا ؟ » وأجاب لوقا : « أنى أود أن أكون مخلصا ومطيعا ، ولكننى لا أعرف الوسيلة فهل يمكن أن ترشدنى لها ؟ » وأجابه القاضى بأنه سيوضح له السبيل وسيرشده الى الطريقة . واذ ذاك استلقى القاضى بعض الحراس الى الغرفة وتركهم فيها مع الأب لوقا وانصرف بعد أن أغلق الباب وراءه .

وبدأ الحراس ايلاء الأب لوقا ، وحينما تركوه قرابة الفجر كان فى حالة اعياء شديدة ، ومصابا بسحجات فى عموده الفقرى ، وبعد نحو ساعة دخل الغرفة شاب صينى فى مقتبل العمر لم يره لوقا من قبل ، وأخذ يحدثه باللغة الايطالية بصوت خفيض وبشبرات هائلة عميقة ، وكانت هذه أول مرة يسمع فيها الأب لوقا كلمات بلغته الايطالية منذ اعتقاله . وعاون الشاب الأب لوقا وجعله يحس الراحة والهدوء مترقا به ، ثم بدأ يحدثه ويناقشه فى التفاصيل التى جاءت فى اعترافه وخاصة ما جاء عن الأب « س » .

وقد تأثر لوقا بهذا العطف الانساني ، اذ كانت طريقة الشاب في توجيه الاسئلة موضوعية ودون تحيز ، ثم أنه يتحدث بلغته ولذا كان من السهل عليه أن يعترف . وهنا قدم لوقا صورة دقيقة نسبيا لكل هذه الحوادث ، صورة تختلف تماما عما جاء في اعترافه الاول ، ولكنه لم يصف شيئا مصطنعا بدرجة كبيرة . وبعد قرابة الساعتين بدأ يظهر على لوقا الالم والاعياء فانصرف الزائر .

ولما ظهر أن الأب لوقا لا يستطيع أن يسير على قدميه حملوه الى غرفة الزنزانة على « نقالة » وقد عرف فيما بعد أنه استجوب بواسطة « سجين موظف » أى سجين وصل الى درجة متقدمة من الاصلاح الفكري ، وتوافرت له الخاصيات التي تمكنه من أن يكون أحد موظفي السجن . وقد تأثر لوقا بهذا اللقاء حتى أنه في كل فرصة تالية حينما كان يشعر بأى صعوبة فانه كان يطلب مقابلة هذا السجن الموظف الذى يتحدث اللغة الإيطالية .

وفي ذلك الوقت عرض على الطبيب الذى أكد له مخاوفه من أن عموده الفقرى قد كسر ، ولكنه أكد له أيضا أنه سيشفى بعد وقت غير طويل .

* * *

وكانت الشهور التالية مجهدة بصفة خاصة ، فمن الناحية الصحية كان خائرا القوي يعتمد على زملائه بغرفة السجن فى كل احتياجاته ، وكان كل العلاج الطبى الذى تلقاه حتى ذلك الوقت لا يتعبى بعض التمرينات الرياضية التى يؤديها بساقيه ، ولم يعاونه أحد حينما يشعر بحاجة الى التبول أو التبرز ، وكانت حالته الصحية لا تمكنه من السيطرة على العضلات القابضة مما أدى الى بلل ثيابه ، وتساعد روائح كريهة فى غرفة السجن فزادت غضب زملائه وأخذوا يكيلون له النقد المر .

وبالاضافة الى هذا فان بقاء لوقا طريح الفراش قد أدى الى حدوث أكثر من قرحة فى ظهره وفخديه وأصابع قدميه ، وقد عولجت هذه فى البداية علاجا أوليا بواسطة الايودين وبعض المطهرات ، ولكن بعد أن أثار هذا العلاج اعتراض زملائه بسبب الروائح التى تنبثق من القرحة تلقى علاجا أفضل بالضمادات وحقن البنسلين .

وقد بذل لوقا كل جهد لاستعادة طاقته البدنية ، وبعد فترة قصيرة بدأ يحرك أصابع قدميه ، وبعد ثلاثة أشهر استطاع الجلوس ، وبعد عام كامل كان يستطيع الوقوف مستندا الى الجدار ولكنه لم يستطع أن يسير الى دورة المياه الا بعد خمسة عشر شهرا من يوم اصابته .

ولقد عاونه زملاؤه في أداء التدريبات الرياضية في البداية ، ولكنها كانت معاونة خشنة حتى أنه صرخ مرة من الألم صرخة عالية سمعها أحد موظفي السجن وأسرع من فوره لاستكشاف السبب ، ومنذ تلك اللحظة لم يقدم له زملاؤه في الفرقة أى مساعدات .

* * *

وفوجيء الاب لوقا بعد ثلاثة أشهر من اصابته وأربعة أشهر من اعتقاله بزائر لم يتوقع مجيئه اليه في غرفة السجن ، وذلك هو قاضى التحقيق الذى جاء ليعلنه باتجاه درامى مضاد لاعتراقاته السابقة .

لقد قال له القاضى : ان اعترافه يبدو فى جملته مضطربا غير دقيق ، وقدّم له بعض الأمثلة على ذلك فمثلا بالنسبة الى « ل » - وهو رجل صينى زعم لوقا أنه رئيس منظمة للجاسوسية - تحققت السلطات من أنه لا يعرفه ولم يره بتاتا ، وبعد ذلك حث القاضى السجن على ألا يعود لاسلوبه فى الانكار ، ثم أردف قائلا : « وفى هذه المرة لا تقل غير الحق وحده » كما أخبره كذلك أنه سينقل الى غرفة أخرى حيث تتوافر له امكانيات أكثر للكتابة .

وقد صدم لوقا بهذه السخرية الواضحة فى كلمات القاضى ، فمذ وقت ليس ببعيد أدى ترده فى الاعتراف بعلاقة إجرامية مع الصينى « ل » الى تقييده بالاغلال . والآن أحس درجة كبيرة من السرور اذ بدأ له فى الافق فرصة ليوضح الامور ويخلص نفسه من عبء استمراره فى سرد أكاذيب ، وزاد أمله حينما رأى الجو الافضل الذى يكتنف الغرفة الجديدة اذ لاحظ أن زملاءه فى الغرفة بعض الناس ممن لهم اعتبارهم .

ولكن هذا الشعور بالامل لم يلبث أن تبدد عندما بدا يدلى بانكاره للجرائم الثلاث الرئيسية التي سبق أن اعترف بها ، واخذ يعطى بيانات أكثر دقة عن نشاطه .

وقد حالت صحته وضعف أسلوبه الكتابي باللغة الصينية من كتابة الاعتراف بنفسه ، ولكن رئيس الغرفة الجديدة رفض كتابة هذا الاعتراف الجديد ، كما رفض منه هذا النكوص في اعترافه ، وصرح له بأن هذا يدل على أنه ليس صالحا من الناحية النفسية لكي يعد مادة اعترافه .

وأصبح لوقا في حيرة أكثر من أى وقت مضى ، وقد أخبره القاضى بأنه يجب ألا يذكر شيئا غير حقيقى ، وحينما بدا يدلى بأقواله الصحيحة اعتبرها غير كافية ، ولم يسمح له بكتابة أقواله . وهكذا انتابت لوقا غمرة ألم نفسانى واضطراب فكرى .

وتبع ذلك العودة معه الى المعاملة الانتقامية من جديد : فمن الهجوم عليه بلاذع القول ، الى وضع الأقلام الرصاص والأصابع والعصى أسفل ذقنه الى الضغط على عنقه ، وشد أذنيه بقوة، وهكذا بدا له أن محاولة ذكر الحقيقة لم تخلصه من محنته .

* * *

وأخيرا بدا للوقا أنه لابد من أن يجد وسيلة ما لحل مشكلته ، فخطرت له فكرة أن يذكر الحقائق فقط مع عرضها فى طابع إجرامى .

وأثر هذا مباشرة وفى خضم حركة واسعة النطاق شملت كل من فى السجن من المعتقلين ، وجد لوقا نفسه يستكمل كل نواحي هذا الاتجاه الجديد . وبتراكم الضغوط عليه للاعتراف ، ومع مشاعر التنافس من جانب المسجونين والمعتقلين للاعتراف وجد لوقا نفسه يكافح ، وفى نفس الوقت تجرفه تلك المشاعر الجماعية نحو تجسيم الحقائق .

ومنذ ذلك الوقت والى بقية مدة سجنه أخذ لوقا يجسم المسائل الحقيقية . ويجعل من « الحبة قبة » ، فصنع قصة عن شبكة الجاسوسية

بجوادث مثل المحادثات مع فتيات صغيرات من الجماعة الدينية التي يشرف عليها ، وكذا الاحاديث والتعليقات التي تبادلها مع زملائه عن الموقف العسكرى والسياسى فى الصين ابان الحرب الاهلية • وبهذه الوسيلة استطاع أن يبنى سلسلة أخاذه من الاعترافات ، فمن : « نقل معلومات عسكرية » الى الأب « س » الى نقل « معلومات سياسية واقتصادية » الى « الامبرياليين » فى هونج كونج ، الى الاشتراك فى « نشاط رجعى » عن طريق « لجييون مريم » ، وهى منظمة كاثوليكية سرية كان الشيوعيون الصينيون يعارضونها بقوة ، وأضاف الى هذا كله الكثير من الجرائم التى لم تكن فى حقيقتها أكثر من تجسيم وتجريم لنشاطه الحقيقى •

وبدا استجابة للضغوط المستمرة يمل اعترافه على زميله فى غرفة السجن ، ثم بدأ فيما بعد يكتب بنفسه تقريراً اضافياً طويلاً عن مدة اقامته فى السجن يغطى من ناحية عامة « سلوكه » بالصورة التى تجعله « سلوكاً سيئاً » • وحينئذ أخذ رئيس الغرفة ينظر اليه كرجل يمكن أن يعتمد عليه ، وأخذ لوقا يحس الحاجة الى أن يقدم مزيداً من المادة الى اعترافه •

* * *

وقد تضاعف هذا الحس بعد أن مرت السنة الأولى به فى السجن ، فقد حدث أن أعيد تنظيم السجن بالقدر الذى جاء معه بسياسة جديدة أكثر اعتدالاً (١) •

وعلى الرغم من أن الاساليب التى اتخذت ضد لوقا داخل غرفة السجن كانت صادرة من سلطات رئيسية ، الا أنه وجّه لوم عنيف الى رئيس الغرفة لتشجيعه هذا الايذاء البدنى ، ثم نقل هذا الرئيس بعد ذلك وكل من فى الغرفة الى أماكن أخرى وجيء بمسجونين جدد للاقامة مع لوقا فى زنزانة واحدة •

(١) حدث هذا التجديد فى سياسة السجن فى سنة ١٩٥٢ و ١٩٥٣ وقد منعت بعض الاجراءات المتطرفة ولا سيما تلك التى كانت تجرى داخل غرف السجن ، وقد حرم فى بعض السجون أن يناقش المسجونون قضاياهم مع زملائهم واحتفظ بالادلاء بالاعترافات لجلسات التحقيق فقط ، ولكن مع هذا استمر أسلوب اعتراف السجن بجرائمه فى غرفة السجن البناء ، عملية « إعادة التشقيب الفكرى » •

ولم يتعرض الاب لوقا بعد ذلك للضرب ولا للضغط البدني من أى نوع ، ولكن الرئيس الجديد بدأ يمارس معه نوعا من الاخاح المصحوب بالمطالب النفسية ويقول الاب لوقا عنه : « وبالرغم من عنايته بجسمي لابرائي من علتى فانه كان مسينا لى من الناحية المعنوية ، اذ كان هذا الرئيس الجديد يجمع المسجونين من حولي مرتين كل يوم لعقد جلسة لمناقشة « أفكارهم السيئة الرديئة » ثم يلج على لالعين وأجرف نشاطي الكنسي » .

وهنا بدأ لوقا يفيض في الهجوم على تفاصيل كل أوجه نشاطه الكنسي ونشاط زملائه مبررا هذا النشاط على أنه « أعمال رجعية » .

ولاسبوعين لم يفعل الاب لوقا أى شيء عدا كتابة مادة عن نفسه وعن الآخرين ، فاعترف لأول مرة بأنه نظم هو وآخرون من رجال الدين شفرة للتراسل بها واستخدموها بصفة خاصة فى يريداهم لاختار أصدقائهم وأقاربهم فى أوروبا بسلامتهم ، وليعطوا لهم صورة بالحال العامة للكنيسة المسيحية فى الصين . وبالرغم من أنه امتنع عن ذكر هذا ابان فترة اضطرابه الاولى فى الشهر الاول لاعتقاله بل حتى فى حالة الترفق به أثر اصابته ، فانه لدهشته جاء الآن ليعترف بذلك ، ولدهشته أيضا لم يهتم القاضى بهذا الاعتراف الجديد الا قليلا ، ومع هذا فقد أسف فيما بعد عندما اكتشف بعد اطلاق سراحه أن أحد رجال الدين الذين زج بهم فى اعترافه قد اعتقل .

وبدا الاب لوقا يحس أن جهوده تشجع ، فقد جاءه قاضى التحقيق مرة ثانية لزيارته فى غرفة السجن ، وفى هذه المرة كان أكثر توددا وعطفا عندما أكد له أن له كل الحق فى أن ينكر أى اتهام غير عادل . ولكن بالرغم من هذا بقى لوقا يواجه مزيدا من التوتر العاطفى لشهور تالية ، وقد وصلت المشكلة الى ذروتها حينما وجه اليه النقد بالنسبة لعقيدته الدينية ، وقد عارض بقوة ما يقوله رئيس الغرفة من أنه كان يستخدم الدين كمجرد غطاء يخفى نشاطه فى أعمال الجاسوسية .

وأجاب لوقا بعنف : « ليس الدين بغطاء ولا بمعطف كما تقول فان الغطاء شيء يمكن أن تنزعه ، ولكن بالنسبة لى فانك اذا أردت أن تأخذ منى عقيدتى الدينية فانه يجب أن تنتزع قلبى وأن تقتلنى » •

وهنا قال له رئيس الغرفة : انه وان كان قد تحسن من نواحي كثيرة فان غضبه هذا لهو نوع من السلوك السيئ الذى يجب أن يذكره فى نقده لنفسه •

* * *

وقرابة السنة الثانية من سجنه بدأ يعمل فى وثيقة اعترافه النهائى ، وقد قيل له فى البداية أن يكتب هذا الاعتراف بلغته ثم يلخص النقاط الرئيسية منه ، ثم طلبوا منه بعد ذلك أن يترجمه بنفسه الى اللغة الصينية •

وبعد ذلك جىء به ليمثل أمام قاض جديد على مستوى أعلى من القاضى الاول ، وهر أسبوع قاس فى استجواب عنيف ، وبمعاونة القاضى الاول ، وبمعاونة السجين الموظف الذى يتحدث اللغة الايطالية كتب لوقا اعترافا بحوادث لم تحدث فعلا ، ولكنه تصور أنها حقيقة •

وفى الثمانية عشر شهرا التى قضاها لوقا بعد ذلك فى السجن ركز برنامج الدراسة فى السجن على تحليل نشاط الكنيسة فى الصين ونقده ، وقد قرر لوقا أن أساقفه معينين كانوا منحرفين فى نشاطهم السياسى والعسكرى فى الصين ، كما اعترف أنه قد انتقد هذا العمل من جانب بعض زملائه حتى قبل اعتقاله ، ولكنه فى نفس الوقت أصر على أن الغالبية العظمى من رجال الدين كانوا معينين فقط بنشاطهم الدينى ، ولقد قيل له : أن اتجاهه هذا ليس تقديميا لانه لا يضع فى الحسبان مبدأ « المسئولية الجماعية » •

وفسروا له مبدأ « المسئولية الجماعية » بقولهم :

« لو أن أحد أفراد أسرة ما ارتكب خطأ فان هذا الخطأ هو خطأ الأسرة كلها ، واذا فعل أحد رجال الدين بعض أخطاء ثم لم تقفه السلطات العليا فى الكنيسة فان الخطأ يعتبر خطأ السلطات العليا للكنيسة » •

وعندما حاول لوقا أن يشير الى الخير الذى تقوم به الكنيسة فى معالجة المرضى ومعاونة الفقراء قيل له :

« ان ذلك ليس الا صورة للمعونة الامبريالية اذ أن هؤلاء المرضى والفقراء وغيرهم من الصينيين انما يوجهون بذلك الى الاعتقاد بأن الخير انما ينبعث من الاجانب ، وبذلك يكون دفع الناس الى هذا الاعتقاد عملا من أعمال الدعاية لخدمة أغراض الامبرياليين » •

وبالمثل عندما حاول لوقا تمشيا مع نقده لبعض تصرفات بعض زملائه من رجال الدين الذين كانوا يتعالون فى حياتهم متباعدين عن عامة الشعب الصينى ، مشيرا الى أنه كان يتكامل مع الحياة الصينية ويعيش كما يعيش الصينيون ، قيل له : أن سلوكه هذا يعتبر أسوأ من سلوك زملائه الذين يوجه اليهم النقد ، اذ أنه بهذا السلوك كان يخدع اشعب الصينى •

وقد استمر فى مواجهة الآلام النفسية كلما نوقشت معه المسائل الدينية ، وكان يوصف دائما لاتجاهه غير الصحيح بأنه : « عنيد » أو « ذاتى الاتجاه » وان آراءه متخلفة ، ولكنه بدأ يكبت كل ما يحسه من مشاعر داخلية وأخذ يعبر عن نفسه بحرص وحذر وبصورة تتمشى مع وجهات النظر الصينية ما أمكن • وفى نفس الوقت أغرق نفسه فى خضم البحث عن « الحقيقة » وعن « منطقية » الحقائق التى يعرض لها فى مناقشاته حتى التى يغفل فيها عن « تجسيم » التفاصيل •

* * *

ولما اعتبر أنه حقق بعض « التقدم » فى قرابة نصف العام الثالث من سجنه نقلوه الى مبنى آخر أكثر نظاما وأكثر تحررا ، وكان يسمح له بقضاء بعض فترات فى الفناء الخارجى ، ومنح حرية الذهاب الى دورات المياه ، وقلت الى حد كبير القيود الحائقة التى كان يعيش فيها فى سجنه الاول • وهنا كان واجبه الرئيسى أن يبدل بأفكاره الحقيقية ، وكانوا يوجهون اليه النقد المرة بعد الاخرى لانه لا يذكر آراءه الحقيقية ، ولذا فان هذا الاهتمام كان يزعجه لأنه كان يشعر ان أقواله صحيحة •

وحتى في فترة « التحسين » هذه ، لم يكن لوقا متحررا تماما من كل علائم الاضطراب النفسى ، وقد قاسى من الاضطراب العصبى العام ومن الارق وعندما اعترف اجابة على سؤال من زملائه فى الغرفة بأنه يؤدى الصلاة فى أثناء الليل ، نصحوه بالا يفعل ذلك لان هذا هو الذى يسبب له الارق والسهاد .

وقبيل اطلاق سراحه بما يقرب من تسعة شهور واجه ما اعتبره خاتمة المطاف فى خيائنه ، فقد امره القاضى أن يكتب خطابا الى احدى الفتيات الصغيرات اللاتى كن يعملن بجهد ونشاط فى « جماعة مريم » يخبرها فيه بأن هذه الجماعة « منظمة رجعية يتولاها جواسيس » وأنه لا شىء فيها يمت الى الدين بصلة ، وانها يجب أن تعترف للحكومة بكل « نشاطها الرجعى » ، وقد حذروه وبينوا له أن مستقبله يتوقف على الكيفية اتى يكتب بها هذا الخطاب .

ولقد كتب لوقا هذا الخطاب بعد ضغط وبعد صراع نفسى ، فكتب المشروع الاول للخطاب ، ولما كان قد ذكر فيه بعض ما قامت به « جماعة مريم » من أعمال دينية فقد رفض هذا المشروع . وأخيرا كتب لوقا الخطاب فى صورة ارتضاها القاضى ، فذكر للفتاة : أنه قد خدعها هى وزميلاتها عندما دفعهن للانضمام للجماعة ، وأنه مخطئا عندما طلب منهن « مقاومة الحكومة » ، وأوضح أنه فعل هذا « لصلاته بالامبرياليين » .

ولم يكن خطابه هذا يختلف كثيرا عن الطلب الذى طلبوه منه ، ولكنه لم يذكر فى خطابه « أن جماعة مريم لا تمت للدين بصلة » وقد جعله هذا يشعر بنوع من الانتصار ، ولكن الحادثة فى جملتها كانت مصدر ألم كبير له ، وأحس فى قراءة نفسه أن أولئك الفتيات كن أصلب عودا منه .

وكانت هناك ظواهر على أن مدة سجن لوقا قد تنتهى فجأة وفى موعد قريب مثل ظهور غرباء آخرين فى غرفة سجنه وبعض رجال الدين الآخرين ، ثم حثه على سرعة اعادة كتابة اعترافه وترجمته وتلخيصه بمعاونة صديقه السجين الموظف ، وكذلك تنبيهه الاجانب الى طلب استحضار امتعتهم الخاصة من الارساليات التى يتبعونها .

على أن اعترافه اقتصر في النهاية على مجرد نقطتين اثنتين فقط : علاقته بالاب « س » ونشاطه في « جماعة مريم » ، فبالنسبة للامر الاول كانت مسألة الجاسوسية لا تزال هي المحور الرئيسي ، أما في الآخر فقد ركز على تفاصيل التكوين التنظيمي وعضوية الهيئة • وكان اعتراف لوقا دقيقا الى حد أنه لم يشتمل الا على حوادث واقعية ، وإن كان قد شوه فقط في التفسير لهذه الحوادث • وعندما انتهى الاعتراف الى صورته النهائية استدعى لوقا الى غرفة خاصة حيث التقت له عدة صور وسجل الاعتراف وهو يقرأ بصوت مرتفع عال •

وفي الاسابيع الاخيرة لسجنه قام لوقا بما يعتبر أكبر درجة من التعاون مع معتقليه ، اذ علاوة على ما اضاف من تفاصيل جديدة عن المقاومة التي قام بها ضد الحكومة أثناء عمله في جماعة مريم بدأ يساهم بدور ايجابي في معاونة اثنين من المسجونين الجدد للدلاء باعترافهما ، وقد شعر في قرارة نفسه بعدالة ما يقوم به نحو هذين المسجونين •

ومرت جلسات التحقيق الاخيرة في جو من الالفة والمودة ، وهنا قال له القاضي : « ونحن بدورنا نعرف أننا قد ارتكبنا بعض الاخطاء بالنسبة اليك ، ولكن حينما تسافر من هنا يجب أن تظل على اعترافك بما ارتكبت من اخطاء ، ويجب ألا تبالي فيما يجرى لك ، ويجب أن تدرك أننا في البداية لم تكن نستطيع السيطرة على كل ما يجرى في السجون ، ولقد كان لدينا بعض أناس سيئو التصرف ، ولكن قد توقف الآن كل ايذاء وضرب مما يوضح أن سياستنا الحقيقية ليست سيئة بالقدر الذي يمكن أن تبدو به ، حتى ولو قدرنا فقط ما جرى لك في العام الاول من سجنك » •

• وأجاب لوقا بأنه لاحظ فعلا هذا التحسين في الاجراءات •

وفي احدى المقابلات بلغ الاب لوقا لأول مرة أنه سينفى من الصين ، وقد جاء التأكيد الرسمي بعد هذا بدقائق قليلة عندما أخذه لمقابلة قاض ثان قرأ عليه نص الحكم الرسمي في قضيته •

كانت جرائمه قد خفضت الى ثلاث فقط هي :

♦ تقديم معلومات عسكرية الى الأب « س »

♦ نشاطه في جماعة مريم

♦ تقديم المعلومات الى الامبرياليين في الخطابات التي كان يرسلها من

الصين

واحس لوقا مشاعر متضاربة بالنسبة لنتيجة قضيته ويصف ذلك بقوله :

« والواقع أنني شعرت ببعض الراحة ، فقد رأيت أن كل شيء وصل الى نهايته ، ولم يعد من سبيل الى انفعال جديد ، ولكنني في نفس الوقت أحسست ان هذه الخاتمة ليست طيبة في جملتها ، فلست اريد أن أترك عملي في الارشادية ، ولست أرغب في أن أحرم لقاء الكثيرين من الاصدقاء الذين أتركهم ورائي في أرض الصين او أحرم متابعة اتصالى بهم ، وأحسست كذلك أن كل هذه الاقوال التي جاءت في اعترافاتي الاولى قد سحبت واستبعدت ، ولكن القضية في جملتها لم تصل الى درجة اسقاط الاتهام عني »

الفصل الرابع

الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى

تحدثنا في الفصل الاول من هذا الباب عن دور الايديولوجيات بصفة عامة في معركة المعتقد ، حيث اتضح لنا بعض الصراعات التي قامت بين الناس في الازمنة المختلفة من أجل هذه الايديولوجيات ، كما تبين لنا الى اى مدى كان المعتقد عاملا اساسيا في هذه الصراعات .

والآن سنحاول أن ننظر الى الموضوع من زاوية أخرى لنرى كيف يمكن أن يحدث تحول في الأفكار داخل أيديولوجية واحدة .

ولقد اخترنا لذلك ، موضوعا شغل العالم أجمع ، ولا يزال يتتبع أحداثه ، وهو الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى .

على أننا نود أن نلفت النظر الى أن الهدف من هذا الفصل لا يرمى الى نقد سياسى ، او تحليل موضوعى شامل ، ولكننا نريد أن يتفهم القارئ البواعث الكامنة وراء هذا التحول ، ومدى الصراع الذى يحرك هذا التحول .

* * *

لقد تساءل الناس كثيرا عما ذا كانت هذه الثورة : صراعا من أجل السلطة، أو صراعا حول من يتولى الخلافة ، أو أنها صراع أيديولوجى يقوم به الزعماء أنفسهم لاعادة تشكيل عقول الشعب ولاشعال حماسة وإظهار أهمية الثورة .

كما قال البعض أيضا : أن هذه الثورة الجديدة ما هي الا تعبير بصورة هائلة لحالة التدمير ضد ماوتسى تونج وحكمه ، وأنه اذا كان هناك صراع من أجل السلطة ، فان ذلك الصراع كائن بين ماوتسى تونج وبين هؤلاء الذين يتحدون مركزه وآراءه .

لقد اطلق الصينيون أنفسهم على تلك الحركة الجديدة اسم « الثورة الثقافية » أى حركة أيديولوجية : لاعادة تشكيل عقول الشعب، ولإستئصال أولئك المنحرفين والبورجوازيين ، والمناهضين للحزب ، والمعارضين لمبادئ ماوتسى تونج ، وهؤلاء الذين يعملون على إعادة البورجوازية للصين .

أما الدارسون الفاحصون لثئون الصين – وهم فريق العلماء ورجال الفكر الذين يدرسون الصين بالتلسكوب والميكروسكوب ؛ فانهم قد قدموا تلك التفسيرات وتفسيرات أخرى للتطورات الجارى وقوعها فى الصين .

ولو القينا نظرة ثابتة الى الاحداث الجارية فى الصين ونظرنا اليها على أنها كل ، لكان من الصعب على المرء أن يؤيد أية نظرية أو تفسير من التفسيرات السابقة .

والواقع أنه كان هناك نقد كثير للزعامة الصينية فى : كتابات المؤرخين الصينيين ، وفى مسرحيات كتاب المسرح ، ومقالات الصحفيين منذ سنة ١٩٦٦ .

وقد يعجب المرء كيف فات السلطات والباحثين المتخصصين فى دراسة الصين أن يفهموا مغزى تلك الكتابات طيلة هذه السنين .

على انه من جهة أخرى فان الانتقادات التى وجهت للزعامة كانت قد أحيطت بسياج كبير من الصمت ، لدرجة أننا لا نستطيع اعتبار تلك الظاهرة موجة متدفقة من التدمير .

أما فيما يتعلق بمركز ماوتسى تونج نفسه ، فليس هناك ظل من الشك في أن بعض الشخصيات الهامة لابد من أنها اختلفت معه ، ونادت بسياسة مختلفة ، أو طالبت بتأكيد أهمية نواحي معينة في سياسة الدولة .

ولكن من المبالغة أن نقول : أنه كان هناك خطر ما يهدد مركزه وسلطته مما جعله مضطرا الى تنظيم حملات الإصلاح هذه ، وعمليات التطهير حتى يحتفظ بسلطته . ولا يزال ماوتسى تونج - بالطبع - الرجل الذى يقود الدفة فى الصين ، وهو الذى نظم الحملات والكفاحات الحالية لا للاحتفاظ بسلطته ولكن لى يضمن لعمله الثورى ولقوة آرائه ومبادئه أن تعيش من بعده ومن بعد الجيل الذى يعاصره .

* * *

والواقع أن ماوتسى تونج كان ولا يزال يحس قلقا ازاء مستقبل الثورة فى الصين ، وازاء الحماس الثورى فى نفوس جيل الشباب .

وهو يأمل فى أن يورث « التناسق الكامل لأفكاره » لا للجيل الحاضر والمقبل فحسب ، بل للأجيال اللاحقة تشعب انصين الكبير .

ومن ثم شنت المعركة الايديولوجية الكبرى الاخيرة لصياغة المفاهيم الجديدة، ولكى تضمن اشتعال نار الثورة وتفكير ماوتسى تونج الى الابد فى عقول الجماهير الصينية .

ولقد نشرت جريدة « الشعب » الصينية مقالة افتتاحية بتاريخ ١ من يوليو ١٩٦٦ بعنوان « تحيا أفكار ماوتسى تونج » ، وذلك بمناسبة العيد السنوى الخامس والاربعين للجنة المركزية للحزب الشيوعى وجاء فى هذه المقالة : « ان الحركة التى قام بها مئات وآلاف من العمال والفلاحين والجنود لدراسة مؤلفات الرئيس ماوتسى تونج لى دراسة حية . انها حركة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ . انها حركة لنشر المبادئ الماركسية اللينينية بصورة لم يسبق لها مثيل . لقد صارت الصين البلد الواسع الأرجاء الذى يضم ربع سكان العالم

مدرسة واسعة لدراسة الماركسية - اللينينية ، وأفكار ماوتسى تونج ، فاذا توافر مئات الملايين من الناس المسلحين بأفكار ماوتسى تونج ، وإذا توافر ملايين من الناس يخلفونه فى حمل لواء قضية البروليتاريا الثورية وهم مسلحون بأفكار ماوتسى تونج - فأننا عندئذ سوف نكون قادرين على تنفيذ الثورة الاشتراكية حتى النهاية ، وسوف نتمكن بلدنا من تحقيق الانتقال - تدريجيا - من الاشتراكية الى الشيوعية ، وسوف نساهم بقسط وافر مع ذلك فى انجاح الثورة العالمية » .

هذا هو ما يراه الصينيون فيما يحدث فى الصين هذه الايام ، وهو تنفيذ برنامج واسع المدى للتلقين فى صورة نضال أيديولوجى ، وهو أيضا تدريب ملايين الافراد الذين يخلفون ماوتسى تونج على مواصلة العمل الذى قام به وهو ضمان الروح الثورية والعظمة القومية للصين .

* * *

فاذا قلنا هذا ، فأننا أيضا لا ننكر وجود صراع من أجل السلطة يستعر فى الصين هذه الايام وهذا الصراع ملازم لصراع أيديولوجى ضخم . ولقد كتبت جريدة الشعب الصينية فى مقال افتتاحى عام ١٩٦٤ بعنوان « خلق ملايين الخلفاء للثورة وتدريبهم » وتقول : « انه لابد من أن تكون نواة الزعامة على كل المستويات فى الحزب والدولة من الثوريين الحقيقيين فى طبقة البروليتاريا ، وأنه لابد من اختبارهم وفحصهم فى مجال صراعات طبقية قاسية معقدة » .

والثورة الثقافية تفعل هذا تماما من أجل نواة الزعامة ، مختبرة اياهم فى حوض المعمودية الذى يلهب بالنيران . ومن الطبيعى فان أكثر أتباع ماوتسى تونج ولاء واخلاصا هم الذين يمرون بالتجربة بسلام ، وهم حتما سوف يكونون نواة الزعامة على كل المستويات بما فى ذلك المستويات العليا : فى الحزب ، والدولة والقوات المسلحة . ومعنى هذا فان « الثورة الثقافية » ما هى الا كفاح من أجل السلطة ومن أجل الخلافة .

* * *

ولكى تقدر الطبيعة الايديولوجية لتلك التطورات حق قدرها ، علينا
أن نسترجع عقائد ماوتسى تونج ومفهومه عن الثورة والصراع الطبقي . ان
ما يحاول ماوتسى تونج أن ينفذه فى أمسية حياته ليست آراء جديدة ، بل هي
آراء طالما كان ينادى بها .

فى مستهل عام ١٩٤٧ قال ماوتسى تونج : « ان الثورة فى الصين سوف
تكون مستمرة مستمرة » طويلة الاجل . وفى عام ١٩٤٩ وحتى قبل النصر
النهائى فى الحرب الاهلية ، كان ماوتسى تونج قد حذر بأن النصر سوف يخلق
ميولا وطبائع معينة فى الحزب مثل : الصلف ، والقرور ، والكسل ، وحب اللهو ،
وتجنب الحياة الكادحة المتواصلة ، وكان ماوتسى تونج يريد تجنب تلك الاخطاء .

وأكد أن النصر فى الحرب الثورية ما هو الا مقدمة قصيرة لمسرحية طويلة .
ان تلك المسرحية الطويلة هي مسرحية « الثورة المستمرة » التى تمثل على مسرح
الاحداث فى الصين هذه الايام .

* * *

وهناك علاقة وثيقة بين مفهوم ماوتسى تونج عن « الثورة للمستمرة » وبين
مفهومه للصراع الطبقي فى المجتمع الاشتراكى . وهذا ايلان بتعديل - ان لم يكن
تخليا عن المبادئ التى كان قد دعا لها ماركس وانجلز .

كان ماركس وانجلز قد تخيلا أن الصراع الطبقي سوف يختفى عندما تنفذ
الثورة وعندما يقوم مجتمع لا طبقي . وكان لينين قد عدل من هذه النظرية الى
حد ما عندما تحدث عن « التناقضات » فى المجتمع الاشتراكى .

ولكن ماوتسى تونج طور النظرية الحالية عن الصراع الطبقي بطريقة منقحة
وجعلها جزءا لا يتجزأ من الماركسية - اللينينية .

وقال في تقرير له عام ١٩٥٧ بعنوان « الطريقة السليمة لمعالجة التناقضات بين الناس » : « ان الصراعات الطبقة الصاخبة التي تشنها الجماهير على نطاق واسع - وهي الصراعات التي تميزت بها الفترات الثورية - قد انتهت . ولكن الصراع الطبقي لا ينته تماما » . وهو يرى أن تلك الصراعات سوف تستمر بين أربعة أو خمسة أجيال قادمة : بين العمال والفلاحين ، بين المدينة والريف ، بين العامل اليدوي والعامل الذي يعمل بذهنه ، وأن هذه الصراعات سوف يطول مداها ، بل سوف تكون معقدة ومرهقة وحادة » .

وتحدث ماوتسى تونج أيضا عن طريقة معالجة الصراع الطبقي ، وعن التناقضات بين الناس فقال : « نحن لا نستطيع اجبار الناس على تقبل الماركسية ، كل ما نستطيع عمله هو اقناعهم » . من واجبنا أن نعارض طريقة ضرب كل شخص حتى يموت » . فالتعليم والمحاكاة والاقناع والتلقين تلك هي الوسائل المتبعة لا قناع الناس على تقبل الماركسية .

* * *

ولكن يبدو أن ماوتسى تونج - بجانب معتقداته الايديولوجية الملزمة له - قد تأثر تأثرا كبيرا من الدروس التي تلقاها من الثورة المجرية عام ١٩٥٦ ، ومن خلافاته المذهبية مع الاتحاد السوفييتي .

فهناك اشارة في الأدب السياسى الصينى الى المحاولات التي بذلها رجال الفكر في المجر لاحداث حركة ثورية مناهضة . وفي الواقع أنه بعد قمع التمرد في المجر ظل الزعماء الصينيون يشيرون بأصبعهم الى الاخطار التي تنجم عن نقص الاتصال الايجابى بين الحزب والجماهير ، ونظروا الى الاتحاد السوفييتي على أنه « مثال سلبي » بانسبة لجميع الثوار وبناء الاشتراكية .

وتذهب انتقادات الصينيين للمثال السوفييتي أبعد من مجرد الاعتراض على « شيوعية خروشوف المنحرفة » بل تؤكد تلك الانتقادات وجود نواحي نقص أساسية معينة في أسلوب ستالين ، بل في أسلوب ماركس وانجلز .

فمثلاً نادى شن يى CHIN - YI برأى يقول : « أن ستالين ساهم فى عملية التدهور وذلك لانه شجع الصناعات والتكنولوجيا من غير أن يحل مشكلة الزراعة . فلم يتخذ اجراءات لازالة الآثار الرأسمالية البائدة السيئة فى أذهان رجال الفكر . لقد كان متسرعا عندما أعلن أنه لا يوجد صراع طبقي فى روسيا ولم يدرك أن هناك احتمالا لوقوع تغير اتجاه الرأسمالية » .

وأضاف شن يى : « أن ماركس وانجلز لم يتنبأ بهذا التدهور الرأسمالى للاشتراكية » وقال شن يى أيضا : « اننا نحاول ازالة هذه الفوارق : بين العمل اليدوى والعمل الذهني ، بين المدينة والريف ، وبين الفلاحين والعمال » وأضاف الى قوله بصراحة : « سوف نحاول ازالة الطبقة الفكرية » .

وبالرغم من ذلك فان المرء يميل الى الشك فى أن ما يدور هذه الايام فى الصين هو عملية « ازالة » رجال الفكر .

وفى خطاب مشهور لماوتسى تونج عن عمل الدعاية ألقاه فى مارس عام ١٩٥٧ ، أشار الى صفة عدم الاستقرار والثبات الكامنة فى رجال الفكر وقال : « لو أن المرء اعتقده أن هؤلاء الذين يعلمون الآخرين لا يحتاجون أنفسهم الى تعليم ، ولا يحتاجون الى مواصلة الدراسة، ولو اعتقد المرء أن الاشتراكية هى مجرد اصلاح الناس الآخرين - اصلاح ملاك الاراضي ، والرأسماليين، والمنتخبين الافراد ، وان ليس من واجبها اصلاح رجال الفكر أيضا - لو اعتقد المرء هذا لكان مخطئا » .

* * *

والحملة الحالية لا تهدف - من الجائز - الى ازالة الفكر كما قال شن ، ولكن هدفها اصلاحهم وجمعهم على ضعيد واحد مع جماهير الشعب ، وضمان صب كل رجال الفكر فى المستقبل فى القالب البروليتارى الثورى السليم .

وتجرى حركة اصلاح حاليا فى نظم اللحاق بالجامعة والمدارس ، وفى نظم الامتحانات ، والقوانين الجديدة التى تنص على اجراء اختبار سياسى لكل من يريد

اللاحق بالكليات والجامعات علاوة على التغيير الشامل في نظم الامتحانات كلها :
هذه الحركة تهدف الى منع ظهور طبقة من رجال الفكر منفصلة - طبقة معزولة
عن تاريخ وقيم الفلاحين والطبقة الكادحة « البروليتاريا » •

* * *

ومصدر آخر للخوف الذى يعتمل فى أذهان الزعماء الصينيين هو تلك
الانبؤات التى جاءت على السنة ساسة الغرب •

وتقول تلك التكهنتات : انه لو لم يتيسر الوصول الى توافق مع الجيلين
الاول والثانى من الصينيين فقد يكون من الممكن الوصول الى هذا التوافق مع
الجيلين الثالث والرابع •

ولقد رفض الصينيون باحتقار تلك اللفطات الاخيرة من جانب الولايات
المتحدة - اللفطات التى ترمى الى الرغبة فى التوافق والتفاهم •

ويعتقد الصينيون أن التعايش السلمى الذى ينادى به « المستعمرون »
ما هو الا استراتيجية تستهدف افساد المجتمعات الاشتراكية ويريد ماوتسى تونج
أن يتأكد أن انهيار الثورة - الامر الذى يتوقعه وينتظره الغرب - لن يحدث
فى الصين •

ومنذ عام ١٩٦٢ مرت بالصين موجات من حملات الاصلاح الموجهة تلو
الموجة • والسبب فى تلك الحملات هى الاحداث التى وقعت فى الفترة ما بين عام
١٩٦٠ - ١٩٦٢ - وهى الكوارث الطبيعية التى أصابت البلاد ، ونواحي الفشل
الاقتصادى والنزاع الصينى - السوفييتى •

ولابد من أن هذا الفشل قد ترك آثاره فى الداخل فقد نشأ عنه حركة تلمر
داخلية ، وحركة معارضة لزعامة الحزب •

وفي الدورة العاشرة الكاملة للجنة المركزية للحزب الشيوعي سنة ١٩٦٢
فكر ماوتسى تونج فى اتخاذ اجراءات بعيدة المدى لمواجهة الميول البورجوازية
المناهضة للحزب .

وشنت حملة تعليمية اجتماعية فى الفترة ما بين سنة ١٩٦٣ - ١٩٦٤
وكان الهدف من الحملة هو تلقين جماعى لجميع الاشخاص الكبار البالغين . وكانت
الحملة تتضمن : الغاء الرتب فى الجيش ، والتعلم من حملة جيش التحرير ،
والحملة الاولى فى السياسة ، والحملة من أجل دراسة مؤلفات ماوتسى تونج ،
وحركة الجمع بين العمل والدراسة ، والحملة لتدريب خلفاء الثورة .

كل هذا مهد الجو « للثورة الثقافية » التى جمعت أطراف كل الحملات
السابقة وأدمجتها فى حركة واحدة شاملة واسعة المدى .

* * *

ولكى نفهم هذه الحركات فهما جيدا يجب أن ندرس الحملة التى قامت من
أجل خلق الملايين وتدريبهم على أن يكونوا خلفاء للثورة . لقد نشرت جريدة
« الشعب » الصينية فى مقال افتتاحى فى ٣ من أغسطس عام ١٩٦٤ « ان العمل
العاجل أمام الصين هو أن تورث الثورة من جيل الى جيل ، وأن تقوى نواة الزعامة
على كل المستويات » .

وجاء فى المقال الافتتاحى : « ان نواة الزعامة هى التى تحدد الاتجاه أمام
تقدم القضية الثورية ، وأن نجاح القضية الثورية كلها يعتمد كلية على حقيقة
هى : « هل تحتوى تلك النواة على عناصر بروليتاريا ثورية حقة أم لا » .

وجاء فى المقال أيضا : « اننا عندما نختار الخلفاء وتدريبهم يجب أن نركز
الاضواء على أفراد من عائلات أصلها من العمال والفلاحين الفقراء ، والفلاحين من
الطبقة المتوسطة أو الدنيا ، وأنه يجب أن نظهر اهتماما كبيرا باختبارهم وفحصهم
فى صراعات طبقية عنيفة معقدة ، وأنه يجب أن ينظم الموظفون على جميع المستويات
والشباب الثورى حتى يساهموا بدور وبطريقة مخطط لها فى الحركات الثورية

الجمهورية ، وأن يتحمل الزعماء العبء الأكبر في توجيه الصراعات الثورية في كل الجبهات علاوة على تحمل مسؤولية خلق الخلفاء وتدريبهم » *

هذا هو ما تحاول الثورة الثقافية أن تحققه فهي تحاول توجيه صراع طبقي بإزالة : العناصر المناهضة للحزب ، والعناصر البورجوازية ، والعناصر المنحرفة . وفي نفس الوقت اختيار نواة الزعامة - النواة التي تعتمد عليها جميع المستويات في الحزب وفي الدولة *

والفكرة الرئيسية التي تغذي الحركة الحالية في الصين هي إعطاء الأسبقية والاهمية للنواحي السياسية على المهنية ، وللايديولوجية على الخبرة والخلق *

وهذا لا ينطبق على الحزب والقوات المسلحة فحسب ، بل ينطبق على : المزارع ، والمصانع ، والجامعات والكليات ، والمدارس فلا يكفي الآن أن يكون المرء « مطلعاً وعقائدياً وخبيراً » ، ولكن من واجب المرء أن يكون عقائدياً أكثر منه خبيراً *

* * *

وألقيت الاضواء على تلك النقطة بالذات عندما شنت الحملة التي هدفت الى أن تؤكّد : أولوية السياسة ، وزعامة الحزب في القوات المسلحة *

فقد هاجم « هسياو هوا (١) » HSIAO HUA في خطابه المشهور في المؤتمر السياسي العام لجيش التحرير في يناير عام ١٩٦٥ ، تلك الفكرة التي دعا إليها البعض وهي أن المسائل العسكرية والمسائل السياسية تتساويان في الاهمية ، وأنه من الواجب إعطاء الأولوية لكل منهما بالدور طبقاً للظروف *

(١) « هسياو هوا » هو مدير الإدارة السياسية العامة لجيش التحرير . ويحتمل أن يكون من ضمن من طهروا أخيراً ، ولكن هذا لا يقلل من قيمة تلك الاقتباسات التي اقتبست من خطابه وهي تمثل آراء « لين يياو » LIN PIAO وقالت جريدة « جيش التحرير اليومية » في مقال افتتاحي يكشف عن أعمال التطهير الأخيرة في الجيش : ان المذنبين كانوا قد وافقوا مريحة ولكنهم عارضوا سراً تعليمات الرقيق لين يياو التي تضع السياسة في المقدمة ، وأنهم تحدثوا عن إخطاء الأولوية للسياسة ، ولكنهم في حيل الممارسة أعطوا الاعتبارات الأولى للشئون العسكرية وللأعمال الفنية والمتخصصة ، ولا بد من أن هسياو كان في حديثه مؤيداً لين يياو ، ولكنه لم يكن كذلك في حيل التنفيذ *

وعارض « هسياو » هذا الرأي وقال : « أن الشئون العسكرية ما هي الا جزء ، ولكن الشئون السياسية هي كل ، وأن الصلة بين الشئون السياسية والعسكرية هي الصلة بين القائد وبين من يقودهم » .

وأضاف هسياو : « اننا لا نخشى العدو مهما كانت قوته ، ولا نخشى الاسلحة مهما كانت شدتها - هذا فيما يتعلق بالجيش الثورى - ولكن ما نخشاه حقا هو : التدهور السياسى ، والانفصال عن الشعب ، ونزع السلاح الفكرى ، وبدرجة أقل روح القتال عن طريق التخاذل .

« ولهذا السبب يجب أن نعطي الاولوية للسياسة ، وأن نعزز عملية الفكر السياسى ، وأن نسلح عقول القادة والرجال بأفكار ماوتسى تونج ، وبهذا نضمن أن تكون الزعامة للحزب وأن تكون له السيطرة على القوات المسلحة أكثر الاجهزة التنفيذية اخلاصا لتنفيذ سياسة الحزب ، وأفضل أداة مدربة فى يد الحزب » .

وليس من الضرورى أن يعنى هذا أن الكفاية العسكرية ليست أمرا هاما ، ولكن يعنى أن قوة الجيش الصينى تقوم أساسا على طابعه الثورى لا على تفوق الاسلحة ، وهذا له صلة بالصراع الايديولوجى من ناحية ، اذ أن دعاة « الاحتراف » فى القوات المسلحة لابد من أنهم كانوا يؤيدون الاسلحة والمعدات المتفوقة التى لا تستطيع الصين الحصول عليها الا بالتخلي عن سياستها فى النزاع المذهبى مع الاتحاد السوفييتى .

ويدل اختفاء لو جوى شنج LO JUI CHING (١) رئيس هيئة أركان حرب الجيش من المسرح السياسى على أنه كان واحدا من هؤلاء الذين أكدوا أهمية « الاحتراف » ومن الجائز أيضا أنه كان له دور فى الصراع من أجل السلطة فى الصين .

(١) نائب وزير الدفاع ورئيس أركان حرب الجيش الذى أصبح أهم قائد عسكري فى الصين منذ يناير ١٩٦٥ - عضو سكرتارية اللجنة المركزية للحزب الشيوعى وكان أحد نواب رئيس الجمهورية .

وتشير الدلائل الى أن « لين بياو » وزير الدفاع الصينى نجح فى فرض زعامته على الجيش ، بل فرض زعامة ماوتسى تونج بأفكاره على الجيش أيضا •

ولقد ظهر لين بياو أيضا لا كمرّجم لماوتسى تونج وأفكاره فى القوات المسلحة بل كمرّجم لتلك الأفكار للشعب كله ، وفى هذا الصدد تدل دعوة هسياو بأن من واجب الجيش : « أن يكون أكثر الاجهزة المنفذة اخلاصا لسياسة الحزب ، والاداة المدربة فى يد الحزب » و « أكثر الاداة مسئولية فى الحزب » تدل هذه الدعوة على أن ما يفعله لين بياو لا يهدف فحسب الى اخضاع جيش التحرير للحزب بل الى ابرازه على أنه طليعة الحزب ، وأفضل أداة فى يد الحزب ، بل أقوى بوق ينطق بأفكار ماوتسى تونج •

ولذلك فانه يبدو أنه فى الوقت الذى خضعت فيه المسائل العسكرية من الوجهة الرسمية للحزب فان الجيش تحت قيادة لين بياو صار قوة سياسية فى الصين لا عن طريق ابراز تفكيره العسكرى بل عن طريق اضطلاع به دور « أكثر الادارة مسئولية » للحزب أى لماوتسى تونج •

وصار هذا أكثر وضوحا بعد صدور المقال الافتتاحى فى أول أغسطس عام ١٩٦٦ فى جريدة « الشعب » بمناسبة العيد السنوى التاسع والثلاثين لجيش التحرير •

لقد جاء فى المقال : انه نظرا لظروف جديدة فقد ألقى ماوتسى تونج على عاتق جيش التحرير مهام جسيمة ، وأنه طالبه بأن يكون مدرسة كبيرة للثورة ، وأن البلاد كلها - المصانع والكوميونات والمدارس والمنظمات الحكومية الخ - يجب أن تكون مدارس ثورية مثله • وكل هذا له مغزى هام بالنسبة للصراع من أجل السلطة فى بكين •

* * *

وهناك خلافات في اعطاء تفسير دقيق لمفهوم سيطرة السياسة ، واتضح
تلك الخلافات في التعليقات التي ابداهها فريق من جيش التحرير في مقال افتتاحي
في جريدة « الشعب » بعنوان « السياسة لها الاسبقية » والذي نشر في ١٤ من
أبريل عام ١٩٦٦ .

فبينما أكلت جريدة « الشعب » ضرورة البدء بالناحية السياسية في
ادارة الشؤون : العسكرية ، والزراعية ، والصناعية ، والمالية ، والتجارة ،
والثقافة . والتعليم ، والعلم ، والتكنولوجيا ، وكل أنواع العمل ، فانها أبدت
رأيها في أن من واجب الثوار أن يكونوا « على وعى سياسى » و « خبراء محترفين »
في نفس الوقت ، وأن السياسة يجب أن تعبر عن نفسها في العمل ، وأنه
« لا توجد حياة سياسية ليست على صلة بالعمل » وأن « اتقان العمل من شأنه
اعلاء مركز السياسة ، ووضعها في الصف الاول » .

* * *

ولقد أجرت بعض الكادرات القيادية في السلاح الجوى بجيش التحرير
الشمعى مناقشة حول هذا الموضوع ، وظهر تقرير عن هذا في الجريدة اليومية
لجيش التحرير في ١٧ من مايو عام ١٩٦٦ تحت عنوان : « ان وضع السياسة في
المقدمة مسألة يجب أن تنفذ في الثورة الايديولوجية » .

وكانت النتيجة التي انتهت بها المناقشة في جيش التحرير السياسى :
« هي أن الآراء التي عبرت عنها جريدة الحزب آراء حمقاء » .

وقالت : « ان وضع السياسة في المرتبة الاولى ليس من أجل تنفيذ العمل
بصورة سليمة فحسب ، ولكن من أجل غرض أهم هو - بناء جيشنا حتى يصبر
جيشا بروليتاريا على جانب كبير من القدرة على القتال ، حاملا لواء الثورة
البروليتارية حتى النهاية ، ولتحقيق الشيوعية في أنحاء العالم أجمع » .

وقال التقرير أيضا : « أنه خلال الربع الاول من هذا العام لم ينفذ التدريب العسكري الا نادرا ، ولكن اهتمام السلاح الجوى كان مركزا على التعليم السياسى » .

واضاف التقرير - الذى يرى أن الانسان أكثر أهمية من التكنيكات - قوله : - أنه فى حالة رجل الطيران ، فإنه لا يستطيع فهم تكنيكات الطيران فهما جيدا اذا لم تكن لديه صلاحية من الناحية الايديولوجية . وحتى ولو استطاع التحليق فى السماء فإنه لن يتجاسر على مقاتلة العدو ، وسوف ينتهى به الامر الى الهزيمة » .

وانتهت المناقشة الى نتيجة هامة هي : « ان ما يمجّد الآن فى الحملة الحالية ليس العمل مهما كان متسما بالخبرة الفارقة ، ولكن ما يمجّد هو روح الشعب ، لأن هذه الروح تدفع الشخص الى تجاوز عمله العادى وبذل التضحية الفردية والجماعية » .

وهذا توضيح لمفهوم ماوتسى عن « القبلة الدرية الروحية » للصين - أى طاقة الملايين الملهمه ايدولوجيا والمنظمة سياسيا ، تلك الطاقة التى تواجه التحديات التى تجابه الامة ، والتى تحقق انجازات عظيمة فى وجه المصاعب والاعطال » .

ومن الطبيعى ان يكون المثقفون ورجال الفكر هم أول الضحايا فى هذه الثورة الثقافية البروليتارية ، فلقد تعرض : الكتاب ، والصحفيون ، واساتذة الجامعة وفوق كل هذا جميع الموظفين فى ادارة الدعاية فى الحزب حملة التطهير التى شنت على نطاق واسع فى بكين نفسها ، وفى الاقاليم » .

ولقد عزل لوتنج يى LU TUNG - YI مدير ادارة الدعاية فى الحزب ونائبه شويانج CHOU YANG من مناصبيهما ، وكانا عضوين فى اللجنة المركزية وعزل من منصبه كذلك نائب رئيس الوزراء ووزير الثقافة ،

وكان سبب الهجوم على شويانج موقفه المضاد لآراء ماوتسى تونج عن الأدب والفنون فى الثلاثينيات ، ولانه اتبع منذ ذلك الحين ما أطلق عليها « السياسة السوداء » فى الفنون .

وفى جيش التحرير تأثر بحركة التطهير لوجوى شنج LO JUI CHING وبعض نوابه فى هيئة أركان الحرب ، وأحد نواب وزير الدفاع ، وعدد من كبار المسؤولين فى الإدارة السياسية العامة .

* * *

وتتجاوز الاتهامات الموجهة الى رجال الفكر مسائل تتعلق بالنقاء العقائدى . فقد تحدثت جريدة « الشعب » فى مقالها الافتتاحى فى اول يوليو عام ١٩٦٦ عن جماعة مناهضة للثورة هاجمت الحزب والاشتراكية وآراء ماوتسى تونج ، ثم تسللت الى الحزب والحكومة والجيش والادارات الثقافية ، ويقال أن هذه الجماعة حاولت سلب السلطة فى الحزب والجيش والحكومة ، وانها كانت تنوى تدبير انقلاب مناهض للثورة ، وانها بذلت جهودا للوصول الى مراكز مرموقة لاعداد العلة لاستعادة الرأسمالية ، ولانجاز انقلاب مناهض للثورة .

* * *

والواقع أن الحملة الحالية عملية تطهير وإزالة للعناصر الخطيرة ، وهى فى نفس الوقت علاج اجتماعى وقائى على نطاق واسع . وتعلق على تلك النقطة آنا لويز سترونج - اخصائية الدعاية الامريكية للشيوعية الصينية - فى أحد خطاباتها الاخيرة من الصين بقولها : « ان الصينيين لاحظوا أن جميع الثورات فى الماضى كان لها ردود أفعال - بعد ذلك - ردود أفعال سلبتها كثيرا من مكاسبها .

» فقد حدث هذا مع الثورات : البريطانية البيوريتانية ، والفرنسية ، والامريكية ، والروسية ، ومن الممكن أن تحدث للصين أيضا .

« ان ما يحاوله ماوتسى تونج الآن هو محاولة تجنب انعكاس الثورة في الصين ، وهذه الحملة الجماعية التى تصل فى قوتها الى قوة البركان المتفجر هى حملة يقودها ماوتسى تونج شخصيا كهدية منه للثورة التى قادها لمدة تزيد على ٤٠ عاما . »

« ان فى كفاح ماوتسى تونج طابع البطولة وكذا صورة تستحق الرناء ، فكفاحه يهدف : الى ربط الاجيال المتعاقبة بتفكيره ومبادئه ، والى جعل التاريخ يسير على الطريق الذى شقه وخطه بيديه . »

* * *

وبينما نرى أن تغييرا أيديولوجيا فى طريقه الى الوقوع فى الصين ، وأنه أمر لا يقبل الشك ، فإن الصراع من أجل السلطة ومن أجل الخلافة هو أيضا جزء متضمن حتما فى هذا التغيير الايديولوجى . وعلى أى حال ، فى دولة تحكمها دكتاتورية البروليتاريا طبقا لمبدأ المركزية الديمقراطية ، فإن مستقبل الحزب ، والثورة ، والبلاد مسائل غير منفصلة عن مسألة الزعامة .

وفى أثناء هذا فان عمل ماوتسى تونج لن يقتصر على تعليم الجماهير ، أو تطهير صفوف الحزب ورجال الفكر ، ولكنه سوف يفكر فى اختيار من يخلفه ، أو من يخلفونه .

* * *

وعملية الاختيار تلك ، لابد من أن تتضمن صراعا على السلطة فى القمة . وطرد بنج شن Peng Chen (١) ، لوجوى شنج ، هذه كلها دلالات على المناورات

(١) عمدة بكين وعضو اللجنة المركزية والكتب السياسى للحزب .

والصراع من أجل السلطة ، تلك المناورات التي تجريها جماعة أرادت التخلص من منافسين خطرين ، ولكن كل تلك المناورات تحدث داخل اطار « الثورة الثقافية » .

فقد ذكرت جريدة « الشعب » في مقالها الافتتاحي الصادر في أول يوليو تحت عنوان « تحيا أفكار ماوتسى » ذكرت لأول مرة منذ شهور أسماء زعماء الصين بهذا الترتيب : ليو - شاو - شى ، شوين - لاي ، لين بياو ، تونج - هسياو - بنج . ولكنها أشارت اليهم على أنهم زعماء يعترفون بأراء ماوتسى تونج وبتفكيره على أنه مساهمة خلاقة أصيلة للينينية والماركسية .

وهذا يدل على أن الولاء لأفكار ماوتسى تونج هو المسألة الرئيسية في مسألة الخلافة وأن الجولة الأولى في الصراع من أجل السلطة قد تكون انتهت ، وأنه قد تم إقامة توازن - قد يكون غير ثابت الأركان - بين زعماء القمة الأربعة .

ومن بين هؤلاء الأربعة ، سافر شواين لاي في زيارة أيديولوجية هامة الى اليابان ، وقد أولت الصحافة الصينية تلك الزيارة أهمية كبرى على صفحاتها ، وبهذا أكدت مركزه في قمة السلطة . أما ليو - شاو - شى الذى ألتزم الصمت فقدلقى خطابا هاما عن فيتنام في ٢٢ من يوليو أكد به أيضا أنه لا يزال فى مصاف القادة الكبار الذين يسوسون البلاد ، بالرغم مما تردد عن تعرضه للهجوم والنقد، ولقد وردت أخيرا أنباء تفيد بأنه قام بعمل منشور يعلن فيه ولاءه لماوتسى تونج ولين بياو ، ويعتذر عما بدر منه ، ويتردد أنه قد يبعد عن مناصبه فى القريب .

أما لين بياو فقد اتسم عمله بالنشاط وهناك أدلة كثيرة على أهميته . أما تنج هسياو بنج فقد وجهت اليه أخيرا اتهامات بالانحراف ومحاولة استقلال منصبه فى الحزب .

أما فيما يتعلق بشواين لاي فان دائرة الصراع تبدو مقصورة على محاولته الاحتفاظ بمنصبه الحالي أكثر منها محاولة سلب السلطة العليا .

ولقد تكهن البعض بأن أول خليفة لماوتسى تونج سوف يكون ليو - شاو - شي ولكنه سوف يكون زعيما « لسد الفراغ يشارك السلطة مع آخرين يتولون السلطة الحقيقية » .

وهناك نقطة نستطيع بها أن نعارض مثل هذا الترتيب ، وهي أنه اذا كان ماوتسى تونج يقود ويوجه الحملة الحالية لضمان المستقبل البعيد المدى للثورة ، فانه لا يمكن أن يوفق - في نفس الوقت - على ترتيب مؤقت « زعيم لسد الفراغ » على مستوى القيادة العليا .

وعلاوة على ذلك فان ماوتسى تونج يرى أن زعيم الحزب الشيوعي يجب أن يكون هو الشخص الذي يتولى السلطات الحقيقية ، لا أن يكون رئيسا رمزيا تحركه شخصيات أخرى من وراء الستار ، هذا الا اذا كان الاختيار قد وقع على أقرار نظام القيادة الجماعية بعد ماوتسى تونج .

ومن بين الرجال الاربعة ، تتركز الاضواء على لين بياو في الصين هذه الايام . وتشير كل الدلائل الحالية الى أنه زعيم الحزب في المستقبل . ولكن هناك احتمال يستبعد تولي لين بياو السلطة . ذلك - انه جندي محترف - والتقليد الشيوعي السائد هو أن الزعامة تكون من المدنيين ، وبالرغم من ذلك فقد حدث في الصين تدخل الى حد ما بين الادوار العسكرية والمدنية نتيجة للمسيرة الطويلة والحرب الاهلية الطويلة مع تأكيد دور حرب العصابات . وقد حدث أن تولى بعض قواد الجيش مناصب هامة في الحزب .

وخلال العامين الآخرين ظهر لين بياو كالمفسر والمترجم لأفكار ماوتسى تونج وكان هو صاحب الفكرة التي دعت الى سيطرة الحزب على القوات المسلحة والى دراسة جميع مؤلفات ماوتسى تونج ، وهى حملة نموذجية موضع التقدير فى كل الصين •

وأوضح لين بياو أيضا بالتفصيل مفهوم ماوتسى تونج عن «الثورة العالمية» فقال : ان أمريكا الشمالية وأوروبا تمثلان المدن فى حين ان أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية تمثل الريف ، وعلى ذلك فالثورة العالمية يجب أن تبدأ من القارات الريفية الثلاث ثم تنتقل الى المناطق الأكثر تقدما •

وكان أول من عرض هذه النظرية هو زعيم الحزب الشيوعى فى أندونيسيا « ايديت » ثم أيدته فى رأيه بنج شن ، ولكن لين بياو كان أول من شرح النظرية بالتفصيل ، وحولها الى بيان نظرى رئيسى يشبه بيان ماوتسى تونج عن الثورة فى المنطقة المتوسطة •

وأصدر لين بياو بياناً هاماً آخر فى ١١ من مارس عام ١٩٦٦ عندما كتب خطاباً الى الادارات الصناعية والتجارية فى الحكومة يطالب فيه : « بتفكير موحد ، وتفكير ثورى ، وتفكير سليم » حتى تتقدم الصين ، وكان هذا تدخلا له مغزاه من وزير الدفاع فى المجالات المدنية فى الحكومة • ومع ذلك فهناك تطور هام آخر وهو دور القيادة الاول الذى قامت به جريدة جيش التحرير اليومية فى « الثورة الثقافية » بينما قامت جريدة الحزب الرسمية « الشعب » بالدور الثانى •

ويشهد المراقب للاحداث التى تقع فى الصين والصراع من أجل السلطة ، بزوغ نجوم جديدة فى الافق ، وهذا له دلالة لا تقل عن مغزى اختفاء أسماء لامعة من الحياة العامة وفى التعيينات الجديدة •

وهناك ميل الى تعيين رجال الجيش في ادارات الدعاية في الحزب . من هؤلاء :
 تاوشو TAO CHOU الذى حل مكان لوتنج كمدير لادارة الدعاية - وهو
 معروف بأنه من أنصار لين بياو وأنه من المتزمطين فى سياسة الحزب ، ويقال أنه
 قال فى فبراير عام ١٩٦٤ : « كل ممتلكات الفلاحين ملك للكوميون فيما عدا
 فرش الاسنان الخاصة بهم » .

وهناك شخصية أخرى أقيت عليها الاضواء وهى ييه شين ينج
 YEH CHIEN - YING وهو أحد المارشالات السابقين فى جيش التحرير
 كما أنه عضو فى اللجنة المركزية ، ونائب رئيس مجلس الدفاع الوطنى ، وعضو
 اللجنة العسكرية فى اللجنة المركزية للحزب برئاسة لين بياو .

وهناك شخصية هامة أخرى وهى أيضا من أتباع لين بياو وهى شخصية
 يانج شويو YANG CHOU YU وهو أحد نائبي رئيس هيئة أركان الحرب ،
 ومحارب قديم فى الحرب الكورية ، وقد خلف لوجوى شنج كرئيس هيئة أركان
 الحرب .

كل هذه التطورات تبدو وكأنها تضع لين بياو فى مركز متفوق فى الصراع
 من أجل السلطة ، ولكننا لا نستطيع التكهن بشئ لأن المعلومات المتوافرة ليست
 كافية . ان كل ما حاولنا أن نوضحه هو الإشارة الى الاتجاهات والاحتمالات .

* * *

على أن أكثر الاعتبارات أهمية الناجمة عن التطورات الحالية فى الصين هو
 أثر تلك التطورات على السياسة الداخلية والخارجية للصين . فهل من المحتمل
 أن تغير ، أو هل من المحتمل أن تشتد صلابه ، أو تصبح أكثر ليونة نتيجة لهذا
 التغير ؟

وهل من المقدر أن تكون الزعامة الجديدة ثورية وعدوانية أو أكثر ليانا ؟
 وهل هذه التغيرات مقدمة لقفزة جديدة فى مجال الاقتصاد ؟

وهل سوف تعنى هذه التغيرات استمرارا فى سياسة المواجهة الحالية مع الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى أو هل تخفف من حدة موقفها ؟

هذه أسئلة أساسية لا نستطيع أن نجزم بالإجابة عنها ، وبالرغم من ذلك فلا يسع المرء إلا أن يحاول التكهن بقدر محدود .

والملاحظة التى يستطيع المرء أن يبديها فورا هى أن الهدف كله من الثورة الثقافية هو المحافظة على الثورة ، ولذلك فانه لا يمكن أن تكون التطورات أو التغيرات تمهيدا لتخفيف سياسة الشدة التى تتبعها الصين ، فان القومية الصينية - أيضا - عامل لضمان استمرار سياسة الشدة .

لقد صار تفكير ماوتسى تونج بمثابة دعامة تحافظ على تماسك الدولة الصينية الهائلة ، وعلى عظمة الصين ومجده كشعب ، وكقوة عالمية .

* * *

وفى المجال الداخلى هل تؤدى تلك الحملات وحركات التطهير الى اعداد الجوع « لقفزة كبرى جديدة للامام فى المجال الاقتصادى ؟ » . لقد استخدم الصينيون فى الآونة الاخيرة تلك العبارة مرارا .

ويقال : أن شاوشو - رئيس ادارة الدعاية الجديد - قد صرح فى يونيو عام ١٩٦٥ بقوله : « لو قلنا : أن القفزة العليا الاولى فى الريف وقعت عندما قاد حزبنا الفلاحين على الطريق نحو التجميع الزراعى ، فاننا اذن وبعد أن بدأ الحزب فى أن يقود الفلاحين نحو الاشراف على عملية التعليم الاشتراكى بنجاح ، كاشفا عن الصراع بين طريقين ومنذفعا نحو الامام بخطى سريعة للعمل على بناء التفكير

والتنظيم والانتاج بما فى ذلك الاصلاح الفنى للزراعة ، نستطيع أن نقول : أن هذا سوف يؤدى الى قفزة ثورية عالية فى الريف » .

ويبدو أن الصينيين أيضا قد أحيو « مشروع الاثنى عشر عاما الزراعى » لاعوام ١٩٥٦ ، ١٩٥٧ ، وهو المشروع الذى وضع هدفا طموحا لتحقيق انتاج من الحبوب (١) قدره ٤٥٠ مليون طن بحلول عام ١٩٦٧ .

وبالرغم من نواحي التقدم الاخيرة فى الزراعة والصناعة ، فانه لم يصل الانتاج الصينى فى الزراعة والصناعة الى مستويات سنة ١٩٥٨ .

وبالرغم من ذلك حقق الاقتصاد تقدما وثباتا واستقرارا وقد يكون فى رأى ماوتسى تونج أن هذا قد يكون قاعدة أو اساسا « لقفزة جديدة نحو الامام » .

ومن الممكن أن الخلافات فى الرأى قد تكون قد ظهرت بين الزعامة حول هذه المسألة كما حدث عام ١٩٥٩ .

وكان من بين الاتهامات التى وجهت الى رجال الفكر هو أنهم وجهوا النقد للكميونات و « لقفزة الكبرى نحو الامام » ، والصدام فى الآراء حول هذا الموضوع سوف يتضمن بصورة غير مباشرة تغيرا فى الاتجاه ازاء الاتحاد السوفييتى كواحد من مظاهر الجدل أو الخلاف .

والحل البديل « لقفزة جديدة » قد يكون : اما تحمل نسب النمو البطيئة الحالية واما اللجوء الى الاتحاد السوفييتى من أجل المعونة . ولكن يبدو أن ماوتسى تونج رفض كلا الحلين .

(١) كان الانتاج الفلى فى سنة ١٩٦٥ - ١٩٠ مليون طن .

وعلى أى حال فليس هناك ما يدل على تخفيف في الضغط الايديولوجية
او التنظيمية على الشعب ، بل بالعكس قد يشتد الضغط على جماهير الشعب .

* * *

وفي مجال السياسة الخارجية ، لا يلمح المرء أية تغييرات جذرية، فسوف
تواصل الصين سياستها القائمة على مناهضتها للاستعمار ، ولن تبذل محاولة
جادة للصلح مع الولايات المتحدة على الأقل خلال السنوات الاربع أو الخمس
المقبلة ، وحتى لو وجدت تسوية لازمة فيتنام ومسألة فرموزا ، فان النتيجة
لن تتعدى أكثر من عودة العلاقات الطبيعية خلال هذه الفترة ، وبطبيعة الحال فان
عودة العلاقات الطبيعية مع الولايات المتحدة سوف يكون حدثا له أهميته الهائلة .

على أنه من جهة أخرى قد أعلنت الولايات المتحدة أخيرا أنها قوة في
آسيا ، وانها تنوى أن تظل كذلك ، وهو أمر لا يقبله الصينيون كما أن الصينيين
يخشون تلك التلميحات التي تبدر من واشنطنطون والتي تدل على الرغبة في
الصلح ، وهم يخشون تلك التلميحات أكثر من خوفهم من التهديدات التي
تصدرها واشنطنطون ، فهم يخشون من أفكار « التعايش السلمي » والتدفق الحر
للأفكار والسلع وهي الأفكار التي يدعو اليها « المستعمرون » ويرون في هذه
الأفكار حيلة استراتيحية يقصد بها افساد روح الثورة .

لذلك فان سياسة الصين ازاء الولايات المتحدة من المنتظر أن تظل سياسة
متسمة بالعداء والكراهية ولو على الأقل في المستقبل القريب ، الا اذا حدث ووقع
تدهور فجائي جذري للعلاقات الصينية - السوفييتية .

اما عن الاتحاد السوفييتي فانه من الواضح الا تحسن علاقاته مع الصين ،
ذلك لأن الثورة الثقافية التي تقع الآن في الصين موجهة ضد ظهور « الشيوعية
المنحرفة من النمط السوفييتي » في الصين .

والسؤال هو : هل سوف ينعكس الصراع الايديولوجى أكثر فأكثر على العلاقات مع الدول ، وخاصة في الموقف المتفجر الخاص بالنزاعات حول الحدود .
وفي الوقت الذى تسوء فيه العلاقات بين الاتحاد السوفييتى ، والصين يبدو أن الصين ليست مستعدة لصراع رئيسى مع الاتحاد السوفييتى، وليست هى أيضا على استعداد للدخول في صراع كبير مع الولايات المتحدة بشرط ألا يتسع نطاق الحرب بشكل جنونى في حرب فيتنام .

الباب السادس

أسطورة العنصر

الفصل الأول

أسطورة زانفت

الفصل الثاني

بين ماضٍ بغيضٍ ومستقبلٍ بائسٍ

الفصل الأول

الخطوة الأولى

يقول فيليب ماسون^(١) :

« لو أن مخلوقا من كوكب آخر - غير الأرض - قدر له أن ينزل إليها - وليس له من الوعي السياسي إلا قدر يسير - لبدا له أن دول هذا العالم الذي نعيش فيه - في عصرنا الحديث - قد تقاسمتها ألوان شتى من الأفكار المتعارضة فخلقت منها زوجين من المجتمعات المختلفة •

أما الزوج الأول فإن كلا من عنصريه يدعى أنه إنما يعمل من أجل تحقيق الديمقراطية وباسمها - وقد أخذ أولهما تفسيره لهذه الديمقراطية عن فلاسفة القرن الثامن عشر ، بينما اتبع الآخرون تعاليم هيغل وماركس وأعطوا للدولة القيمة الكبرى •

والعنصر الأول يضم مجموعة الدول الغربية ، أما العنصر الآخر فيشمل الكتلة الشيوعية •

ولكن مجموعة الدول الغربية - التي تبدو في نظر نفسها أنها تقوم من أجل حرية الفرد يضايقها ما قد يبدو للآخرين من أن مجتمعاتها ليست على تناسق أو توافق بين طبقاتها •

(١) Philip Mason, An Essay on Racial Tension, Royal Institute of International Affairs, London.

لقد حدث أن دفعت القوى المغامرة النشطة للدول الغربية القديمة إلى التوسع فيما وراء البحار لتغزو وتحكم أناسا آخرين .

وهكذا ظهرت مجموعتان من الناس : مجموعة جاءت لتملك امبراطوريات واسعة - ومن ثم تحكم أناسا آخرين - ومجموعة أخرى يمثلها السوفييت وتدعى أنها قد منحت الحكم الذاتي لولاياتها ، ومن ثم وقفت في الميدان كبطل يرمز للقوة لمساعدة هؤلاء المغلوبين على أمرهم .

ويبدو الموقف في الواقع غاية في التعقيد ، فكلا المجموعتين تحاول أن توسع دائرة نفوذها ، ولكن أبرز ما تتعرض له المجموعة الغربية في سياستها هو النقد المبرر لسياستها العنصرية أو الاستعمارية .

وفي خضم الصراع بين الغرب والشرق ، يقف الزوج الآخر من الشعوب التي تحررت من قبضة الاستعمار ، أو التي لاتزال تناضل من أجل استقلالها كقوة لها تأثيرها في المجال الدولي .

ولكن هل هو في الواقع ذلك الحكم الاستعماري - ولا شيء أكثر منه - هو ما ثناهضه هذه الدول ؟ . ربما يكون من المستحسن أن نقول : أن الدائرة أكثر اتساعا - وأن الغالبية العظمى من هذه الدول كانت تعاني من التفرقة العنصرية التي لاقتها من المجموعة الغربية - وكثيرا ما يتحدث قادتها في شعارات وطنية عما تلاقيه العناصر غير الأوروبية من هؤلاء الذين يسمون عادة بالبيض .

وننتج عن ذلك مشكلات حادة في حاجة إلى حل . مشكلات تغذيها الحرب الباردة وتجد فيها ميدانا لاثارتها ، ولكن من الخطأ اليين أن نفترض أن هذه المشكلات تستقي كل خطورتها من الحرب الباردة ذلك لأنه لو انتهت هذه الحرب ، فإن هذه المشكلات قد تستمر لأنها أمر يخص الإنسانية ذاتها .

والآن دعنا نفكر قليلا فيما تعنيه المشكلة بالنسبة لبنى البشر . قد يكون من الصعب أن نعود قليلا إلى نصف قرن مضى - أو أن نتذكر ما وصل إليه سكان

أوروبا الغربية من تقدم صناعي جعلهم يشعرون بالتفوق الكامل على بني البشر . . ومن الناحية السياسية أداروا أو حكموا : جزءا كبيرا من آسيا ، والغالبية العظمى من مساحة القارات الأخرى .

وكان لهذا الغرور والترفع واحتقار الآخرين . . الذى استمر طويلا حتى فى قارة آسيا أثر كبير على التوتر العنصرى الذى ساد العالم فترة طويلة ، ولا تزال آثاره باقية حتى اليوم .

* * *

ومن ثم كان لابد لنا من أن نتفهم جنود هذه المشكلة ، تلك المشكلة التى كانت تحمل الاعتقاد بأن البشرة الشقراء أو البيضاء أكثر احتراما وتبجيلا عن البشرة السوداء أو الملونة .

فى هذا الفصل سنحاول أن نتعرف طبيعة مشكلة اللون ، وكيف كان اختلاف لون الانسان نكبة كبرى على معتقدات البشر ، وكيف بنيت هذه العقيدة على وجود فكرة تفوق جنس على آخر نتيجة سلالة أو لونه ، أما فى الفصل التالى فاننا سنحاول أن نوضح كيف كان للاستعمار ارتباط كبير بهذه المشكلة ، وإلى أى مدى استغل الانسان أخاه الانسان أسوأ استغلال ، واستعبده على أبشع الصور معتمدا على تلك الفكرة الزائفة بتفوق جنس على آخر .

والواقع أن اللون يعتبر نكبة قاسية تفصل بين شعوب العالم ، بل إنه ليعتبر أشد النكبات قسوة لأنه لا معنى له ، ولأنه يقيم فجوة بين هذه الشعوب . إنه نكبة يزيد بها تعقيدا أساطير الاجناس ، ويجسمها سوء فهم الفروق الاقتصادية والسياسية والروحية بين الشعوب . إنها تقيم جدارا حول الناس وحول الشعوب ، وتنشأ خلف هذا الجدار أساطير تفوق بعض الشعوب على البعض الآخر . ولما كانت هذه الأساطير من النوع النفاذ فانها سرعان ما تختلط بالحقيقة .

ولا تعتبر الأساطير الخاصة بالتفوق العنصرى شيئا جديدا ، فقد فرض المانشو على الصينيين العزلة العنصرية القاسية ، ومنعوا كل زواج مختلط ، كما نشأ نظام الطوائف فى الهند نتيجة غزوات عنصرية ، أما الاضطرابات التى ثارت بعد ذلك فكان ينسج خيوطها الطوائف الواحدة ضد الاخرى ، فيشعر المسلمون فى الهند باضطهاد الهندوس لهم ، بينما يعيش الهندوس فى قلق جنبا الى جنب مع المسلمين فى باكستان . ولقد ظل المسلمون فى الاراضى الشمالية الغربية من الهند يقومون بالثورات من آن لآخر حتى أخدمهم الصينيون بلا رحمة فى القرن التاسع عشر .

وفى أثناء الحرب العالمية الثانية فاق المستعمرون اليابانيون المستعمرين الغربيين عندما حلوا محلهم لفترة قصيرة . وفى نفس الوقت بينما كان الناس فى أمريكا الشمالية ينظرون الى اليابانيين على أنهم شعب تقدمى ذكى نشط الا أنهم كانوا ينظرون اليهم تحت وطأة الحرب العالمية الثانية على أنهم شعب مكر خائن . ثم دارت الايام وأصبحوا ينظرون الى اليابانيين فى الوقت الحاضر بالاعجاب بسبب مهارتهم ، وبسبب أجهزة الراديو الترانزستور التى يصنعونها .

وفى الهند كان الجنود الأمريكيون ينظرون الى الوطنيين على أنهم شئ قذر غير متحضر ، وفى نفس الوقت كان المفكرون الهندود ينظرون الى الأمريكين باحتقار على أنهم أجلاف وماديون يعوزهم الفكر والحضارة .

ويعلق توماس باتريك ميالىدى(١) على هذه العادة بقوله :

« ان هذه العادة القديمة ليست عادة تلتقل من مكان الى مكان فحسب ، ولكنها قد تنشأ فى نفس المكان . ففى جزر الانتيل الكبرى بعد أن اكتشفت أمريكا بسنوات قليلة كان المستكشفون الاسبان يوفدون الجماعات ليتأكدوا ما اذا كان

Thomas Patrick Melady, The Revolution of Color, Hawthorn Books, Inc, New York, 1963, P. 23.

للوطنيين ارواح ، بينما كان الوطنيون يقومون باغراق الاسرى البيض ليتأكدوا
ما اذا كان العفن سيصيب جثثهم أم لا • ان هذا العجز عن تقبل هذا التنوع
الانسانى وتقديره هو علامة على الوحشية والبدائية ، فكان الانسان القبل
المحصور فى جماعة تتشابه معه ينظرون الى أعضاء القبيلة المجاورة على أنهم : أقل
منه ، وأقل من البشر ، وعلى أنهم متوحشون » •

* * *

ولقد نشأت الاساطير العنصرية عن مثل هذا التفكير الموروث الذى هو خليط
من سوء الفهم ، ومن الخيال ، ومن الخطأ ، وقد أوجزه لنا عالم الاجناس البشرية
جوان كوماس(١) بقوله :

« ان فكرة تقسيم البشرية الى أقسام عنصرية منفصلة عن بعضها البعض
اتصالا تاما فكرة غير دقيقة • انها مستندة الى مقدمات منطقية زائفة ، وخاصة
نظرية الدم الخاصة بالوراثة ، والتي لا يقل زيفها عن زيف النظرية العنصرية
نفسها • ان انتماء شخص الى دم معين هو عبارة لا معنى لها ، حيث ثبت أنه
ليست هناك علاقة مطلقة بين عوامل الوراثة وبين الدم ، بل ان هذه العناصر
مستقلة ، وهى لا تتحد فحسب ، ولكنها تميل الى أن تتميز • وليست الوراثة
عبارة عن سائل يسير مع الدم ، وليس صحيحا ما يقال من أن دم الابوين يتحد
فى المولود » •

ان التقسيمات العنصرية العلمية التى يضعها علماء الاجناس البشرية تهلم
الافكار الخاطئة السائدة التى تقسم الناس الى : اجناس عليا ، واجناس دنيا ،
ولقد أثبت علماء الاجتماع دون أى شك أن تقسيم الاجناس بمقياس تفوق نسبى
لا يستند الى أى أساس علمى •

Juan Comas, «Racial Myths» UNESCO Series on The Race Question in Modern (١)
Science, Paris, 1958, P. 17.

لقد دار حوار نابه في مجموعة الكتيبات التي كانت تصدرها اليونسكو تحت اسم « موضوع الاجناس البشرية في العلوم الحديثة » . وان قراءة دقيقة لهذه التقارير وهذه البحوث التي توصل اليها علماء الاجناس البشرية لتؤكد تعقيد فكرة الجنس البشرى وتهتم التعميمات السهلة التي هي نتيجة السعى لتحقيق ما رُب ، أو التحيز أكثر منها نتيجة لعلم سليم .

ولا يتفق علماء الاجناس البشرية على عدد الاجناس على وجه التحديد ، وان كانوا قد ابتكروا لذلك مقياسا . ان مفهوم « الجنس » في رأيهم هو عبارة عن عدد من السكان معزولين جغرافيا أو اجتماعيا ويختلف عن غيرهم من السكان . وتقاس الفروق : بواسطة بعض الخصائص والمميزات الجسمانية ، ومدى تردد « الجينات » (Genes) التي تلتجها .

ومهما كانت هذه التعميمات فهناك تعميم ينطبق عليها كلها : فكل الناس لها نفس نظام المخ المعقد ، ونفس الجهاز العصبي المركزى . وهذا يؤيد الفكرة التي تقول بعدم وجود : اجناس عليا ، واجناس دنيا ، وان كانت هناك فروق داخل الاجناس ، وفروق بين الاجناس بعضها وبعض .

وحتى الآن توصلت البيانات العلمية الى وجود فروق جسمانية كثيرة ، وفروق عقلية محدودة جدا . والنتيجة النهائية - كما يقول ج. مورانت - هي : توازن بين القوة والضعف مما يجعل الاجناس البشرية في حكم المتساوية . وبعد ان يلاحظ بروفيسور مورانت أن الفروق بين الجماعات تؤدي الى المساواة بينها في النهاية نجد أنه يقول بلهجة علمية كلها تفاؤل :

« ان التنوع بين السكان هو نعمة للانسانية لو أعطى الجميع فرصة تنمية طاقاتهم (١) » .

G. M. Morant « The Significance of Racial Differences » UNESCO Series on The Race Question in Modern Science, Paris, 1958, P. 47.

هذه هي اللغة الدقيقة التي يستخلمها العالم عندما يعالج موضوع الأجناس البشرية ، وهي لغة تختلف عن لغة العنصرى الذى يخلط بين الحقيقة وبين الخيال ، بين المظاهر وبين الحقائق • ان العنصرى يؤمن بعلم المساواة ايماناً مطلقاً غير مشروط ، يؤمن بوجود جنس متفوق ، وجنس متخلف بغض النظر عن الظروف : المادية والاجتماعية ، والاقتصادية ، والتاريخية •

* * *

واذا نحن طبقنا هذا على الموقف العالمى فى الوقت الحاضر لوجدنا ان تقسيم الاجناس يمكن أن يهبط الى جنسين فقط : البيض ، وغير البيض • ان هذا هو الاساس الذى يقوم عليه التوتر العنصرى • ويمكن أيضا أن نعبر عنه بأنه عبارة عن مواجهة بين : الغرب ، وغير الغرب • وطبقا لهذا التقسيم أيضا تنشأ المشكلة : بين العالم المتقدم ، وبين العالم المتخلف • وعن هذه المعادلات الغرب والتقدم ، غير الغرب والتخلف ينشأ أساس سوء الفهم الذى يسير فى موازاة أحداث اللون القاسية •

ويفسر ميليدى ذلك بقوله (١) :

« ان للهوة التى تفصل الغرب عن غير الغرب أو البيض عن غير البيض جنسوا ليست ذات صبغة تاريخية ودبلوماسية ولغوية فتسبب بل ان لها صبغة اقتصادية وسياسية وروحية • وبلغة الاقتصاد نقول : ان هناك قلقا من جهة المعونة الاقتصادية ، فهناك احساس بأن المعونة الأمريكية الممنوحة الى دول الشرق لا تقارن بمعونة مشروع مارشال الضخمة • وهنا يرد الغرب ويقول : ان البلاد

Thomas Patrick Melady, The Revolution of Color, Hawthorn Books, Inc. (١)
Publishers, New York, 1958, P. 26.

المتقدمة يمكن أن تمتص المعونة بوعي أكثر من البلاد المتخلفة • فضلا عن ذلك فهناك اختلاف في المقاييس التي تستخدم في توزيع المعونة ، فهي تعطى للدول الغرب على أساس الكفاية ، أما مع غير الغرب فانها تقاس على أساس فقد جزء من الكرامة القومية » •

* * *

وبينما ينكر الغرب نواياه للسيطرة على العالم غير الغربي الا أن ذكرى الاستعمار لتترك تراثا من القلق ، وتجعل الدول التي عانت من ذلك تنظر الى نوايا الغرب بعين الشك •

ومن ثم نجد أنه في المجال السياسي – كما هو الحال في المجال الاقتصادي – يظل : سوء الفهم وعدم الثقة هما العلاقة بين الغرب وغير الغرب •

وفي عالم الروح أجبر ظهور غير البيض على المسرح العالمي العالم الغربي ، الى أن يعيد دراسة قيمه الرئيسية ومعتقداته ، وأن يواجه بفهم وحذر نظام القيم الخاص بغير البيض • أما الاجناس الملونة فلديها ثقة في قيمها الروحية وفي تصميمها على الاحتفاظ بها •

ان تقبل فكرة الاله العلوى هو عامل يتغلغل في كل المعتقدات الاساسية الخاصة بالشعوب الملونة • ان ثقافات الشعوب الافرو اسيوية لتستند الى اساس روحى • ففى طريقة حياتهم نرى معظم سكان افريقيا وآسيا الأصليين قد أظهروا طيلة قرون طويلة – وما زالوا يظهرون – قبول القيم الروحية ، القيم غير المادية . وبعبارة موجزة أنهم يؤمنون باله أعلى بالرغم من الاختلاف في تسميته خالق للحياة يجزى ويعاقب • ويعتبر هذا عاملا أساسيا في قيمهم •

ان القيم المتشابكة هي اعتراف ثابت بالمسؤوليات الاولى . واذا نحن بدأنا بالمسؤولية الاولى نحو الوالدين نجد أن معظم الاديان تركز على واجب الفرد نحو الاسرة ، وفضلا عن ذلك فان ضغوط الفقر والجهل والمرض التاريخية قد زادت روابط الاسرة وثوقا ، وقوت ارتباطاتها بين الشعوب الملونة . فنجد أنهم يتعاونون في مجتمعاتهم التقليدية بالمشاركة في تحمل الأعباء . انهم يشتركون عن طريق الاحتفالات القبلية والاسرية المختلفة في مناسبات : الميلاد ، والزواج ، والوفاة ، والحصول ، والمطر ، والجفاف .

وكما هو الحال في كل المجتمعات التقليدية نجد أن للأجناس الملونة عقلية احتفالية أو طقوسية . انهم يرون فيها أفضل تعبير لهم عن فرحتهم بالحياة ، وفرحتهم بالانشطة الانسانية من : جنس ، الى نوم ، الى لهو ، الى طعام ، ويواجهون الحياة في أبسط صورها ، بروح من الفرحه والبهجة . ولا ينقص حلوة الحياة بالنسبة لهم الا أنها قصيرة أو قاسية .

وهناك كل الدلائل التي تشير الى أن معظم الدول التي نالت استقلالها حديثا في أفريقيا وآسيا تشعر بالرغبة في أن تصفح ، وأن تنسى استعلاء البيض عليهم في الماضي .

ولكن هذا الأسلوب الخاص « بالصفح والنسيان » لينطبق فقط على الماضي . ولا يمكن أن نتوقع أن تصفح هذه الشعوب وتنسى الاساءات المستمرة التي تجرح كرامتهم كأميين .

وكلما أحرز الانسان تقدما تكنولوجيا كبيرا - أحرز : قدرة على التقدم الانساني ، وقدرة على التدمير ، ومن ثم فان ظهور الأجناس الملونة كقوة مؤثرة في الشؤون العالمية يزيد الامل في مستقبل البشرية . ومن جهة أخرى فان العنصرية والاساطير الخاصة بالتفوق العنصرى ، لتنكر القيم العامة لغير

البيض كما تنكر المثل العليا للبشرية • ان هذه الافكار لتنبع من العقول المتعصبة
المتأثرة : بالجهل ، أو الكره ، أو الخوف في تحديها للواقع والمعقول • ولكن اهم
من هذا كله هو أن الشعوب الملونة أصبح لها نفوذ في الشؤون العالمية ، واصبحت
تسهم بنصيب في تحقيق الاسرة العالمية • والامل معقود في أن تستفيد البشرية
من هذه القيم العالمية ، وتنظر الى اللون على أنه فرق عرضي لا أهمية له ، وتواجه
تحدي المعاشة في القرن الواحد والعشرين •

الفصل الثاني

بين ماضٍ يغيث ومستقبل باسم

الاستعمار والتفرقة العنصرية :

عبر رابندرانات طاغور^(١) عن فكرة السيادة الوطنية بقوله : « لقد شاهدنا في بلادنا نوعا من الطعام المقلب يعلنون عنه أنه تم صنعه وتم تغليفه دون أن تمسه يد • ونفس هذا الوصف ينطبق على الهند وحكمها • ان هذا الحكم لم تمسه يد بشرية • فلا الحكم يعرفون لغتنا ولا يلتقون بنا لقاء شخصا الا كرؤساء • • ولكننا - نحن المحكومين - لسنا شيئا مجردا • اننا من جانبنا أفراد لهم احساساتهم » •

وفي غينيا صرح الرئيس سيكوتوري للرئيس شارل ديغول عندما خير الشعب في سبتمبر ١٩٥٨ م عما اذا كان يريد الاحتفاظ برباطه مع فرنسا أم لا ؟ فقال : « نحن نفضل الفقر في ظل الحرية على الغنى في ظل العبودية » •

والواقع أن الوطنيين في آسيا وأفريقيا واجهوا هذا الموقف - وهو واضح بالنسبة لمن يرفضون الاستعمار ولا يرتضونه - فقالوا مؤكدين : « أفضل لنا أن نحكم بأنفسنا كما لو كنا في الجحيم ، من أن يحكمنا حكامنا المستعمرون حكما عادلا » •

(١) Rabindranath Tagore, Nationalism, The Macmillan Coy, New York 1917, P.P. 24.

وقد عبر التصريح الذى أصدرته الأمم المتحدة عن هذه الفكرة بلغة تتسم باللباقة الدبلوماسية .

» الجمعية العمومية ...

اقتناعا منها بأن استمرار وجود الاستعمار يمنع اطراد التعاون الاقتصادى للدول ، ويقف حجر عثرة فى سبيل التنمية : الاجتماعية ، والثقافية ، والاقتصادية فى البلاد الخاضعة للاستعمار ، ويقلل من فرص تحقيق مثل الأمم المتحدة فى السلام العالمى ..

لذلك فانها تعلن :

أولا : ان فرض : الاستعباد ، والسيطرة ، والاستغلال على الشعوب هو حرمان لهذه الشعوب من حقوقها الانسانية الاولى . وهو يتنافى مع ميثاق الأمم المتحدة ، كما انه عقبة فى سبيل تحقيق السلام العالمى ، والتعاون .

ثانيا : لكل الشعوب الحق فى تقرير مصيرها .

والواقع ان الاستعمار يفترض تفوق الغرب الابيض على العالم غير الابيض ، وقد عبر عن ذلك فى مدى واسع للسيطرة يمتد من الاستعمار الامبريالى الى الاستعمار الجديد . وهى نفس الفكرة التى تقول بتفوق الدخيل الابيض على الوطنى الملون . ولهذا لم يكن عجيبا ما تختاره الشعوب الملونة بعد ذلك .

وقد خربت تجارة الرقيق - وهى أسوأ ألوان الاستغلال والاستعباد - القارة الافريقية من القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر ، وكانت مقدمة للاستغلال والاستعمار اللذين أعقبا ذلك .

وقد تضمنت تجارة الرقيق الاطلنطية من ٣٠ الى ٤٠ مليونا من العبيد فى الفترة من عام ١٥١٨ الى عام ١٨٦٥ م . وعبر المحيط الاطلنطى ما لا يقل عن ١٥ مليونا من الافريقيين .

ويقول كاوى فى مقدمة كتابه « شحنة سوداء » أن الصفة المميزة لتجارة الرقيق هى :

« لا أخطارها ، ولا عدد الأرواح التى تفلد أئناءها ، ولا حتى ألوان القسوة التى كانت تصيب الملايين ، ولكن كانت قسوة التجار وانعدام العطف الانسانى . ومن بداية هذه التجارة حتى نهايتها كانت تنكر كل المستويات فيما عدا مستويات الربح والخسارة . لقد كانت قيمة الرجل الاسود تقدر طبعاً لما يحمله من لحم وثمان ذلك فى السوق . فاذا لم يكن للحمة قيمة فكانوا يلغون به الى البحر كما لو كان حصاناً كسرت ساقه (١) » .

وكانت النتائج الوحشية لتجارة الرقيق تضرب فى كل اتجاه . لقد أصابت البحارة البيض كما أصابت شحنة السود . ولما كانت أهمية البحارة تقل عن أهمية العبيد - كانوا يعطون مقداراً من الطعام أقل ، وكانوا يعاملون بقسوة أكثر . ولذلك كانت نسبة الوفيات بينهم أكبر من نسبة وفيات العبيد المشحونين على المركب . وفى أيام تجارة الرقيق كان هناك مثل برازىلى يقول : « ان هذه التجارة كانت : مطهراً للرجل الابيض ، وجحيماً للزنجى ، ونعيماً للتاجر » .

وفضلاً عن ذلك كان العبيد الافريقىون المسروقون يشترون من التجار الوطنيين بعد مساومات مستفيضة . وكان الثمن يدفع على شكل بضائع استهلاكية وعلى شكل بنادق . وكانت الأخيرة تستخدم بدورها بغية الاستيلاء على مزيد من العبيد ، فكانت القبيلة الافريقية تشن الهجوم على القبيلة الافريقية الاخرى لتحصل على العبيد . وكانت النتيجة حالة حرب دائمة فى غرب أفريقيا ، وكان تجار الرقيق يستغلون هذه الحالة من التوتر الشديد ومن العداوات .

وفى نفس الوقت كان أساس الاستعمار فى آسيا ، النشاط الجم الذى كان يبذله التجار الاوروبيون الذين كانت تمثلهم شركة الهند الشرقية الانجليزية

(١) Paniel P. Mannix in Collaboration With Malcoln Cowley. Black Gorgoes, The (١) Viking Press, 1962.

وشركة الهند الشرقية الهولندية التي تأسست في أوائل القرن السابع عشر .
وقد ركز الهولنديون من التجار على جاوه وجزر البهار ، كما ركز البريطانيون على
الهند . وكانوا قد قفوا على أثر البرتغاليين الذين كانوا يسيطرون فعلا على تجارة
المحيط الهندي عن طريق خلجان الشواطئ الصغيرة . وقد اشترك الفرنسيون
في المنافسة عن طريق شركة جزر الهند .

ووصلت العملية الى ذروتها عام ١٨١٨ م عندما أحرزت الشركة الانجليزية
تفوقها على الشركات الاخرى ، وكما حدث في أفريقيا تحت سيطرة الاوروبيين
بمعاونة الحكام الوطنيين ومساعدتهم ، وتم للانجليز هزيمة الفرنسيين في هذا
الميلان . وأصبحت الشركة الانجليزية حكومة تسيطر على الهند . وفي عام ١٨٥٨م
ألغى البرلمان الانجليزي حكومة الشركة في الهند . ووضعت محلها البلاد تحت حكم
التاج البريطاني . وأصبح سكرتير الدولة في الهند عضوا في الوزارة البريطانية .

وقد بدأ سباق الاستعمار في أفريقيا يأخذ صورة جديدة في السنوات التي
تبداً من ١٨٧٠ م واستقر فعلا في عام ١٨٩٨ م . وفي هذه الفترة القصيرة تغلغل
النفوذ الاوروبي السياسي عن طريق التغلغل الاقتصادي . وجاء مؤتمر برلين عام
١٨٨٤/١٨٨٥م ليضع القواعد الاساسية لاستغلال الاوروبيين لافريقيا وتقسيمها
بينهم . وكانت المنافسة تدور بين بريطانيا وفرنسا من أجل السودان ، كما
كانت المنافسة تدور بين بريطانيا وألمانيا على الكمرون . وكانت أفريقيا جميعها
هي الغنيمة التي تم توزيعها في بداية القرن على الدول الآتية : بريطانيا ،
وفرنسا ، وبلجيكا ، وإيطاليا ، والبرتغال ، وإسبانيا ، وألمانيا .

واستمرت السيطرة حتى منتصف القرن العشرين . وان حجم هذه السيطرة
ومداها ليلبدو غير معقول في هذه الفترة القصيرة . فلم يحدث أن أصبح مثل
هذا العدد الكبير ومثل هذه المساحات الكبيرة في يد مثل هذه القلة . ففي السنوات
الخمسينية كانت جملة السكان البيض في أفريقيا خمسة ملايين ، بينما كانت جملة
السكان الافريقيين ١٩٣ مليوناً ، وإذا استبعدنا المليونين ونصف المليون من

الأوروبيين في جنوب أفريقيا ، والمليون وستمئة ألف في شمال أفريقيا
الفرنسية - لقلنا أن أفريقيا كانت في قبضة مليون من الأوروبيين البيض .

وكانت الدول الأوروبية تتبع سياسات مختلفة للاحتفاظ بوجودها في
المستعمرات . فكانت لكل دولة أوروبية أسلوبها الاستعماري المميز الذي كان
يختلف من مكان إلى مكان . كان البريطانيون يستخدمون نظام الحكم غير المباشر ،
فكانوا يديرون البلاد عن طريق الزعماء الوطنيين، وكانوا يعملون بسياسة هدفها
اعداد السكان المحليين للحكم الذاتي في داخل الكومنولث . ففي الفترة السابقة
على الاستقلال كان البريطانيون يعدون السكان - على مراحل - لتولي الحكم
الذاتي ، وان كانت الشكوى تقول : ان هذه المراحل كانت بطيئة .

وفي داخل امبراطورية الاستعمار البريطانية كان هناك تنوع في السياسة .
ففي شرق أفريقيا كان حاجز اللون ملحوظا وخاصة في روديسيا . وفي نيجيريا
كان الاستيطان ممنوعا بينما أعطى المستوطنون البيض في كينيا أفضل الاراضى .
ولكن كان هناك دائما شكل من أشكال الحكم غير المباشر .

وكان الهدف من وراء ذلك ليس مصلحة الوطنيين ولا تهيئتهم للحكم
الذاتي ، ولكن الاستعمار البريطاني كان يهدف من وراء تلك السياسة ، أن يهيئ
جيلا يتعاون معه في المستقبل بشكل جديد ، ولا يمكنه أن يبتعد عنه ، وهذا
بالطبع يعبر عما نراه اليوم في شكل الاستعمار الجديد .

أما هدف الاستعمار الفرنسي فهو أن يتناول الأفريقيين ويحيلهم إلى فرنسيين
سود . لم يدرب الفرنسيون الوطنيين على الحكم الذاتي ، ولكنهم كانوا يستخدمون
الحكم المباشر وهذا يعزل كثرة عدد الإداريين الفرنسيين في أفريقيا . ففي فترة
ما قبل الحرب في أفريقيا الغربية كان الفرنسيون يحكمون عددا من السكان
يبلغون خمسة أثمان العدد الذي كان يحكمه البريطانيون ، ومع ذلك كان عدد
إدارييهم ثلاثة أضعاف عدد إداريي البريطانيين (٣١٠٠٠ فرنسيون ، و ١١٠٠٠
بريطانيون) . وكان الفرنسيون يسعون إلى القضاء على سخط الوطنيين بتثقيفهم

وتعريفهم بثقافتهم ومدنيتهم ، بل كانوا يوفدونهم للدراسة في باريس • ومن الناحية النظرية كان الافريقيون السود مواطنين فرنسيين - فكانوا ينتخبون أعضاء في البرلمان الفرنسي ، وفي السنوات الخمسينية كان هناك ٥٢ أفريقيا من بين أعضاء الجمعية الوطنية البالغ عددهم ٦٢٦ عضوا • كما كان هناك ٣٨ أفريقيا من بين أعضاء مجلس الشيوخ البالغ عددهم ٣٢٠ عضوا • وكانت النتيجة أن كثيرا من هؤلاء الافريقيين كانوا يشعرون أنهم أحسن حالا وهم في باريس عنهم اذا كانوا في : باماكو ، أو داكار ، أو بورتونوفو •

وعلى النقيض من ذلك كان البلجيكيون يؤكّدون المنفعة الاقتصادية في حكمهم ويؤثرونها عن الفرص السياسية • فلم يكن يسمح لاحد - حتى ولا للبلجيكيين - أن يصوت في الكونغو • وبدلا من الحقوق المدنية كانت هناك فرص اقتصادية • وقد ظل البلجيكيون الذين كانوا يحكمون الكونغو من بروكسل متناسين نار الوطنية والقومية •

أما البرتغاليون فقد كانوا يتجاهلون الناحيتين السياسية والاقتصادية ، وكانوا أكثر استغلالا لأفريقيا من كل من انجلترا وفرنسا • وامعانا منهم في الاحتفاظ بالحالة الراهنة - التي أصبحت مستحيلة - عمل البرتغاليون على أن يجعلوا الافريقيون يعيشون في حالة من الجهل والعزلة • وكجزء من حكمهم الاستبدادي أدخلوا تجديدا واحدا • فاصدروا قانونا بأن الافريقى الذى يمر في عدة اختبارات معينة بنجاح يصبح رجلا أبيض من حيث الادارة البرتغالية • ولكن كان من العسير على الافريقى أن يمر في هذه الاختبارات اذ أنه بعد فترة طويلة يقول احصاء عام ١٩٥٠م أن عدد الافريقيين الذين مروا في هذه الاختبارات في أنجولا هو ٣٩.٣٠ من جملة عدد السكان ٤٠٠.٠٠٠ نسمة • وفي موزمبيق حيث يبلغ عدد السكان ٧٠٠.٠٠٠ نسمة بلغ عدد المؤهلين لهذا الوضع ٤٣.٣٥٣ أفريقيا •

وبعد نشوب ثورة أنجولا في عام ١٩٦١ م أعلن البرتغاليون عن عدد من الاصلاحات : المواطنة لكل السكان الوطنيين ، حق الانتخاب بشرط تسديد الضرائب ومعرفة القراءة والكتابة • وكانت هناك مساومات جماعية • ولكن لم

تغير هذه الإصلاحات من الحقيقة التي يعرفها الجميع والتي تقول : « ان هؤلاء الناس يريدون أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ، وأنهم سوف يحصلون على هذا الحق عنوة اذا لم يعط لهم بطريقة سليمة » .

أما اسبانيا وألمانيا فكانتا نسبيا عوامل صغيرة في تجربة استعمار افريقيا . فبعد أن خرج الالمان من أفريقيا الشرقية في أثناء الحرب العالمية الأولى خلفوا وراءهم ذكريات عن الحكم العنيف .

وتردد مارجرى بيرهام - الخبيرة البريطانية في الشؤون الافريقية سطرين من قصيدة سير فرانسيس دريك التي يمتدح فيها عملية التوسع الاستعماري لبنى وطنه فيقول :

« سيغنمون منا معرفة الدين الذي نؤمن به »

وسنغنم منهم الثروات التي تحتوى عليها بلادهم » .

وبينما كانت أفريقيا تقاسى من تجارة الرقيق ، كانت أوروبا تجنى المكاسب الاقتصادية الطائلة . واستفادت شركات الملاحة في : فرنسا ، وانجلترا ، وهولندا من تجارة الرقيق ، وأمكن قيام صناعات وأسواق جديدة . كان الرق يوفر رأس المال الذى يستخلم فى المناجم والسكك الحديدية ، ومصانع القطن . وفى نصف الكرة الغربى كانت السلع الآدمية تساهم بنصيب كبير فى استقرار القارتين .

وكان التوسع الاستعماري عاملا اقتصاديا كبيرا فى تقدم الغرب ، وكان من نتيجة قيام الامبراطورية أن جاءت : القوة ، والهيبة ، والأمان للعالم الابيض . كانت المستعمرات تمد البلاد الأوروبية المصنعة بالمواد الخام كما كانت بلورها سوقا للسلع المصنعة . وفى نفس الوقت كانت تنميها تخدم السلطة المستعمرة وتنفعها . وكان نتيجة ذلك أن ازدادت البلاد الغنية غنى ، كما ازدادت البلاد الفقيرة فقرا - وهذا اتجاه وحشى وخطر وما زال مستمرا حتى اليوم . ان سيطرة البيض على غير البيض فى آسيا وأفريقيا - من جريمة الرق المعنوية الى جريمة الاستعمار السياسية والاقتصادية - هى محل دراسة لأسوأ صور الاستغلال .

انطلاقة التحرر :

وجاءت الحرب العالمية الثانية مصحوبة بنكبات قاسية لدول أوروبا ، واضطرت هذه الدول الى الاستنجد بشعوب أفريقيا وآسيا ، ومن ثم ذوت فكرة تفوق الجنس الابيض المطلقة ، وانتشرت العقيدة الوطنية بين كثير من شعوب آسيا وأفريقيا .

وكان من نتيجة قيام العقيدة الوطنية وانتشارها بعد الحرب العالمية الثانية أن تحركت سلسلة من الاحداث كان لها أبلغ الأثر على العلاقات الدولية . وكان اقواها أثرا ما حدث في أفريقيا وآسيا مما كان له تأثير ثوري على البناء : الاجتماعي ، والسياسي ، والاقتصادي . فذبلت وذوت الامبراطوريات القديمة . وبعد أجيال من السكوت والسلبية تلقت الشعوب الملونة القوة ، وانطلقت نحو عصر جديد .

أما دول الغرب فكانت تواجه شيئا من التناقض . لقد خاضت غمار حربين عالميتين من أجل تحقيق الحرية والديمقراطية ، ولكنها لم تقم بتطبيقها على الشعوب المستعمرة . وكان لابد لهذه الدول الغربية بعد أن ساهمت المستعمرات فيها من أن تفكر في اصلاحات تؤدي الى الحكم الذاتي اذا لم يكن الى تقرير المصير .

وفي نفس الوقت كانت ضريبة الحرب العالمية : في الأرواح ، وفي المدن ، وفي الصناعات في أوروبا غاية في الثقل . كانت في حاجة الى كل نشاط لاعادة بناء الحياة الجديدة على الانقاض القديمة . لقد باتت أوروبا وقد استنفدت مواردها أو رغبتها في مواصلة النظام الاستعماري .

ولكن حق تقرير المصير كان ولا يزال يفسر على شكل جداول ومراجعات دستورية زاد في تعقيدها استثمارات الغرب : البشرية ، والاجتماعية ، والاقتصادية . وأصبحت الأمم المتحدة منبرا لمناقشة هذه المشكلات مناقشة مفتوحة . وبينما كان مجلس الوصاية يسيطر على جزء يسير من البلاد الافريقية التي لم تحصل بعد على حكم ذاتي ، كان هو أيضا منبرا للتحديث عن حق تقرير

المصير • كان هذا المجلس يقدم الى الامم المتحدة تقريراً عن ادارة الوصاية ، وكان يناقش تقدم كل بلد نحو الوصول الى تقرير المصير • وكان الاتحاد السوفيتي والدول الشيوعية الاخرى مصدر مزيد من الضغط على مقاومة الاستعمار •

ومن بين دول الاستعمار القديمة ظلت البرتغال وحدها تتحدى هذه الاستجابات التحررية ، لعجزها عن أن ترى نفسها منفصلة عن مجدها القديم كقوة عالمية • ان هيبة البرتغال الوطنية مرتبطة باعتمادها الاقتصادي على مستعمراتها فيما وراء البحار ، وباهتمامها بانشاء مجتمع من المستوطنين قوامه مواطنون برتغاليون •

ولكن كانت بذور الثورة قد بذرت • لقد بينت أن في مقدور الأفريقيين والآسيويين أن يديروا شئونهم وبذلك قضوا على أسطورة تفوق البيض • ومما لا شك فيه أن الشكوك كانت قد أثرت حول الأسطورة قبل الحرب العالمية الثانية • ولكن بقيام هذه الحرب رأى الأفريقيون والآسيويون للمرة الثانية كيف قام الرجل الأبيض ضد الرجل الأبيض في جبهة عالمية •

وساعد على القضاء على أسطورة تفوق الرجل الأبيض بحوث علماء الاجناس البشرية وعلماء الحفريات وأخذ العالم بكشفهم • لقد تعاون في ذلك اكتشاف المدن المدفونة في الصحراء الكبرى مع دراسات المجتمعات التقليدية الحفرية • وقد ساعد علماء الاجناس البشرية الذين كانوا مهتمين باكتشاف أوجه الشبه وأوجه الخلاف في حياة الاجناس بتوضيح العلاقة العالمية بين البشرية جمعاء بينما كشفوا عن مقدار تنوعها • لقد ساعدت دراساتهم غير البيض على أن يروا مجتمعاتهم التقليدية في ضوء جديد ، وبذلك قضوا على الاقليمية الثقافية للرجل الأبيض •

واخيراً لقد قوت روح الوطنية في المستعمرات الهجرة نحو المدينة • فكان أن اجتذبت المدن الأفريقيين والآسيويين فوفدوا اليها في أعداد متزايدة بحثاً عن الفرص وعن الاثارة • حتى اذا ما وصلوا الى المدينة تغيروا • فحلت رغبات جديدة وعلاقات جديدة محل القيود التقليدية ومحل القيم التقليدية • فبدلاً من حياتهم

التي كانت لا تخرج عن القبيلة عمدت المدن الجديدة الى امتزاج الناس المختلفين في المشارب بعضهم ببعض وعلمتهم مهارات حديثة • فبدأت الارتباطات تتشكل على أساس المصالح أكثر من أساس المولد • وخاصة في اتحادات العمال والحركات السياسية • كان ساكن المدينة الجديد يحصى ثروته طبقا لما كان يملكه من : نقود • ودراجات ، وملابس ، بدلا من ماشية وأرض • كان يهدف الى أن يسير قدما ، الى أن يحسن مستواه الاجتماعي والاقتصادي ، ولم يعد يقنع بأن يستمد رضاه فقط من نجاح القبيلة • وبعد ذلك أصبح أساس مركزه مقدار تعليمه والعمل الذي يزاوله • لقد أصبح ساكن المدينة الافريقي يهتم بانجازاته وتحصيله •

ولكن كثيرا ما كان يحدث أن تتعطل هذه الأهداف ، وتتعثر هذه الاماني نتيجة لعدم توافر فرص العمل أو التعليم • وكان الساخطون يجنون أن من السهل أن ينسبوا عدم توفيقهم الى دولة الاستعمار وخاصة الى ادارة الاستعمار المحلية • كذلك كانت المدن في مناطق الاستيطان تشكل مصدرا من مصادر الشكوى والاثارة لانها كانت مقسمة الى مناطق للاوروبيين ومناطق للوطنيين • وكانت الهوة في مستوى المعيشة بين كل من الاتساع بحيث لا يمكن أن تغفل • كان الافريقيون والآسيويون يربطون البيض بالغننى ، وغير البيض بالفقر • يربطون البيض بالسيطرة والسيادة ، وغير البيض بالخضوع والاستعباد • وكان هذا مصدرا للاستياء •

وكان الاستياء والسخط سهل الانتقال • وكذلك كان الحال مع الافكار والاساليب الجديدة الخاصة بالتنظيم والاثارة • كانت الصحف والكتيبات الافرو آسيوية تنشر القصص والتصريحات المثيرة • وكان الزعماء الوطنيون ينيرون الجموع عن طريق الشعارات المتهبة • وكانوا يزرعون البلاد طولا وعرضا ينظمون المظاهرات والاجتماعات • ولم تكد تمضى عشر سنوات على الحرب العالمية الثانية حتى كانت الشعوب الملونة قد أدركت وعرفت قوتها وامكانياتها ، واستطاعت أن تترجم هذه القوة وهذه الامكانيات الى عمل سياسى •

وهناك درس غربى قديم تم تطبيقه على عالم غير البيض • لم يعد الرجل جزيرة • فالانسان أصبح يواجه الآخر بشكل لم يحدث من قبل • وأصبحت المدنية تواجه المدنية الأخرى • وأصبحت الثقافات تتغلغل الواحدة في الأخرى ، كما أصبحت المجتمعات تتداخل الواحدة في الأخرى ، والافكار تتوزع بسرعة متناهية لدرجة ان أصبح العالم وكأنه مكون من جيران •

وبالرغم من ذلك وبالرغم من اختفاء الحواجز المادية أصبحت المشكلات السيكولوجية تهدد بالفصل بين الناس ، اذ أن عملية التكيف أصبحت تواجه البشرية وخاصة الرجل الابيض • ان النفوذ والقوة تتنقل بسرعة في هذه الايام •

فهناك أولا الجماعة الغربية التقليدية التى تضم أوروبا الغربية ، وأمريكا الشمالية ، وتزيد قوتها نتيجة علاقات جانبية بينها وبين أمريكا الجنوبية ، واستراليا ، ونيوزيلنده • هذه المجموعة يتسدها البيض وان كان يوجد بينها فوارق دبلوماسية واستراتيجية وسياسية • لم يعد العالم الغربى يتكلم بلسان واحد في هذا الخضم من السياسات المتغيرة فى : واشنطن ، وباريس ، ولندن ، وبون •

وهناك الكتلة الصينية السوفييتية وهى موجودة فى مجموعة الاتحاد السوفييتى وتتضمن : دول حلف وارسو ، والصين الشيوعية • وفضلا عن أن الانقسامات داخل الكتلة أصبحت أكثر شدة من مثيلاتها داخل جماعة دول الغرب فانه يوجد بينها تماسك نتيجة أنها دول تؤمن بعقيدة واحدة •

واذا نحن رسمنا دائرتين حول هاتين الكتلتين فى خريطة العالم نجد أن هناك مناطق أخرى تظل خارج أى الدائرتين • هذه المناطق هى : القارة الافريقية ، والقارة الآسيوية ، وأمريكا اللاتينية •

وقبل أن تبدأ حركات الاستقلال كانت الدول الغربية هى التى تسيطر على دول الدائرة الثالثة • ولقد حدث استقلال شعوب غير البيض فى نفس الوقت الذى قامت فيه المجموعة الصينية السوفييتية تتحدى تفوق الغرب • ولقد أضاف

تهديد الإبادة المشتركة - اذا قامت حرب نووية - عنصرا جديدا الى بنيان القوة في العالم ، وأصبحت الحرب الشاملة شيئا غير معقول . أصبح من الضروري أن تستخدم طرقا أخرى للقتال في عصر الصواريخ .

ولكن ما زال الغرب والكتلة الشرقية في نضال ، وكان من أثر ظهور المناطق التي تسكنها الاجناس الملونة أن ظهرت قوة ثالثة في هذا النضال . ان بروز الشعوب غير البيضاء كقوة لهو أكثر من اعادة تجمع بناء قوة العالم . لقد نمت الثورة نمووا مفاجئا بين الامم النامية . وبينما كان الغرب يواجه الشرق بغية أن يدمر الواحد منهما الآخر ، بدأت القوة الثالثة تواجه العالم بالبديل الوحيد للدمار - انه مدنية عالمية جديدة . وهذا مما يربك المتفائلين والمتشائمين البيض . وينظر بعضهم الى تدهور قوة الغرب الابيض على أنها مأساة مروعة . ويرى البعض الآخر أنه ليس هناك بديل سوى حرب بين الشرق والغرب كفيل بأن يدمر العالم .

ان التغييرات التي طرأت على ميزان القوى لها دلالة ضخمة بالنسبة للغرب الابيض . لم تعد لهم السيادة المطلقة على العالم . لقد أصبح البيض أقلية . انهم يواجهون الآن عالما يختلف اختلافا بينا عن عالم أجدادهم . عالم تتساوى فيه الاجناس من ناحية تقرير مصيرها ، وابرار كيائها .

فاذا رفض الرجل الابيض - الذي ظل متعاليا فترة طويلة - نظرة المساواة والعدالة الى رجل المجتمع الجديد ، فان ذلك سيؤدى الى كارثة من حمامات دم تنضال بالنسبة لها كل فئات الحروب السابقة .

الباب السابع

السحر وطوته على العقل

الفصل الاول
السحر وطوته على العقل

الفصل الأول

السحر وطوره على المقل

السحر فن من الفنون التي توارثها الانسان عبر التاريخ عن الحضارات القديمة ، وبرغم التقدم الحضارى الحديث فان العالم لم يخل تماما من المعتقدات والطقوس الوثيقة الصلة بالسحر . على أن السحر بكل صوره وألوانه لا يزال قائما ، ولا يزال حقيقة قائمة في الثقافات الفطرية وبين الشعوب التي لا تزال تعيش على فطرتها الاولى ، ويعتبر وسيلة عملية لها قدرها في تحقيق نجاح أى عمل بشرى قاطع حاسم .

وبالرغم من تعدد ما كتبه الكثير من العلماء عن السحر ومعتقداته مستندين الى خبراتهم التي اكتسبوها من المناطق التي أجروا بحوثهم فيها ، فانه لا يزال هناك كثير من المناطق يقوم كل ما كتب عنها على أساس القياس أو الحدس والتخمين ، وذلك بالنسبة للدوافع وراء السحر أو القوى الخفية التي تفتعل في عوامله . ويرجع النقص هنا الى قلة توافر الدراية الاصيلة باللغة عند محاولة البحث في الميدان الوصفى للمسائل الخاصة بالايديولوجية في نطاق ما هو خارج للطبيعة ، وبخاصة ما يمس الارواح .

ولقد سبق أن اشرنا الى أن الوسائل الميتافيزيقية والسيكولوجية قد استخدمت في الماضي للتأثير على معتقدات الناس وسلوكهم ، ومن ثم لن يغيب

عن بالكنا فى مناقشتنا موضوع السحر انه احدى الوسائل التى استغلت فى المجتمعات المختلفة للتأثير على تفكير الناس وعقولهم •

ولما كانت المجتمعات تختلف من مجتمع الى آخر من ناحية : الجنس ، واللغة ، والدين ، والبيئة ، والثقافة ، وغيرها من العوامل التى تحدد سلوك الانسان ، فاننا سنحاول أن نحدد سمات هذا الموضوع فى مجتمعات مختلفة ، حتى يمكننا أن نخرج فى النهاية بصورة عن العوامل : البيئية ، والثقافية ، والسيكولوجية الكامنة وراء السحر •

السحر الفطرى :

أثارت أهمية السحر فى الثقافة البدائية مناقشات أسهم فيها كتاب من الثقافات أمثال : تيلور Taylor وفريزر Frazer وويستر مارك Wester Marok وماريت Marett وليمان Lehmann ومالينوسكى Malinowski وكان لهؤلاء بصفة خاصة الدور البارز فى هذا النقاش الذى استغرق بعض الوقت •

ولقد قدم السير جيمس فريزر فى كتابه المشهور « الفصن الذهبى » (١) The Golden Bough نظرية منسقة مترابطة عن السحر كانت أساسا لغالبية ما كتبه الآخرون بعد ذلك فى الموضوع •

ولقد عرضت الدراسات المختلفة فى كتابات : هـ. هوبرت Hubert ومارسل موسى Marcel Mauss و ر . ر . ماريت R. R. Marett ، وقد يكون من الأهمية بمكان أن نشير هنا الى التفرقة الهامة التى فصل بها فريزر السحر عن الدين ، ولب هذه التفرقة فى تقدير فريزر أن السحر يكون بالسيطرة المباشرة للانسان على قوى الطبيعة ، على حين يعتمد الدين على « استعطاف » و « استرضاء » قوى أعلى وأسمى من قوى البشر والطبيعة •

J. G. Frazer, The Golden Bough, A Study in Magic and Religion, Macmillan, (١) London, 1990.

الطابع الاجتماعي للسحر :

والسحر على ما أوضح فريزر ليس مجرد طابع من طوابع الاعتقاد ، ولا هو جانب من الجهاز الثقافي للإنسان ، بل هو فن « يترجم » النظرية والمعتقد Dogma في كل خطوة الى عمل ، وهو دائما مسألة عملية بحيث يستخدم : لاستمطار المزروعات ، وإيقاع الصيد في الشباك المعدة لاقتناصه ، ولايجاد الاستقرار داخل المنزل ، واعطاء القارب قوة على مواجهة الامواج ، كما يستخدم : لجلب المرض وابعاده ، أو احداث الموت وكذا لاكتساب قلب « المحبوب » والظفر في الحرب ، وقد يكون : لتحقيق السرعة في السفر ، أو وضع الشخص موضع القبول والتقدير في حفل أو في الرقص .

وهكذا نرى السحر فنا يمارسه الانسان بوسائل خاصة بقصد الحصول على ما يهدف اليه من نفع ، وكلمة الانسان هنا تعنى المعنى المطلق للفرد وللجماعة ، ويتضمن هذا في نفس الوقت اعترافا بما فوق الطبيعة أى الاعتراف بقوة السحر التى يمكن الانسان بواسطتها السيطرة على قوى الطبيعة .

وتمتد جذور السحر الى مختلف ألوان النشاط البشرى : فالسحر أسلوب أو طريقة لاختضاع قوى الطبيعة لارادة الانسان ومشيلته ، لتأمين رفاهيته ، ولتشكيل مستقبله ومصيره .

ويمد السحر أولئك الذين يمارسونه بقوة أو بسلطة اجتماعية ، ففي كل المجتمعات تقريبا يعتبر « الساحر » الشخص الذى يضارع الزعيم من ناحية : النفوذ ، أو المكانة ، أو السلطة ، ومن ثم يكون السحر بمثابة قوة للرقابة الاجتماعية .

وفى الغالبية لا يقوم بالاعمال الهامة الا الاخصائيون الثقات الذين يكونون فيما بينهم طبقة مختلفة متميزة عن باقى المجتمع . وأولئك الذين يريدون منهم ان يضمنوا استمرار بقاء هذه المعرفة والانتفاع بها يحصرون أعمالهم فى نطاق محدود ، ويورثون هذه المعرفة أبناءهم وأحفادهم جيلا بعد جيل .

وبذلك نستطيع أن ندرك أن السحر عمل له طابع التخصص ، وهو دعامة امتيازات خاصة لأفراد معينين • انه مهنة أو عمل يمارسه الافراد داخل نطاق أسر وعشائر معينة محددة ، وهم وحدهم الذين يملكون المعرفة التي يستطيعون بها ممارسة طقوس هذا العمل •

وفي السحر مصلحة اقتصادية على أساس أن أولئك الذين يقومون به انما يكافئون بواسطة أولئك الذين يتلمسون منهم المعونة ، وحتى الذين يعطون المعرفة (١) يعوضون بجزء له قيمته المادية على أساس أن من يعطى هذه المعلومات سينتفع بها في ممارسة السحر ويتكسب منها •

ويرتبط السحر في جانبه التقليدى القديم عن طريق الاساطير بهذا الماضى البهيم الطابع لعصر الآلهة والابطال • كما تربطه الاساطير أيضا بأصل الانسان ، وببدايات الثقافة القبلية في مطلع التكوين الاجتماعى للانسان •

وكل الاساطير المليئة بمعجزات الاعمال التي كان يقوم بها الاسلاف القدامى تحتوى على الادلة للقوة التي للطقوس ، على حين تذكر أسماء هؤلاء القدامى دائما في « التعاويذ » وفيما يكتب من « تهايم » •

مبادئ السحر أو أسسه :

وكما أوضح الدكتور برونسلاف مالينوسكى فان كل عمل من أعمال السحر يتميز أو يتحدد بواسطة أشياء معينة تقال ، وأشياء معينة تعمل •

ومن هنا أصبح للتعويدة والطقوس أو الشعائر وشخصية الساحر الذى يقوم باللور أهمية أساسية في العملية كلها •

(١) يلاحظ أنه في المجتمعات الأفريقية الفطرية يفرون بين من يمارس السحر خلفا لأبيه وجده ، وبين من يمارسه نتيجة حصوله على المعرفة بطريق الشراء • ويرون أن للأول مكانة تفوق مكانة الآخر وتجعله موضعاً لثقتهم •

التعويذة The Spell :

عبارة عن تلاوة بعض الكلمات أو العبارات في ترتيب منسق معين ، وهي الجزء الظاهر البارز من عملية السحر •

وتستند قوة السحر على العبارة التي تلقى والتي توارثها القائلون بالسحر منذ عصور قديمة جدا ، وكذا على الايمان بأن أى اضطراب في العبارة حتى بالتقديم أو التأخير في الفاظها يسبب عدم توفيقها في أداء وظيفتها •

على أن المجتمعات تختلف في تقدير أهمية تلاوة عبارات « التعويذة » بالنص الاصلى ، فعند البولينيزيين : أن أى خطأ في الكلمات ، أو أى اغفال عن ذكر بعضها يفسد عملية السحر ، وإذا كان الخطأ في الطقوس نجم عنه موت القائم بالسحر بواسطة قوى عالية أكبر من قوة البشر •

ومع هذا فثمة بعض مجتمعات تتسامح في أحداث تغيير في بعض الكلمات داخل الاطار العام للتعويذة ، ولما كانت التعويذة هي العمود الفقري أو الدعامة الاساسية لعملية السحر كانت لغتها من الاهمية بمكان •

وفيها دائما اشارة الى « الغرض » أو الى « العمل » الذى يظن بأنه له تأثيره على ما هو مطلوب تحقيقه • فالتعويذة أو التعزيمة عند « الماورى » التي تلقى لاكساب القارب سرعة وقوة على الامواج تتحدث عن : خفة الطائر على الريح ، وخفة « النورس » الذى يطفو على سطح الماء ، كما تتضمن ذكر بعض أنواع الاخشاب التي تشتهر بالخفة والقابلية للطفو •

كما تستخدم كل ألوان الاستعارة والتشبيه المعروفة في اللغة في صياغة كلمات التعويذة ، فلا تذكر على سبيل المثال أسماء الطيور بل تقلد أصواتها كما تقلد ولولة البحر • ومن العادة أن تتضمن « التعويذة » أيضا أسماء الاسلاف ، وبعض حوادث الاساطير القديمة ، ويصحب هذا تلاوة التعويذة باللغة القديمة

«المهجورة مشتملة على كلمات ذات المعنى أو المغزى الخفى ، مما يجعلها مبهمة وغير مفهومة الا لاولئك الذين يمارسون عملية السحر »

وفى ضوء ذلك يبدو الارتباط القوى الذى بين السحر وبين التاريخ القديم الاسطورى للشعب •

الطقوس أو الشعائر :

وتصحب « التعويذة » السحرية مجموعة من الاعمال هى « الطقوس » أو « الشعائر » والتي تكون وظيفتها الرئيسية نقل « التعويذة » الى الغرض الذى يسعى لتحقيقه •

ولهذا فانه عندما يريد « الماوى » - من سكان نيوزيلند الاصليين - أن يصيب سهمه أو رمحه « الهدف » يبصق على المقلوف الذى يستخدمه ثم يتلو « تعويذة » تبدأ بكلمات « فلتطر يا سهمى للإمام كما يطير النيزك فى السماء » •

وعلى مثال ما قلنا عن « التعويذة » يجب أن تتبع الطقوس أسلوبا محددا يتمشى مع الكلمات التى تلقى فى التعويذة ، فالحركة التى يجىء ذكرها فى التعويذة تقلد أو تمثل ، كما أن الامور التى يراد تحقيقها يمثل شبيها لها ، ومن هنا كان من الضرورى عند القيام بالسحر لاسقاط المطر عند الجفاف أن ترش على الارض بعض قطرات الماء بواسطة الساحر ، وعندما يراد أن يقاسى عدو آلام الحريق يحرق « مثال » يصنع له على شكله ، وعند اجراء السحر لاكتساب قلب «الحبيب» تطلق روائح ذكية تجتذب الافئدة ، واذا ما أريد اعماء المطاردين فى البحر اطلق الملاحون ذرات من الجير لتمثيل الضباب الذى يخفيهم عن العدو •

وهكذا تكون هذه الطقوس هى « الوسيلة » التى تنقل التعويذة أو الكلمات وتحولها الى عمل •

حالة السحر :

ولما كانت للسحر هذه الاهمية فانه يجب أن يجرى ويمارس بعناية وحرص، على أن « الساحر » فى كل المجتمعات يقيد بمجموعة من المحرمات Taboo اذ يمتنع عن تناول أصناف معينة من الطعام ، كما يجب ألا يمارس أى اتصالات جنسية عارضة ، أى لا تكون له علاقة جنسية بأى امرأة غير زوجته ، أما اذا كانت من تمارس السحر امرأة كما فى بعض المجتمعات الافريقية فانه محرم عليها الاتصال بغير الزوج .

واذا لم يتبع هذا بكل دقة بطلت قوة تأثير الساحر ، فالعادة أن ارتكاب المحظورات يسبب دائما عدم توفيق عملية السحر .

وللحالة الانفعالية أهميتها ، ففى السحر الاسود وهو الذى يقصد به الاضرار بشخص ما كقذفه بسهم ، أو اصابته بطعنة ، يمثل الساحر عملية قذف السهم أو توجيه الطعنة بنفس الانفعال الذى يكون فيه كما لو كان يفعل ذلك فعلا والضحية أمامه وفى تناول يده .

ويشدد الدكتور مالىنوسكى على أهمية هذا المظهر الانفعالى ويراه القاعدة الاساسية للسحر فيقول : « ان السحر هو التعبير الطقوسى لحالة انفعالية متصلة بالغرض المراد تحقيقه ، ففى الثوران التلقائى الانبعائى للكلمات والفعل توجد نقطة التعويذة والطقوس ، وعلى توهم وتخيل الممارسة الموضوعية أى فكرة أن هذه الاعمال لها تأثيرها - يقوم الاعتقاد بالقدرة أو الطاقة التى للسحر » .

لب قوة السحر أو جوهره :

يعزى الدكتور ماريت الفكرة الاساسية للسحر الى اعتقاد الوطنيين فى قوة مبهمة خفية فوق الطبيعة ، وهى قوة لا مادية تحيى وتنعش كل شىء ، أو لو شئنا دقة التعبير الذى قدمه ماريت نقول : هى قوة تبعث الحياة فى كل شىء .

وقد وصل « هوبرت » وموس والاستاذ كـ • برويس الى مثل هذا الرأى القائل بأن مانا Mana (١) هى الفكرة الاساسية أى « الفكرة الام » للسحر •

ويؤمن كثير من الشعوب التى تعيش على الفطرة بقوة غامضة لا تجسيد بشريا لها ، فيطلق عليها أهل الملجاش أى سكان جزيرة مدغشقر كلمة «Hasina» كما يطلق عليها هنود أمريكا الشمالية بعض مسميات تختلف باختلاف القبائل مثل : « واکان » Wakan و « بوكونت » Pukont و « مانيتو » Manito واورندا Orenda ، ولكن ما يعنى به الناس من هذه المسميات المختلفة شىء واحد هو « مانا » •

على أن قوة السحر شىء آخر غير « مانا » وليست هى – مثل مانا – قوة خفية كامنة فى كل الأشياء استخدمها الانسان لتحقيق أغراضه ، بل أن التأثير الحقيقى للسحر يقوم أصلا على أساس « التعويذة التى يتلوها الساحر ، كما يقوم – الى حد ما – على الطقوس التى تجريها » •

وليس السحر هو الاستخدام الثابت المقرر لفكرة مطلقة عامة بل أنه ليتولد من التوتر الانفعالى لمواقف معينة •

ان الفكرة وراء « مانا » تشبك دون شك مع عملية « ممارسة السحر » ، ولكن الاثنتين مع هذا بمثابة ساقى شجرتين متشابكتين وملتفتين على بعضهما البعض ولكن كل من الساقين يخرج من جنور غير تلك التى يخرج منها ساقى الشجرة الاخرى •

وترجع قيمة ما أسهم به « ماريت » فى نظرية السحر الى تشديده على « المظهر الانفعالى » Emotional aspect للعملية السحرية ، وذلك فى تحليله

(١) الاصطلاح « مانا » هو فى الأصل اصطلاح بوليليزى « مجموعة من الجزر البعثرة فى الباسفيك ومنها هوايى وسيمو وغيرهما » ، ويعنى القوة غير الطبيعية التى لا تمثّل جسديا لها : أى انها ليست من البشر وتنسب اليها كل الشعوب التى على الفطرة القدرة على السحر ، والقدرة على جعل المستقبل سعيدا •

لعقلية الشخص البدائي الذي يعيش على الفطرة في أثناء ممارساته السحرية ،
ولقد استطاع ماريت بهذه المعالجة السيكلوجية للموضوع أن يحول دون الانجلاء
الى الافراط والمبالغة في الدراسة الثقافية للمعتقدات البدائية •

أزمات الحياة :

في حياة كل شخص في المجتمع البدائي أزمات ، منها : أزمة مرحلة البلوغ ،
وأزمة الاعداد للحياة الجنسية والزواج • وثمة أزمات أخرى : كمواجهة معركة
وقتل ضد عدو مغير ، او ضد خصم يقف منه ومن الجماعة موقف المخاصمة لسبب
او لآخر ، او مثل الخروج للصيد طلبا للغذاء • وفي كل هذه الازمات يحاول
الشخص أن يكتسب من مانا « القلب القوى » أي الإجراة على مواجهة الازمة ، وعلى
« الحكمة » للوصول الى حل لهذه الازمة •

وتجمع تقاليد الناس في كل مجتمع – وهي تلك التي تضم كل تجارب
الماضي البعيد – الوسائل الصالحة للتكيف مع الازمة ومع علاج الموقف النائي-
عنها سواء اكانت الازمة : « عضوية » كالمرض ، او ظرفية كالصيد أو القتال ،
وذلك بتلاوة « تعزيمة » أو اجراء طقوس تعاون النفس على الاستقرار والراحة •

مانا والطقوس :

ولقد كان الدين في العالم القديم قبل بروز الاديان السماوية غير واضح
اللفظ ، او بمعنى أدق لم تكن له الالفاظ الواضحة المعبرة ، ولذا كان يمارس
بالفاظ مبهمة على مثال ما ينطق به البكم ، فكانت « مانا » تهب لنصرة القوة
الدافعة التي توجدها الطقوس – هذه الطقوس التي كان الناس الذين يعيشون
على الفطرة يخافونها ويخشونها بأكثر مما أن يدركوها أو يفهموها •

وحيثما تكون الطقوس ذات طابع عام ، وتجرى علانية بمشهد من الجميع ، وتكون متفقة مع العادات والتقاليد ، فإن الجميع يحسون أن « مانا » هنا ، « مانا » خيرة تهدف الى الخير ، ويحس الجميع أن هذا الحفل الطقوسى يجرى فى المناسبة الصحيحة ، ويثق كل فرد بأن المجتمع سيحقق منه خيرا .

ولكن من ناحية اخرى لو أن شخصا ما راح بطريقة سحرية خفية يتصل بالقوة الخفية الغامضة ، فإن كل فرد يحس أن « مانا » هنا شريرة ، وأن ضررا سيلحق المجتمع أو على الأقل بعض الناس .

وفى بعض الاحيان يكون من الصعب معرفة الطريقة التى سيستخدم بها الشخص قوته ، ذلك لانه اذا كان الساحر يستطيع أن يعالج جرحا أو أن يشفى مريضا فانه يستطيع فى نفس الوقت أن يبعث المرض فى صحيح البدن ، أو قد يستطيع شخص من أصحاب السلطان أن يستخدم قوة « مانا » التى تتوافر له فى تحطيم عدو عام للجماعة كلها ، أو يكبح جماح ثائر خارج على سلطانه ، والى هذا الحد يكون استخدامه لهذه القوة الخفية استخداما قانونيا مشروعا .

السحر والعلم البدائى :

اعتبر ادوارد تيلور من رواد علم الانسان أن « السحر » عبارة عن تطور لعمليات تفكيرية للانسان الفطرى نتيجة للخطأ فى الربط بين الافكار ، وقد انتهى هذا التطور بأن صار فى النهاية علما كاذبا، وان كان فى نفس الوقت علما منسقا .

على أن جيمس فريزر وضع هذا بدرجة أكبر ، اذ قدم وجهة نظر تقول : ان السحر يمثل فى الحقيقة محاولة من جانب الانسان ليصوغ مجموعة من المبادئ يمكن بها أن ينقرر أى تسلسل للحوادث ، ويقول فريزر : أن السحر نظام زائف للقانون الطبيعى ، كما أنه مرشد خداع للسلوك . أنه علم كاذب مخادع وفن عقيم بلا نتيجة !

ولقد دمج فريزر السحر بكلمات « علم مغشوش زائف » Bastard Science ، وأثار هذا الكثير من الباحثين الذين عاصروا فريزر أو خلفوه . فأشار هوبرت وموس الى أنه يوجد فرق واضح بين وجهة النظر السحرية للانسان تجاه البيئة التي يعيش فيها ، وبين تفكيره العلمى فى السحر ازاء هذه البيئة نفسها ، وقد خرج الدكتور ماريت من دراساته عن الناحية السيكلوجية بفكرة مماثلة محددا العلاقة بين الدين والسحر .

يقول ماريت : « ان السحر والدين يتبعان دائرة واحدة من التجربة البشرية ، وأن هذه الدائرة احدى الدائرتين العظيمتين اللتين تتبعان العالم الخارق للعادة . واعتقد أن السحر يشتمل على كل الاجراءات السيئة ، وأن الدين يشمل كل الاجراءات الطيبة للتعامل مع العالم الخارق للعادة ، ولكن كلمتى سيئة وطيبة ليستا بالطبيعة الكلمتين الصحيحتين اللتين يمكن أن نحكم بهما على أى الامرين . »

وينتقد مالىنوسكى نظريات فريزر بقوله (١) : « الواقع أن فريزر يمثل حقبة من حقبات علم الانثروبولوجيا - علم الانسان - انتهت بموته ، أو انه قد عنى عناية مباشرة « بالبدائية » سواء اكانت : وصفا للجنس البشرى ، أم وصفا لمعتقدات خاصة ، أم لعادات ، أم لخبرات . ان الناس سواسية يتماثلون فى الجوهر . وهم يتطورون تدريجيا من المستوى البدائى مارين بمراحل مختلفة من التطور . ويمكن اكتشاف القياس المشترك لاعمالهم وافكارهم بواسطة الاستقراء أو الاستنتاج الذى يقوم على مسح واسع المدى للمعلومات التى يتم جمعها . على اننا فى مسيرنا للوراء فى مختلف مستويات التطور فان أكثر المستويات بداية هى « الاصل » أى القاعدة الاساسية للافكار والعادات . ولكن فريزر لم يبين حقيقة أسس التطور ، ولا نجد فى كل أعماله تصنيفا للمادة على أساس استخدام مصطلحات « أصل » أو « تحويل » أو « تطوير » ومن ثم فاننا لا نستطيع أن ندرك كيف يتصور فريزر سير عملية التطور ، أو طبيعة القوى الدافعة للتقدم . »

Bronislaw Malinowski, A Scientific Theory of Culture, New York, 1961, PP. 187 - 190. (١)

ثم يعود فيقول : ان فريزر قد انهك في التفسير السيكولوجي للاعتقاد
البشرى والخبرة ، فقد كانت نظرياته عن السحر نتيجة ربطه بين كل الافكار .
ولا شك في ان نظرياته الثلاث المتتابعة عن أصول « الطوطمية » Totetemism
أى فكرة اختيار طوطم كشعار فى ضوء الاعتقاد بروح خارجية ، وعن « الاقتناع
السحري بالاختصاص » و « تجسد الحيوان » قد جاءت بالضرورة فى اعطاف
التغيرات السيكولوجية الفردية .

وينقد مالىنوسكى اغفال فريزر لمشكلة السيكولوجية الاجتماعية بقوله :
« ان فحصنا أسلوب معالجة فريزر لموضوع (المحرمات) « Taboo » ولمختلف
أوجه ومظاهر الطوطمية ، ولتطور السحر والدين والعلم ، يمكننا أن نذكر أنه
اغفل المشكلة السيكولوجية الاجتماعية ، كما يكشف لنا أنه كان يعادى نظرية
التحليل النفسى ، كما أن « النظرية السلوكية » Behaviorism لم تدخل
نطاق تفكيره .

والواقع أن فريزر كان ميالا : الى أن ينسب المحرمات والمحظورات الى أطماع
الرؤساء والكهنة وشغفهم بجمع المال ، والى أنهم استخدموا معتقدات التحريم
ركيزة وسندا لسلطانهم وزيادة ثرواتهم . ولم يوضح فريزر تماما ما اذا كانت
المحرمات جزءا صغيرا من القانون الفطرى ، أو العادة البدائية ، وهذه بدورها
لا يمكن أن توضع على أنها خرافة ، أو أنها خداع سياسى أو دينى » .

على أن الدكتور مالىنوسكى يوضح فى تحليلاته لعملية السحر التى
يستخدمها مواطنو « ميلانزيا » Melanesia (١) فى زراعة الحدائق ومقارنتها
بما يستخدم فى عمليات الزراعة الفعلية ، ويبين أن وجهات نظر المواطنين تختلف
بين هذه العمليات وتلك ، فان المعرفة وليدة التجربة والملاحظة ، وخواص التربة ،
وغو النبات ، ومواقيت الرياح والعوامل الجوية تستخدم كلها لتمشى مع ما هو
معروف من الاحتياجات الخاصة بالزراعة ، والتى يمكن تقديرها وقياسها .

(١) مجموعة الجزر شرقى استراليا فى الباسفيك الجنوبي وتشمل جزر ادميرال - سولومون -
نيوكاليدونيا ونيوهيبريد او يفصلها بحر الكورال عن استراليا .

فكل مواطن يعرف : أن العناية بحرث الارض ، وتنقية الاعشاب الضارة التى تنبت وسط المزروعات ، واصلاح الجسور وقنوات الري وآصرف ، وما الى هذا من العمليات انما هى عمليات ضرورية للوصول الى محصول جيد ، ولكن من ناحية أخرى : فان الحصول على القدر الكافى من المطر ومن أشعة الشمس ، وامكان ابعاد الحشرات ، وسد الطريق أمام أى فشل غير مقدر للمحصول ، بل كذلك لابعاد سوء الحظ الذى يكون أحيانا ملازما للفرد ومتعقبا خطاه فى كل عمل يقوم به ، يجعله يحاول دائما أن يلتجئ الى السحر أو يستعين به .

وكذلك فان الرجل الفطرى يعرف أنه : عند بناء قارب ، أو عند قيامه بصيد السمك أو القتال ، أو عند مضاجعته لزوجته ، أو حينما تضع هذه الزوجة مولودها ، وكذا فى مسائله الخاصة بالحياة والموت أن هناك مجموعتين من الشروط والظروف : احدهما عادية طبيعية : والاخرى غير عادية واسمى من الطبيعية . وهو يستطيع أن يواجه المجموعة الاولى بالخبرة والتجربة والمعرفة حتى لو بقوانين ونظريات فطرية ، ولكنه لا يستطيع مواجهة المجموعة الاخيرة غير العادية والاسمى من الطبيعية الا بواسطة السحر .

ونجد هذا الازدواج واضحا فى الحياة الاقتصادية للماورى ، ومن ثم قد يبدو لنا ذلك مسألة عالمية عامة فى كل المجتمعات الفطرية على الاقل .

على أن الرجل الذى يعيش على الفطرة لا يفتقر الى المعرفة التى تسير جنباً الى جنب مع السحر ، ويرتبط كلا الاثنى ارتباطاً وثيقاً فى الجانب العمل من نشاطه ، فيستخدم المعرفة المعقولة المنطقية أى المعرفة العلمية الاصلية بالقدر المتوافر له لممارسة الجانب الآلى ، على حين يستخدم الجانب الطقوسى للسحر فى العوامل التى لا يمكن تقديرها أو قياسها : أى عوامل « الصدفة » و « الحظ » والتى يتوقف عليها النجاح فى العمل .

وهنا قد نستطيع أن نتسامح فيما قاله جيمس فريزر من السحر « علم زائف مضلل » لو استطعنا أن نضع نصب أعيننا التحديدات التى يمكن أن توضع على هذا الاصطلاح .

فالسحر فى الواقع مشابه ومماثل للعلم البدائى من حيث هو قائم لخدمة أهداف مماثلة لتلك التى يخدمها العلم ، كما أن له نظرياته ومبادئه وأصوله التى تحدد الطريقة أو الأسلوب الذى تقوم به معالم الطقوس •

وكذلك فإن السحر كالعلم قد طور من « تكنيك » خاص ، وانتقل من جيل إلى آخر ، ولكن الواقع أن التشابه أو التماثل بين السحر و « العلم البدائى » أكثر قليلا من أن نعتبره نافلة لا أهمية له ولا ضرورة للإشارة إليه ، فالعلم حتى ولو مثلناه بالمعرفة البدائية التى تقوم على الممارسة والتجربة والخبرة المستقاة من الممارسة أو الملاحظة يتطور نتيجة لهذه الممارسة ، كما أنه يتضمن الرغبة للاستزادة دائما من المعرفة ، ومحاولة القيام دائما بتصنيف صحيح للمعلومات •

أما السحر من الناحية الأخرى فتحكمه التقاليد ، وهو لا يتأثر بالدروس المستقاة من الملاحظة ، كما أنه لا يكشف عن أى رغبة فى الانتفاع من الممارسة والتجربة للوصول إلى معرفة أساليب جديدة يستعملها •

وهكذا يبدو لنا بوضوح أن الجنود الصحيحة للعلم إنما توجد : فيما هو مختزن لدى الفرد من معرفة فطرية ، وفيما يقوم به من محاولات للبحث والتقصي نتيجة للاحتياجات العملية ، والتعمق بهذا البحث فى أعماق طبيعة البيئة التى تحيط به ، ومعنى هذا أن هذه الجنود لا يمكن أن توجد فيما يمارسه هذا الرجل الفطرى من السحر •

استمرار الاعتقاد بقوة السحر :

ويقول ريموند وليم فيرث Raymond William Firth أستاذ علم الأنثروبولوجيا بجامعة لندن : « ليس من الصعب أن ندرك أن تلك المزايم التى تغزى القوة عن طريقها للسحر ما هى إلا مزايم جوفاء لا حقيقة لها ، فإن السماء لا ترعد وتسقط المطر استجابة لطقوس تضرعية ، كما أن الحيوانات لا تذهب طواعية واختيارا لتقع فى الشباك التى أعدها الصياد تلبية للكلمات التى ينطق

بها الساحر ، ولا يمكن أن نتصور أن امرأة ما يمكن أن تستلن استجابة للعصا التي يحركها الساحر ، فلماذا إذن لم يعتبر هذا الخلط المهول الشاذ عميقا باطلا عديم النفع ؟ » .

ويعزى فبرث ذلك الى أن الطقوس الكاذبة للسحر لا تقوم وحدها مستندة الى قوتها الخاصة ، بل تشترك معها : « مهارة طبية » أو « دراية سياسية » أو غير هذا من العوامل التي يستطيع أن يستغلها ويستفيد منها من يمارس « المهنة » ، وتكون هذه العوامل هي التي تدعم عملية السحر وتعضده عندما تكون في حاجة الى هذا الدعم أو التعضيد .

هذا عدا أن « النجاح » لابد من أن يتحقق ذات مرة طبقا لقانون الصدفة ، وان كان من الضروري أن نضع أيضا في الحسبان مهارة الساحر في اختيار اللحظة المناسبة لممارسة فنه . وهنا تبرز لنا الوسيلة المعاونة ، وهي عدم قدرة العقل البشري على تقبل « الدليل السلبي » حينما تقف كل القوى المؤدية الى الايمان والتصديق الى جانب مسألة ما ، فان نجاحا واحدا يرسخ دائما في الازهان بأكثر مما قد يحدث نتيجة لاثنتي عشرة محاولة غير موفقة .

ومسألة أخرى يجب أن نضعها في الحسبان أشار اليها الدكتور مالمينوسكي وأطلق عليها اسم « الاساطير الجارية عن السحر » ، فان كل ساحر تنتشر حوله عادة سلسلة من الاقاصيص تتحدث كلها عن أعمال ناجحة قام بها في الماضي من : معالجة مرضى ، أو اسقاط المطر ، أو الاكثار من الصيد أو الجمع بين الاحبة ، وقد تعزى هذه الى سحرة قدامى لم يعد لهم وجود في العالم . ومن الطبيعي أن هذا كله ينصرف من الماضي الى الحاضر ، فيتحول من تمجيد للسحرة الى الاعتراف بحقيقة السحر ، والى توقع النجاح دائما من محاولاته .

وهكذا فان هذه الصفة الاسطورية التي للمعجزة السحرية هي القوة الدافعة للاعتقاد في السحر ، وهي كذلك درعه الواقى ضد أى هجمات معادية له ، ولذا فان الاسس الحقيقية لاستمرار السحر وبقائه أعمق بكثير من النفع الثقافي الذي له .

قيمة السحر للانسان :

والسحر ليس مجرد صورة باطلة لعلم أو بمعنى أكثر وضوحا ليس مجرد علم كاذب مضلل ، فبالرغم مما فيه من مغالطة وأباطيل ، وبالرغم من طبيعته الوهمية - فان فيه صلاحية حقيقية للحياة البشرية • فان الطقوس السحرية التي تستخدم في الزراعة توجد الكفاية والمهارة في المواطن الفطري ، لان العملية في أثناء ممارستها تتبع فعلا مراحل الزراعة الصحيحة التي تنتظم تبعا للفصول الزمنية ، كما أنها بتحديداتها المحظورات والمحرمات تمنع اهمال أى موسم من هذه المواسم الزمنية ، فتخلق في المزارع البدائي عادة النظام والترتيب ، والاختصاصي الزراعي لا يحتاج الى أكثر من الترتيب والتنظيم لعملية الزراعة كي تأتى ثمارها كاملة •

وكذلك فان طقوس السحر التي تبرز الى المسرح تتعطل عند النقطة التي تبدأ المعرفة المتوافرة للفرد وما يصحبها من بعد النظر ، أى عندما يكون التكنيك التقليدي قد بلغ نهايته •

وهنا يكون امداد الفرد باعتقاد قوى فى أنه يملك قوة أكبر من الطبيعة عن طريق السحر معاونا له بما هو فى حاجة اليه من ثقة بنفسه ، ومن ايمانه بقدرته على ادراك ما يهدف اليه وما يعمل لتحقيقه •

السحر فى مصر القديمة :

جاء فى نقوش المعابد وفى أوراق البردى أحاديث عن السحر ، على أن أكثر ما ورد عبارة عن كلمات تلقى فتشلى الحروق التي تسببها النيران على مثل ما فعلت ايزيس عند حرق ابنها حورس ، وكانت معرفة ايزيس باسم آلهة الشمس هى التي أعطتها قوة سحرية عليا •

وجاء أيضا حديث السحر فيما يقال : أنه من الممكن أن يحدث الفرد بعض الآلام لعنوه اذا ما أذاب له على النار تمثالا مصنوعا من الشمع • كما جاء فى حديث عن الاساور الواقية التي نالت أهمية كبيرة بين الاحياء ، وفيما عثر عليه بجانب جثث الموتى •

ولكن برغم ذلك لم توجد طبقة من السحرة المحترفين في مصر القديمة ، ولم توجد كلمة تعنى « الساحر » حتى تاريخ متأخر ، فقد كان الكهنة هم الذين يمارسون السحر ويكتسبون منه مطالعة الكتب المقدسة ودراستها •

ولقد استخدم ما فى هذه الكتب : للفكاك من الموت ، وإزالة المرض ، وإبعاد العين الشريرة ، إبراء عضمة الأفعى ، بل لإبعاد الفئران من صوامع الحبوب ، وكذا لمنع اقتراب العاصفة •

ولقد صرف الكهنة كل همهم الى بيع الرقى وتمتمة العزائم ، وأداء المراسم والطقوس السحرية ، وفى كتاب قصة الموتى نجد أن الرقى التى باركها الكهنة تتغلب على جميع ما عساه أن يعترض روح الميت من صعاب فى طريقها الى دار الخلود • وأهم ما يؤكده هذا الكتاب هو قيمة تلاوة الادعية ، فقد جاء فى أحد هذه الملفات : « اذا ما عرف الميت هذا خرج فى النهار أى حيى الحياة الخالدة • ولقد وضعت صيغة التمايم والرقى وبيعت للناس للتخلص من كثير من الذنوب بل لتضمن للشيطان نفسه دخول الجنة • وكان من واجب المصرى الطاهر أن يتلو فى كل خطوة من خطواته صيغة عجيبة يتقى بها الشر ويستتزل بها الخير •

ولنستمع مثلا الى ما تقوله أم والهة تريد أن تبعد الشيطان عن طفلها :

« اخرج يا من تآنى فى الظلام ، وتدخل خلصة •• هل آتيت لتقبل هذا الطفل ؟ لن أسمح لك بتقبيله •• هل آتيت لتأخذه ؟ لن أسمح لك بأخذه منى • لقد حصنته منك بعشب « أفيت » الذى يؤمك ، وبالبصل الذى يؤذك ، وبالشهد الذى هو حلو المذاق للأحياء ومر فى فم الاموات ، وبالأجزاء الحبيثة من سمك الابد وبالسلسلة الفقرية من سمك النهر » •

وكانت الآلهة نفسها تستخدم السحر والرقى ليؤذى بعضها بعضا ، وأدب مصر القديم نفسه يفيض بقوة السحر التى تستطيع تجفيف البحيرات ، أو تجعل الاطراف المقطوعة تقفز الى أماكنها ، أو تحيى الموتى •

وكان الاعتقاد أن للملك أيضا قوة سحرية ينزل بها المطر ، أو يرفع بها الماء في النهر ، كما كانت الحياة المصرية القديمة مملوءة بالطلاسم وعمليات الرجم بالغيب ، كما كان يسود الاعتقاد أنه لابد لكل باب من آله يخيف الأرواح الخبيثة، أو يطرد ما عساه أن يقترب منه من أسباب الشؤم ، وكانوا يعتقدون اعتقادا راسخا أن الأطفال الذين يولدون في الثالث والعشرين من شهر توت سيموتون لا محالة وهم صغار ، وأن الذين يولدون في العشرين من شهر شرباخ سيفقدون أبصارهم في مستقبل أيامهم •

البيئة السحرية في المسيحية :

كان أبسط أنواع السحر الذي استخدمته الكنيسة في عصور الظلام هو تلاوة « الرقية^(١) » وهي عبارة عن مناشدة توجه إلى الأرواح الشريرة لإرغامها على أن تهجر شيئاً ما ، سواء كان هذا الشيء شخصا أم مكانا تسيطر عليه هذه الأرواح الشريرة وتتحكم فيه •

وكان الاعتقاد السائد بين الناس أنه بتلاوة الرقية عدة مرات ، يمكن : اتقاء شر ، أو شفاء مرض ، أو إبعاد عدو من الطريق • وأكبر الظن أن معظم المسيحيين كانوا يعدون : علامة الصليب ، والصلاة الربانية ، واستخدام الماء المقدس • والعشاء الرباني من الطقوس السحرية ذات الآثار المعجزة •

واستمرت الكنيسة في أول عهدها تتبع ما أجراه السيد المسيح – عليه السلام – بنفسه لطرد الأرواح الشريرة عن الناس الذين سقطوا تحت سيطرتها^(٢) •

Encyclopaedia Britannica, 1961. Vo 18, Exoticism, PP. 972 - 973.

(١)

(٢) راجع أعمال الرسل الأصحاح السادس عشر (١٦ - ١٨) •

وفى القرنين الاول والثانى من العصر المسيحى اعتبرت القدرة فى طرد
الارواح الشريرة هبة يمكن أن تتوافر لاي شخص سواء اكان من رجال الدين
أو من غيرهم على ما أشار اليه « تيرتوليان » Tertullian (١) فى كتابه
« De Idolotaria II »

على أننا اذا رجعنا الى سنة ٢٥٠ بعد الميلاد نرى طبقة خاصة من صغار رجال
الدين وكل اليهم هذا العمل وأطلق عليهم «طاردو الارواح الشريرة» Exorcists
وفى قرابة ذلك الوقت صارت الرقية طقسا من الطقوس المهمة لتعميد الحديشى
التنصير Neophytes وقد تضمنت الرقية انكار الشيطان وأعماله وأبنته
وفخفخته مع صدور الامر الى الروح الشريرة بالابتعاد عن الشخص الذى يجرى
تعميده ، ويصحب هذا بعض أعمال مثل رسم علامة الصليب ، والمسح بالزيت .

وقد بقيت « الرقية » جزءا مكملًا من طقوس التعميد عند الكاثوليك على أن
هذا لم يكن يعنى أن الكنيسة تعتبر الذين يعملون هم ضحايا للارواح الشريرة ،
بل أنها كانت تعتبر هذه الرقية وسيلة لازالة كل الموانع والعوائق التى تمنع
من السير فى الطريق المستقيم نتيجة للخطايا والسيطرة التى للشيطان على
النفوس التى تخطئ .

وكذلك فان كل ما يستخدم فى اداء الطقوس المقدسة مثل : الماء ، والملح ،
والزيت يجب أن تتلى عليه الرقية لأكسابه طابع القدسية .

وفيما بعد نظمت عملية الرقية لابعاد الارواح الشريرة عن الواقعين تحت
سيطرتها طبقا لقانون الكنيسة الرومانية الكاثوليكية « ١١٥٢/١١٥١ » ،
فلا يقوم قسيس بهذه الرقية الا اذا كان قد حصل على اذن خاص بذلك من
الاسقف ، ولا يعطى هذا الاذن الا لقسيس يكون قد عرف بالصالح والتقوى .

(١) تيرتوليان - سبتيموس فلورنس تيرتوليانوس Septimius Florens Tertullianus

اب الكنيسة اللاتينية (١٦٠ - ٢٣٠) بعد الميلاد « معجم ويبستر ١٩٥٦ ص ١٥٥٥ » .

وفي القرن التاسع الميلادي انتقل كثير من علوم اليونان الى بلاد العرب عن طريق الشام ، فقامت بها نهضة ثقافية من أعظم النهضات ، بينما كانت تباهد أوروبا المسيحية للتخلص من ظلمات الخرافات والهمجية •

وكان لابد للعلوم والفلسفة أن تنمو خلال العصور الوسطى بأوروبا في جو من : الاساطير ، والخرافات ، والمعجزات ، والغال ، والعفاريت ، والسحر ، والتنجيم ، والتنبؤ بالغيب ، وهي العقائد التي لا تنتشر الا في ظروف الفوضى والخوف •

والواقع أن هذه العقائد انتقلت من العالم الوثني الى العالم المسيحي ابتداء من عصور الظلام ، وأصبح لها سلطان كبير على عقول الناس وخاصة بعد أيام ابن رشد ، وابن ميمون حيث حطمت فيما بين القرن السادس والقرن الحادي عشر أسوار الثقافة في غرب أوروبا ، وغرقت عقول الناس في بحر زاخر من الخرافات . حتى أولئك الذين أوتوا الحكمة آمنوا بها ، فمثلا كان أوغسطين يعتقد بأن آلهة الوثنيين لا تزال موجودة في صورة عفاريت ، كما كان أبلار يظن أن الشياطين تستطيع أن تقوم بأعمال السحر لمعرفتها بأسرار الطبيعة • وكان الفونس الحكيم يؤمن بالسحر ويقبل التنبؤات عن طريق النجوم •

وعلى الرغم من أن القرن الرابع عشر كان عصر النهضة فقد وسم بانتشار أعمال السحر في أوروبا ، وكاد الاعتقاد بوجود النساء الساحرات يصبح عاما في ذلك الوقت ، ففي كتاب التوبة للأسقف « أكستر » Exeter يندد بالنساء اللاتي يدعين القدرة على تبديل عقول الرجال بضروب السحر ، كتبديل الكره حبا ، والحب كرها ، أو سحر بضائع الناس وسرقتها ، أو الادعاء بقدرتهن على الركوب في بعض الليالي على ظهور بعض السواب مع حشد من العفاريت في صورة النساء •

كما كان من ضروب سحر النساء السهلة صنع صورة من الشمع للضحية المقصودة ، وتخريمها بالابر ، وتلاوة صيغ من اللعنات عليها •

ومن الطرائف الغريبة أن وزيراً من وزراء فيليب الرابع اتهم بأنه استأجر ساحرة لتفعل هذا بصورة الملك • وكان من المعتقدات المنتشرة أن بعض النساء يستطعن أن يؤذين أو يقتلن بنظرة من عيونهن الحاسلة •

وكانت الكنيسة في بادئ الامر تتساهل مع أصحاب هذه العقائد حيث ترى فيها بقايا وثنية لن تلبث أن تزول ، ولكن ما حدث كان عكس ذلك ، فقد أخذت هذه الظاهرة تزداد وتنتشر ، حتى جاء عام ١٢٩٨ م فشنت محكمة التفتيش حملة قوية عليها بغية القضاء على السحر فحرقت الكثير من الساحرات علناً •

ولقد كان الكثير من رجال الدين يعتقدون أن كثيرا من النساء كن على صلة بالعفاريت ، وأن من الواجب أن يحصى المؤمنون من رقاهن السحرية •

ويؤكد قيصر يوس الهستريا في أن كثيرين من الرجال في أيامه يتحالفون مع الشياطين ، وأنهم بذلك يحتقرون الكنيسة ويسخرون من شعائرها بعبادة الشيطان بقداس أسود •

ولقد سبق أن أشرنا الى حركة « السحر الاسود » التي ظهرت في خاتمة القرون الوسطى ، واجتاحت كل المجتمعات الاوروبية ، وظهرت في الافق كثورة منظمة ضد سلطة الكنيسة وتعاليم النصرانية واعتمدت هذه الحركة على فكرة التدنيس ، فلا تتم شعائر التوسل بالشيطان الا بتدنيس شعائر الدين ، وسحق أقدم رموزه ، وتحطيم التعاليم والتقاليد الدينية والكنسية • وقامت الكنيسة بمحاربة ذلك بإنشاء الجمعيات الدينية الرجعية وبتشكيل محاكم التفتيش التي سبقت الإشارة إليها •

وفي ذلك الوقت ظهر الماريشال جيل رتز كامام للمذهب الجديد المناهض للكنيسة ، وكان رتز فارساً فرنسياً شهيراً خاض غمار المعارك الداخلية التي كانت تضطرم حينئذ بين الامراء الاقطاعيين ، ثم تولى القيادة في جيش جان دارك ، ورفع الى رتبة الماريشال •

وبعد هزيمة جان دارك وحرقتها ارتد الى ضياعه الشاسعة فى بريطانيا ،
واطلق العنان لأهوائه وبذخه حتى بدد معظم ثروته وهو فى شرح شبابه ، ففكر
فى التماس المال عن طريق السيمياء ، واستقلم السحرة والمشعوذين من ألمانيا
وايطاليا حيث كان للسيمياء شأن كبير ، وأصبح قصره معهدا للسيمياء
والشعوذة •

وقد أدى التجاؤء الى السحرة الى أن يخوض غمار حياة غريبة من التماس
الوصول الى عالم الغيب والتوسل بالشيطان ، وكان الماريشال نصرانيا مخلصا
غير أنه ارتد عن دينه بتأثير حياته الجديدة التى تفرغ اليها بجسمه وروحه ، وأقنعه
السحرة بأن يلتمس محالفه الشيطان بالمراسلة ، فوجه اليه نداء وقعه بدمه يلتمس
فيه منه : العلم ، والقوة ، والمال ، متعهدا فى نظير ذلك أن يقوم بكل ما يطلبه
منه سوى الحياة والروح ، ولكن الشيطان لم يظهر له ، ولم يجب هذا النداء
برغم التضمرعات التى سبقت اليه ، والصلوات التى أقيمت لذكركه •

وحينئذ ارتد جيل الى حياة آثمة ، وعكف على استعطاف الشيطان والتوسل
اليه بأشنع ضروب الجريمة ، فأسرف فى إقامة الرسوم والشعائر السوداء ، وأمعن
فى العشق الدنس وغيره من صنوف الإباحية والرذيلة ، وتدرج من ذلك الى احياء
الشعائر الوثنية وأراقاة الدماء البشرية • فبث أعوانه فى جميع أنحاء البلاد ،
يخطفون ويسرقون الاطفال ، وكان يتولى بنفسه تعذيب الفريسة وازهاق روحها
بأشنع الاساليب ، وظل يعيش تلك الحياة الاجرامية حتى صدر عليه الحكم
بشنقه واحرقه •

ويبدو أن طائفة سرية منظمة لعبادة الشيطان ومزاولة السحر قد انشئت
فى ذلك العصر حوالى عام ١٤٦٠ م ، حيث اندس السحرة والمشعوذون فى جميع
المجتمعات الاوروبية ، وعهد فى معظم الدول الى القضاء المدنى بمحاكمة أعضاء
هذه الطائفة حيث استفحل أمرها وازداد خطرها •

ومنذ فاتحة القرن السادس عشر هبت على جميع المجتمعات الاوروبية ريح
عاتية شاملة من دعوة الخفاء ، وظهر السحرة فى كل مكان ، ونشطوا الى بث

تعاليمهم ومعتقداتهم بين العامة والخاصة ، فنشطت السلطات المدنية والدينية في مختلف الدول الى مطاردتهم ومحاكمتهم ، حتى وصل عدد من أحرق من السحرة عام ١٥١٥ م الى الالفين ونيف •

كانت فكرة السحر الجوهري في هذه العصور هي محالفة الشيطان ، وهذا التحالف : اما صريح ، واما ضمنى ، وكان كل من قام بأعمال شيطانية يعتبر كمن قبل سيادة الشيطان • وكان على من يقبل هذا التحالف : أن يشهد الشعائر الرسمية ، والقدااس الاسود ، وان يشترك في جرائم التنديس والقربان الدموى بسفك الدماء البشرية ، وغيرها من صنوف الفجور والاباحية •

والواقع انه انتشرت في العصور الوسطى معظم الوسائل الوثنية التي كانت تتبع للتنبؤ بالغياباو رؤية الغائبين، ويقال أن توماس أبكت Thomas A Becket أراد أن يسدى النصح الى هنرى الثانى فى مشروعه لغزو بريطانيا فاستشار لذلك : عرافا يزجر الطير ، وقارئ كف عرف مصير الحملة بدراسة خطوط يده •

وكان قارئو الكف يدعون أن عملهم مؤيد من عند الله ، ويستدلون على صلق السحر بآية (١) من سفر الخروج التي تقول : « لا تدع ساحرة تعيش » •

وخلاصة القول أن السحر استغل في أوروبا خلال العصور الوسطى للتأثير على معتقدات الناس ، الذين عاشوا فى بيئة من الخرافات تحت سيطرة قلة من الناس ، كانوا يهدفون من ورائها الى تحطيم معتقدات الناس لتحقيق اطماع مادية ، وسياسية خاصة •

مدرسة الكابالا اليهودية :

سبق أن أشرنا الى أثر التعاليم اليهودية على الحركات السرية التي قامت لتقويض الاسلام والمسيحية ، وفى الواقع لعبت التعاليم اليهودية الفلسفية السرية دورا كبيرا فى معظم الحركات الثورية والسرية منذ أقدم العصور •

(١) الآية الثامنة عشرة من الاصحاح الثانى والعشرين •

ولقد أثرنا أن نعود الى بحث هذا الموضوع بشيء أكبر من التفصيل لارتباط هذه التعاليم بأعمال السحر والخفاء ، حتى يتضح لنا الدور الفعال الذي كان للسحر على معتقدات الناس وسلوكهم •

والحق أن التقاليد اليهودية السرية تعتمد على فلسفة الكابالا ، وهي عبارة عن مزيج من الفلسفة والتعاليم الروحية ، والشعوذة والسحر متعارف عليهما عند اليهود منذ أقدم العصور •

وخلاصة هذه التعاليم هي أن الله كائن مطلق ، ولما كان هذا الكائن يشعر بوجوده فهو ينفث روحه في عالم الارواح النقية والملائكة من طرق مختلفة ، كما أن روح الانسان تنتقل من جسم الى جسم حتى تعود في النهاية الى الله وتفنى فيه •

وكان دعاة « الكابالا » يعلقون أهمية كبرى على السحر والشعوذة وأسرار الطلاسم والرموز والارقام ، وقد أدمجت تعاليم الكابالا وأسرارها ورموزها في وثيقتين عبريتين هما « السفر جزيرا » و « السفر هازوهار » (١) •

ولقد كانت أساطير الكابالا وتعاليمها ورموزها ، مرجعا لمعظم الجمعيات السرية الغربية في وضع نظمها ورموزها ، كما كانت في الغالب مبعث الوحي لكثير من الجمعيات الهدامة : كأخوة الشيطان ، وأصحاب القداس الاسود ، وطوائف السحرة ، وجمعيات الخفاء التي انتشرت في أوروبا في العصور الوسطى •

والواقع أن الدور الذي لعبه اليهود في الثورات الحديثة ظاهر لا جدال فيه وقد استند هذا الدور الى المال وأعمال الخفاء معا ، وهي الاشياء التي عرف بها اليهود منذ القدم •

(١) « السفر جزيرا » معناه كتاب الخلق وهو عبارة عن مجموعة من الأحاديث والمحطبات رويت على لسان إبراهيم ، أما « السفر هازوهار » فمعناه كتاب الضوء المعروف عادة « بزوار » ، وقد كتب بخط آرامي يحمل على الاعتقاد بأنه قد وضع في القرن الثاني عشر أو الثالث عشر ، ويرى بعض الباحثين أنه من تصنيف موسى الليوني الاسباني •

وجثم اليهود خلف أى ثورة اجتماعية أو سياسية لينتظروا الجانب الغالب ليأخذوا منه الغنيمة والاسلاب ، وبرغم أنهم كانوا لا يظهرون على المسرح فانهم عرفوا كيف يسرون هذه الحركات لتحقيق مطامعهم وأهدافهم •

ففى منتصف القرن السابع عشر كانت التعاليم الروحية اليهودية قد نفذت الى جميع أنحاء أوروبا ، والمعتقد أن تيار هذه التعاليم قد تسرب الى أوروبا الغربية من شرق أوروبا ، فمنذ القرن السادس عشر اجتمع اليهود واستقروا فى بولندا ، وظهر هنالك جماعة من السحرة والمشعوذين اليهود تعرف « بالزاركيم » أو جماعة « بعل شم » •

وبعل شم كلمة عبرية معناها « سيد الاسم » ومصدرها نظرية كابالاية تزعم أن بعض اليهود الذين تتوافر فيهم شروط معينة من القدسية يستطيعون أن يستخلصوا الاسم الأعظم دون وازع • و « البعل شم » هو شخص يملك هذه القوة ويستخلصها فى : كتابة الطلاسم ، ومخاطبة الارواح ، ومعالجة الامراض ، وغير ذلك •

على أنه فى عام ١٦٦٦ م اضطرب العالم اليهودى بشكل شامل ، لظهور داعية يسمى « شايبتاى تسيبى » وهو ابن تاجر أزيرى يدعى مردكاى ، زعم أنه المسيح المنتظر •

وكانت فكرة المسيح المنتظر ذائعة فى ذاك الوقت فى المجتمع اليهودى ، وكانت الاوساط اليهودية الرجعية تؤمن بقرب ظهور هذا المسيح ، ولذلك صادفت دعوة شايبتاى تأييدا كبيرا بين يهود فلسطين ومصر وشرق أوروبا ، بل أيدها كثير من اليهود المنبوذين وأصحاب الاموال لاغراض سياسية واقتصادية •

كان شايبتاى متمكنا من تعاليم الكابالا ، عليما بأسرارها ونظرياتها الروحية • بارعا فى ضروب الشعوذة • وروى عنه أنه كان يأتى الخوارق ، وكان جلده ينضج المسك كما كان يعيش فى حالة ذهول مستمر !

ولقد انقسم اليهود ازاء مزاعم شايبتاى ما بين مناصر ومعاد • فاما الخصوم فقد كانوا من الاحبار الذين ناصبوه العداء خوفا على تعاليم اليهودية من دعوته ،

وأما المناصرين فقد كانوا أولئك الذين استهوتهم دعوته وآمنوا بمزاعمه وتعاليمه بالرغم أن الكثيرين انقلبوا عليه حينما سخر منه سلطان تركيا وطلب اليه أن يشبث دعواه بأن يستقبل السهام المسمومة بصدرة ، وقد انتهت قصة الدعاية باعتقاله وسجنه في إحدى قلاع بلغراد حتى توفي بها عام ١٦٧٦ •

على أن تحطيم المسيح المنتظر لم يخمد من حماسة أنصاره ، بل استمرت دعوة شابيتناي في القرن الثامن عشر ، وأسفر نشاط المدرسة الكابالاية عن فورة جديدة في بولندا ، فظهر كثير من دعاة « الزاركيم » و « بعل شم » • وكان أشهر أولئك الدعاة اسرائيل البلولي الذي أسس طائفة « الحسدديم » عام ١٧٤٠ •

وكان اسرائيل يخاصم اليهودية الرجعية ، ويرجع تعاليمه الى « الزوهار » ، رغم أنه لم يسلم تسليما مطلقا بنظرية الكابالا التي تنادى بأن الكون صورة من صور الله ، بل زعم أن الكون كله هو الله ، وأن الشر عنصر من عناصر الله اذ ليس الشر خبيثا في ذاته ، ولكن في علاقته بالانسان ، وعلى ذلك فليس للخطيئة وجود مادي •

وكان اسرائيل بارعا في ضروب السحر والشعوذة ، فالتفت حول دعوته كثير من اليهود الذين خرجوا على تعاليم التلمود • وبعد اسرائيل ظهر داعية آخر يسمى هايلبرين فعكف على مزاوله الشعوذة والاعمال الخارقة باسم الله وجمع حوله نفرا من الانصار ، استمروا بعد وفاته يستغلون سذاجة العامة فترة من الزمان •

وكانت أشهر الجمعيات الكابالاية التي ظهرت طائفة الفرנקيين الذين عرفوا ايضا « بالزوهاريين » أو اخوان الشعلة لانتمائهم الى الزوهار « كتاب الضوء » . وقد أسس هذه الجمعية يعقوب فرنك ، وهو داعية من أمهر دعاة الكابالا واعلمهم بأسرارها وتعاليمها ، فجمع حوله في منتصف القرن الثامن عشر جمهورا كبيرا من الدعاة والانصار ، وعاش في بلد هائل لم يهتد أحد الى حقيقة مصدره ، واستمر يبت بطائفته نظريات الاتحاد والهم بطريقة سرية ، ولما قاومه الاجبار اليهود أعلن خروجه على اليهودية ، واعتنق المسيحية ثم أذاع بواسطة أتباعه في تركيا أنه

اعتنق الاسلام لجذب أنصار اليه . واستقر في النهاية في أوفنباخ بالقرب من فرانكفورت وتسمى بالبارون فون أوفنباخ ويصف مالمان في كتابه « تاريخ اليهود » أسراف فرنك وحياته البذخة بقوله :

« كانت له حاشية من بضع مئات من الفتيان والفتيات اليهود ذوى الحسن الرائع ، وكان يذاع أن صناديق الاموال تنهمر عليه في كل يوم ولا سيما من بولندا . وكان يخرج كل يوم في موكب حافل ليقيم شعائره في العراء في عربة تجرها جياد مطهمة ، ويحرسه عشرة فرسان أو اثنان عشر فارسا يرتدون الثياب المشاه بالذهب ، وقد رفعوا الرماح ، ووضعوا في قبعاتهم أهلة أو شموسا أو أقمارا . وكان أنصاره يعتقون فيه الخلود ، بيد أنه توفي عام ١٧٩١ ، ودفن في بدخ يعادل بدخ حياته » .

ونشير أيضا هنا الى اثنين آخرين من أقطاب السحرة ظهروا في القرن الثامن عشر ، وهما : الكونت سان جرمان ، والكونت كاجليو سترو وقد ادعيا قدرتهما على القيام بالحوارق ، وتمكنهما من اسرار الكابالا ، وعاشا في رفاهية مستغلين سذاجة الناس بما يقومون به من أعمال .

كما ظهر في هذا القرن أيضا داعية يهودى يدعى حايم صمويل يعقوب فوك وكان معروفا باسم الدكتور فوك ، وقد اتصل بالزوهارين ، ولبث حينما يزاول ضروب السحر والشعوذة في ألمانيا ، وكان يزعم أن له قدرة خفية ، وأنه يستطيع اكتشاف الكنوز الدفينة .

ويروى المؤرخ أرشنهولتس أنه شهد فوك يأتى بأعمال خارقة في برنزيك وينسبها الى تبحره في الكيمياء ، وقد اضطهد فوك وطورد من وستفاليا وحكم عليه بالحرق لاتهامه بالسحر ففر الى انجلترا ، حيث استقبل بالترحاب وذاع صيته .

وتقد أذيع عن قدرته أغرب الروايات ، من ذلك ما قيل أنه يستطيع أن يبقى شمعة صغيرة تضيء مدة أسابيع ، وأنه يستطيع بتلاوة تعزيمه أن يملا قبوا من الفحم ، وأن أية حلية يرهنها لى المرابى تنسل ثانية الى منزله ، كما قيل أيضا

انه كان يركب عربة ذات يوم فانفصلت احدى عجلاتها وارتاع السائق ، ولكن فوك امره أن يسوق مطمئنا واستمرت العربة فى سيرها والعجلة المنفصلة تتبعها حتى وصل الى غايته •

والروايات عن خوارق فوك وقدراته العجيبة كثيرة لا نهاية لها ، وكان المجتمع اليهودى وأجباره يججلونه الا أن شهرته أثارت نقمة يهودى يدعى أملن هجاء واتهمه بأنه من أنصار المسيح الكاذب ، وأنه يستغل سذاجة المؤمنين فأخذ يؤلب عليه يهود بولندا متهما آياه : بالنصب ، والاحتيال ، وابتزاز أموال الناس •

وأخيرا نقول : أن دعاة مدرسة الكابالا الذين استغلوا أعمال السحر والشعوذة للثراء والعيش فى البذخ كان يكمن وراء أعمالهم حركات سرية هدامة تهدف الى تقويض المجتمعات المختلفة بالتأثير على عقول الناس ، وتوجيههم الى غاية يهدفون لها ، وقد سبق أن أشرنا الى كثير من هذه الجمعيات فى أكثر من مناسبة •

والواقع أن مدرسة الكابالا ما هى الا نوع من الاساليب الميتافيزيقية والسبكيولوجية التى استخدمت عبر التاريخ لشل ارادة الناس بالتأثير على عقولهم وجعلهم يتخلون عن معتقداتهم القديمة والايمان بما يوحى به اليهم وهى لا تختلف بتاتا عما يسمى اليوم عملية غسيل المخ •

السحر عند ابن خلدون :

تعتبر مقالة ابن خلدون من أهم الكتب ذات الاصاله ، ذلك لانه أوضح بعمق عوامل قيام الامم والجماعات البشرية واطمحللها على أساس قوانين معينة يمكن ادراكها والكشف عليها •

ويبدو - تبعا لتحليلات ابن خلدون - ان دعاة المجتمع هى « شعور الجماعة » الموحد تجاه المسائل العامة ، والكثير مما يراه ابن خلدون يمكن أن يطبق على مشكلات العصر الحديث •

واذا كانت « المقدمة » خاصة بكتاب عن تاريخ الناس والبلاد ، فان ابن خلدون فى الواقع جمع فيها فاعوى ، اذ تحدث عن صفات الناس وطباعهم كما

تحدث عن علم السياسة وأصول الحكم وما تفتقر اليه بعض الأمم عندما تتولى الملك والسيادة ، وان كان في هذا الجانب من الحديث قد حمل على العرب حملات قاسية في الفصلين الثاني والثالث .

كما اشتمل الكتاب على أحاديث في الصناعات بمختلف ألوانها من : الفلاحة ، الى الطب ، وقدم دراسة طيبة لعلوم القرآن ، وأشار الى علم الهندسة والمساحة ، وانتقل من الأرض الى السماء يتحدث عن الكواكب ، وقد أردف حديثه في علم الالهيات بأحاديث في علم السحر والطلسمات ، وعلم أسرار الحروف ، وعلم السيمياء . وهذا ما يعيننا في هذه الدراسة ، وفيما يلي مجمل ما قدمه ابن خلدون في مقدمته (١) عن علم السحر .

يقول ابن خلدون في علم السحر والطلسمات :

« علم السحر والطلسمات علم بكيفية استعدادات تقتدر النفوس البشرية بها على التأثيرات في عالم العناصر ، اما بغير معين ، واما بعين من الامور السماوية ، والأول هو السحر والآخر هو الطلسمات ، ولما كانت هذه العلوم مهجورة عند الشرائع لما فيها من الضرر ، ولما يشترط فيها من الوجهة الى غير الله من كوكب او غيره كانت كتبها كالمفقود بين الناس الا ما وجد في كتب الأمم الاقدمين فيما قبل نبوة موسى - عليه السلام - مثل النبط والكلدانيين . »

« وكانت هذه العلوم في أهل بابل من الربابيين والكلدانيين ، وفي أهل مصر من القبط وغيرهم ، وكان لهم فيها التأليف والاثارة ، ولم يترجم لنا من كتبهم فيها الا القليل مثل « الفلاحة النبطية » ، من أوضاع أهل بابل ، فأخذ الناس منها هذا العلم وتفننوا فيه ووضعت بعد ذلك الاوضاع مثل « مصاحف الكواكب السبعة » وكتاب « طمطم الهندى » في صور البروج والكواكب ، ثم ظهر بالشرق جابر بن حيان كبير السحرة في هذه الملة « الاسلام » فتصفح كتب القوم واستخرج الصناعة ، وغاص على زبدتها واستخرجها ، أو وضع فيها غيرها من التأليف وأكثر

(١) طبع القاهرة سنة ١٩١١ وبهامشها كتاب « سراج الملوك » للعلامة أبى بكر محمد بن محمد

ابن الوليد .

فيها وفي صناعة « السيمياء » لأنها من توابعها اذ أن حالة الاجسام النوعية من صورة الى أخرى انما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العملية » .

ولكن ما حقيقة السحر ؟

يجيب ابن خلدون عن ذلك بأن حقيقة السحر ترجع الى أن النفوس البشرية وان كانت واحدة بالنوع فهي مختلفة بالخواص ، وهي أصناف كل صنف مختص بخاصية واحدة بالنوع ، ولا توجد في الصنف الآخر ، أما تأثير الانبياء فمدد الهى وخاصة ربانية ، ونفوس الكهنة لها خاصية الاطلاع على المغيبات بقوى شيطانية ، وهكذا كل صنف مختص بخاصية لا توجد في الآخر .

مراتب النفوس الساحرة :

ويضيف بأن النفوس الساحرة على مراتب ثلاث: فأولها المؤثرة بالهمة فقط من غير اله ولا معين وهذا هو الذى يسميه الفلاسفة « السحر » والثانية تؤثر بمعين من مزاج الافلاك أو العناصر أو خواص الاعداد ويسمونه « الطلسمات » وهو أضعف رتبة من الاول ، وثالثها تأثير في القوى المتخيلة فيتصرف فيها بنوع من التصرف ويلقى فيها أنواعا من الخيالات والمحاكات وصورا مما يقصده من ذلك ثم ينزلها الى الحس من الرائي كأن يجعلهم يرون البساتين والانهار والاشجار ، وليس هناك شيء من ذلك ويسمى هذا عند الفلاسفة « الشعوذة » أو « الشعيرة » .

ويرى ابن خلدون أن السحر كفر لا يقره الدين فيقول :

« ولما كان السحر يوجه الى : الافلاك ، والكواكب ، والعوالم العلوية ، والشياطين بأنواع التعظيم والعبادة والتخضوع - كان السحر كفرا أو الكفر من مواده وأسبابه ، ولهذا اختلف الفقهاء في قتل الساحر هل لكفره السابق على فعله ، أو لتصرفه بالافساد وما ينشأ عنه من الفساد .

واختلف العلماء كذلك في السحر هل هو حقيقة أو انما هو تخيل ، فمن قالوا : انه حقيقة نظروا الى المرتبتين الاوليين ، ومن قالوا : انه لا حقيقة له نظروا الى المرتبة الثالثة .

ويؤكد ابن خلدون أن « الغاية » كتاب مسلمة بن أحمد المجريطي هو مدونة هذه الصناعة وفيه استيفاؤها وكمال مسائلها ، ويشير الى أنه جاء بهذا الكتاب : ان بالمغرب صنفا من هؤلاء المنتحلين لهذه الاعمال السحرية يعرفون بالبعاجين ، وهم الذين اذا اشار أحدهم الى بطون الغنم وهي في مراعيها سقطت أمعاضها من بطونها الى الارض ، ولهذا كان يسمى الواحد منهم باسم « البعاج » لان أكثر ما ينتحله من السحر كان يجريه في الانعام ويرهب أهلها فيعطونه من فضلها .

الفرق بين السحر والطلسمات :

ويفرق ابن خلدون بين السحر والطلسمات فيقول : « ان السحر لا يحتاج الساحر فيه الى معين ، وصاحب الطلسمات يستعين : بروحانيات الكواكب ، وأسرار الاعداد ، وخواص الموجودات ، وأوضاع الفلك المؤثرة في عالم العناصر كما يقوله المنجمون ، ثم يشير الى أنهم يقولون : ان السحر اتصال روح بروح ، والطلسم اتحاد روح بجسم ، ومعناه عندهم ربط الطبائع العلوية السماوية بالطبائع السفلية ، والطبائع العلوية هي روحانيات الكواكب ، ولذلك يستعين صاحبه في غالب الامر بالنجامة .

ولقد استدلل الفلاسفة على أن للسحر وللطلسمات أثرا في النفس الانسانية من جهة التصورات النفسانية كالذى يقع من قبيل التوهم ، فان الماشى على حرف حائط او على جبل منتصب اذا ازداد عنده توهم السقوط سقط بلا شك ، ولهذا تجد كثيرا من الناس يعودون أنفسهم بذلك حتى يذهب عنهم هذا الوهم فتجدهم يمشون على حرف الحائط والجبل المنتصب ولا يخافون السقوط .

الفرق بين المعجزة والسحر :

ويوضح ابن خلدون الفرق بين المعجزة والسحر عند الفلاسفة والحكماء بقوله :

« أما الفرق عند الفلاسفة بين المعجزة والسحر فالذى ذكره المتكلمون أنه راجع الى التحدى ، وهو دعوى وقوعها على وفق ما ادعاه ، ووقوع المعجزة على وفق

دعوى الكاذب غير مقدور ، لأن دلالة المعجزة على الصدق عقلية لأن صفة نفسها التصديق ، فلو وقعت مع الكذب لاستحال الصادق كاذبا وهو محال ، فإذا لا تقع المعجزة مع الكاذب اطلاقا •

« وأما الفرق بينهما عند الحكماء فهو الفرق ما بين الخير والشر في نهاية الطرفين ، فالساحر لا يصدر منه الخير ولا يستعمل في أسباب الخير ، وصاحب المعجزة لا يصدر منه الشر ولا يستعمل في أسباب الشر ، وكأنهما على طرفي النقيض في أصل فطرتهما » •

السحر في القرآن :

تقوم نظرة القرآن الى السحر على عالم الارواح الخاص بالجن والشياطين الكفار الاشرار ، وأهم آية قرآنية بالنسبة لهذا الموضوع هي الآية ١٠٢ « مدينة » من سورة البقرة « واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولوا : انما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » صدق الله العظيم •

هذه الآية الكريمة جاءت ردا على مقالته اليهود بأن سليمان – عليه السلام – لم يكن نبيا وإنما كان ساحرا ، وتقرر أن الشياطين – على قول أصحاب التفاسير مثل الطبري والرازي – هي الأصل في السحر لانهم كانوا يتسمعون لدى أبواب السماء ، ويزيدون على ما يسمعون أكاذيب من عندهم ويبلغون ذلك الى الكهان فيصنعون منه كتب يعلمونها للناس ويتلونوها ، وكان هذا العمل منتشرا في زمن سليمان انتشارا عظيما •

والحق أن القرآن لم يغفل ظاهرة من ظواهر الحياة ، وكان لها وثيق الصلة بعقيدة الانسان ، بل ربما كانت الظاهرة مشار للجدل والنقاش بين فريقين

يختصمان حول الحق والباطل كما اختصموا حول الدعوة الدينية في أزمئة النبوة •

على أن القرآن عرض للسحر من جانب الموعظة والهداية ، وحث المؤمنين عن الابتعاد عن الغواية والاثم ، أما : تاريخ السحر ، ووسائله ، وتطوراته ، وأنواعه ، وتفصيل آثاره - فهي تبعد كل البعد عن مقصوده في التربية والعظة ، كما أنها غير محدودة تختلف باختلاف الأزمنة ، وتتفاوت في تقدير العقول •

وحديث القرآن عن السحر يتصل بموسى ، وكل من له صلة بالقرآن يعرف ما شجر من خلاف صاحب بين فرعون وسحرته وبين موسى - عليه السلام - الى أن تمكن موسى من الغلبة وبطل السحر ، « وألقى السحرة ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين » •

كما يتصل حديث القرآن عن السحر بسليمان ، عليه السلام - وبهاروت وماروت ، فقد الصق السحرة بسليمان من الإباطيل ما لا يجعله نبيا ولكن يجعله ساحرا ، فبادرت الآيات الى تبرئة سليمان مما نسب اليه « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا » •

على أن ادعاء أن الجن يعلم الغيب افتراء باطل فقد استأثر الله به ، لا يطلع احدا عليه الا اذا اراد أن يبلغ من ارتضاء من رسله ما يريد ابلاغه للناس •

« عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احدا ، الا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا » (١) •

كما أن من تدبير الله في ملكه أن يفضي الى الملائكة بما كان غيبا ثم حان وقته فلم يعد غيبا ، وللملائكة فيما بينهم مناجاة بما ألقى اليهم من شئون كونية •

(١) سورة الجن آية « ٢٦ - ٢٧ » •

وكانت للشياطين جولات علوية تمكنهم من أن يسترقوا السمع بما يدور بين الملائكة ، ثم تهبط الشياطين بما تلقفته ، وتضيف الى ما سمعت كثيرا من الاكاذيب الشيطانية ، وينتهون بذلك كله الى اناس من الاشرار نصبوا أنفسهم للضلال ، واتخلوا الشياطين اولياء لهم ، فأصبح شياطين الجن والانس أعوان فتنة ، ودعاة افساد .

وفي عهد ادريس - عليه السلام - نفشى السحر بين الناس بدرجة كبيرة ، واستطاع السحرة أن يستعينوا بما يأخذون عن الشياطين « وكذلك جعلنا لكل نبي علوا شياطين الانس والجن ، يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا » . وراجت أباطيل السحر في ذاك الوقت بارض بابل ، فجرف الناس تيار السحر ، وافتنوا به حتى التبس عليهم الحق بالباطل ، وتزعزعت عقيدتهم في كثير من الحقائق الدينية وظنوا أن السحرة يعلمون الغيب ، ويخبرون بالمستقبل ، وأن مقام السحرة أشبه بمقام الانبياء .

وكان من رحمة الله بخلقه من أهل تلك الديار ، أن بعث اليهم من ملائكة السماء هاروت وماروت - ليعلموا الناس أن الشائع بينهم ما هو الا سحر وليس علما سماويا ، وأن صناعته تكتسب بالتعليم ، كما أن محاولات السحر وهى من فعل الانسان قد تصح أو لا تصح ، وليس هذا من علم السماء بشيء » .

ومع تحذير الملوك لمن ينصحانه لم تكن النفوس كلها خيرة ، فهناك من اهتدى وهناك من ضل « فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة انهم اتخلوا الشياطين اولياء من دون الله » .

وأصبح السحر لديهم مفسدة مستباحة ، يلحقون به الاذى بمن شاءوا ، يفرقون به بين الانسان واصحابه ، بل بين المرء وزوجه . وبقي السحر ظاهرة متفشية يتوارثها الناس جيلا بعد جيل، الى أن جاء عهد سليمان - عليه السلام - وقد منحه الله كثيرا من المعجزات التى وصفها الكافرون بأنها سحر من أعمال الشيطان . فقد كانت من معجزات سليمان : أن يركب الريح ، ويتحكم فى الجن

ويستخدمها في الأعمال على اختلافها ، ويجمع الطير اذا شاء ويرسلها اذا اراد .
ولقد حدثتنا عنه الآيات في قوله تعالى : « قال : رب اغفر لي وهب لي ملكا
لا ينبغي لأحد من بعدي انك انت الوهاب » فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء
حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص . وآخرين مقرنين في الأصفاد ، هذا
عطاؤنا فامنن ، أو انسك بغير حساب » (١) .

وفي قوله تعالى « وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطيور فهم
يوزعون » (٢) وكذا في قوله « وتلقه الطير فقال ما لي لا أرى الهدى أم كان من
الغائبين ، لأعذبه عذابا شديدا أو لأذبحنه ، أو ليأتيني بسلطان مبين » (٣) .

وفي ضوء هذه المعجزات نشط السحر ، وكثرت أباطيله ، ودأب الساحرون
على غيهم ليقاوموا هذه المعجزات ويكذبوها ويسموها بالسحر ، حتى تأثر بذلك
كثير من البسطاء واعتقدوا أن معجزات سليمان لا فرق بينها وبين ما يقوم به
السحرة من أعمال . وادعى السحرة أن أعمالهم التي يعملون عليها في :
التعويذ ، والرقى ، والابغرة ، واستخدام الجن هي نفسها من كتب سليمان .

أما بالنسبة لليهود فالنقاش معهم فيما يختص بالسحر كثير ومعقد ، فبرغم
أن التوراة جاءتهم بالحق من عند الله ، وكشفت لهم من أمور الغيب ما يجب الإيمان
به من أحداث وأحكام ونبوءات متجددة - بل أن فيها تبشيرا بأنبياء منتظرين
من غير بني اسرائيل - فإن أنانيتهم تدخلت إلى أقصى حد في تكليس المعتقدات .

فكان من شأنهم مع المسيح ما تعرفه البشرية جمعاء ، وانهموه بأعمال
السحر . وقد أشار القرآن إلى هذا مكذبا الكافرين بقوله تعالى « إذ قال الله
يا عيسى ابن مريم أذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم

(١) سورة ص : الآيات من ٣٥ إلى ٣٦ .

(٢) سورة النمل : آية ١٧ .

(٣) سورة النمل : آية ٢٠ ، ٢١ .

الناس في المهد وكهلا ، واذا علمتك الكتاب ، والحكمة ، والتوراة ، والانجيل ، واذا تغلق من الطين كهيئة الطير باذني فتنفخ فيها فتكون طيرا باذني ، وتبرىء الاكمه والابرص باذني ، واذا تخرج الموتى باذني ، واذا كلفت بني اسرائيل عنك اذا جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم : ان هذا الا سحر مبين (١) »
« صدق الله العظيم » •

ولما جاء محمد - عليه الصلاة والسلام - ووجدوا كتابه مصدقا لانباء التوراة عن نبي العرب ورسالتهم ازدادوا حنقا والتواء ، حتى أنكروا ما عرفوا ، وتكفروا للتوراة فيما حدثتهم عنه ، ونبدوا الاخذ بها فيما تطابق عليه القرآن والتوراة •

واتخذ المارقون من التوراة السحر علما وعملا وشعارا ، اذ وجدوا فيه مشتهاهم : من السيطرة على الأوهام ، ومن جمع الأموال ، وفساد العلاقات ، وكل ما تبتغيه النفوس الضعيفة لتحقيق غايتها •

ومن ثم فإن اليهود هم الآخرون بالسحر من عهد سليمان ، وعن الملكين هاروت وماروت من قبل • وقد ظل السحر الى يومنا هذا بابا من أبواب الشر ، ووسيلة من وسائل الضلال ، يتخله الكثير من المضللين والمشعوذين وسيلة لعيش غير شريف ، وسبيلا الى مخادعة الناس عن الدين وتعاليمه الحقة •

وازداد افتتان الجهلة من الناس بالسحر في هذا العصر ، فساءد المشعوذون على ازدياد تبذلهم وسفهمهم ، فموهوا على الناس بأنه عمل مشروع مؤيد من القرآن ، وقد يتصادف أن يتحقق شيء مما يعملونه فتتأصل الفتنة ويتركز الضلال •

« وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » (٢) •

(١) سورة المائدة « آية ١١٠ » •

(٢) سورة النمل آية ٨١ ، وسورة الروم آية ٥٣ •

الباب الثامن

ألوان زائفة من المعتقد والعادات

الفصل الأول
ألوان زائفة من
المعتقدات والعادات

الفصل الأول

الزائفة من المعتقدات والعادات

مما لا شك فيه أن الثقافة تلعب دورا كبيرا في سلوك الانسان ، كما أن لها تأثيرا كبيرا على السلوك الجماعي للمجتمع ، وتعتمد ثقافة المجتمع الى درجة كبيرة على ما يسود هذا المجتمع من : معتقدات ، وتقاليده ، وعادات توارثها جيلا بعد جيل .

وقد تكون هذه المعتقدات والتقاليد : أصيلة أملتها حاجتهم ، وقدرت بعضها غيبيات الدين في سبيل تقديمهم ورفاهيتهم ، وقد تكون بدعا زائفة دخيلة عليهم لتقويض حياتهم واهدار كرامتهم .

وليس بغريب أن نرى الأمم التي ازدهرت حضارتها عبر التاريخ الا وكان لتقاليدها الثقافية الدور الكبير في هذه الحضارات ، وبالعكس نجد أن تآخر الشعوب يرجع الى كثير من المعتقدات الزائفة والخرافات البالية مما يجعلها غالبا لقمة سائغة لكل طامع .

ومن الثابت أن المستعمرين والدخلاء يستغلون هذه الظواهر للسيطرة على عقول الشعوب ، فيشجعون على استمرارها وبقائها ، بل كثيرا ما كان المستغل يتدع من الوسائل والاساليب الخبيثة ما يفت في عضد الجماعة ويشل عقلها ليلهيها عن أمور الحياة الجدية . ففي كثير من دول أفريقيا مثلا استغل المستعمر :

الخمر ، وأسباب الرذيلة ، والمعتقدات الزائفة للسيطرة على العقول ، وشل الارادة ، ومن ثم تتحقق الاطماع الاستعمارية . وفي الصين لا تزال قصة الافيون عالقة في أذهاننا ، وفي كل الدول العربية لا تزال ثقافتها مقترنة بكثير من الخرافات والأوهام .

ومما يدعو الى الاسف أنه برغم ما وصلنا اليه نحن من درجات الرقى والتقدم الفكرى والعلمى ، فانه لا يزال بعضنا اسير كثير من : المعتقدات ، والتقاليد ، والعادات البالية ، وثمة من لا يعرف فعلا خطورة ما أدخله علينا المستعمر من عادات استهدف هو بها شغلنا - زمننا طويلا - عن قضايا التحرر واخلاد جنوة العمل الوطنى فينا ، هذا بالاضافة الى خرافات ابتدعها قوم أفاقون عملوا على تقويض دعائم الايمان وبلبله أفكار الناس لتحقيق سيطرة سياسية ، أو ابتزاز أموال السذج الذين يجرون وراء التفاهات .

فالشعوذة ، وقراءة الطالع ، والزار ، والتوسل الى الأولياء ، والموالد ، والذكر ، والادمان على المخدرات ، ورقصات التويست ليست - في واقع الامر - الا بعض الصور التى لا تزال نقطة سوداء تلتخج جبين ثقافتنا .

وهنا نستطيع أن نؤكد أن واجبنا القومى يحتم على كل مواطن شريف أن يعمل جاهدا للمساهمة فى القضاء على أمثال هذه الخرافات . وعلى الاتحاد الاشتراكى بصفته السلطة الشعبية أن يبذل قصارى جهده فى توعية الناس مقرنا ذلك بالعمل السياسى اذ لا يمكن لشعب أن ينجح ويتقدم وفي أذهان أبنائه من رواسب الماضى بخزعبلاته ما يشده الى الوراء .

وفي هذا الفصل اخترنا ثلاث صور من هذه المعتقدات والعادات المتفشية فينا ، وهى الاعتقاد فى : الولاية ، وفى الزار ، وفى الادمان على المخدرات ، لتكون كلها نماذج تنسحب على غيرها مما لم نذكره خشية الاطالة والتكرار .

الولاية والاعتقاد في الأولياء :

بالرغم مما وصل اليه مجتمعنا من تقدم فكري وعلمي ، وبالرغم من أن شريعة الاسلام واضحة في تحديد العلاقة بين الله وعباده بحيث حرمت الوساطة بين الناس والخالق - فانه لا يزال يسودنا كثير من المعتقدات التي تعتبر خروجاً عن الدين ، وظاهرة من مظاهر التأخر الفكري والثقافي .

واذا كنا عرفنا من الوسائل السيكولوجية والميتافيزيقية ما استخدم قديماً للتأثير على عقول الناس مستغلة جهل السذج منهم لتحقيق مآرب خاصة ، فمن أبرز هذه الوسائل السيطرة على العقول عن طريق غرس معتقدات بوجودة طبقة من الافراد يطلق عليها الاولياء : تقام لهم الموالد بين حين وآخر ، ويتوسل الناس اليهم لقضاء حاجاتهم ، ويقوم أتباعهم باقامة طقوس وشعائر تبعد كل البعد عن شعائر الدين الحنيف .

ولكى نستطيع أن نوضح أثر هذه المعتقدات سنحاول في هذا الحيز المحدود أن نعطي للقارئ صورة مبسطة لها عن طريقها نتبين أوجه الشبه بينها وبين تلك الاساليب التي استخدمت عبر التاريخ للتأثير على عقول البشر من قبل .

وقد جاء الاعتقاد في الاولياء نتيجة لهذه المعتقدات التي تقول : ان هناك طبقة من الافراد يتميزون عن باقي البشر ، فاذا سألنا بم يوصف هؤلاء الافراد ؟ قيل لنا : « انهم أفراد وهبوا أنفسهم لله وبهم ايمان غير عادي ، وهم على قدر ايمانهم يمنحون القدرة على القيام بما هو في مرتبة المعجزات ، وان أكبرهم درجة هو « القطب » وان كان البعض يقولون : انه لا وجود لمن له هذه الدرجة ، على حين يقول آخرون بوجود أقطاب أربعة ، وأن هؤلاء الاقطاب الاربعة هم مؤسسو طرق : الرفاعية ، والقدرية ، والاحمدية ، والبرهامية ، ويعتقد الناس أن كلا منهم كان « قطبا » في عصره .

* * *

والقطب أسطورة خرافية تنزع الى تجريد الله من الربوبية ، وخلعها على وهم باطل سمى في الفلسفة « العقل الأول » وفي المسيحية « الكلمة » وفي الصوفية « القطب » والقطب هو اكمل انسان متمكن في مقام الفردية ، أو الواحد الذى هو موضع نظر الله في الارض في كل زمان ، وعليه تدور أحوال الخلق ، وهو يسرى في الكون ، وأعيانه الباطنة والظاهرة سريان الروح في الجسد ، ويفيض روح الحياة على الكون الاعلى والاسفل ، وقد يسمى « الفوٲ » باعتبار التجاء الملهوف اليه •

ويقول « تيجانى » مؤسس التجانية عن حقيقة القطبانية : « ان حقيقة القطبانية ، هى الخلافة العظمى عن الحق مطلقا في جميع الوجود جملة وتفصيلا حينما كان الرب الها ، كان هو خليفة في تصريف الحكم وتنفيذه في كل ما له عليه الوهية لله تعالى ، فلا يصل الى الخلق أى شىء كائنا ما كان من الحق الا بحكم القطب ، ثم قيامه في الوجود بروحانيته في كل ذرة من ذرات الوجود ، فترى الكون كله اشباحا لا حركة لها ، وانما هو الروح القائم فيها جملة وتفصيلا ، ثم تصرفه في مراتب الاولياء ، فلا تكون مرتبة في الوجود للعارفين والاولياء خارجة عن ذوقه ، فهو المتصرف في جميعها ، والممد لاربابها ، به يرحم الوجود ، وبه يبقى الوجود وفي بقاء الوجود رحمة لكل العباد ، وجوده في الوجود حياة لروحه الكلية ، وتنفس نفسه يمد الله به العلوية والسفلية ، ذاته مرآة مجردة ، يشهد فيها كل قاصد مقصده » •

ثم يتحدث عن علم القطب بقوله : « ومما أكرم الله به قطب الاقطاب ، ان يعلمه علم ما قبل وجود الكون ، وما وراءه ، وما لا نهاية له ، وأن يعلمه علم جميع الاسماء القائم بها نظام كل ذرة مع جميع الموجودات ، وأن يخصصه بأسرار دائرة الاحاطة ، وجميع فيوضه ، وما احتوى عليها •

وللقطب أعوان فهناك : « الامامان » وهما بمنزلة الوزيرين له ، أحدهما لعلم الملك ، والآخر لعلم الملكوت ، ثم « الاوتاد » الاربعة ، وقيل : انهم ثلاثة ،

كلما مات قطب العصر أقيم مكانه واحد منهم ، وعلمهم فيض من قطب الاقطاب ، وان ماتوا فسلت الارض • كما أن هناك « الابدال » ، والبلد حقيقة روحانية تجتمع اليها ارواح اهل ذلك الموطن الذي رحل عنه وليه ، وعددهم أربعون ، اثنان وعشرون منهم بالشام ، وثمانية عشر بالعراق ، ثم هناك أيضا من الاعوان « النجباء » وهم دون الابدال ومسكنهم مصر ! وعملهم أن يحملوا عن الخلق أثقالهم وعددهم سبعون ! ثم يجيء في النهاية « النقباء » وعددهم ثلثمائة ، ويقال خمسمائة ، وهم الذين يستخرجون خبايا الارض •

ومن ثم فليست هذه المعتقدات الا نوعا من الخرافات التي نجدها في كثير من الاساطير ، ابتدعها الانسان بتخيلات مخبولة ، ولاهداف ذليلة ، ليستعبد أخاه الانسان لما يشتهي من رغبات ، وفي الواقع أن هذه الخرافات ابتدعتها أوهام الصوفية ازاء ملكوت الله ، ليسيطروا بها على عقول السذج من الناس ، ويسيرونها في متاهة من الضلال وهم مسلوبو الارادة والعقل ، ليقتصبوا من الناس أقاتهم وإيمانهم •

ومع أن القطب غير معروف للناس ؛ فإن الأماكن المحببة الى نفسه معروفة جيدا ، وإن كان من النادر رؤيته حتى في تلك الأماكن ، ويؤكد كثير من الناس أنه موجود في مكة فوق سقف الكعبة ، ومع أنه لم يره أحد هناك فالناس يسمعون صوته مرتين عند منتصف الليل وهو يصيح « يا أرحم الراحمين » وهي الصيحة التي تردد من كل مئذنة في كل مسجد •

ويقال : ان من الأماكن المحببة للقطب في القاهرة باب زويلة ، وهو الذي يعرفه الناس باسم « المتولى » ذلك الباب الذي لا يفتح أبدا ، والذي يشي فيه أحد ألواح الباب الكبير للداخل نحو الجانب الشرقي للمدخل فيخفى فراغا صغيرا يقال : انه مكان القطب ، وكل من يمر بالباب يقرأ فاتحة الكتاب ويلقي ببعض الاحسان الى متسول يجلس دائما في جوار الباب ، ويعتقد الكثيرون أنه أحد

خدم القطب ، والذي يمر بهذا المكان يمكنه أن يرى كثيرين ممن يصابون بالصداع يدقون مسماراً في الباب للتخلص من هذا الداء ، كما يرى أولئك الذين يشكون من ألم في أسنانهم ينزعون إحدى أسنانهم ويدسونها في شق الباب لازالة الآلام .

ومن الاماكن المحببة الى القطب قبر السيد أحمد البدوي في طنطا .

ويعتقد الناس : أن القطب ينتقل من مكان الى آخر في لمح البصر ، وانه يتجول في العالم الفسيح ، ويتخذ لنفسه من الصور ما يشاء بأى لون ، وفي أى ثياب ، ويتكلم بأى لغة .

وكما سبق أن أشرنا فان القطب يليه اولياء من درجات مختلفة مثل : الأبدال ، والنجباء ، والنقباء ، وغالباً ما يرفض هؤلاء مباحج الحياة ، ولا يحبون معاشره الناس ، ويفضلون الاقامة في مكان صحراوي للانصراف الى العبادة والصلاة .

كما أن هناك بعض الاولياء يؤمنون أنفسهم على مثال ما يفعل فقراء الهنود ، وقد كان في القاهرة في الربع الثاني من القرن التاسع عشر أحد الاولياء يحيط عنقه بدائرة من الحديد ، ويقيد نفسه بالاعلال الى جدار الغرفة ، ويقال انه بقى بهذه الحالة ثلاثين سنة ، ويقول البعض : انه كان يجلس على الارض ثم يغطى ببطانية على أساس انه سينام ، وعندما يرفع الناس البطانية مباشرة لا يجدون أحداً أسفلها .

ويؤمن الكثيرون بمثل هذه القصص ، أو على الأقل لا يعلقون عليها لان الضحك منها أو السخرية بها تعتبر اثماً كبيراً قد يعرضهم للهلاك .

ومن القصص الطريفة الغريبة التي تروى ، قصة أحد الاولياء قطعت عنقه لجناية لم يرتكبها ، وكان الرأس يتكلم بعد أن بتر مؤكداً براءته (١) .

(١) جاءت قصة مماثلة عن الحكيم « دوبان » Dooban في كتاب الف ليلة وليلة .

وتروى قصة أخرى أن وليا قطع رأسه فجرى الدم على الأرض ليخط بكتابة عربية ظاهرة مقروءة « أنا ولي الله وقد مت شهيدا » •

* * *

ويعبد كثير من المسلمين الأولياء الموتى ، فيشيد على قبر كل ولي مسجد ، ويقام على القبر تركيبة من الخشب أو الحجر تغطي عادة بالحريز ، وتنقش فوقه آيات من القرآن ، ويحيط بهذه التركيبة سور أو سجن من الخشب أو البرونز يسمى « المقصورة » •

وفي كل قرية من قرى مصر تقريبا قبر أحد الأولياء أو أحد الشيوخ الذين اشتهروا في حياتهم بالتقوى والصالح ، ويزور الناس في الأقاليم ولا سيما النساء قبر كل من هؤلاء الأولياء في يوم معين من أيام الأسبوع • ويختلف السبب وراء هذه الزيارة ، فقد تكون التماس انجاب الولد أو استعادة الصحة ، وقد تكون مجرد ضمان تقبل حسن للصلوات أو الدعوات التي يقومون بها في هذه الأماكن •

ويعتقد كثير من المسلمين السذج أن هؤلاء الأولياء وسطاء بينهم وبين الله ، فيبدأ الزائر بالقاء التحية ، ثم يدور حول المقصورة من اليسار إلى اليمين ، ويقرا فاتحة الكتاب عند باب المقصورة وعند كل ركن من أركانها ، ويدعو ويتجه إلى القبر وظهره إلى القبلة وهو يدعو الله ويستغيث به مستعينا بالنبي وبصاحب هذا « المقام » ، وكثيرون يقبلون الجدار والمقصورة •

ويوزع ميسورو الخال النقود أو الخبز والفول على الفقراء عندما يزورون هذه المزارات ، ويعطون النقود خاصة لأولئك الذين يحملون قرب المياه ليسقوا من يحس الظما ، أو من يريد بركة الولي صاحب المزار ، وقد يفرض الزائر على نفسه وعدا « النذر » بأن يوزع النقود ، أو الطعام ، أو أن يضحي بذبيحة لو تحقق أمر ما •

ومن العادات الغريبة المضحكة أنه إذا ما نذر شخص ما بالقرية عجلا صغيرا لأحد الأولياء ليذبحه حينما يشب ويكتمل نموه ؛ فإنه يطلق هذا العجل

بموافقة كل الجيران يرعى كيفما شاء حتى ولو هبط على حقول القمح ، فاذا ما اكتمل نموه ذبح وأعد الطعام من لحمه للجميع ، ثم تقام الأذكار في ليلة الاحتفال بوفاء النذر .

ومن السهل أن نرى بعد ذلك أن هذه « التقاليد » لا يمكن أن يقبلها إلا كل ساذج سريع الاستهواء بغض النظر عن عمله ومدى ثقافته . وكثير منا يعلم أنها ربما عادت كلها أو بعضها إلى عهود الوثنية الأولى ، غير أنه يظل يأخذ بها بدعوى أنها لا يمكن أن تكون شركا بالله ولا تضر بقدر ما تنفع .

ويتحدث الجبرتي عن جانب من هذه التقاليد ، هو حق الشفاعة الذي نرى أنه بدعة فاطمية سخر منها أبو العلاء المعري الشاعر الفيلسوف في « رسالة الغفران » المعروفة ، بقوله :

« إذا عرف هذا فمعلوم ما قد عمت به البلوى من حوادث الأمور التي أعظمها : الإشراف بالله ، والتوجه إلى الموتى ، وسؤالهم النصر على الأعداء ، وقضاء الحاجات ، وتفريج الكربات التي لا يقدر عليها إلا رب الأرض والسموات . . وكذلك التقرب إليهم بالنذور وذبح القربان ، والاستغاثة بهم في كشف الشدائد ، وجلب الفوائد . . إلى غير ذلك من أنواع العبادة التي لا تصلح إلا لله . وضرر شيء من أنواع العبادة لغير الله كصرف جميعها ، لأنه سبحانه وتعالى أغنى الأغنياء عن الشرك ، ولا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا . كما قال تعالى « فاعبد الله مخلصا له الدين ، إلا الله الدين الخالص . والذين اتخلوا من دونه أولياء ، ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون . إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار(١) » . فأخبر سبحانه أنه لا يرضى من الدين إلا ما كان خالصا لوجهه ، وأخبر أن المشركين يدعون الملائكة والأنبياء والصالحين ليقربوهم إلى الله زلفى ، ويشفعوا لهم عنده . وأخبر أنه لا يهدي من هو كاذب كفار » .

(١) سورة الزمر آية : ٢ ، ٣ .

وقال تعالى « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله • قل أتنبؤن الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض ، سبحانه وتعالى عما يشركون» (١) • فأخبر أنه من جعل بينه وبين الله وسائط يسألهم الشفاعة ، فقد عبدهم وأشرك به • وذلك أن الشفاعة كلها لله كما قال تعالى « من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه » (٢) • وقال تعالى « فيومئذ لا ينفع الدين ظلموا معذرتهم » (٣) • وقال تعالى « يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا » (٤) • وهو سبحانه وتعالى لا يرضى إلا التوحيد ، كما قال تعالى « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون » (٥) •

« فالشفاعة حق ، ولا تطلب في دار الدنيا إلا من الله كما قال تعالى « وأن المساجد لله ، فلا تدعوا مع الله أحدا » (٦) • وقال تعالى « ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك • • فان فعلت ، فانك اذا من الظالمين » (٧) •

« فاذا كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو سيد الشفعاء ، وصاحب المقام المحمود ، وآدم فمن دونه تحت لوائه - لا يشفع إلا بإذن الله • • لا يشفع ابتداء بل يأتي فيخر الله ساجدا ، فيحمده بمحامد يعلمه إياها ، ثم يقال « ارفع رأسك ، وسل • • تعط ، واشفع • • تشفع • ثم يجد له حدا فيدخلهم الجنة فكيف بغيره من الانبياء والاولياء ؟

(١) سورة يونس « آية ١٨ » •

(٢) سورة البقرة « آية ٢٥٥ » •

(٣) سورة الروم « آية ٥٧ » •

(٤) سورة طه « آية ١٠٩ » •

(٥) سورة الانبياء « آية ٢٨ » •

(٦) سورة الجن « آية ١٨ » •

(٧) سورة يونس « آية ١٠٦ » •

وهذا الذى ذكرناه ٠٠ لا يختلف فيه أحد من علماء المسلمين ، بل قد أجمع عليه السلف الصالح من الأصحاب والتابعين والأئمة الأربعة وغيرهم ٠٠ ممن سلك سبيلهم ، ودرج على منهاجهم » .

« وأما ما حدث من سؤال الأنبياء والأولياء من الشفاعة بعد موتهم ، وتعظيم قبورهم ببناء القباب عليها ، وأسراجها ، والصلاة عندها ، واتخاذها أعيادا وجعل السدنة والنور لها .. فكل ذلك من حوادث الأمور التى أخبر بها النبى - صلى الله عليه وسلم - أمته ، وحذر منها ٠٠ كما فى الحديث عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه قال « لا تقوم الساعة حتى يلحق حى من أمتى بالمشركين ، وحتى تعبد فئات من أمتى الاوثان » .

الموالد :

ولكل من الأولياء حفل يقام بمناسبة يوم مولده ، فيقوم الناس بزيارة الضريح لاداء واجب الزيارة ولاكتساب البركة ، وكل الذين يقطنون المنازل المجاورة للضريح يوقدون المصابيح على أبواب دورهم ، ويقضى الناس تلك الليلة فى سماع قصص الرواة والانصات لترتيل القرآن للقيام بالذكر ، وغالبا ما يستمر المولد أسبوعا ! .

والذين يقومون بالذكر فى المولد مثل مولد السيد أحمد البدوى فى طنطا ، أو مولد السيد ابراهيم الدسوقى فى دسوق جلهم من « الدراويش » أتباع الطرق المختلفة .

وفى مصر كثير من « الدراويش » وبعض هؤلاء يقصرون كل نشاط لهم فى الحياة على الطقوس الدينية ، ويحصلون على رزقهم من الهبات . على أن رجال الطرق يستأجرون أحيانا بعض الافراد للسير فى الزفة تحت الاعلام حتى يظن أن لهم الاتباع الكثيرين .

ومن الصعب التعرف على كل طوائف وجماعات الطرق لان هذه لا تذكر
لغير المنضمين للطريقة والذين يأخذون « عهدا » على الشيخ ، ويتم اجراء العهد
بان يضع المريد يده في يد الشيخ مكررا كلمات يلقيها عليه الشيخ واعدا باتباع
عقيدته وهدايته وتوجيهه ، وانه لا ينفصل عنه ولا يتغبر عن الطريقة مشهدا الله
على هذا ، ثم يقرأ هو والشيخ فاتحة الكتاب وينتهي الحفل بان يقبل المريد يد
الشيخ .

والموالد بدعة أيضا ادخلت على الاسلام ، ابتدعها قوم ضالون لتحقيق
ما رب شخصية ، واشغال الناس عن أمور الحياة الجدية . وساعد الدخيل
الاجنبي على نشر هذه المعتقدات والخرافات لتسهل له السيطرة على الجماهير ،
وتشغلها عن حقوقها القومية .

وفي وصف الجبرتي للمولد الحسيني عام ١٧٩٩ م حينما كانت مصر محتلة
من الفرنسيين ما يؤيد هذا القول ، بل فيه شرح لما يحدث في مثل تلك المناسبات
من مساخر وورذائل .

يقول الجبرتي :

« نادى القبطان الفرنسيون الساكنين بالمشهد الحسيني على أهل تلك الحطة
وما جاورها بفتح الخوانيت والاسواق لأجل مولد الحسين ، وشهد في ذلك ،
واوعد من أغلق حانوته بتسميره وتغريمه عشرة ريات فرنسية مكافأة له على ذلك ؛

« وكان السبب في ذلك ، والأصل فيه ، أن هذا المولد ابتدعه السيد بدوي
ابن فتيح مباشر وقف المشهد . . فكان قد اعتراه مرض الحب الافرنجي ، فنذر
على نفسه هذا المولد ان شفاه الله تعالى . فحصلت له بعض افاقة ، فابتدأ به ،
وأوقد في المسجد والقبة قناديل ، وبعض شموع ، ورتب فقهاء يقرأون القرآن

بالنهار مدارس ، وآخرين بالمسجد يقرأون بالليل دلائل الخيرات للجزولى • ثم زاد الحال وانضم اليهم كثير من أهل البدع كجماعة العيفى ، والسمان ، والعربى ، والعيسوية : فمنهم من يتخلق ويذكر الجلالة ويحرفها ، وينشد له المنشدون القصائد والمواالات • ومنهم من يقول أبياتا من بردة المديح للبوصيرى ، ويجاوبهم آخرون مقابلون لهم بصيغة صلاة على النبى (صلى الله عليه وسلم) •

« وأما العيسوية فهم جماعة من المغاربة ومن دخل فيهم من أهل الاهواء ، ينسبون الى شيخ من أهل المغرب يقال له سيدى محمد بن عيسى • وطريقتهم : أنهم يجلسون قبالة بعضهم البعض صفين ، ويقولون كلاما معوجا بلقمتهم بنغم وطريقة مشوا عليها ، وبين أيديهم طبول ودفوف يضربون عليها على قدر النغم ، ضربا شديدا مع ارتفاع أصواتهم • وتقف جماعة أخرى ، قبالة الذين يضربون الدفوف فيضعون أكتافهم فى أكتاف بعض ، لا يخرج واحد عن الآخر ، ويلتوتون ويتصبون ويرتفعون وينخفضون ، ويضربون الارض بأرجلهم كل ذلك مع الحركة العنيفة ، والقوة الزائدة ، بحيث لا يقوم هذا المقام الا كل من عرف بالقوة • وهذه الحركات والايقاعات على نمط الضرب بالدفوف ، فيقع بالمسجد دوى عظيم ، وضجات من هؤلاء ومن غيرهم من جماعة الفقراء •• كل أحد له طريقة وكيفية تباين الاخرى •

« هنا مع ما ينضم الى ذلك من جمع العوام ، وتحلقهم بالمسجد للحديث والهلديان وكثرة اللفظ والحكايات والاضاحيك ، والتلفت الى حسان الغلمان الذين يحضرون للتفرج ، والسعى خلفهم والافتنان بهم ، ورمى قشور اللب والمسكرات والمأكولات فى المسجد ، وطواف الباعة بالمأكولات على الناس فيه ، وسقاء الماء ، فيصير المسجد بما اجتمع فيه من هذه القاذورات والعفوش ، ملتحقا بالاسواق الممتنة •

« ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ••

» ثم زاد الحال على ذلك بقدم جماعة الاشيار من الحارات البعيدة والقريبة ، وبين ايديهم مناوور القناديل والجوامع العظيمة التي تحملها الرجال ، والشموع ، والطبول والزمر + ويتكلمون بكلام محرف ، يظنون انه ذكر وتوسلات يثابون عليها ، وينسبون من يلومهم او يعترضهم الى الاعتزال والخروج والزندقة وغالبهم السوقة واهل الحرف السافلة ، ومن لا يملك قوت ليلته فتجد احدهم يجتهد بقوة سعيه ، ويبيع متاعه ، او يستدين الجملة من الدراهم ويصرفها في وقود القناديل وأجرة الطبالة والزمارة وكل يجتمع عليه ما هو من أمثاله من الحرافيش ثم يقطع ليلته تلك سهران ، ويصبح دائخا كسلان ، ويظن انه بات يتعبد ويذكر ويتجهد ..

» واستمر هذا المولد أكثر من عشر سنين + ولم يزد الناذر لذلك الا مرضا ومقتا واستجلب خدمة الضريح ما لاح لهم من خساف العقول ، مثل الشمع والدراهم ، واتخلوا ذلك حبالا لكل أموال الناس بالباطل +

» فلما حصلت هذه الحادثة بمصر ، ترك هذا المولد في جملة المتروكات ثم حصلت الفتنة التي حصلت ، وسكن الفرنسيون في خط المشهد الحسيني ، لضبط تلك الجهة - وفيه مسابرة ومداينة - فصار يظهر المحبة للمسلمين ويلطفهم ويدخل بيوت الجيران ، ويقبل شفاعة المشفعين ، ويجل الفقهاء ، ويعظمهم ويكرمهم وأبطل وقوف عسكره بالسلاح كعادتهم في غير هذه الجهة + وكذلك منع ما يفعله القلقات من أنواع التشديد على الناس في مثل القناديل +

» فاطمان به اهل الخطه ، وتراجعوا للبكور الى الصلاة في المساجد بعد تخوفهم من العسكر الذي رتب معهم وتركهم التبكير + فلما أنسوا به وعرفوا أخلاقه ، رجعوا الى عادتهم ، ومشوا بالليل أيضا بدون فزع وخوف +

» وترجمانه على مثل طريقته . وهو رجل شريف من اهل حلب ، كان اسيرا بمالطة فاستخلصه الفرنسيين في جملة من استخلصوهم من أسرى مالطة ، وقلم معهم مصر + فلما اجلس هذا لضبط الخط ، كان ترجمانه يهوديا ، فاحتمل بعض

أعيان الجهة ، ورتب هذا الشريف المذكور ، ليكون فيه راحة للناس . ففتح له قهوة بالخط بالقرب من دار مخدمه ، وجمع الناس للجلوس فيها ، والسهرة حصّة من الليل ، وأمرهم بعدم غلق الحوانيت مقدارا من الليل كعادتهم القديمة . فاستأنسوا بالاجتماعات والتسلل والتخلّعات . وعم ذلك جهات تلك الخطّة ، ووافق ذلك هوى العامة لأن أكثرهم مطبوع على المجون والتخلّعة . . . وتلك هي طبيعة الفرنساوية . فصاروا يجتمعون عنده للسمر والحديث ، واللعب والممازحة ويحضر معهم ذلك الضابط ومعه زوجته ، وهي من أولاد البلد المخلوعين أيضا . »

الممارسة الدينية للمريد :

والممارسة الدينية للمريد - فيما عدا أداء الصلوات طبقا لتقاليد الطريقة - هي القيام « بالذكر » أحيانا وقوفا في دائرة أو في صفين طويلين متواجهين بل أحيانا وهم قعود وينشلون معا « لا اله الا الله . . . الله . . . الله . . . » ويكررون الدعاء مع تحريك رؤوسهم أو أذرعهم أو بتطويع الجسم كله الى أن يصيبهم الإعياء أو الاجهاد الذي يصل بهم الى حالة من الانهيار ، الا أنهم بالممارسة يستطيعون القيام بالذكر لفترات طويلة دون توقف .

وغالبا ما يصحب هذه الاناشيد واحد أو أكثر من العازفين على « الناي » أو « الارغول » ، ويستغلم بعض الدراويش طبلة صغيرة أو دفا في أثناء الذكر كما يقوم البعض برقصات معينة .

ومن الأمور المضحكة المبكية ما يجرى في طقوس الطريقة السعيدية ، إذ يقوم شيخ الطريقة بالسير بجواده على أجساد أتباعه ويطلق على هذا « الدوسة » .

ويصف عبد الرحمن الوكيل الذكر الصوفي في كتابه « هذه الصوفية » بقوله :

« في أعياد الوثنية التي يسمونها موالد ، وفي معابد الاضرحة وفي كهوف الدراويش ، وقد اتخذوا بطون الطواغيت بالسحت في تلك الحماة يقيم الصوفية .

حانات الرقص ، أو ما يسمونه الذكر ، فيجلس الشيخ بين صفين من دراويش
تعشقهم الرذيلة ، ودرويشات نفرت منهن الفضيلة ، ثم يصفق بيديه اللامعتين
من دسم الحرام إذانا ببدء الذكر ، ثم يخرج من شفثيه ومنخريه اسم الله ملحدا
فى حرفه وفى النطق به !! وغضون جبينه تهمز الحياة وتلمز التقوى ، ومنشد
القوم يطربهم بالغزل الداعر فى ليلى وسعاد ، أو بالدفوف يدق عليها الشيطان •
وبالنايات تصفر فيها الشهوة ، ثم يهب الشيخ ويهب معه المريدون، وثمة من يملون
يمنة ويسرة ، متأودة أعطافهم تأود الراقصات يلحنن فى أيدي الرواد دنان الخمر
وفتنة الذهب، وما هى الا لحظة، حتى تجن هذه الأجساد بما فيها من رغبات مكبوتة،
مفصحة عن غليلها المحترق بالتأوة المخنث ، والتمايل الخليج ، وبالاصوات
المنكرة المبجوحة من عويل الخطيئة والاستغاثة بزئيب أو نفيسة • لا يريدون
زئيب الطاهرة ، ولا نفيسة العابدة ، وانما يريدون بها شيئا آخر !! فكل يغنى
على انثاء !! وهكذا يظلون فى اقتراف هذا الزور الملحد ساعة أو ساعتين ، كل
يريد أن يثبت للعيون الرانية فى لهفة ، والزغاريد المغازلة فى توجع مشوق ، انه
حيوان قوى الجسد !! وبعد هذا يزعمون أنها كانت من ساعات التجلى !! » •

ويعلق على ذلك بقوله : ما هكذا ذكر الرسول ربه ، وما هكذا ذكر الصحابة
من بعده ربههم ، ما ذكروه بقيادة واحد منهم ينطق بالاسم مصفقا ، وينطقون به
وراءه • ما ذكروه ، ولهم منشد يفازل ليل !! ما ذكروه وأصواتهم من ضجيجها
تفزع الليل ، وتضحك جنباته ، ما ذكروه جزاء مضغة لحم ، أو نفثة شيشة !!
ما ذكروه بالنايات والطبول والدفوف، ولكنهم ذكروه، كما علمهم رسوله . أما عن
ذكر الله ذكر الصوفية فهم : مشركو الجاهلية ، وكفرة اليهودية ، والمسيحية •

والواقع أن ذكر الصوفية بدعة يهودية ، فقد جاء فى الزمور التاسع
والأربعين بعد المائة : « ليهتهج بنو صهيون بملكهم ليسبحوا اسمه برقص ،
بدف ، وعود ، ليرثوا ... هلولوا ، سبجوا الله فى قدسه ، سبجوه برباب وعود ،
سبجوه بدف ورقص ، سبجوه بأوتار ومزمار ، سبجوه بصنوج الهتاف » •

ضرب الزار (١)

الزار أحد مظاهر رواسب الماضى الاجتماعية العقيمة التى لا تزال تسود مجتمعنا برغم أنه يرنو نحو الرقى والرفاهية ، وبرغم ما حققه من أسباب التقدم العلمى والثقافى ، ولا يزال كثير منا يعتقد فى هذه الخرافة الزائفة ولا يعلم أنها دخلت مجتمعنا من الخارج •

واحتفالات الزار قريبة الشبه جدا بتلك الاحتفالات الدينية التى تقام فى القبائل البدائية لطرد الارواح الشريرة التى سبق أن أشرنا إليها •

وتنتشر بين أولئك الذين يؤمنون بهذه الخرافة أوهام بأن عقد الزار يجرى لتهدئة الارواح التى تعرف بعدة أسماء مثل « الزار » أو « الدستور » أو « الريح الاحمر » كما يعتقدون بأن من تملكه هذه الارواح تسيطر عليه ويخضع لها ، ويفعل كل ما تأمره به •

ويساعد على استمرار هذه المعتقدات بين الناس ما ينشره المشعوذون أو من ينتفعون من وراء عقد الزار من شائعات وأساطير خرافية تجعل الجهلة وضعاف النفوس فى حالة من البلبلة والاضطراب • ولذا سنحاول قبل أن نحلل هذه الظاهرة سرد بعض القصص حتى يتسنى للقارئ أن يدرك مدى الاثر السيكولوجى الذى قد تتركه هذه القصص فى نفوس الكثير من الناس تبعاً لاختلاف أمزجتهم •

على أننا نبغى من وراء سرد هذه القصص التى سيتبعها وصف لطقوس احتفالات الزار أن نوضح الاثر الفسيولوجى لهذه الطقوس ، وأن نربط بين هذه الاساليب وتلك المستخدمة فى عمليات التحويل الدينى والسياسى •

(١) كلمة الزار مشتقة من اللغة الامهرية ومعناها : الروح الشريرة ، وقد بدأ الزار فى

اثيوبيا ، ومنها الى السودان ، ثم جاء الى مصر من هناك •

ففى احدى القصص يقال : انه كان هناك عامل مسه « الريح الاحمر » لعدة سنوات مما جعله ينفق نقوده على المشعوذين ولكن حالته الصحية ازدادت سوءا ، واخيرا بدأت حماته تجزع لحالته الصحية وقررت ان تضرب له الزار باى ثمن ومهما بلغت التكاليف . فاقترضت بعض النقود كما رهنّت زوجته حليها واتصلتا « بالشيخة » او « الكودية » لتقوم بطقوس التهذنة اى « ضرب الزار » . وقد أجرى الحفل واستعاد الرجل صحته بسرعة ، واستطاع ان يقوم بالمزيد من العمل ، وأن يستعيد حل زوجته من المرابى الذى رهنّتها عنده ، وأن يسدد حماته ما هو مدين به لها .

وقرر العامل بعد ذلك ان يرحل الى مدينة أخرى حيث وجد فيها عملا افضل ، وتصادف فى اليوم السابق للرحيل أن جاءت الشيخة الى منزله وعرضت ان تحرق بعض البخور الذى يطلبه الـ « دستور » ولكن الرجل رفض هذا العرض فى عنف غير مهذب وأخذ يسب اسم الـ « دستور » .

وبعد أن ذهب الى مقره الجديد عاوده المرض ثانية ولم يستطع القيام بعمله ، وذات يوم ذهبت الشيخة الى منزل حماته وهى جازعة وقالت : أنها فى الليلة السابقة جاءها الـ « دستور » وأخبرها بأن زوج ابنتها سيموت لأنه سبه ورفض ان يحرق « البخور » ، وفى اليوم التالى جاءت برقية تنعى الرجل لاسرته .

والقصة الثانية تختص بفتاة تقدم للبناء بها رجل دفع مهرها واشترى أبوها الآثاث والثياب واعد كل شىء لاتمام الزواج ، وفى اليوم السابق للزواج بدأت الفتاة التى كان من المعروف ان بها مسا من « الريح الاحمر » تقوم بحركات تدل على الخبل والهوس ، اذ أن الـ « دستور » يعارض هذا الزواج ، وتعرضت الفتاة للاجهاذ والتعذيب من السادسة مساء حتى منتصف الليل .

وحار الابوان فى هذا الموقف ، وحاولا عبثا التفاهم مع « دستور » فالفتاة يجب ألا تتزوج من هذا الرجل والا فانها ستموت ، واخيرا وافق الابوان على ما يطلبه على شريطة ان يتولى هو اخطار الزوج بأنه لا يرضى عن زواج الفتاة منه .

ووافق الـ « دستور » مباشرة على هذا الحل ، وفي الصباح الباكر سمع الابوان طرقا عنيقا على الباب ، وعندما فتح الاب الباب دخل الزوج مدعورا وهو يقول : أنه لا يستطيع أن يتزوج الفتاة لان الـ « دستور » الذى يملكها عذبه طوال الليل آمرا اياه بأن يمتنع عن زواجها .

كما أن هناك قصة فتاة أخرى أصابها مس وتملكها « دستور » لمدة ثلاث سنوات ، ولم يكن يضايقها كثيرا ، وكانت بين حين وآخر تشتري بعض الثياب الجديدة والحقى التى يطالبها بشرائها وبارتدائها ، وكان أبوها على درجة من الثقافة ، فرفض أن يضرب لها الزار . وتصادف أن تقدم للفتاة رجل للزواج منها ، فوعدها بأنها بأن يهيبها لها فرصة لعقد الزار بعد اتمام الزفاف وذلك لانه بعد أن يتم زواجه سيرحل الى عمل للحكومة فى مكان بعيد .

وبعد أن تمت الاتفاقات الأولية على الزواج أصيبت الفتاة فجأة فى منتصف الشهر العربى اذ كان القمر بدرا بلوثة وراحت تعدو فى فناء المنزل وهى تصرخ كحيوان متوحش ، وأخذت تلقى بنفسها على الارض وتضرب رأسها بجدار الحائط .

وكانت الفتاة طويلة القامة نحيلة الجسم ومع هذا فان أربعة رجال لم يستطيعوا أن يحولوا بينها وبين ثورتها ، واضطروا الى غلق الباب لانها كانت تريد أن تجرى الى الطريق لتلقى بنفسها فى النهر .

وظن بعض الذين اجتمعوا على هذا المشهد أنهم يستطيعون تهدئتها بسكب المياه فوق رأسها فاقتادوها الى صنبور المياه وغمروها من قمة رأسها الى أخمص قدميها بالماء ولكن دون جدوى ، وكانت الفتاة تصرخ فى البداية صرخات عالية غير مفهومه ، ولكنها بعد وقت بدأت تنطق بصوت غريب متهجمة على أمها وعلى أبيها لرفضهما « ضرب الزار » .

وتجمع الجيران الذين جاءوا لرؤية هذه الضجة وحاولوا تهدئة « الريح »
وسألوه عما يطلبه فقال على لسان الفتاة : « أريد أن يعرفوا أنني غاضبة لأنهم
رفضوا ضرب الزار لي هذه السنوات الثلاثة » .

وكان الناس قد استطاعوا أن يرغموا الفتاة على الجلوس ، فجلست على
ركام من الاتربة والقاذورات وكانت كل ثيابها مبتلة بالماء فازدادت قذارة .
وكانت تدور برأسها يمناً ويسرة كالحيوان الجريح محاولة انتهاز فرصة لتسرع
الى النهر .

وعندما بلغ الاضطراب ذروته جاءت الشبيخة التي كانت تسكن في منزل
قريب وقد أقبلت في هدوء تسير الهوينى متدثرة في ثياب بيض ، وتحدث بصوت
خفيض ، وامسكت بيد الفتاة وهي تقول بصوتها الخافت الهادئ :

« لماذا هذا كله ألا تعرفيني أنا « حبيبتيك » جدتك ، أن هذا يضرك ثم
ما هذه القذارة يحسن أن تغري ثيابك وأن ترقدي في فراش نظيف » .

وهزت الفتاة رأسها يمناً ويسرة في خجل وهي تهمس « مغلش ..
مغلش انني آسفة ! » .

وتركت الفتاة الشبيخة تقودها الى داخل المنزل ثم رحلت الشبيخة الى منزلها
بعد أن أبدلت للفتاة ثيابها وأرقدتها في فراشها .

ووافقت الاسرة على ضرب الزار ، وفي الصباح استيقظت الفتاة من نومها
مجهدة وفي وجهها وجسمها بعض الكدمات ولكنها لم تكن تذكر أى شئ
مما مر بها .

* * *

والواقع أن للزار ارتباطا وثيقا بعملية غسيل المخ ، إذ أن الطقوس التي
تقام فيه كما سيأتى فيما بعد تصل بالمرضى الى درجة من الانهيار العصبى
الكامل بحيث يكون متقبلا لاي ايعاءات توحى به اليه .

على أنه لكي نستطيع أن نوضح الأثر السيكولوجي والفسولوجي لاحتفالات « ضرب الزار » نرى أنه من المناسب أن نصف طقوس هذه الاحتفالات .

والعادة أنه حينما تريد امرأة التأكد من أن بها مسا فانها تذهب الى الشيخة وتعطيها قطعة من ثيابها تكون قد ارتدتها كثيرا « الأثر » فاذا ما جاء الليل رقدت الشيخة بعد أن تضع قطعة الثياب تحت رأسها مع بعض الحلوى والسكر ، وتجيء السيدة المريضة الى الشيخة في المنام لتخبرها عن متاعبها وتكشف عن « الأسياذ » وعما يطلبونه منها ، وفي الصباح تذهب الشيخة الى منزل المريضة وتحرق البخور ويحل أحد « الأسياذ » في المريضة نياذة عن الباقي ، ثم يتحدث بلسان المريضة ليخبر الشيخة بما يريد الأسياذ .

وعندما تذهب الشيخة الى أى منزل لضرب الزار تصطحب « فتياتها » معها لمعاونتها ، وبرغم أن أجر الشيخة ليس كثيرا ، فان التكاليف الكثيرة للزار ترجع الى أثمان الماشية والطيور التى تذبح فى أثناء الحفل ، وكذا الى أثمان الحنوى والمشروبات ، ونفقات الطعام للشيخة ولاتباعها .

ولما كان « الزار » يقام لمجموعة من الأسياذ فان كلا منهم له مطالبه الخاصة من : الثياب ، والحلى ، وأغطية الوجه والرأس ، والعصى ، وملابس الرجال والنساء ، والحراى وما اليها وكل هذه الاشياء تتكلف الكثير . وقد تستجلى بعض هذه الاشياء أو قد تمنح ، ولكنها لا تعار ولا تقترض ، وكل ما تشتريه امرأة من أجل الزار لا تبيعه ولا يهدى ولا يوهب حتى تموت هذه المرأة ، بل انها تحتفظ بكل الاشياء معزولة عن باقى حاجاتها حتى ترتديها بأمر الشيخة ، والمرأة التى تهمل احضار الاشياء اللازمة لاسترضاء « الريح » تعنفها الشيخة ، ثم انها لا تعرف الراحة والهدوء نتيجة لما يقوم به « الأسياذ » .

* * *

وتبدأ احتفالات ضرب الزار بصورة متماثلة ، فعندما تصل الشيخة الى المنزل يبدأ اعداد الغرفة التى اختيرت للحفل ، فينقل كل ما فيها من اثاث ، ثم تمسح بالماء وتفرش بالحصى أو السجاد من الجدار الى الجدار . وتوضع فى جوار

الجدار « مرتبة » أو شلته تجلس عليها المريضة يحيط بها بعض صديقاتها المختارات اللاتي « ذبحن » من قبل وهو اصطلاح يطلق على النساء اللاتي عقد لهن الزار من قبل .

وتجلس الشیخة أمام المريضة تحيط بها معاوناتها والضاربات على الآلات الموسيقية . وفي تلك الليلة « تتحنى » المريضة وكأنها فى ليلة زفافها ، وتعطى كل الحاضرات النقود للشیخة داعيات للمريضة بالشفاء .

وفى اليوم التالى يبدأ الحفل « بفتح العلبة » وهى عبارة عن صندوق البخور^(١) الذى جاءت به الشیخة معها ، فتضع بعضا منه على النار .

وتأتى بالآلات الموسيقية التى تستخدم وهى عادة : طبل كبير مستدير ، والطار ، وطشت يقرع عليه بالعصى .

ولكل من « الأسیاد » ضربات مخصوصة على الطبل ، فتضبط الشیخة النغم والایقاع بادئة بالاسیاد الکبار ، ثم تهبط تدريجیا الى الصغار ، ثم تتوسل الى كل من هؤلاء الاسیاد لارتداء ثياب خاصة وتدخين السجائر ، وعند التوسل الى كل من هؤلاء الاسیاد تقوم النساء اللاتي أجرين عقد الزار من قبل بالرقص وهو عبارة عن اهتزازات وحشية عنيفة مع تحريك أذرعتهن حركات تشنجية ارتجاجية ، أما اللاتي لم يعقذن الزار لانفسهن من قبل فانهن يبقين جالسات ولا يسمح لهن بالرقص ويكتفين بأن يحركن أجسامهن يمنا ويسرة ، كما لا يسمح لهن بالجلوس على المراتب للموضوعة فى جوار الجدار والتي أعدت فقط للصفوة من المختارات اللاتي لهن سابق تجربة فى الزار .

وعادة لا يبدأ الرقص الذى تقوم به سيدة واحدة بمفردها الا بعد أن يستمر دق الطبول لوقت طويل ، ويتوقف ذلك على الصورة التى نزل بها « الدستور » عليها أى كيف تملكته الارواح .

(١) يتكون بخور الزار من : المسكاه ، والعود ، والجاوى ، والرحجر ، والكافور الطيار .

وقد تبقى بعض النساء جالسات هادئات وسط هذا الهرج الذي يجرى من حولهن ، ولكن أغلبهن يصبن بنوع من الغيوبة في أثناء الرقص فتلمع أعينهن وهي ثابتة في محاجرهما نحو اتجاه واحد ، فإذا ما وصلت دقات الطبول الخاصة « بالسيد » الذى ينزل فى أجسادهن الى نهايتها فانه يبدو على وجوههن نظرات حيرة وارتباك وتضع كل منهن يديها على وجهها وكأنها تريد أن تنزع شيئاً منه . وقد تتكرر هذه الحركة أكثر من مرة أثناء الرقص ، وأحياناً تحول أعينهن الى أعلى حتى تكون حدقتها البيضاء هي وحدها المرئية الواضحة .

وفى بعض الاحيان عندما تنتهى الغيوبة التى سببتها دقات الطبول تلقى الشيخة أو مساعدتها الخاصة بعض الرماد المتخلف فى مجمرة البخور على رؤوسهن وظهورهن .

والعادة أنه عندما يبدأ دق الطبول فى أول الحفل تحمل مساعدة الشيخة مجمرة البخور فى إحدى يديها بينما تحمل صندوق البخور باليد الأخرى ، ثم تنتقل بين النساء فتقدم المجرمة لكل سيدة لتمرر ذراعها وسط الدخان المتصاعد من المجرمة وتضع المجرمة أسفل ملابسها كما تضع قدميها على التتابع فوق رماد المجرمة وتضع كل من النساء شيئاً من النقود فى صندوق البخور .

ويستمر دق الطبول فى كل مرة من عشر الى خمس عشرة دقيقة يتخللها فترات للراحة ، وقد يقدم للمريضة الطعام أثناء فترات الراحة .

ويجب ألا يتخلل حفل الزاد أى شجار تشترك فيه المريضة والا انتقم « الدستور » لنفسه من المريضة وربما يقتلها .

ولكل « سيد » من هذه الاسياد « اسم » ، كما أن له دقات الطبول الخاصة به وكذا الثياب التى ترتدى لتمثيل شخصيته .

وفى اليوم الثانى يذبح الحيوان المقدم للصحية ، ويكون قد سبق أن دثر بنوب أبيض وأطلق فى فناء الدار . وتبدأ الشيخة بلق الطبل وترقص النسوة

حول الحيوان الذى يصاب هو نفسه بخبل ويحرك رأسه يمنة ويسرة. ومما يضحك أن تشترب الاسياد صفات خاصة فى الدبيحة كخروف أبيض على رأسه علامة حمراء ، أو ديك أحمر برأس أسود ، وفى نهاية الرقص تمسك الشيخة بطبق تضعه أسفل عنق الحيوان، ثم تمسك النسوة بأرجله، ويقوم الرجل بدبجه، ويجمع الدم ويرش فوق يدى المريضة وقدميها ورأسها ، وبعد أن تلوث المريضة بالدم تستطيع أن تقوم لترقص مع الراقصات عندما تنق الطبول ، كما تستطيع كذلك كل من الصفوة المختارات من النساء أن تضع قطرات من دم الحيوان الذبيح على جباههن ، وفى مقابل هذا فانها تضع فى الطبق الذى به الدم بعض النقود للشيخة.

ويوضع لحم الحيوان فى قدر كبير يغلى على النار ليوم كامل . وفى اليوم الثالث توضع الرأس والأطراف الأربعة فى طبق كبير يحمل الى الغرفة التى بها الزار ، وتقطع الشيخة الرأس وتعطى المريضة قطعة صغيرة من اللسان والمخ والاذن والرقبة ، وبعد ذلك يقدم اللحم لكل النساء اللاتى حضرن الزار ، ولكن يجب الاحتفاظ بكل قطع العظم لتأخذها الشيخة للاحتفاظ بها لفرصة أخرى بعد انتهاء « ضرب الزار » .

وقرب انتهاء الحفل تستدعى الشيخة كل النساء اللاتى سبق أن عقدن حفلات للزار ، فيجتمعن قرب جدار الغرفة مواجهات لبابها وتقف المريضة فى مقدمتهن ، وعندئذ تقف كل النسوة اللاتى يحضرن الحفل ويصطففن بجوار الجدران ، وتقف واحدة أو اثنتان من مساعدات الشيخة وقد حملتا الطبلبة الصغيرة المسطحة والطار ، وهنا تلتمس الشيخة حضور الشيخ عبد القادر الجيلانى والشيخ محمد لحضور الذكر وهنا تنحنى كل النسوة وكانهن يقمن بالذكر .

وفى النهاية تعطى المساعدة التى فى المقدمة اشارة بيدها الى المريضة التى تسرع بالخروج من الغرفة وتتبعها كل النسوة الباقيات وهن يقذفن بأيديهن الى أعلى رؤوسهن ، وبعد ذلك تعود المريضة الى غرفتها .

وتبقى المريضة بعد ذلك في منزلها لا تتركه لمدة سبعة أيام أو عشرة ،
ويجب ألا تتعرض لأي انفعالات محزنة كأن تذهب مثلاً إلى عزاء ، وإن كانت
تستطيع أن تحضر زاراً آخر أو تحضر حفلة زفاف .

على أن اجابة مطالب « الريح » أو « الدستور » من أهم مطالب الاحتفال ،
والأفانه حسب قواعد الزار يصبح عديم الفائدة ، بل قد تسوء حالة المريضة لعدم
اطاعتها أوامر الريح .

* * *

والواقع أن الذين يعتقدون في الزار ، مصابون بأعراض نفسية أو عقلية
وتحت تأثير عائلاتهم أو جهلة يؤمنون بالخرافات . فالزار ليس إلا وسيلة من
الوسائل التي تساعد على التفرغ الانفعالي للمريض ، حيث تساعد : أصوات
الطبول الصاخبة ، ورقصات المرضى العنيفة ، ورائحة البخور الأخاذة - وشكل
دم الذبيحة - على أحداث حالة من الانهيار تعقبها غيبوبة للمريض وهي شبيهة
بتلك التي تحدثها الصدمات الكهربائية في علاج مرضى الطب النفسي .

وقد سبق أن بينا أنه بزيادة طول فترات التوتر على الإنسان تحدث له في
النهاية حالة من الانهيار العصبي وتوقف كامل لوظائف المخ حيث يصبح الإنسان
لا يستطيع أن يتحكم في تفكيره وتزداد قابلية الإيحاء عنده ، والطقوس التي تقام
في احتفالات الزار التي سبق أن شرحناها تصل بالمريض في النهاية إلى تلك الحالة .

على أن علاج المرضى الذين أصابهم مس عن طريق اشاعة الفوضى في
الوظائف الطبيعية في المخ بواسطة الهجوم عليه بأنغام صوتية متوافقة قوية
تليها أخرى بتوقيت مختلف معروفة في جهات كثيرة من العالم وخاصة في
القبائل البدائية .

وتصف « مادياردين » في كتاب Livine Horsemen تفصيلياً الآثار
الفسولوجية والسيكولوجية لدقات الطبول على عقلها ، فكانت قد سافرت

الى جزيرة تاهيتى بمنحة دراسية ولتصوير الرقص التاهيتى فى فيلم سينمائى ،
فانتهى بها الامر الى سيطرة « أرزولى » Erzulie اله الحب عليها ، وهى تقول ان
الطبول أحدثت فيها تدريجيا حركات بدنية لا يمكن السيطرة عليها ، وفى النهاية
شعرت بان شيئا يسيطر عليها ويتحكم فيها . وفى شرحها لهذه الحالة تقول :

« ان جمجمتى كالطبله ، وفى كل دقة كبيرة أحس شيئا مثل سن العصا
ينق ساقى الى الارض ، وملا الفناء سامعى داخل رأسى . . سمىزقنى هذا
الصوت لماذا لا يتوقفون ؟ اننى لا أستطيع تحريك ساقى بحرية . . لقد وقعت
فى الفخ ولم يعد لى مخرج منه . ان قوة غريبة تسرى فى عروق ساقى كالماء
العاتى ولا أستطيع ان أتحملها ، ومن المؤكد أنها ستجعل جلدى ينفجر . وأصرخ
من أعماق نفسى . . الرحمة فاسمع صدى كلمة Erzulie يتردد من أصواتهم
وصراخهم فتميد بى الارض ، وآتهاوى وهذا هو كل شيء » .

ثم تحاول أن تنقل بعض المشاعر والانطباعات الغريبة التى استولت عليها
أثناء رقصتها وهى فى غيبوبة حول أعمدة دار اجتماعات طائفة الفودو فتقول :

« اذا كانت الارض سماء فان الهاوية تحت الارض تكون لها سماواتها
بالمثل ، ان الفرق بينهما لا يزيد على فرق زمنى وهو الزمن الذى تدور فيه الارض
دورتها » .

وحينما أفادت مادياذين من غيبوبتها استمتعت بمشاعر البعث الروحي
وتصف هذه الحالة بقولها :

« كم تبدو الدنيا صافية عند أول ضوء شامل ، وكم تبدو فى شكلها هى
خلوا من أى ظل من ظلال المعانى . . فى هذه اللحظة وكما فعلت أرواح الموتى
فعلت أنا بالمثل اذ عدت الى نفسى » .

وقد استخدم اليونانيون القدماء أيضا الرقص الدينى كعلاج شاف
للأمراض العصبية ، وكانت طقوسهم المحبوبة تتكون من الرقص بشكل مبالغ
فيه على نغمات الزار ودقات الطبول حتى ينهار الراقصون والراقصات من الاعياء .

ويبدو أن الكثيرين ممن يستخدمون نفس هذا الأسلوب لشفاء المرضى الذين
مستهم الأرواح يحاولون أن يفسروا ذلك مع أضفاء شروح وتفسيرات علمية
مختلفة .

فيصف دى براجنو في كتابه «A Cure for Serpant» علاج فتاة أوروبية
في طرابلس كانت تعاني من الاكتئاب بقوله :

« قيل ان ضفدعة ضخمة أرجلها مخضبة بالحناء تحتوى على الجنى أو الروح
الشرييرة هي التي منحت شافى الامراض القدرة على الشفاء دون دواء أو بواسطة
اثارة التشنجات العضلية في المرضى . ولقد تطلبت الطريقة أن ترقص الفتاة
المنقبضة حتى تصاب بلوثة ، وتستمر في ذلك لساعات طويلة تصاحبها الدفوف
والاناشيد المتوافقة النغم ، واستثارة متزايدة حتى ينساب فيض من الزبد والعرق
من جانبي قمها ، وفي النهاية تطلق المريضة صرخة مدوية وتسقط على الأرض
فتخلع ملابسها ، ويقذف بها في الماء لعدة مرات .

« وبدأت الفتاة في عريها كما لو كانت قد قلدت من العاج ، وهي معلقة بين
سواعد الزنجيات اللاتي كن يحملنها الى الحوض ، وعندما شاهدت الفتاة ثانية
كانت متدثرة ببطانية وقد تغيرت تماما ، اذ ابتسمت في وداعة واتجهت بعينيها
الى السماء ، وتلقت تهاني صديقاتها وهي باسمه ، ثم صحبها اصداؤها الى اقلام
الساحر الذي كان يقف صامتا كالتماثيل طوال هذه العملية لا يحرك ساكنا
الا حينما تحرك لياخذ الضفدعة المخضبة بالحناء ليضعها في حجره . »

ويقارن دى براجنو بين هذا الأسلوب وبين استخدام الصدمات الكهربائية
لاحداث تشنجات وهزات في المرضى بقوله :

« يبدو أن العلاج باستخدام الصدمات الكهربائية لاحداث تشنجات وهزات
في المرضى العصبيين بالاكتئاب ينتمى هو الآخر الى هذا النوع من العلاج
الфизиولوجى ؛ فالمخ يستثار هنا كهربيا للحد الذى يحدث تشنجا ويستمر هذا
التشنج حتى يصير المخ في حالة توقف كامل ينتهى به الى غيبوبة مؤقتة ، ولذا
فليس من المستغرب بعد ذلك أن نرى تلك الآثار الهائلة في علاج مرضى الاكتئاب

بالصدمة الكهربائية ثم لا تشبهها بتلك التي تحدث بالأساليب الدينية على الرغم من جميع النظريات الفلسفية والميتافيزيقية المعقدة التي تبررها » .

ولكن هناك ظاهرة رئيسية في مرضى الاكتئاب وهي عدم استجابتهم بالمرّة للجدل العقل أو العزاء الروحي ؛ لأن أنفعالات المريض تكون مستمرة سواء كان ما يحيط به سارا أو حزنا ، فتستمر حالته النفسية حتى تزول عنه غمة الكتابة ، وأحيانا تكون النوبات على فترات يفصل بينها لحظات من السلوك الطبيعي والسلوك الشاذ ، أو قد تكون الحالة مزمنة فتستمر لسنوات .

ولذا يرى سارجنت أن استخدام وسيلة فسيولوجية يسيرة للعلاج بالصدمة الكهربائية هي الوسيلة الفعالة لعلاج هذه الحالات . . . ويقول في ذلك :

« أن استخدام وسيلة فسيولوجية عادية عن طريق العلاج بالصدمة الكهربائية تشفى كثيرا من المرضى الذين يعجز أكثر رجال الدين قداسة عن عمل أى شيء من أجلهم ، ويتم شفاء هؤلاء المرضى في فترة ثلاثة أو أربعة أسابيع بدلا من أن يموتوا كما كان يحدث أحيانا نتيجة الانهالك الناجم عن العذاب الدائم من الندم والاحساس بالذنب . »

وقد لا يحتاج الامر اطلاقا الى علاج نفسى للقضاء على النوبة ، ويبدو العلاج ناجحا فعلا ، ويحدث هذا بالمثل بالنسبة للمصاب بالامراض العقلية تحت تأثير المخدر وهو فاقد الوعي تماما لا يحس شيئا على الرغم من أنه لا يزال من الضروري أن يمر بنوبة عصبية لكي يصل الى نتيجة طبية . ومن المهم أيضا أن نلاحظ في الأنواع الأخرى للأمراض العصبية كما في حالة القلق والنورستانيا الحادة أن هذا العلاج القوي قد يصل بالمريض الى حالة أسوأ ، وهذا يقودنا الى أن الانماط المختلفة بسلوك العقل الشاذ كثيرا ما تحتاج الى أساليب مختلفة في علاجها » .

ومن ثم فنحن نرى أن معتقدات الزار كلها أوهام باطلة ، وهي تشبه الى حد كبير تلك الاحتفالات الدينية التي تقام في المجتمعات البدائية الوثنية ، كما أنها نوع من أساليب غسيل المخ التي تؤثر تأثيرا بالغا في حياة الإنسان الاجتماعية .

هذا وبالإضافة الى ما تنكفه تلك الاحتفالات التي ترهق المريض وأسرته ،
فإن هذه الطقوس قد تنهك المريض وتزيد حالته سوءا وقد تؤدي بحياته نتيجة
الانهيار الذي يحدث له من عنف جو الاحتفال •

ولقد أشرنا من قبل الى كيف كان يتساقط المرضى المحمومون في حلقات
الرقص التي كانت تقام في أوروبا في القرنين الرابع عشر والسابع عشر للوقاية
من مرض الطاعون ، كما سبق أن أشرنا الى أن علاج الامراض العقلية والنفسية
يختلف من شخص لآخر تبعاً : لدرجة مرضهم ، وأنماط سلوكهم ، وامتزجتهم •

ولذا فإن الأساليب الطبية هي الوسيلة الوحيدة الناجحة لشفاء مرضى
العقول والامراض النفسية • وإن كانت هذه الطقوس التي تجرى في احتفالات
الزار توهم المريض بأنه شفى ، إلا أن حقيقة ما يحدث أنه حدث له تفريغ انفعالي
مؤقت نتيجة جو الاحتفال ، ولكن سرعان ما يعاوده المرض ثانية بل قد يكون أكثر
قسوة •

على أنه من جهة أخرى فإن الزار أحد المظاهر التي تدل على تأخر المجتمع :
فمعتقداته الخرافية التي يؤمن بها جمع من الناس بعيدة كل البعد عما تنادى به
الرسالات السماوية ، وتتناهى كلية مع ما يهديه العلم الحديث للبشرية من وسائل
تعمل على اسعاده ، وتبعده عن خرافات الماضي السقيمة •

وخلاصة القول أن احتفالات الزار ما هي إلا معركة ضد العقل البشري ،
وهجوم على وظائف مخ الانسان ، وهي في الواقع لا تختلف قط عن وسائل
عمليات غسيل المخ التي تستخدم في الدين والسياسة •

الادمان على المخدرات :

عرف الانسان منذ أقدم الحضارات سر تأثير أنواع كثيرة من المخدرات على
عقلية البشر وسلوكهم ، فيقال أن نساء طيبة استخدمن نوعا من العقار كان يبعث
فيهن النشوة والسرور ويبعد عنهن الهم والقلق • كما استخدم الحشيش في

الهند قديما فى الطقوس الدينية ضمن الاناشيد والصلوات التى كانت توجه للآلهة ، وتروى بعض الاساطير الهندية أن الحشيش كان أحب شراب لكبير الآلهة الذى أسبغ شفقتة ورحمته على مخلوقاته فبعث بالحشيش الى أهل الارض ليبعد عنهم الهموم والاحزان ، ويمتعهم بمباهج الحياة ، ويقيهم شر القلق والخوف .

والواقع أن السحرة وكهنة المعابد استخدموا عبر التاريخ أنواعا من المخدرات للتأثير بها على معتقدات الناس وغرس أنماط معينة من السلوك تتمشى مع رغباتهم ، وحافظوا على أسرار هذا الصنيع وأخلدوا يتوارثونه جيلا بعد جيل حتى شاعت بين جميع الطبقات والامم التمدينه منها والهمجية .

ولقد سبق أن أشرنا فى الفصل الرابع الى أن طائفة الاسماعيلية استخدمت الحشيش كوسيلة من وسائل التأثير على معتقدات الناس ، كما أوضحنا كيف نجحت هذه الوسيلة فى تحويل كثير من الناس نحو الايمان بعقيدة هذه الطائفة مستغلة الأثر الفسيولوجى الذى كان يحدثه الحشيش فى أمخاخمهم ، كما رأينا كيف نجحت هذه الوسيلة فى تحويل كثير من الفتيان النجباء الى قتلة سفاكين يحركون كالة لتحقيق مآرب سياسية .

وهذه الوسيلة لا تختلف كثيرا عما قامت به أسرة حميد الدين فى اليمن بتشجيع زراعة القات ونشر استخدامه بين الناس لتخمد فيهم جذوة التحرر ، ولتهدر انسانيتهنم بغية تحقيق السيطرة السياسية .

ومن ثم فإن المخدرات تعتبر من الاسلحة الفتاكة التى توجه ضد العقل البشرى لشل ارادته الحرة ، والتأثير على معتقداته فهى تنقض على مخ الإنسان وتشل وظائفه فيصعب الانسان أكثر تقبلا لأى ايجاعات جديدة تفرض فيه (١) .

(١) يوجد فارق بين العادة والادمان ، فالادمان يعنى حالة من الاعتماد الجسمى والنفسى على المخدر ، وفى حالة توقف المخدر تحدث اعراض جسمية مؤلمة ، كذلك زيادة الجرعة تدريجيا مع تدهور بطنى فى السلوك والشخصية ، أما العادة فهى الحد نفس الجرعة دون ظهور أى اعراض عند توقف المخدر .

ان استخدام المخدرات والادمان عليها لا يختلف كثيرا عن تلك الاساليب التي تستخدم في القضاء على أنماط سلوك الانسان التي تعودها والايعاء اليه بمعتقدات جديدة ، وبمعنى أوسع نوع من عمليات غسيل المخ .

على انه مما يزيد خطورة هذه المشكلة في مجتمعنا أن الاستعمار ورييسته اسرائيل قد فطنا الى الآثار الفتاكة التي تسببها المخدرات فعلا على ترويجها ، وساعدا على تهريبها داخل البلاد لتقضى على معنويات الشعب ، وتبث فيه عوامل الانحلال الخلقي والاجتماعي ، وتفرس فيه الضعف والاستسلام ، وتلهيه عن الجد والانتاج .

فلقد شجع الانجليز ايام احتلالهم لمصر زراعة الخشخاش ، وكل منا يذكر « أبو النوم » الذي كانت الامهات تعطيه لاطفالها حينما يكون فلا يلبث الطفل أن يسكت بل يضحك ثم ينام ، ولم تكن كل أم تدري أنها تعطي ولدها الافيون .

وعاش الفلاحون في ظل الرجعية والاقطاع والاستعمار يعانون القلق واليأس ، فلهجوا الى الحشيش يجدون فيه مفرًا من الواقع الاليم ، ووجد الاستعمار والاقطاع الفرصة في الحشيش لتخدير الفلاح المسكين وابعاده عن التفكير في حقوقه الشخصية والقومية . فتعاونوا على نشره بين الناس .

وحينما منعت مصر زراعة المخدرات بعد ذلك . ظهرت طبقة من المولدين الاقطاعيين الذين تجرّى في أيديهم النقود بلا حساب ، ولا تحمل ضمائرهم أي وازع وطني ، فتعاونت مع أعداء الوطن على تهريبها ونشرها داخل أرض الوطن .

ولذا فإن دراسة هذه المشكلة تعتبر من أهم الموضوعات الحيوية التي تجذب انتباه كل مجتمع متقدم حتى يستطيع أن يقى أبنائه آفة هذه السموم الفتاكة .

* * *

وفي هذا الجزء من الدراسة لن نتعرض لمسائل كثيرة من هذه المشكلة وغيرها مثل النواحي التاريخية أو التشريعية أو آثارها العلاجية وغيرها أو طرق المكافحة إذ أنها ليست موضوع دراستنا ، كما أن الكثيرين قد عالجوها في كتب

كثيرة • ولكن ما يهمنا في الواقع أن نتبين الآثار الفسيولوجية التي تحدثها المخدرات في مخ الانسان ، وكذا الآثار المترتبة على ذلك من ناحية التغيير في أنماط السلوك ، والاستعداد لتقبل أى إيهاءات جديدة قد تفرض عليه •

والحق أن تأثير المخدرات على الانسان يمكن أن نشبهه بتلك المثيرات التي تنفض على المخ فتحدث اضطرابا في وظائفه ، وكلما ازدادت شدة الاستئارة بزيادة الكمية التي يتعاطاها الانسان فإن المخ يصل الى تلك الدرجة من « التوقف الكامل » التي سبق أن أشرنا إليها ، ويصبح الفرد في تلك الحالة سهل التقبل لأى إيهاءات تفرض عليه •

وعلى الرغم من أن الآثار العرضية التي تتركها أنواع المخدرات في نفسية من يتعاطاها تختلف حسب نوع المخدر ، وطبيعة الفرد ، فإن جميعها اذا ما أدمت عليها الفرد فانها تصل به في النهاية الى حالة من الانهيار الكامل وتقف وظائف المخ •

وقبل أن نحاول الربط بين تلك الآثار الفسيولوجية وميكانيكية التحول المذهبى سوف نحاول أن نعطى للقارئ فكرة مبسطة عن التغيير الفسيولوجى الذى تحدثه بعض المخدرات التي تعرف في مجتمعنا في جسم الانسان •

فتعاطى الحشيش سواء بالتدخين أو عن طريق الفم يؤثر تأثيرا مباشرا على مخ الانسان ، اذ ينقص على الجهاز العصبى المركزى ويحدث اضطرابا في وظائف المخ وخاصة تلك المتعلقة بالاحساس والعاطفة •

وقد سبق أن بينا أن الناس تختلف في تكوينها الجسمانى وأمزجتها المختلفة ، ولذا فإن تأثير الحشيش يختلف اختلافا كبيرا باختلاف حالة الشخص الجسمانية والنفسية • فبينما يشعر بعض الأشخاص باحاساس سطحية محدودة عند تعاطيه نرى الآخرين ينتابهم مجموعة من الأعراض الانفعالية والنفسية يمكن أن نلخص أهمها في الآتى :

- ♦ النشوة التي تتفاوت بين الغم والفرح وذلك تبعا لطبيعة الشخص .
- ♦ تخدير أعصاب الحس والحركة التي تتطور بازدياد الجرعة الى نوبات تشنجية وتقلصات عضلية .
- ♦ ازدياد سرعة النبض ، وانخفاض ضغط الدم قليلا ، وانتهاء النشوة عادة بالنعاس والراحة .
- ♦ ارهاق الاحساس مما قد يجعل الفرد يتوهم تضخم المحسوسات .
- ♦ نقصان السكر في الدم ، وذرف الدموع نتيجة تخدير مراكز الجهاز العصبي العليا .

وبازدياد شدة هذه الأعراض نتيجة استمرار التعاطي ، فان المخ يتعرض لتوترات تفوق قدرته على التحمل ، وينشأ عن ذلك مؤقتا حالة توقف كامل بحيث يصبح الانسان مستعدا لتقبل أى ايحاءات .

واذا ما وصل متعاطى الحشيش الى تلك الدرجة ، فانه يفقد قدرته على تمييز الأشخاص أو الأشياء القريبة ، وكذا على تقدير الزمن والمسافات ، وتبدأ رغباته التي سبق أن كبنت في الظهور ، وهذه الأعراض هامة جدا لأن أثرها الفسيولوجي له علاقة وثيقة بعمليات التحول الديني والسياسي ، اذ تجعل الانسان وهو في هذه الحالة ينقض سلوكه السابق ولو مؤقتا ، ويتقبل انماطا جديدة من السلوك .

ونظرا لأن المتعاطي يتوقع الشعور بعلم المبالة ، فان هذا يفسر أنواع السلوك غير العادية التي يسلكها الفرد أثناء تعاطيه الحشيش ، ويزداد اضطراب وظائف المخ كلما ازدادت الكمية المتعاطاة ، وينتج عن ذلك أن يزداد التشويش العقل للفرد تدريجيا ، ويميل الى الهدوء ، ويشعر شعورا سارا بالاسترخاء العقل والجسماني . ويرغب في جو هادئ يخلو من أى ازعاج .

كما تستولى عليه حالة من الركود والهدوء التام ، فيترك لأفكاره العنان فتتلاحق الأحلام التي لا تنتهى ، وتدور الرؤيا حول المسائل والمغامرات الجنسية،

وقد يتغير شكل المراثيات في نظريه فيتخيلها أجمل وأكثر بهاء مما هي عليه •
ويعقب هذا نوم عميق يتراوح بين ساعة وست ساعات أو أكثر ، وحينما
يستيقظ تتلاشى كل المشاعر التي كان يحسها •

ومهما يكن من شيء فإن الادمان على الحشيش يؤثر تأثيرا بالغا على سلوك
الانسان ، وغالبا ما يؤدي به الى حالة من حالات الجنون ، ولقد قسم الدكتور
وارتوك جنون الحشيش عدة اقسام أهمها الآتي :

♦ الهذيان المصحوب بأوهام •

♦ انسطار وقتى وأعراضه الترنج كما هو الحال فى الكحول ، واحلام
لطيفة كما فى حالة الأفيون •

♦ الجنون الحاد ويصعبه الشعور بالعظمة •

♦ العته المزمن ويصعبه فقدان الذاكرة وسوء الخلق ، وفى هذه الحالة
يكون المدمن قد حدث له انهيار عقلى نتيجة تلف ألياف المخ •

* * *

أما الآثار الفسيولوجية التي يسببها الادمان على الأفيون فهي النحافة
والضعف الجسماني الظاهر والاضمحلال ، كما يفقد المدمن ارادته ويصبح سريع
التأثر قريب الغضب ، شديد الحساسية للألم ، وتدهور أعصابه حتى أنه غالبا
ما يصل فى النهاية الى مرحلة الانتحار •

واذا حاول المدمن الاقلاع عن تعاطى الأفيون فإنه يصاب بضعف وآلام
شديدة فى كل أعضائه ، وبرودة الأطراف مما يجعله يحاول أن يسعى الى جرعة
أخرى من الأفيون •

ويمكن القول أن الأثر المترتب على ادمان الأفيون هو اضعاف الشعور بالقيم،
وهذا النكوص الأخلاقي والاجتماعي يعزى الى الأثر المباشر للمخدر ، اذ يصبح
المدمن بعيدا كلية عن الحقيقة ، حاد الطبع ، كما تضطرب وظائف المخ وتقل قدرته
العقلية ، ويصبح المدمن منطويا منعزلا عزوفا عن الاختلاط ، غير مستقر انفعاليا .

وغالبا ما نجد الممن يلجأ لآى وسيلة للحصول على المخدر لتفادى الآلام الشديدة ، وهنا يكمن وجه الخطورة ، لأنه يكون فى هذه الحالة مستعدا لأن يسلك أى مسلك إجرامى ، أو يتقبل أى إحتياجات تفرض عليه •

ونود أن نشير هنا الى قصة الأفيون بالصين التى لا تزال عالقة فى أذهان هذا الجيل ، فقد استطاع الاستعمار أن يسيطر على أبناء الصين بلشر الأفيون بين ربوع البلاد ، وكلنا نعرف كيف كانت حالة الصين فى تلك الأيام من تأخر وتدهور وانحلال • ولكن ما أن قامت الثورة الشيوعية بالصين حتى استطاعت أن تقضى على هذا الوباء الفتاك ، فقد أيقنت مبكرا بأن هذه السموم كانت معولا من معاول الهدم الفكرى والانتاجى • أن الفرق بين الصين قبل الثورة وبعدها يؤكد هذا الرأى ، وان تجربة الصين فى حرب الأفيون لهى فى الواقع تجربة ناجحة جديرة بالدراسة والبحث •

* * *

أما المورفين وهو من مشتقات الأفيون ، فان ملمنيه غالبا من الاشخاص الذين تتملكهم الرغبة فى حب الظهور ، والذين يميلون الى جلب انتباه الآخرين . وهذا الطراز مهياً للأمراض الهستيرية ، فغالبا ما يكونون غير مستقرين ، ولا يستطيعون التكيف مع البيئة ، فاذا كانوا من أصحاب المزاج «الشديد الاثارة» فانهم يعملون الى موازنة نقص كفايتهم بالبحث عن مشير فى المورفين ، وهم يجدون فى الادمان على المورفين تغييرا للجو والبيئة المحيطين بهم فيما يصاحبهم من أحلام اليقظة والمشاعر السارة •

أما اذا كان الممن من أصحاب الأمزجة الأخرى التى سبق أن أشرنا إليها فى الفصل الثانى ؛ فان الادمان فى هذه الحالة قد يكون معبرا عن الهرب من المشكلة التى غالبا ما تكمن فى عدم التكافؤ الجنسى الصحيح ، أو الشذوذ الجنسى •

والهروين أحد مستحضرات المورفين التى تؤخذ بطريق الحقن تحت الجلد ، ألا أن تأثيره أكثر شدة من المورفين ، فهو يؤثر تأثيرا بالغا على المخ ومجموع الجهاز العصبى ، ويؤدى الادمان عليه الى اضمحلال جسمانى وعقلى كبير ، بل يسبب خللا وظيفيا فى جميع أعضاء الجسم •

ومن أهم هذه الآثار الضارة اضطراب وظائف الكبد ، اذ يصاب بتلف الخلايا وتحللها ، كما أن للهيروين تأثيرا مهيجا على عضلات الامعاء ، مما ينتج عنه الامساك المستعصى ، وغالبا ما يحتقن الطحال ، ويقل البول ، ويصاب القلب بالتشنج والتضخم .

وممنو الهيروين أكثر المرضى قابلية للأمراض الصدرية، واختلال التوازن الطبيعى لافرازات الغدد التى يكون لها تأثير كبير على تغيير شخصية المدمن .

* * *

ومتعاطى الكوكايين يحدث له نوع من الاستثارة التى تحدث اضطرابا فى وظائف مخه ، فيتوهم أنه يحس الارتياح ، ويتخيل بعض التصورات السعيدة ، ولكن يعقب ذلك نتيجة ازدياد الجرعة أن يزداد اضطراب وظائف المخ فيحس تأثيرات عكسية ، اذ يشعر باسترخاء واكتئاب وخمول . ويصحب ذلك اتساع الحدقة مع رجفة يسيرة ، فاذا ما ازدادت الكمية فانها قد تصل بمخ الانسان الى أن يتوقف توقفا كاملا ويحدث له حالة من الانهيار التام .

وفى حالة الادمان المزمن يظهر على المدمن كثير من التغيرات التى تحدث حينما يتعرض المخ لتوترات وصراعات تزيد على قدرته ، اذ تضعف الذاكرة ، وتنتاب المدمن نوبات من القلق غالبا ما تؤدى به الى حالة من حالات النورستانيا ، ويكون فى شبه حلم مصحوب بتخيلات أقرب الى الرسوم السينمائية المتحركة .

ويستعمل الكوكايين عادة للاستثارة الجنسية ، فيحدث فى الرجال زيادة مؤقتة فى القوة الحيوية مع ضعف فى الانتصاب ، أما فى النساء فهو يستثيرهن بدنيا وذهنيا .

ويلجأ متعاطوه الى اتباع وسائل جنسية شاذة حتى يحصلوا على الاشباع الكافى ، وحينما يتعاطى المسمنون الكوكايين يعملون على استثارة بعضهم البعض برواية قصص مختلفة عن الحرافات ، أو الممارسة الجنسية ، ولا سيما الشنوذ الجنسى .

وغالباً ما يجتلب الكوكايين الأشخاص ذوى السمعة السيئة مثل : رؤساء العصابات ، والمجرمين ، والعاهرات ، ونسبة كبيرة من الذين يتعاطونه من الشباب فى سن بين السادسة عشرة والثانية والعشرين ، وهؤلاء يسهل التفرير بهم ، ويدفعهم الفضول وحب المغامرة والدافع الجنسى فى مرحلة المراهقة المتأخرة الى الانضمام الى مثل هذه الجماعات •

ويستغل رؤساء العصابات الأثر الفسيولوجى الذى يسببه الكوكايين للسيطرة على أفراد العصابة لتحقيق أساليبهم الاجرامية ، اذ يقومون باغراء الأفراد التابعين لهم بالتعود على الكوكايين حتى يصل الى درجة الادمان التى تجعله فى النهاية آلة تتحرك فى اى اتجاه يريد رئيس العصابة •

ويمكننا الآن ان نقول : ان الفرد فى حالة الادمان على المخدرات لا تنمو فيه فقط الرغبة فى تعاطي المخدر ، بل يتولد فيه نوع من الاشتهااء الجنونى له نتيجة التغيرات الفسيولوجية التى يحدثها المخدر فى جسم المدمن لاستخدامه لمدة طويلة ، اذ ان المدمن يحاول دائماً ان يزيد تدريجياً من الكمية المتعاطاة حتى يصل على الاشباع الكامل •

واذا منع المدمن فجأة من تعاطي المخدر ، فان ذلك يؤدى الى اعراض فسيولوجية ملحوظة مثل : القلق ، او الاكتئاب ، او الانفعال ، ويتوقف ذلك على طبيعة المدمن •

وقد اختلف الباحثون فى تفسير ظهور الأعراض المرضية على المدمن اذا حرم من المخدر ، فبعضهم يرى ان استمرار تعاطي المخدر يكون فى الجسم مادة لها وظيفتها الخاصة لتعادل المادة المخدرة التى يتناولها المدمن ، وهذه المادة سامة جداً فاذا لم يتعاط المدمن جرعة من المخدر ظهر أثر هذه المادة السامة فى شكل اعراض الحرمان التى تزول بتعاطي الجرعة • ولكن البعض يعارض هذا الرأى اذ يرى أن أعراض الحرمان ترجع الى أن الخلايا العصبية بعد التخدير الطويل تصبح حساسة جداً عند يقظتها ثانية ، ولهذا تكون الجرعة التالية ضرورية لكى تهدأ هذه الحالة ، كما أن هناك رأياً ثالثاً وهو احتمال حدوث تغيرات من النوع الانحلالي فى خلايا أعصاب المخ تنتج تأثيرات عقلية وجسمانية خاصة •

شأن ختابة

ان جعل مخ الشخص العادى ينهار تحت وطأة التوترات التى تفوق
حد التحمل ، ومحو الأفكار القديمة ، والأنماط السلوكية ، وزرع أفكار
جديدة فى مخ الانسان يعتبر أمرا واحدا ، ولكن الأمر المختلف عليه هو
جعل هذه الآراء الجديدة تتخذ لها جنورا ثابتة راسخة •

فكل مدرب من مدربي الحيوانات ، وكل مدرس من مدرسي المدارس
يعرف هذا جيدا ، فهو يعرف كيف ينفر من آثار اجازة صيفية طويلة
على تلاميذه النجباء ، الا أنه من الجائز أن ينسى : رجال الدين ، أو رجال
المنظمات السياسية هذه الأمور •

ولقد كان من بين المكتشفات البارزة التى وصل اليها فى السنوات
الأخيرة علماء علم النفس وطب الأمراض العقلية أنه من الأسهل تغيير
اتجاهات مجموعة صغيرة من الناس وميولهم - ما لم تكن هذه الاتجاهات
والميول على درجة كبيرة من الشلوذ - بأكثر مما يتييس تغيير اتجاهات
شخص واحد وميوله •

ولقد استطاع عالم النفس الاجتماعي الأمريكي ثراشر Thrasher في دراسته لعصابات المنحرفين أن يوضح بأن مثل هذه العصابات تعطي : للفتى المراهق ، أو للفتاة المراهقة - ارتباطا اجتماعيا هاما ، كما أنها تمنح كلا منهما وضعاً معيناً يتردد في النزول عنه ، ولهذا فإن أفضل طريقة للتعامل معهم ليست بأن يعالج كل فرد منهم وحده على حدة ، بل جعل رؤساء هذه العصابات وقادتها يحولون انتباههم الى وسائل أكثر تقبلاً اجتماعياً لارضاء هذه الاحتياجات والمطالب ، وعندما يتم تحول الرؤساء يتحول معهم كل فرد آخر .

وسبب هذا . . . وسبب الكثير من الأمثلة الأخرى لعمليات تغيير الميول والاتجاهات أن اتجاهات الشخص ليست دائماً شيئاً مغلقاً في داخله ، ولا هي كذلك بسجاياء وصفات من بناء شخصيته ، بل أنها الأداء المظهري لعموره داخل جماعة معينة أو سلسلة من الجماعات .

ولما كانت إحدى وظائف العقل هي أن يمكن التركيب العضوي من أن يتكيف مع بيئة متغيرة فأننا لسنا في حاجة لأن نفهم أن الناس الطبيعيين الأكثر استقراراً ليسوا هم فقط الأكثر قابلية لاستيعاب الاتجاهات السارية في الوسط الاجتماعي الذي يعيشون فيه ، بل أنهم كذلك أكثر قابلية لأن يهجروا هذه الميول والاتجاهات الى غيرها اذا ما تغير الوسط الاجتماعي الذي يحيط بهم .

* * *

لقد سبق أن شرحنا في الجزء الأول من هذا الكتاب العوامل الرئيسية التي تؤثر على سلوك الانسان ، وذكرنا أن هناك كثيراً من العوامل الخارجية

والداخلية التي تلعب دورا أساسيا في تشكيل الانسان وتفكيره • وقد يكون من المناسب هنا أن نشير الى بعض العوامل الخارجية التي كان لها أثرا كبيرا على فكر الانسان •

لقد كانت الأحوال الاقتصادية في بريطانيا في القرن التاسع عشر هي التي اجتذبت انتباه داروين الى فكرة « أن البقاء للأصلح » في المجال البيولوجي ، كما أن الأحوال الاجتماعية في هذا العصر الذي نعيش فيه قد جعلتنا ندرك أهمية العوامل الاجتماعية والثقافية في « صب قالب » الانسان •

لقد جعلت الثورة الصناعية الفلاسفة وعلماء علم النفس يفكرون في الانسان على أنه الى حد بعيد « تكوين مصنوع من قبل » يخرج جاهزا من « الرحم » ، وانهم بذلك قد قللوا من الاهمية التي للطبيعة الاجتماعية ، ونظر هؤلاء العلماء الى « الرجل » على أنه جزيرة بيولوجية ، فكانت فكرة « أن الانسان صنع نفسه » أسطورة تتوافق مع ذلك العصر •

وكانت هذه أسطورة كاذبة زائفة ذلك لأن كثيرا من الناس فضلا عن الطبيعة التي يرثها كل منهم فإن هناك كثيرا من العوامل التي تعتبر مسئولة عن بناء شخصياتهم •

* * *

وقد يبدو لنا الآن أن نتساءل : الى أي مدى يمكننا أن نحافظ على شخصيتنا متماسكة بالرغم من أي مؤثرات تفرض على عقولنا ، وتحت ظروف قاسية مثل التي شرحت في فصول هذا الكتاب ؟

لقد أوضحت تجربة التوعية والتثقيف السياسى فى كوريا أنه ما دامت
معنويات الجماعة قوية متماسكة ؛ فإن كل صور الضغط ليست بذات أثر على
أعضائها • ولهذا كان أحد الجهود الرئيسية التى قام بها الصينيون هو تفتيت
هذا التماسك الجماعى بإثارة المشكلات داخل الجماعات ، وتحريض أحد
الأفراد ضد الآخر ، وبذلك تنقسم الجماعة الى شيع •

ان معنويات الجماعة نوع من الدرع الواقى يحمى الفرد ضد الضغوط
الخارجية بما فى هذا ضغوط كل وسائل الاعلام الجماهيرية •

وبالطبع يتوافر لكل شخص نوع من المعنويات الشخصية حتى ولو كان
يفيش فى نطاق ذاتيته وحدها ، وهو يستمد هذا من حسه القوى بذاتيته
الشخصية ، وبالاتصالات البيئية التى تحفظ له هذه الذاتية ، بل توجد الى
حد بعيد ، ولهذا فإن الغرض الأول لتكنيك أى عملية لغسيل المخ هو إزالة
كلا الحسنيين بوسائل مختلفة مثل : العزل الاجتماعى ، أو التعذيب ،
والاذلال ، وغيرها على نحو ما سبق شرحه •

وحتى مع هذا فإن الشخص العادى الطبيعى ولو تغير نتيجة لما تعرض
له من تجربة فإنه لا يلبث أن يعود الى تفكيره الأصلى ثانية عندما يعاد
الى جماعته الأولى التى كان فيها من قبل •

والشئ البارز فى غسيل المخ السياسى هو عدم التأثير الايدولوجى
النسبى عندما يترك الشخص الجو الذى حدث فيه هذا التثقيف •

ولا تختلف الصورة بالنسبة للمتحوّلين الى أى عقيدة سياسية ، أو الى أى مذهب دينى ؛ ذلك لأنه ما لم يتطابق المعتقد أو المذهب مع الاتجاهات الشخصية الأخرى السائدة ، فإن المعتقد لا يلبث أن يغفل ويضيع تأثيره فور الانقطاع عن الاتصال بالمبشر ، أو الداعية الى العقيدة أو المذهب الجديد .

* * *

وقد يكون من الطريف فى هذا المجال أن ندرس الوسائل التى استخدمها جون ويزلى ليمسك فى قبضته أولئك الذين هداهم الى عقيدته التى يبشر بها ، ذلك لأن هذه الوسائل ولو أنها تستهدف غاية أخرى مختلفة إلا أنها تشبه بدرجة تثير الدهشة الوسائل التى تستخدم اليوم فى عملية غسيل المخ .

لقد كانت اجتماعات طائفة ويزلى تحتاج الى اهتمام خاص ، فبعد أن حول دين عدد كبير من أهالى انجلترا باستعمال وسيلة إثارة الخوف والألوان المختلفة من التبشير ، قوى مكاسبه بوسائل للمتابعة على جانب رفيع من الكفاية والتى استعملت بأسرع ما يمكن بعد التحول الدينى المفاجئ أو بعد أن يحدث التطهير ، ولقد قسم ويزلى الذين تحولوا الى جماعات لا يزيد عدد الواحدة منها على اثنى عشر شخصا ، وكانوا يجتمعون اسبوعيا تحت رئاسة رئيس معين ، فكانوا يناقشون حينئذ المشكلات التى تنصل فى طبيعتها اتصالا وثيقا بتحولهم الدينى ، وبطريقة حياتهم المستقبلية وبشكل سرى متفق عليه .

وكان المطلوب أصلا من رئيس الجماعة زيارة جميع الأعضاء المنتهين الى
جماعته مرة واحدة على الأقل في الأسبوع بقصد جمع اشتراكات اسبوعية
عادية ، وهذه الوسيلة من وسائل دخول منازلهم سرعان ما جعلته يقرر
ما اذا كان التحول الدينى صادقا أم لا ، وقد اختبر بعد ذلك نتائجه في
الاجتماعات الاسبوعية التي كان يعقدها لطائفته فيطرد الأعضاء الذين يثبت
عدم توبتهم توبة صادقة مخلصه ، أو الذين يسرون في حياتهم على نهج
جديد من الطائفة ، وكذلك كان يطردهم من مجتمع اصحاب الطريقة بصفة
عامة ، ومن العسير أن نقل من شأن هذه الاجتماعات الطائفية في حماية
فلسفة انصار الطريقة في أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ولقد
أراد ويزلى أن يتخلص من كل شخص يشك في وجهات نظره الخاصة فيما
يتعلق بالطريق الصحيح نحو الخلاص •

وفي سنة ١٧٦٣ م كتب بالمثل هافر فورد ويست يقول :

« كنت أكثر اقتناعا من أى وقت مضى بأن الوعظ الدينى على نهج الرسل
بدون لم شمل هؤلاء الذين استيقظوا ، وأن تدريبهم على السير فى سبيل الله
ما هو الا تنشئة لأطفال من أجل السفاح أو الشيطان » •

وكانت الجماعة تجتمع مرة كل سنة ، وكان يتوقع من الأعضاء فى
هذه الجماعات أن يتحدثوا عن تجاربهم ، وما مر بهم فى حياتهم حتى
الاعتراف بأخص الأشياء الشخصية •

ومن الواضح أن الاعتراف يوجد تأثيرا ملزما رابطا بين أى جماعة من
الناس لأن كلا منهم يشعر بأنه مرتبط بالآخر ليس فقط نتيجة لتجربة

« المشاركة » بل أيضا نتيجة أن كلا منهم يحس شيئا نحو زميله تبعا لما سمعه من اعترافه عن شئونه الخاصة .

وفي نهاية كل ثلاثة شهور يتلقى كل عضو بطاقة عضويته ، وقد توضح فيها أن يحضر الصلوات الشهرية • وكان ويزلى يتشدد في ضرورة حضور هذه الصلوات المقدسة بانتظام ، وكانت قوائم أسماء الذين يحضرون كل صلاة تحفظ بعناية ، ولا يعتبر عضوا في الجماعة من لا يرد اسمه أو اسمها باستمرار في هذه القوائم ، وكان التغيب لثلاث مرات أو أربع كافيا لاعتبار الفرد غير صالح للعضوية .

وقد وجه أكبر الاهتمام الى « ضم » الشبان والأطفال في سن مبكرة ، ولما كان ويزلى متأثرا الى حد بعيد بمشروعات روبرت رايكس Robert Raikes الخاصة بمدارس الأحد فانه رأى من الناحية العملية أن يكون في كل كنيسة مدرسة الأحد الخاصة بها ، كما أنه أحيا فكرة « أعياد الحب Love Feasts » التي عرفتها الكنيسة القديمة والتي كانت عبارة عن اجتماعات لأتباع الكنيسة حيث يقصون فيها على بعضهم بعضا تجاربهم في الحياة ، ويعمقون بها من شعور الاخوة بين أفراد المجتمع ، وكان من المتوقع أن يزور رئيس كل جماعة التي تتكون من اثني عشر عضوا أعضاء جماعته مرة كل أسبوع لا ليجمع منهم اشتراكاتهم في الجماعة ، وانما ليتحقق ما اذا كان تحولهم الى العقيدة مخلصا أم لا ، وكان أولئك الذين لا يتحقق من أن توبتهم مغلصة يستبعدون فورا من الجماعة ومن مجتمع الكنيسة كله ، وقد كتب ويزلى عن هذا :

« لقد جمعت معا كل رؤساء الجماعات وابدت لهم رغبتي ان يقوم كل منهم بالتحقق من سلوك أولئك الذين نراهم أسبوعيا ، وقد فعلوا هذا ، وبذلك أمكن الكشف عن أفراد لا يسرون في الحياة على الطريق السوى ، وقد أمكن فصل بعضهم واستبعادهم ، وقد رأى البعض هذا الإبعاد شيئا خطيرا ، وخافوا مغبته ، وعادوا الى الله مؤمنين ، وقد تم اجراء هذا فى لندن بمجرد أن كان مستطاعا وفى أماكن أخرى غيرها ، وقد أمكن الكشف عن الشريرين وأبعدوا ، وهم لو تخلصوا من خطاياهم فأننا نستقبلهم بسرور ولكن اذا استمروا فى غيهم وأصرروا على خطاياهم فأنهم قد عرفوا بصراحة أنهم لم يعودوا منا ، أما الباقون فقد أسفوا لهم وقاموا بالصلاة من أجلهم ، ولكنهم مع هذا ابتهجوا وهللوا لأن الفضيحة قد استبعدت عن مجتمعنا » •

* * *

ويلاحظ سارجنت فى ضوء نظريته الى الأمر من وجهة نظر بافلوف عن « السلوكية » - الوسائل المختلفة اللازمة لتحويل الأشخاص ذوى الطوابع المزاجية المختلفة - فمثلا يبدو أنه يسهل التأثير فى الأفراد الانبساطيين Extraverts العاديين ، ويمكن جعلهم يحتفظون بطوابع جديدة بوساطة وسائل إثارة غير معينة بالذات ، حيث تؤدي هذه الى أحداث انفعالات عاطفية قوية مستمرة أو متكررة •

أما الشخص الانطوائى النزعة Entrovert فانه يكون أكثر مقاومة لمثل وسائل الاقتراب هذه ، وبذلك يكون من الضرورى لتغيير سلوكه استغلال وسيلة الانهاك البدنى مع ضغط متكرر فى فترة المتابعة ويصح ذلك تفسير دقيق للعقيدة •

وتبعاً لما وجده ليفتون Lifton (١) - وهذا أمر أساسي لفهم عملية غسيل المخ - فإن الشخص الذى يغسل مخه يبقى الى حد بعيد هو نفس الشخص الذى كانه من قبل ، صحيح أنه فى فترة غسيل المخ تكون فى رأسه مجموعة جديدة من المعتقدات ، ولكنها سرعان ما تنبذ وتطرد اذا لم تكن تتماشى مع طبيعته السابقة ، او اذا توقفت الضغوط المستمرة عليه ، ومن ثم يعود الى طابعه الاصلى بالملاءمة والتوافق مع أى بيئة يواجهها •

والنقطة الهامة ذات المغزى هنا أنه لا التثقيف السياسى ولا غسيل المخ قد اوضح أى نتائج دائمة ، اللهم الا فى تلك الحالات التى كان من المتوقع ان تتقبل المعتقدات التى تتواجد او تتولد حتى لو انها قدمت لهم تحت ظروف عادية •

وكما سبق ان اوضحنا فقد تعاون بعض الافراد تحت تأثير التثقيف السياسى لعدة أسباب مثل : متابعة سير الحياة فى يسر ودون مشكلات ، او بسبب الخوف ، او بسبب الشراهة والجشع ، ولكنهم لم يتعاونوا لاسباب ايديولوجية الا فى اقل القليل من الحالات ، ولم تكن حصيلة النتائج للبرنامج الصينى الشامل فى التحليل الحتمى اكثر تأثيرا مما يمكن ان يكون لاجتماع سياسى مثير •

صحيح لقد استطاع الصينيون ان يحصلوا فى بعض الحالات على تعاون بعض الاسرى ، ولكنهم فى الواقع لم يصلوا الا الى عدد قليل من المتحولين الاصليين •

(١) Dr. Robert Lifton, Thought Reform and Psychology of Totalism, A Psychiatric Study of Brainwashing in China, W. W. Norton and Coy., Inc., New York, 1963.

والواقع أن لغسيل المخ نفعه في ابتزاز أو قى اصطناع الأدلة والبيئات لاستغلالها في المحاكمات الزائفة ، ولكن من المشكوك فيه ما اذا كان غسيل المخ - كتكنيك - يمكن أن يعتبر في هذا المجال وسيلة مرضية بدرجة أكبر من أى وسيلة أخرى مثل التعذيب البدنى الذى استعملته محاكم التفتيش ، او الذى استعمله الفرنسيون فى الجزائر •

ولكن كل هذا لا نفع له لانتاج متحولين يستمرون فى تحولهم بصورة دائمة •

* * *

وقد يكون من الضروري هنا أن نفصح عن تفاصيل أكثر فكرتين لالندس هكسلي :

الأولى :

انه لو ان مجموعة من أبرز علماء الفلسفة قد تعرضوا لنغمات مستمرة رتيبة كندقات الطبول الأفريقية ، أو كالعناء الهندى المنتظم الايقاع - فانهم ولا شك سينتهى بهم الأمر الى أن يشتركوا فى التصفيق والصياح كما يفعل المتوحشون •

والأخيرة :

ان وسائل جديدة لاثارة الجماهير كان الناس يحملون بها فى الماضى قد اخترعت وأعدت للاستخدام •

* * *

كانت فكرة هكسلي الاولى معنية بالتأثيرات التى للنغمة الرتيبة على العقل
البشرى ، وقد قال سارجنت عن هذا :

« يجب أن يكون معروفا على نطاق واسع أن التسجيل الكهربى للعقل
البشرى يوضح أنه شديد الحساسية بخاصة الى النغمات التوقيعية الموزونة
عن طريق القرع ، وعن طريق الاضواء الالامعة بين كثير من الاشياء الاخرى
المؤثرة فيها ، وهذه النغمات والاضواء يمكن أن توجد حالات توتر انفجارية
كافية بدرجة احداث نوبات تشنجية Convulsions Fits فى الاشخاص
السابق تهيئتهم لذلك ، كما أن بعض الاشخاص يمكن حثهم على الرقص على
هذه النغمات الرتيبة حتى يصلوا الى درجة الانهيار ، وفضلا عن هذا فانه من
الاسهل ارباك تنظيم الوظيفة العادية للمخ عن طريق مهاجمته فى وقت واحد
بعدة أنغام قوية تطلق على سرعات موسيقية مختلفة ، ويؤدى هذا الى
توقف وقائى للمخ » .

ولقد استعملت المجتمعات البدائية الاجتماعات الطائفية المنتظمة
حيث يتسنى اثاره الانفعالات بواسطة الرقص ودقات الدفوف ، وذلك
للمساعدة فى الاحتفاظ بالمعتقدات الدينية ، ولتثبيت الميول الدينية التى
سبق غرسها ، ومن الممكن أن تستمر الاستشارة حتى يحل التعب والاعياء ،
وهنا يصبح الرئيس أو الزعيم أكثر قدرة على غرس المعتقدات أو تقويتها
فى أثناء وجود حالة مصطنعة من حالات زيادة القابلية للإحاء ، ومن
المحتمل أن يكون زنوج غرب أفريقية قد نقلوا معهم مثل هذه الاساليب
الى أمريكا ، فقد لاحظ سارجنت سنة ١٩٤٧ م أثناء الصلوات العديدة
التى كانت تقام فى أمسيات أيام الاحاد فى كنيسة صغيرة من كنائس
الزنوج بمدينة ورهام بولاية كارولينا الشمالية أن الجمع كان يلقي التشجيع

للقيام برقصات منفردة على تصفيق الايدي ، أو على دقات الرق المرتفعة المتوافقة النغم ، وكان الرقص متباين الصور عنيقا ، وقد تصيب الجمع حالة من حالات الغيبوبة ، ومع ذلك يستمرون في الرقص ويكررون باستمرار قول « الله خير » أو « الشكر لله على كل شيء فعله من أجلنا » ، وبعد أن يطلقوا كل ما كانت تعج به صـودـرهم من انفعالات ويعتريهم الاعياء من جراء ساعات طويلة من الرقص والاستسلام لله وعرفان جميله الاثى يقوى بالايحاء ، يعود الزوج ثانية وهم فى حالة انشراح ليعيشوا لفترة اسبوع آخر فى بيوتهم المكتظة وهم منبوذون متجاهلون من المجتمع الابيض .

على أن القدر المطلوب من التثبيت لغرس الأنماط الجديدة فى التفكير والسلوك لابد أن يعتمد على النوع المعين من أنواع الجهاز العصبى العالى ، وكذلك على الأساليب المستعملة .

ولم تصبح الوسائل المختلفة المطلوبة لتحويل الاشخاص ذوى الانماط المزاجية المختلفة موضوعا للبحث المستفيض ، ولكن من الجائز أن تبرز بعض الحقائق المعينة ، فمثلا يبدو من السهل السيطرة على الشخص الانبساطى وكسبه والاحتفاظ برسوخ انماطه الجديدة بوسائل الاستشارة البدائية غير المحددة على شرط أن يتمخض عن اثاره انفعالية قوية مستمرة متكررة ، أما الشخص الانطوائى فقد يكون قليل الاستجابة لمثل هذه الوسيلة ، وحينئذ تظهر الحاجة الى استعمال الارهاق البدنى والضغط الفردى المتناهى فى الشدة لتغيير سلوكه ، وفى أثناء فترة المتابعة لابد من التثبيت المتكرر والشرح الدقيق ، على أن المصابين بلوثة عقلية الذين تعلموا بصفة عامة القليل من تدريباتهم الاولى البيئية ، والذين

تبين موجات عقولهم الكهربية عدم نضوج ملحوظ بالنسبة لاعمارهم ،
فان من العسير جدا تكييفهم كما سبق شرح ذلك •

وقد يكون من المناسب هنا أن نشير الى أن الناس حينما يتأثرون
بدرجة عميقة بدقات الطبول والنغم لا يحدث ذلك نتيجة التأثير الآلى
فحسب ، بل بسبب أنهم فى جانب من داخلية أنفسهم يعتقدون بالماذهب
أو العقيدة التى تكون دقات الطبول والغناء الوحشى الرتيب دليلا عليها
ورمزا لها ، ثم لانهم يسمحون لانفسهم بأن يتحولوا ، أو أن يندمجوا ،
فى حالة الخبل والى ، وهذا بلا شك هو غرضهم من حضور مثل هذه
الاجتماعات •

* * *

والآن يجب أن نتحول الى الرأى الثانى لهكسلى والذى يشير الى
وسائل الاعلام الجماهيرية • لقد كان هتلر الذى يقال عنه : انه كان
اعظم طفوائى فى العصر الحديث يسيطر سيطرة كاملة على كل وسائل
الاعلام وكان بالاضافة الى هذا يواجه ملايين الناس الذين كانوا يقفون
على حافة الثوة ، واستطاع هتلر أن يحول الميزان لصالح الفاشية
لا الشيوعية ، ويرجع هذا بدرجة كبيرة الى أنه قد قدم للناس كل
ما كانوا يريدونه •

والواقع أن هتلر لم يكن له من تأثير فيما عدا ما كان له على الالان
السابق اعدادهم وتهيئتهم ، وكذا الاقليات الالمانية فى البلاد الاخرى •

* * *

وحيثما ينتقد الغرب حالة الهستيريا الجماعية في ألمانيا النازية ، فانهم يتناسون تاريخهم القديم ، ذلك لأنه لا يوجد في القرون الأخيرة ما يمكن حتى أن يصل إلى مرتبة تقرب من مظاهر الهستيريا الجماعية التي وضحت في العصور الوسطى من هستيريا الصليبيين وأطفالهم إلى هوس الرقصين الذين يجلدون أنفسهم بالسياط ، ودون استخدام : الراديو ، والموسيقى العازفة ، وأجهزة الإرسال ، ومكبرات الصوت - استطاع بطرس المتعبد Peter The Hermit بتجواله على ظهر بغله متدثرا في قميص من الصوف الخشن - أن يثير موجة من الهستيريا اكتسحت أغلب أرض أوروبا ، ثم آثار بمعاونة البابا « أربان » الثاني حربا ضد غير المؤمنين .

وكان الناس ينقاطرون زرافات ووحدا لسماع وعظه في كل مكان حل فيه .

وقد كتب تشارنس ميلز مؤرخ الصليبيين :

« ولقد اعترف بأن دعوة السماء أكثر إلزاما من أي مطالبة للإنسان ، وأعلن : القتل ، والزنا ، واللصوص ، والقرصان اعتزامهم أن ينفذوا أيديهم من آثامهم ، وأن يغسلوا ذنوبهم في دماء غير المؤمنين ، وهكذا تجمع الملايين من القديسين ، والمخطئين المسلحين وأعدوا أنفسهم ليخوضوا معركة الرب » .

ولقد قام الحجاج بأعمال السلب والنهب على نطاق واسع في تقديمهم على طول حوض الدانوب عبر أرض المجر ، ثم في طريقهم إلى ساحل البحر عند القسطنطينية . وخلفوا وراءهم في كل مكان مروا به آثار : السلب ، والنهب ، والاختطاف ، والاغتصاب .

ويقال أن البابا قد قال لهم : « اذهبوا جميع وسيعرف الرب مسئوليته ... »

وعندما استمر بطرس في مسيرته الكبرى تبعه أربعون ألفا من : الرجال ، والنساء ، والأطفال ، ومع أنه قيل : أن هؤلاء جيش الفلاحين إلا أنه لم يكن هناك جيشا بمعنى الكلمة .

ولقد ركب في الحشد عدد قليل من الأشراف بخمهم وسار بعض الناس المسلحين على أقدامهم ، وجلست بعض النساء من طرقات باريس على عربات نقل العفش ، وتجمهر حول هؤلاء أناس معدمون ضائعون ، وفي خضم هذه الحشود كان يسير : رهبان مزيفون ، ومنشدو الترانيم والتشبهات ، والنشالون .

وانتشرت الشائعات الكثيرة عن رؤية علامات غريبة تشير الذهول ، فقد رؤيت نجوم تسقط مشتتة من السماء المظلمة ، ولمع سيف مضيء في السماء يشير إلى المدينة المقدسة ، وانتشرت الأنباء عن سقوط جحافل الجراد على كروم الأتراك الكفرة ، وفي « مالفيل (١) » ذبح سبعمئة من المجرمين ، أو أخذوا أسرى .

لقد أطلق الصليبيون لأنفسهم كل نوع من أنواع : الفسق ، والخلاعة ، والخسونة ، والفظاعة ولم تنجح من هذا المرافق العامة ، ولا الممتلكات الخاصة ، ولم يكن حياء العذراء وقاية لصاحبه ، ولم تكن الفضيلة مانعا وحصنا، وتعهدوا بأن يفعلوا مثل هذا للأتراك .

(١) Malleville من المدن القديمة في حوض الدانوب .

ولقد بدأت دعوة الأطفال الصليبيين سنة ١٢١٢ م بوساطة صبي فرنسي يعمل في رعى الأغنام اسمه ايتين رأى في نومه حلما بأن المسيح - عليه السلام - قد عينه سفيرا له للاعداد للحجيج الى الارض المقدسة حتى يستعيد القبر المقدس من غير المؤمنين ، وقد انضم اليه أثناء سيره عبر فرنسا آلاف الصبيان والفتيات البعض يحملون أسلحة ، والبعض يحملون الصليبان ، وبانتشار هذا الجنون في البلاد لم يستطع الآباء أن يسيطروا على أطفالهم الذين كانوا يتابعون الصراخ حتى يسمح لهم بالمسير أو يهربون ليلا متدثرين بالظلام على الطريق الى مرسيليا حيث ظنوا أن البحر سوف يفسح لهم طريقا بأمر ايتين ، ولكن لم يحدث هذا •

فقد ركبوا سبع سفن غرقت منها اثنتان بكل ما كان عليها من الصبيان والفتيات ، على حين سارت السفن الخمس الأخرى بما عليها من الصبيان والفتيات وقد بيع الجميع في أسواق الرقيق ••

وقد حدثت دعوة أخرى للصبيان الصليبيين في إيرفورت Erfurt (١) سنة ١٢٣٧ م ، وحدثت آخر دعوة لهؤلاء الصبيان في فرنسا سنة ١٤٥٨ م بعد قرابة قرن ونصف القرن من الدعوة الأولى •

وبالطبع يمكن أن يناقش الأمر على أساس أن كل الحروب صور من الهستيريا الجماهيرية ولكن هذا يكون حديثا تصوريا مجازيا ذلك لأن الحرب تكون قليلة الأثر والنتائج ما لم تنفذ تبعا لتخطيط طويل دقيق ، وحتى تطرفات هتلر كانت تتم تبعا لتخطيط دقيق معنى به •

* * *

(١) مدينة ألمانية في إقليم ساكسونيا •

ولكن الحالات التي كنا نناقشها كانت كلها في الواقع الوانا من هستيريا الغوغاء الدهماء ومع هذا فلها قاعدتها الاقتصادية والسياسية ذلك لأنه من الواضح أن الحملات الصليبية كانت في ذلك الوقت البعيد مرحلة من مراحل الاتساع والامتداد السياسي والاقتصادي لغرب أوروبا ، وكانت الفصل الخاص بالعصر الوسيط في تاريخ الامبريالية •

والواقع أننا اذا نظرنا : الى التاريخ القديم ، أو الى التاريخ الحديث – لوجدنا أثرا هنا وهناك للدعاية يدل على وجودها وعلى فعاليتها ، فقد كان قيصر روما يستعمل التنبؤات الفلكية ليحدد بها أعماله ، وينشر ذلك على الناس جميعا ، ومثله فعل هتلر اذ كان يستغل التنبؤات الفلكية ليقنع البريطانيين بحتمية انتصاره عليهم ، كما أن ذكر اعلان الاستقلال بعد الحرب الامريكية الاهلية للأضرار التي ألقت بالشعب دليل على أن للدعاية هدفها الذي تسعى من أجله •

ولكن : الزمن ، وتقدم العلوم واسهامه في التطور الكبير لوسائل الاعلام ، وتغير الفلسفات ، وتغير النظريات الاقتصادية – قد أدت الى وجود تغير في الدعاية أيضا •

وزادت أهميتها عندما أصبحت الحرب شاملة ولما كانت القوات المحاربة تسعى لاضعاف الروح المعنوية للعدو للتأثير على مقاومته في الصراع القائم ، فان الدعاية تسعى الى تحطيم هذه الروح المعنوية واضعافها ، كما تهدف الى تقوية الروح المعنوية لدى جيش بلادها ، ولدى المدنيين من أبناء شعبها حتى تكون سندا كبيرا للاستمرار في الحرب حتى النصر •

وكما قلنا فقد أدى تقدم العلوم ، وتقدم الوسائل الفنية الى اظهار الحاجة الملحة للدعاية ، والى التنوير بفائدة الدعاية وفعاليتها ، كما أدى تقدم العلوم أيضا الى خلق سبل جديدة وأفاق حديثة استطاعت الدعاية عن طريقها أن تحقق الكثير . والآن كانت الدعاية تتفاعل مع فلسفة اجتماعية وسياسية تضمنن للانسان العادى كيانه المستقل ، فقد نتج عنها تركيز على التعليم بحيث وضع هذا التعليم رجل الشارع فى متناول رجل الدعاية وبحيث تصل رسالته اليه سواء كانت رسالة : شفوية ، أو مطبوعة ، أو إلكترونية .

وأكثر من ذلك ، فقد أدى تقدم العلوم الى تكاثر وسائل الدعاية وتطورها ، فوجود دعاية ناجحة احتاج الى وجود دعاية مضادة ناجحة أيضا ، وأدى هذا التسابق ، وهذا التنافس الى وجود المزيد من الوسائل ، وادخال التحسينات والتعديلات على الوسائل المعروفة .

ومن هنا يمكن القول : أن الدعاية وجدت قديما وحديثا ولكنها اليوم أكثر وضوحا وأهمية مما كانت عليه فى الماضى ، فقد اتسعت الجماهير وازداد تعقد الحياة ، وتشابك مظاهرها ، وتعددت كذلك أساليب تشكيل الرأى العام وتعديله وتغيير اتجاهاته ، وقد أصبح للدعاية من الاهمية ما جعل علماء الاجتماع يدرسون أثرها على المجتمعات .

* * *

وقد يسأل لنا أن نتساءل ؟

هل هناك علم أو فن يمكن أن نسميه علم الدعاية أو فنا ؟ أن هناك قوائم لا حصر لها لمبادئ الدعاية وتعميمات حولها . وقد قسم هذه المبادئ وتلك

التعميمات عدد من : الزعماء والمفكرين السياسيين والعسكريين ، وعدد من رجال الأعمال ، وأسائذة الجامعات ، وخبراء الاعلان ، وعلماء النفس ، وعلماء الاجتماع ، وكل شخص حاول جهده جذب أذهان الناس وتوجيه سلوكهم •

وتوجد صعوبات جمة في طريقة تنمية الأسس الهامة لاستراتيجية الدعاية وتكتيكاتها • أن رجال الدعاية أناس يعملون دائما في عجلة لاقتناع الناس بما يريدون أن يقنعوهم به ، ويهتم هؤلاء الناس بما يريدون ، ولكنهم لا يهتمون بفهم مبادئ هذا الاقناع وطرقه •

كما أن الذين يعبرون عن استعدادهم لاستنباط المبادئ من المواقف المختلفة هم أناس عمليون لا يهتمون بالبحث والتدقيق بقدر ما يهتمون بالعمليات نفسها •

وتجد في نفس الوقت أن هؤلاء لا يهتمون بجمع المعلومات التي تساعد على الخروج من المواقف المختلفة بمبادئ سليمة يمكن الاعتماد عليها ، وتكون نتيجة ذلك أن الأشخاص الذين يهتمون بالتحليل والبحث يجمعون معلوماتهم ممن يقومون بأعمال الدعاية الذين يعملون بالخبرة والمران لا بالبحث ، وتكون النتيجة أن المعلومات التي يحصل عليها الباحثون معلومات واردة من أشخاص لم يبنوا هذه المعلومات على بحث وتدقيق ، وبهذا تكون المعلومات غير مبنية على أساس علمي •

* * *

والى جانب ذلك فإن عملية تحليل الدعاية لم تصبح مهنة يعترف بها الناس ولها ميدان خاص بها • أن لدى بعض الهيئات وسائل للدعاية

أو الحرب النفسية ، ولكن محلل الدعاية يحاول التخصص في ميدان واحد قد يتصل : بالصحافة مثلا ، أو الاحصائيات ، أو الاذاعة ، الخ . . . وتكون نتيجة ذلك أن يكتسب المحلل نظرة واهتمامات محددة ذات نوع معين . ولعل من الصعوبات الكبرى التي تعترض اقامة الدعاية على اسس علمية وجعلها من العلوم المستقلة هي صعوبة الحصول على بيانات ومعلومات ، وكذا تعقد هذه المعلومات ان وجدت ، وصعوبة القياس واجراء التجارب ، والخيرة التي يقع فيها الباحث عندما يحاول تقييم كفاية الوسائل الفنية للدعاية ، وكذلك : نقص الألفاظ الفنية المتفق عليها في هذا الميدان ، ونقص المستويات التي يمكن أن يقاس بها فعالية الدعاية ، وكذلك نجد أن المحلل نفسه هو من ضمن الصعوبات الهامة ، فهو في حد ذاته نتاج دعاية معينة ، وهو في تحليله يكون واقعا بالضرورة تحت تأثير ضغوط اجتماعية وغير اجتماعية .

هذه العقبات تقف في طريق تنمية تحليل الدعاية وجعلها من العلوم المستقلة بذاتها ، وهي بالتالي عقبات تقف في طريق نمو العلوم الاجتماعية .

* * *

ان النقطة الأولى في استراتيجية الدعاية هي الاعتقاد بأن الدعاية اللفظية ما هي الا واحدة من مجموعة من الوسائل التي تستخدم للوصول الى هدف معين ، وان الوسائل يجب ربطها بغيرها من الوسائل المستعملة في هذا الميدان .

ومن الواضح أن استراتيجية الدعاية تتداخل تداخلا كاملا في الاستراتيجية الكبرى التي تستخدم للوصول الى غرض أو لتحقيق هدف معين . ولكن كيف يمكننا أن نضع هذه الاستراتيجية . ما الأمور التي يجب أن تحتوى عليها ؟ هذه أسئلة يجب أن يجيب عليها واضعوا السياسة قبل البدء في وضع استراتيجية الدعاية .

وترتبط الاستراتيجية في الدعاية بجميع الاعتبارات التكتيكية .
 ويفرق هانز سباير Hans Speier بين الدعاية الاستراتيجية والتكتيكية
 فيقول : « ان الدعاية التكتيكية توجه أولا ضد جنود العدو وبقصد تأييد
 العمليات العسكرية في ميدان القتال . أما الدعاية الاستراتيجية فهي توجه
 أولا ضد المدنيين من الأعداء ، وكذلك الى جنود الأعداء الذين يوجدون خلف
 الجبهة » .

ويقول لبارجر Paul Linebarger : « أن التفرقة التي يفرق
 فيها بين هذين النوعين من الدعاية مبنى على أساس الناس الذين توجه اليهم
 الدعاية وكذا على الزمن والغرض » ، ويعود فيقول : « أن الدعاية
 الاستراتيجية توجه ضد قوات العدو وشعب العدو ، وكذلك ضد المناطق
 التي يحتلها العدو ، وتكون هذه الدعاية جزءا لا يتجزأ من التخطيط
 للاستراتيجية الكبرى الذي يهدف الى تحقيق أهداف مخططة لفترة معينة ،
 أما الدعاية التكتيكية فهي توجه ضد مجموعة معينة ، وتعد هذه الدعاية
 وتنفذ لتأييد العمليات الحربية المحلية » .

ونشير هنا الى التفرقة التي كتبها كارل فون كلوزفيتز Karl Von
 Clausewitz بين : التكتيك ، والاستراتيجية وهي التفرقة الكلاسيكية
 حيث قال : « ان التكتيكات هي عملية تنظيم عملية عسكرية واحدة معينة
 والقيام بها . أما الاستراتيجية فهي مجموع هذه العمليات العسكرية الفردية
 وضم بعضها الى البعض للوصول الى غرض معين من أغراض الحرب » .

* * *

ولنعد الآن الى عملية التكيف والتحول لنوضح عدة نقاط هامة .
 وأهم هذه النقاط ضرورة الحاجة الى تنوع أساليب التكيف ووسائله طبقا
 للأنماط المزاجية المختلفة ، والتي يمكن ملاحظتها بشكل واضح من دراسة
 اثر احكام السجون على الأنماط المزاجية المختلفة ، ففي أغلب حالات
 الأشخاص العاديين القابلين للإيحاء أو الذين يتقبلون الإيحاء بقدر معقول ،
 نجد أن التهديد بالسجن بما ينطوي عليه من زجر اجتماعي يعتبر رادعا كافيا
 ضد الجريمة ، وأن تجربة واحدة من تجارب السجن سوف تنهى في الحال
 حياة الاجرام بالنسبة لثلاثة أرباع المجرمين الذين لم يرتدعوا بهذا الشكل ،
 ولكن هناك مشكلة عويصة لهؤلاء المتخلفين عقليا الذين لا يمكن تغيير أنماط
 نشاطهم العقلي الشاذ بواسطة السجن مهما كانت عنيفة أو قاسية .

ومن الواضح جدا أن الحاجة ملحة لبحث أكثر استفاضة للكثير من هذه
 الأمور . لقد شاهدنا نوع الاساليب المشيرة التي استختمت في كل من
 المجتمعات البدائية والمجتمعات الراقية لزيادة القابلية الجماعية للإيحاء ، وبذلك
 يحتفظ بنمط مشترك من العقيدة ، وأكثر من ذلك لكي يبشر بعض الافراد
 بمعتقدات جديدة تماما ، كما شاهدنا كذلك أن الأفراد يتعاونون في ردود
 فعلهم تجاه هذه الأساليب ، وأنه اذا كانت هناك رغبة في تعريضهم لعملية
 تحول شاملة دينيا أو سياسيا ، ثم تثبيت المعتقدات الجديدة ، فإن هذا
 الأسلوب يتطلب تعديلا في حالات كثيرة .

ولذا فإن الابحاث المستمرة الخاصة بأساليب الاستثارة الجماعية
 مطلوبة لمعرفة الى أي مدى نجد لدى بعض الافراد مناعة ضلها ، ومن
 الواضح أنه كثيرا ما يحدث أن يظهر كثيرون وقد تأثروا ، ولكنهم يتبعون
 طريقة السلوك التي تسلكها الغالبية من باب المجازاة لا بسبب الاقتناع ، ونحن

في حاجة الى أن نعرف أكثر مما نعرف عن ردود الفعل المختلفة تجاه أساليب التبشير التي تستعمل مع أشخاص مسجونين سجناء انفراديا ، أو موضوعين في طوائف منتخبة بقصد إعادة توجيههم وتصبح المشكلة الفسيولوجية أكثر تعقيدا بسبب ادراك أن الأنواع المزاجية في كل من الانسان والحيوان نادرا ما تكون واحدة تماما .

* * *

لقد وجد بافلوف أن الكثير من كلابه كانت عبارة عن خليط من الأمزجة الأربعة الأساسية ، ويبدو أن نفس الشيء صحيح في مملكة الانسان . وفي الثقافات البدائية ، حيث الحياة المتواضعة وعملية التكيف عنيفة ، فإن الناس من المحتمل أن يفتنوا مزاجيا بطريقة أسهل من تقنينهم في المجتمعات المتحضرة ، وعلى ذلك يمكن تنظيمهم بأساليب أقل تنوعا ، وكلما ارتفعت الحضارة زاد كما يبدو عدد الأشخاص : العاديين القلقين ، والهستيريين ، والمرضى بانفصام الشخصية ، والمكتئبين بشكل يساعد المجتمع على تحملهم ، ويبدو أن الواجب يقتضي استعمال وسائل أكثر من العلاجات المتباينة للجماعات والأفراد لشفاء عدد أكبر من الأمزجة المختلفة للشخصيات ، ولكن لم يتوفر حتى الآن معلومات معينة عن هذه النقطة ، وقد يكون من الصحيح كما يقول الدس هكسلي : « ان كل ما يمكننا في الوقت الحاضر أن نتنبأ به ونحن مطمئنون - هو أنه اذا تعرضنا لفترة طويلة كافية لدقات الطبول والأناشيد ، فإن كل فيلسوف من فلاسفتنا سوف ينتهي الى الصياح والعواء مع المتوحشين ، ولكننا نعرف كذلك أن هناك فلاسفة من السهل تحويلهم الى أنماط سلوكية متغيرة ومعتقدات جديدة بوسائل : الصلوات المنفردة ، والصيام ، أو حتى باستعمال العقاقير مثل المسكاليين .

ومع ذلك فقد وجد بافلوف أنه عندما يصاب الجهاز العصبي العالى فى الحيوانات بتوترات يكون احتمالها فوق طاقتها بتطبيق ألوان مختلفة من الضغوط تفوق تحمل المخ فانه يحدث نوع من التوقف الشامل فى النهاية فى جميع الأنماط المزاجية ، وقد يحدث هذا فى الأنواع الأقوى فقط بعد فترة طويلة الاضطراب ، بينما قد يحدث بشكل أسرع فى الأنواع الضعيفة المكبوتة ، وعلى ذلك يبدو أن هناك مسالك مشتركة نهائية لابد من أن تسير فيها كل الأنواع من الحيوانات على الرغم من استجابتها المزاجية الأولى للتوترات المفروضة والتي تختلف اختلافا بينا ، ومن المحتمل أن يحدث نفس الشيء فى الكائنات البشرية ، وإذا حدث فقد يساعد ذلك على تفسير السبب فى أن الطبول المثيرة ، والرقص ، والحركات البدنية المستمرة تستعمل كثيرا فى مثل هذا العدد من الطوائف الدينية البدائية ، والجهود والاضطرابات التى تجعل الرقص يستمر ويزيد لساعات متعددة يجب أن تكون منهكة ، وغالبا ما يخضع للرقص أقوى الأمزجة وأقساها عنادا .

* * *

وأظهرت الحرب الحديثة كذلك أن تجربة الحرب العقلية بكل ما فيها من : جلبة ، واستثارة ، وخوف ، ونقص فى الوزن ، وعدم النوم – تنتهى بالانهيار فى جميع الأنماط المزاجية . وعلى الرغم من أن صورة الانهيار « العصبى » المبكر قد تختلف ، فإن الظاهرة النهائية لتوقف المخ من جراء الاعياء من الحرب التى جاء لها وصف جيد بقلم سوانك والكثيرين غيره تستمر فى حالة أغلب الأنماط الأخرى من الناس ، وعلى ذلك اذا فهمنا القواعد الفسيولوجية الناجحة مرة واحدة فانه يصبح من الممكن أن نصل الى نفس الانسان ، ونحوه ونحافظ على اعتقاده الجديد بمجموعة من التوترات المتباينة المفروضة ، التى

تنتهى بتغيير وظيفة المخ بطريقة واحدة ، ومع ذلك فإنه يمكن لبعض الأفراد أن يظهروا عنادا غير متوقع ازاء أساليب صحيحة جدا : ففي كارولينا الشمالية حضر رجل بدين صلوات الاحياء الدينى ، وتضمنت الصلوات رقصا وانشادا واستشارة جماعية تحدث تفريغا انفعاليا كل يوم أحد ولمدة تسع سنوات ، على أمل كسب تجربة التحول الدينى المفاجيء ، وكذلك الخلاص الذى كسبه زملاؤه بنفس الأساليب فعلا ، وحتى تلك اللحظة لم يكن قد نال الخلاص على الرغم من كل جهوده ، ولكنه لم يفقد الأمل ، ومن المحتمل أنه كان من ذوى الأمزجة المكبوتة مثلما وجد بافلوف أن من الممكن اثارتها فى الحيوانات فقط عندما أضاف الاعياء الفسيولوجى أو لجأ الى فرض توترات أخرى .

* * *

ويمكننا أن نتساءل الآن : الى أى مدى يمكن أن نحافظ على تماسك عقلنا ؟ وهل هناك من سبيل لمنع التحولات السياسية والدينية أو غسيل المخ ؟ .

لقد أكلت التجارب صعوبة أحداث الانهيار العصبى فى الحيوان الذى لا يتعاون مع من يجرى عليه التجربة ، وذلك بمقارنتها بالسهولة التى يتم بها الانهيار العصبى فى أولئك الذين يحاولون تقبل تنفيذ المهام التى توكل اليهم ، فعندما يرفض كلب يعتاد أن يوجه أى انتباه للأضواء المبهرة وعلامات التغذية الأخرى التى يقصد بها تكييفه فإن مخه يبقى بعيدا عن التأثير ، وعلى ذلك درج بافلوف على احضار كلابه الى المعمل وهى فى حالة جوع على أمل أن يركز انتباهها على علامات يمكن ان يليها تقديم الطعام ، والكائنات البشرية مثل الكلاب تستطيع ألا تنهار عصبيا اذا رفضت ببساطة مواجهة مشكلة أو مهمة تعرض عليها ، فكل من يرفض التعاون مع أى وسيلة من

وسائل التحول الدينى او غسيل المخ نجده بدلا من الانتباه الى المحقق او الواقع يحاول أن يركز ذهنه على مشكلة أخرى مختلفة تماما ، ومن ثم يثبت أطول من الجميع •

لقد قيد الكولونيل ر • ه • ستيفنس R. H. Stevens الذى أوفعه الجستابو فى كمين سنة ١٩٤٠ م بينما كان يؤدى واجباته فى هولندا ، بالسلاسل الى جانب حائط الزنزانة فى سجنه الالماني مثل الكلب لمدة سنتين كاملتين فى محاولة لتحطيم روحه المعنوية ، ولقد وجد من المفيد له أن يركز ذاكرته على مهمة اعادة بناء منزل طفولته حجرة حجرة بأدق التفاصيل كالوحدات الزخرفية على الستائر وزركشة المدفأة والكتب التى سيضيفها فى المكتبة ، وقد ساعده السير على هذا النهج ليس فقط على الثبات طوال مدته التى كان مقيدا فيها بالاعلال الى جوار الحائط فى سجن انفرادى ، ولكن كذلك على الثبات ثلاث سنوات أخرى فى معسكرات الاعتقال •

ولقد قال طبيب شرعى مرموق فى حديث غير رسمى عن ملاحظته فى عمله أثناء السنوات العشرين الأخيرة « لو أن المتهمين عندما يستجوبهم رجال الشرطة لا يجيبون الا على الأسئلة التى تقدم اليهم مكتوبة وعن طريق دفاعهم ، ولا يجيبون على أى شئ آخر وهو أمر لا يتعدى حقهم الشرعى ، فانه لن تكون هناك أية اتهامات من جانب رجال الشرطة سوى القليل » وقد عرف المحامون لفترة طويلة كيف أن الصعوبة تكون أعظم بكثير فى ادانة أى انسان لا يمكن اقناعه بالكلام ، ومع ذلك فان عددا كبيرا بل أكبر مما ينبغى ومن الذين يلتزمون بالقانون حتى عندما يكونون مذنبين يقومون بسهولة بتوقيع أكثر الاعترافات ضررا لهم وبمحض اختيارهم بسبب وجود لهفة مبدئية على التعاون مع رجل الشرطة •

وتعتبر درجة التعاون أو التجارب الفسيولوجى التى يمكن أن تتم بين محقق « البوليس » والمواطن الذى يجرى استجوابه ، أو بين الواعظ الدينى ومن يعظهم ، والمتحدث السياسى ومستمعيه - حيوية بالنسبة للمشكلة ، وكل من يمكن إثارة الغضب أو الخوف منه بواسطة رجل السياسة ، أو الواعظ ، أو رجل الشرطة ينقاد بسهولة أكثر الى تقبل النمط المطلوب من التعاون حتى ولو كان من شأن هذا أن يخالف حكمه فى الظروف العادية ، والعقبات التى يستطيع الساعون الى الانصار السياسيين أو الدينين التغلب عليها هى عدم المبالاة أو التسلية المستمرة وعدم المبالاة من جانب الانسان اذاء الجهود التى تبذل : لجعله ينهار ، أو كسبه الى جانبهم ، أو اغرائه بالجذل .

ويعصف سارجنت ذلك بقوله :

« فى مصارعة الثيران توجه الجهود الأولية للمصارع ومساعديه على إثارة الثورة واغضابه واشاعة اليأس فيه لكى يتسنى انهكاك قواه ، وبذلك يمكن جعله أكثر استجابة وقابلية للايحاء ، ثم يقوم مصارع الثيران باجبار الثور على عمل ما هو مطلوب منه فى المرحلة الاخيرة وهو متابعة حركات قطعة النسيج الحمراء بطاعة تقرب من الغيبوبة ، والثور الجيد الذى يحظى بتصفيق المتفرجين ، ثم يجرى ميتا فى نهاية الحلقة هو الثور الذى يتعاون ، وذلك بثورته وزيادة هجومه الى أقصى حد ممكن عندما يفريه بالنطح فيقطع بالحراپ فى عضلات الكتف والغمزات الشائكة ، ويبقى دائما فى حركة دائبة حتى يصاب بالاعياء الانفعالى والبدنى ، ولا يوجه مصارع الثيران اليه ضربة اخيرة الا بعد أن يعجز نهائيا عن رفع رأسه ، فيوجه اليه ضربته بحربة من حرابه بين كتفيه المسترخيين .

« اما الثور السيء ما لم تكن لديه عاهة فسيولوجية مثل العمى النصفى تمنعه من متابعة حركات الحربة او قطعة النسيج الحمراء فانه يرفض أن يستثار ، وعلى ذلك ينجح في تفادى كل من الاعياء والقابلية للايحاء ، وطبقا لذلك ينبع خوف المصارع من الثور الذى لا يمكن اشاعة الخوف فيه بالوسائل التقليدية ، ويصبح عليه أن يستمر في التفكير في نفسه بسبب عجزه عن التنبؤ بردود فعله وعندما يقتل في النهاية - وغالبا ما يحدث ذلك فانه يكون قد أرسل بمصارعه : اما الى المستشفى واما الى القبر ، واما أخرج بالامر من الحلقة بواسطة رئيس الحكام •

والثور الجيد في الواقع هو الثور الذى يعتبر نفسه : محصنا ضد المحن التى تواجهه ، وممثلة بالثقة فى شجاعته ، والغضب السريع فى مواجهة الاشياء التى يكرهها ، وقوته البدنية الهائلة ، وقدرته على الحرب حتى النهاية » •

ويجب على الانسان ألا يسير فى هذا التشبيه الى ابعد مما يجب ، ولكنه قد يفيد هذا المثل فى تأكيد الحقيقة وهى أن بعض الناس يتحولون ضد ارادتهم لانهم يصرون على فعل ما يعتبرونه الشئ الصحيح •

وسوف يكون من الواضح أن ضحايا غسيل المخ ، أو الاعتراف الزائف يجب أن يبذلوا قصارى جهدهم كلما أمكن فى عدم نقصان أوزانهم بسبب الهموم أو القلق ، أو أن يسببوا لأنفسهم تعباً لا ضرورة له ، ويجب أن يتعلموا أن يختطفوا النوم كلما لاحت لهم الفرصة ، والاشخاص من أصحاب الامزجة

المتزنة واقياء البنية الذين يتمتعون باتزان عقلى كامل ، كذلك آراء راسخة سعيده فى الحياة من المحتمل أن يشبتوا مدة أطول من أولئك الذين يتمتعون بالقليل ، أو بلا شىء من ذلك .

ومن الخرافات أن الوعى الذهنى بما يدور حول الانسان يمكن دائما أن يمنع الشخص من أن يكون ضحية للتبشير ، فبمجرد أن يصاب بالاعياء ، وتزداد قابليته للايحاء ، أو يدخل المخ فى مرحلة التناقض أو التناقض الشديد ، فإن البصيرة بل حتى معرفة ما يجوز أو يحتمل حدوثه لا يساعد كثيرا فى الوقاية من الانهيار ، وبعد ذلك سوف يوجد لنفسه مبررات المعتقدات التى زرعت حديثا فى ذهنه ، ويدل لاصدقائه بتفسيرات وشرح مختلفة ولو أنها سخيصة للأسباب التى دفعته لتغير وجهات نظره فجأة ، والمصابون بكآبة عقلية أو نفسية يدركون جيدا فى فترات الصفاء أنه بمجرد أن يشن هجوم جديد فانهم سوف يفقدون كل قدرة على النظر بامعان الى سخافة افكارهم المثيرة للكآبة .

وعلى المسجونين السياسيين أن يدركوا بنفس القدر أنه بعد أحداث شلل فى وظائف المخ ، فإن حكمهم العادى المألوف سوف يصاب بالفساد كما أنه بمجرد أن يشعروا بأنهم أصبحوا قابلين للايحاء ، عليهم أن يبذلوا كل جهد ممكن للتهرب من أى مؤثر اضافى جديد ، وفوق كل شىء عليهم أن يتذكروا أن الغضب يمكن أن يكون وسيلة قوية لزيادة انقابلية للايحاء كالخوف والاحساس بالذنب .

* * *

وأخيرا نود أن نؤكد أن الهدف الاساسى من هذا الكتاب ليس نقد أى نظام أخلاقى أو سياسى ، فهدفه هو أن يبين كيف أن المعتقدات سواء أكانت خيرا أم شرا ، حقيقية أم مفترضة فانه يمكن بلدها فى العقل الانسانى ، كما أنه من الممكن تحويل الناس الى اعتناق معتقدات تسيطر عليهم وتتنافى تماما مع ما كانوا يعتنقونه فيما مضى ولو الى حين .

أهم المراجع الأجنبية

- 1 - A. Kostler, Arrow in The Blue. Hamish Hamilton, London, 1962
- 2 - Allport G. W., Personality and Social Encounter, Beacon Press, Boston, 1964.
- 3 - Allport G. W. The nature of Prejudice, Doubleday and Coy. inc., New York, 1958.
- 4 - Argyle, M., The Scientific Study of Social Behaviour, London, 1957.
- 5 - B. G. Sundkler, Bantu Prophets in Africa, Lutterworth Press, London. 1948.
- 6 - Bronislaw Malinowski, A Scientific Theory of Culture, New York, 1961.
- 7 - Brow J. A. C., Techniques of Persuasion, From Propaganda to Brain Washing, Penguin Book, Cox and Wpman. Ltd, London, 1965.
- 8 - C. D. Lee, The Instrumental Detection of Deception. The Lie Test, Edited By V. A. Leonard Charles C. Thomas, Springfield, Illinois, 1953.

- 9 - **Cuplin M., Recent Advances in The Study of Psychoneuroses, J. and A. Churchill, London, 1931.**
- 10 - **Edward Hunter, Brain Washing Straus and Cudahy, New York, 1956.**
- 11 - **E. Jones, Sigmund Freud: Life and Work, 2 Vols, Hogarth Press, London, 1955.**
- 12 - **Eysenck, H. J., Dimensions of Personality, London 1947.**
- 13 - **Eysenck H. J. The Structure of Human Personality, London Methuen and Co. Ltd, 1953.**
- 14 - **Eysenck, H. J. Sense and Nonsense in Psychology, Richard Clay and Coy. Ltd, Bungay, Suffolk, 1958.**
- 15 - **Frazer, J. G., The Golden Bough, A Study in Magic and Religion, Macmillan, London, 1960.**
- 16 - **Freud S. Civilization and its Discontents, New York, Cape and Smith, 1930.**
- 17 - **James William, The Varieties of Religious Experiments, Fontana**
- 18 - **Joseph Jastrow, Freud, His Dream and Sex Thories, Cardinal Edition, U. S. A., 1954.**
- 19 - **Jung, Psychological Types, London, 1924.**

- 20 - H. A. Palmer, *Abreactive Techniques* Ether., J. Roy Army Med. Corps, LXXIV, 1946.
- 21 - Henry Lichten Berger, *The Third Reich, Book V*, New York, 1937.
- 22 - Hermanin Rauschning, *The Voice of Destruction*, New York, 1940
- 23 - Hoberts S. *The House That Hitler Built*, New York, 1938.
- 24 - Huxley Aldous, *The Devils of Loudun*, Chatto and Windus.
- 25 - Inbau, F. E. and Reid J. E., *Lie Detection, and Criminal Interrogation*, Third Edition, Baltimore, 1953.
- 26 - Lee, A. M, and N. D. Humphrey, *Race Riot*, Dryden Press, New York, 1943.
- 27 - Lifton R. J.,: *Thought Reform and the Psychology of Totalism, A Study of Brain Washing in China*, W. W. Norton and Coy. Inc. New York, 1963.
- 28 - Linebarger, Paul M. A., *Psychological Warfare* 2nd, ed, Combat Forces Press, Washington, D. C. 1954.
- 29 - Lord Altrincham and I. Gilmour, *The Case of Timothy Evans*, Special Spectator Publication. 1956.
- 30 - Louba H., *The Psychology of Mysticism*, Kegan. Paul.

- 31 - Margery Perham, *The Colonial Reckoning*, Alfred A. Knopf, New York 1961.
- 32 - McDougall, W., *An Outline of Abnormal Psychology*, Methuen, London, 1926.
- 33 - M. Eddowes, *The Man on Your Conscience*, Cassell, London, 1955.
- 34 - Meerloo J. A. M., *Pavlovian Strategy as a Weapon of Mental-
cde*, *Am. J. Psychiat*, 1964.
- 35 - Miller, E., *The Neuroses in War*, Macmillan London, 1940.
- 36 - Daniel P. Mannix in Collaboration With Malcolm Cowley, *Black
Cargoes*, The Viking Press, 1962.
- 37 - Pavlov, I. P., *Conditioned Reflexes*, Oxford, 1927.
- 38 - Pavlov, I. P., *Lectures on Conditioned Reflexes, The Higher
Nervous Activity (Behaviour) of animals Vol. 1*, Translated by
Horsley Gantt, Lawrence and Wishart London, 1928.
- 39 - Pavlov, I. P. *Lectures on conditioned Reflexes, Vol 12, condi-
tioned reflexes and Psychiatry. (Eng. trans.)* London 1941.
- 40 - Rabindrananth. Tagore, *Nationalism*, The Macmillan Coy, New
York, 1917.

- 41 - Rattenbury, J. E. **The Conversion of Wesley**, Epworth Press, London 1938.

- 42 - Rupert Emerson, **Colonialism Yesterday and Today**, New Nations in a Divided World, Kurt Lond (Ed.), Frederick A., Praeger, New York, 1968.

- 43 - R. R. Grinker and J. P. Spiegel, **War Neuroses in North Africa, The Tunisian Campaign**, (January May, 1943) Jr. Foundation, New York, 1943.

- 44 - Shorvons, H. J., **Abreaction**, Proc. Roy. Soc. Med., XLVI, 1953

- 45 - Thomas Patric Melady, **The Revolution of Color**, Hawthorn Books, Inc. Publishers, New York, 1966.

- 46 - Thouless, R. H., «General and Social Psychology» 4th ed University Tutorial Press Ltd, Clifton House, Euston Rd, London, N. W. I, 1963.

- 47 - Thouless, Robert H., **The Psychology of Religion**, Cambridge University Press.

- 48 - Young K, **Social Psychology**, F. S. Crofts and Company, New York, 1936.

- 49 - W. Brown, **Psychological Methods of Healing, an Introduction to Psychotherapy**, University of London Press, 1938.

- 50 - Weitzenhofer, A. M. Hypnotism, An Objective Study in Suggestibility, New York, John Wiley and Sons Inc., 1953.**
- 51 - William Sargant, Battle for The Mind, Richard Clay and Company Ltd., 1963.**
- 52 - Encyclopaedia Britannica, 1961.**

فهرست

٧-٥

مقدمة

الباب الأول

معركة العقل بين الماضي والحاضر

٦٠-١٢

الفصل الأول : معركة العقل في الأزمنة الغابرة

- ١٣
- ١٤ اطار السلوك الاجتماعي
- ١٥ الصراعات العقلية التي فرضت على المعتقدات
- ١٦ في الديانة المصرية القديمة
- ١٨ عقائد البابليين
- ٢٢ أساليب اليونانيين القدماء
- ٢٧ الديانة الهندية القديمة

الفصل الثاني : اصطلاح جديد .. غسيل المخ

- ٣٠ التعريف
- ٣٢ عناصر توجيه الفكر الشيوعي

٣٣	• • • • •	الأساليب المستخدمة في السجن السياسية
٣٣	• • • • •	عزل الشخص عن الحياة العامة
٣٤	• • • • •	الضغط الجسماني
٣٦	• • • • •	التهديدات وأعمال العنف
٣٧	• • • • •	الاذلال والضغط
٣٧	• • • • •	الدروس الجماعية
٣٩	• • • • •	بحال البحث

الفصل الثالث : تجارب على سلوك الانسان والحيوان ٤١

٤٢	• • • • •	أعمال بافلوف
٤٣	• • • • •	الفعل الشرطي المنعكس
٤٣	• • • • •	الانماط المزاجية للكلاب
٤٤	• • • • •	تجارب التكيف
٤٥	• • • • •	تطبيق تجارب بافلوف على الأدميين
٤٦	• • • • •	اختبارات توقف وظائف المخ في الكلاب
٤٨	• • • • •	التوافق بين تجارب بافلوف وسلوك الانسان
٤٩	• • • • •	اختبارات الحرب العالمية الثانية
٥٠	• • • • •	الصراع في النشاط العصبي العالي
٥١	• • • • •	التغيرات الاضطرابية
٥٣	• • • • •	الامتناع الوقائي
٥٣	• • • • •	التقارير الاكلينيكية لحالات الحرب
٥٤	• • • • •	التغيرات المفاجئة
٥٦	• • • • •	تلخيص لاكتشاف بافلوف
٥٨	• • • • •	حادث الفيضان واثره على كلاب بافلوف
٦٠	• • • • •	الانهيار الامتناعي الكامل

الباب الثاني

الوسائل والأساليب

١١٦-٦١

الفصل الأول : أساليب الانقلابات الدينية

٦٣	والتحولات المذهبية
٦٤	الأسلحة الفسيولوجية
٦٤	التغيرات في ديانة قسما المصريين
٦٦	تحول اخناتون
٦٨	العوامل السيكولوجية في تحول اخناتون
٦٩	سيرة بوذا
٧١	تأملات بوذا
٧٣	اثر الصراعات العقلية على بوذا
٧٥	أساليب ابن ميمون
٧٦	القراطة
٧٨	حركة الخشاشين
٨٠	أساليب الاخوان المسلمين
٨١	جمعية فرسان المعبد
٨٢	السحر الأسود في القرون الوسطى
٨٤	وباء الشعوذة في أوروبا
٨٦	أساليب القبائل البدائية
٨٩	الطقوس الدينية في غرب افريقيا
٩١	جنون الرقص في أوروبا
٩٢	رقصة الدثب

٩٢	• • • • •	جمعية اخوان الجلادين
٩٣	• • • • •	مذهب جون ويزلي
٩٥	• • • • •	الطقوس الدينية لراسبوتين
٩٦	• • • • •	اساليب الماسونية الفرنسية
٩٨	• • • • •	تحول آثر كوستلر

١٠١ الفصل الثاني : طبيعة التحول

١٠٢	• • • • •	سيكولوجية الاستسلام النفسي
١٠٣	• • • • •	انتقاد اعمال بافلوف
١٠٥	• • • • •	دور الجنس والشعور بالاثم
١٠٦	• • • • •	ظواهر عملية التحول
١٠٧	• • • • •	حركة الاحياء الديني في نيو انجلند
١٠٩	• • • • •	حركة الاحياء في ولاية كنتوكي
١١٠	• • • • •	أثر الرقص واستخدام المشروبات الروحية والمخدرات
١١١	• • • • •	أثر الدوافع الغريزية الجنسية المكبوتة
١١٤	• • • • •	الصلة بين مضمون التحول والدين
١١٥	• • • • •	التحول الديني من وجهة نظر العالم النفسي

الباب الثالث

بين العلاج النفسي وطب الأمراض العقلية

١١٧-١٧٠

الفصل الأول : أساليب العلاج النفسي واستخدام

١١٩ العقاقير

١٢٠ التنويم المغناطيسي وقابلية الايحاء

١٢١	• • • • •	مسمر والمغناطيسية الحيوانية
١٢٢	• • • • •	نقد مول لأعمال مسمر
١٢٣	• • •	تقرير اللجنة الفرنسية لبحث أعمال مسمر
١٢٤	• • • • •	تقرير الجمعية الطبية الملكية
١٢٥	• • • • •	كيف تحدث حالة التنويم المغناطيسى
١٢٧	• • • • •	الظواهر الطبيعية للتنويم
١٣٥	• • • • •	التجريب
١٣٨	• • • • •	التحليل النفسى
١٣٩	• • • • •	الطبيب رازيس والأمير منصور
١٤٠	• • • • •	قصة ابن سينا
١٤١	• • • • •	المثيرات السيكلوجية
١٤٢	• • • • •	اكتشافات لفرويد
١٤٣	• • • • •	القضاء على الأنماط السلوكية العديمة
١٤٤	• • • • •	الأحداث الصناعى للأحلام
١٤٩	• • • • •	استخدام العقاقير فى العلاج النفسى
١٥٠	• • • • •	ظاهرتان متباينتان للاختلال العقلى
١٥١	• • • • •	رأى يونج
١٥١	• • • • •	هستيريا الفلق
١٥٢	• • • • •	أوجه التشابه بين نورستانيا الانسان والكلاب
١٥٣	• • • • •	استخدام البريتيوريت
١٥٤	• • • • •	استخدام الأنير
١٥٦	• • • • •	التقارير التى نشرت عام ١٩٤٥ عن استخدام العقاقير

١٦١ الفصل الثانى : الصدمات الحديثة وجراحة المخ

١٦٢	• • • • •	وسائل العلاج
١٦٣	• • • • •	التشنج الكامل

١٦٤	• • • • •	الصدمة الكهربائية وصدمة الأنسولين
١٦٥	• • • • •	الوسواس القهري
١٦٦	• • • • •	جراحة المخ
١٦٧	• • • • •	أثر جراحة المخ على شخصية الفرد
١٦٩	• • • • •	القضاء على المشاعر الدينية في الإنسان

الباب الرابع

وسائل الاستجواب

١٧١-٢٢٠

الفصل الأول : الاستجواب وخداع الاعتراف ١٧٣

١٧٤	• • •	الأساليب التي استخدمت في الكنيسة الكاثوليكية
١٧٦	• • • • •	أسلوب المحاكمة
١٨٠	• • • • •	قضية تيموثي ايفانز
١٨٢	• • • • •	اعتراف زائف
١٨٣	• • • • •	الأساليب المستخدمة في الدول الغربية
١٨٦	• • • • •	الوسائل النفسية لكشف الكذب
١٨٧	• • • • •	جهاز كشف الكذب
١٨٨	• • • • •	الاستجواب لدى الشيوعيين
١٩٩	• • • • •	الصراع في الرغبة بالاعتراف

الفصل الثاني : سيكولوجية وسائل كشف الكذب ٢٠١

٢٠٢	• • • • •	الساحر وقاتل رئيس القبيلة
٢٠٣	• • • • •	ابن سينا وعلاجه لاحدى الحالات النفسية
٢٠٤	• • • • •	جهود وليام جيمس ولانج

٢٠٦	• • • • •	الجهاز العصبي الذاتي
٢٠٧	• • •	أثر الانفعال الشديد على التوافق العقلي والعقلي
٢٠٨	• • • • •	جهاز كشف الكذب
٢٠٩	• • • • •	طريقة الاستخدام
٢١٠	• • • • •	تكنيك الاستخدام
٢١١	• • • • •	الاستجابات الفسيولوجية
٢١٣	• • • • •	مدى صلاحية جهاز الكشف عن الكذب
٢١٥	• • • • •	تقرير اينبو
٢١٦	• • • • •	فوائد جهاز الكشف عن الكذب
٢١٧	• • • • •	نقد طرق الكشف عن الكذب

الباب الخامس

الصراع الأيديولوجي

٢٢٢-٢٢٣

الفصل الأول : الأيديولوجيات ومعركة المعتقد ٢٢٣

٢٢٤	• • • • •	الصراع الأيديولوجي بين الاسلام واليهودية
٢٢٥	• • • • •	الدوافع وراء الحروب الصليبية
٢٢٦	• • • • •	حاكم التفتيش
٢٢٨	• • • • •	البروتستانت والكاثوليك
٢٢٩	• • • • •	أثر عقيدة الشوجون في تعبئة عقول اليابانيين
٢٣٠	• • • • •	الدعاية ضد ثورات الفلاحين في أوروبا الاقطاعية
٢٣١	• • • • •	الثورة الفرنسية
٢٣٤	• • • • •	الحرب الأهلية الاسبانية
٢٣٤	• • • • •	أيديولوجية الحزب النازي
٢٣٨	• • • • •	سمات العصر الحالي

الفصل الثاني : برنامج الاصلاح الأيديولوجي

٢٤١ لدى الصينيين

٢٤٢	• • • • •	الأسر والاقامة في المعسكرات المؤقتة
٢٤٥	• • • • •	الحياة في المعسكرات الدائمة
٢٤٧	• • • • •	معالم برنامج التثقيف
٢٤٨	• • • • •	تهيئة الجو للتبشير
٢٥١	• • • • •	المحاضرات والمناقشات
٢٥٤	• • • • •	المكافآت والعقوبات
٢٥٨	• • • • •	استغلال الدعاية
٢٥٩	• • • • •	حرب الميكروبات
٢٦٢	• • • • •	مدى نجاح برنامج التثقيف

٢٦٧ الفصل الثالث : توجيه الفكر

٢٦٨	• • • • •	اعادة التثقيف
٢٦٩	• • • • •	تقديم الاعتراف
٢٧٠	• • • • •	الدراسة والمناقشات
٢٧٢	• • • • •	التعبير تلقائيا عن ردود الفعل
٢٧٣	• • • • •	نقد الذات
٢٧٥	• • • • •	الهجوم على الرأسمالية
٢٧٧	• • • • •	حصيلة ناجحة لاصلاح الفكر
٢٧٩	• • • • •	اعتراف زائف
٢٨٠	• • • • •	اتهام الأب لوقا بالتجسس والتخريب
٢٨١	• • • • •	الاستجواب
٢٨٣	• • • • •	الاعتراف الأولى تحت وطأة الانهيار
٢٨٥	• • • • •	دور الإبحاء في الاعتراف

٢٨٧	• • • • •	الكفاح ضد خيانة الكنيسة •
٢٨٨	• • • • •	استخدام العنف •
٢٨٩	• • • • •	التدهور النفسى للأب لوقا •
٢٩٠	• • • • •	الاضطراب العقلى وأثره على الاعتراف •
٢٩١	• • • • •	اتجاه جديد •
٢٩٢	• • • • •	مبدأ المسؤولية الجماعية •
٢٩٧	• • • • •	الاعتراف النهائى •

الفصل الرابع : الثورة الثقافية البروليتارية

٢٩٩ الكبرى

٣٠٠	• • • • •	معنى الثورة •
٣٠١	• • • • •	الهدف من وراء المعركة •
٣٠٢	• • • • •	الصراع من أجل السلطة •
٣٠٣	• • • • •	مفهوم ماوتسى تونج عن الثورة والصراع الطبقي •
٣٠٤	• • • • •	دروس الثورة المجرية عام ١٩٥٦ •
٣٠٥	• • • • •	آراء شن يى •
٣٠٥	• • • • •	موقف رجال الفكر •
٣٠٦	• • • • •	حملات الإصلاح •
٣٠٧	• • • • •	خلق خلفاء الثورة وتدريبهم •
٣٠٨	• • • • •	أسبقية النواحي السياسية على المهنية •
٣٠٩	• • • • •	أسباب اختفاء لوجوى شنج •
٣١٠	• • • • •	دور لين بياو •
٣١١	• • • • •	حركات التطهير •
٣١٣	• • • • •	الاتهامات الموجهة لرجال الفكر •
٣١٣	• • • • •	تحليل للحملة القائلة •
٣١٤	• • • • •	الاختيار •
٣١٨	• • • • •	أثر التطورات على السياسة الداخلية والخارجية للصين •

الباب السادس

أسطورة العنصر

٣٤٦-٣٢٣

الفصل الأول : أسطورة زائفة ٣٢٥

٣٢٦	• • • • •	جنود المشكلة
٣٢٧	• • • • •	نكبة اللون
٣٢٨	• • • • •	الأساطير الخاصة بالتفوق العنصرى
٣٢٩	• • • • •	نشأة الأساطير العنصرية
٣٣٠	• • • • •	تقارير علماء الأجناس البشرية
٣٣١	• • • • •	المشكلة بين العالم المتقدم والمتخلف
٣٣٢	• • • • •	آثار الاستعمار على الشعوب الملونة
٣٣٣	• • • • •	القيم الروحية عند الشعوب الملونة

الفصل الثانى : بين ماضى بغيض ومستقبل باسم ٣٣٥

٣٣٥	• • • • •	الاستعمار والتفرقة العنصرية
٣٣٦	• • • • •	تجارة الرقيق
٣٣٨	• • • • •	سباق الاستعمار فى أفريقيا
٣٣٩	• • • • •	سياسات الدول الاستعمارية
٣٣٩	• • • • •	الاستعمار البريطانى
٣٣٩	• • • • •	الاستعمار الفرنسى
٣٤٠	• • • • •	الاستعمار البلجيكى
٣٤٠	• • • • •	الاستعمار البرتغالى
٣٤١	• • • • •	أثر التوسع الاستعمارى على اقتصاد الغرب
٣٤٢	• • • • •	انطلاقة التحرر

الباب السابع

السحر وسطوته على العقل

٣٨٤-٣٤٧

٣٤٩ الفصل الأول : السحر وسطوته على العقل

٣٥٠	• • • • •	السحر الفطري
٣٥١	• • • • •	الطابع الاجتماعي للسحر
٣٥٢	• • • • •	مبادئ السحر وأساسه
٣٥٣	• • • • •	التعويدة
٣٥٤	• • • • •	الطقوس أو الشعائر
٣٥٥	• • • • •	حالة الساحر
٣٥٥	• • • • •	لب قوة السحر أو جوهره
٣٥٧	• • • • •	أزمات الحياة
٣٥٧	• • • • •	مانا والطقوس
٣٥٨	• • • • •	السحر والعلم البدائي
٣٦٢	• • • • •	استمرار الاعتقاد بقوة السحر
٣٦٤	• • • • •	قيمة السحر للإنسان
٣٦٤	• • • • •	السحر في مصر القديمة
٣٦٦	• • • • •	البيئة السحرية في المسيحية
٣٧١	• • • • •	مدرسة الكابالا اليهودية
٣٧٦	• • • • •	السحر عند ابن خلدون
٣٧٨	• • • • •	مراتب النفوس الساحرة
٣٧٩	• • • • •	الفرق بين السحر والطلسمات
٣٧٩	• • • • •	الفرق بين المعجزة والسحر
٣٨٠	• • • • •	السحر في القرآن

الباب الثامن

ألوان زائفة من المعتقدات

٤٢٢-٣٨٥

٣٨٧ الفصل الأول : ألوان زائفة من المعتقدات

- ٣٨٩ الولاية والاعتقاد في الأولياء
- ٣٩٠ أسطورة القطب
- ٣٩١ الأماكن المحيية للقطب
- ٣٩٣ تمجيد الأولياء الموتى
- ٣٩٤ حق الشفاعة بدعة فاطمية
- ٣٩٦ الموالد
- ٣٩٧ رأى الجبرتي
- ٤٠٠ الممارسة الدينية للمريد
- ٤٠٢ ضرب الزار
- ٤٠٣ قصص عن ضرب الزار
- ٤٠٥ ارتباط الزار بغسيل المخ
- ٤٠٦ الأثر الفسيولوجي لضرب الزار
- ٤٠٧ طفوس الاحتفال
- ٤١٠ الزار وسيلة من وسائل التفريغ الانفعالي
- المقارنة بين أسلوب الرقص الديني واستخدام الصدمات
- ٤١٢ الكهربائية
- ٤١٤ الادمان على المخدرات
- ٤١٥ استخدام المخدرات للتأثير على معتقدات الناس

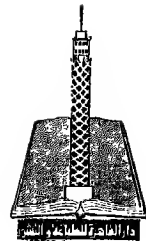
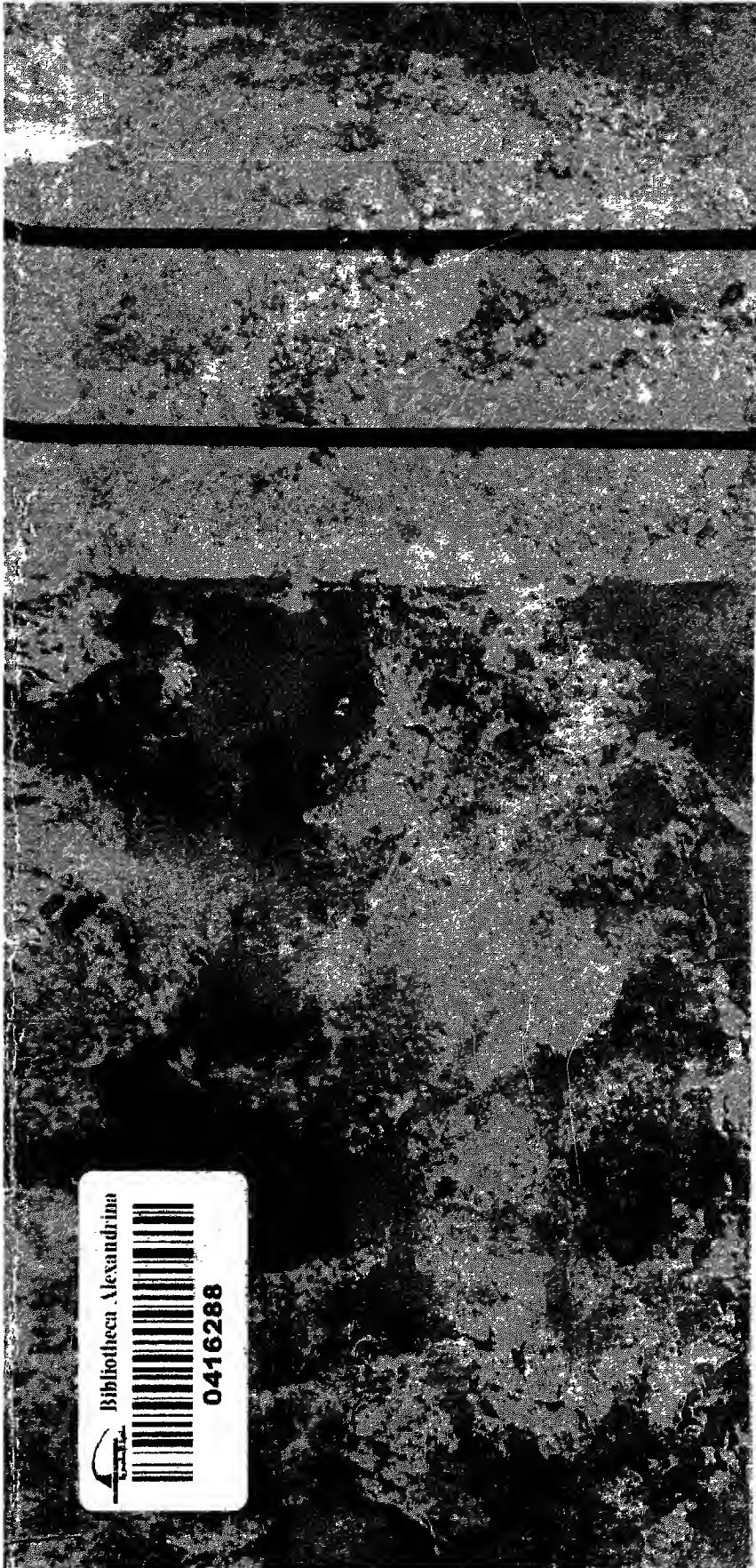
٤١٧	• • • • • تأثير المخدرات على الانسان
٤١٨	تدخين الحشيش
٤١٩	الادمان على الافيون
٤٢٠	الادمان على المورفين
٤٢١	تعاوى الهيروين والكوكايين

نتائج ختامية

٤٢٣-٤٥٢

تم بحمد الله

حقوق الطبع محفوظة



الثلث ٨٠ قرشاً